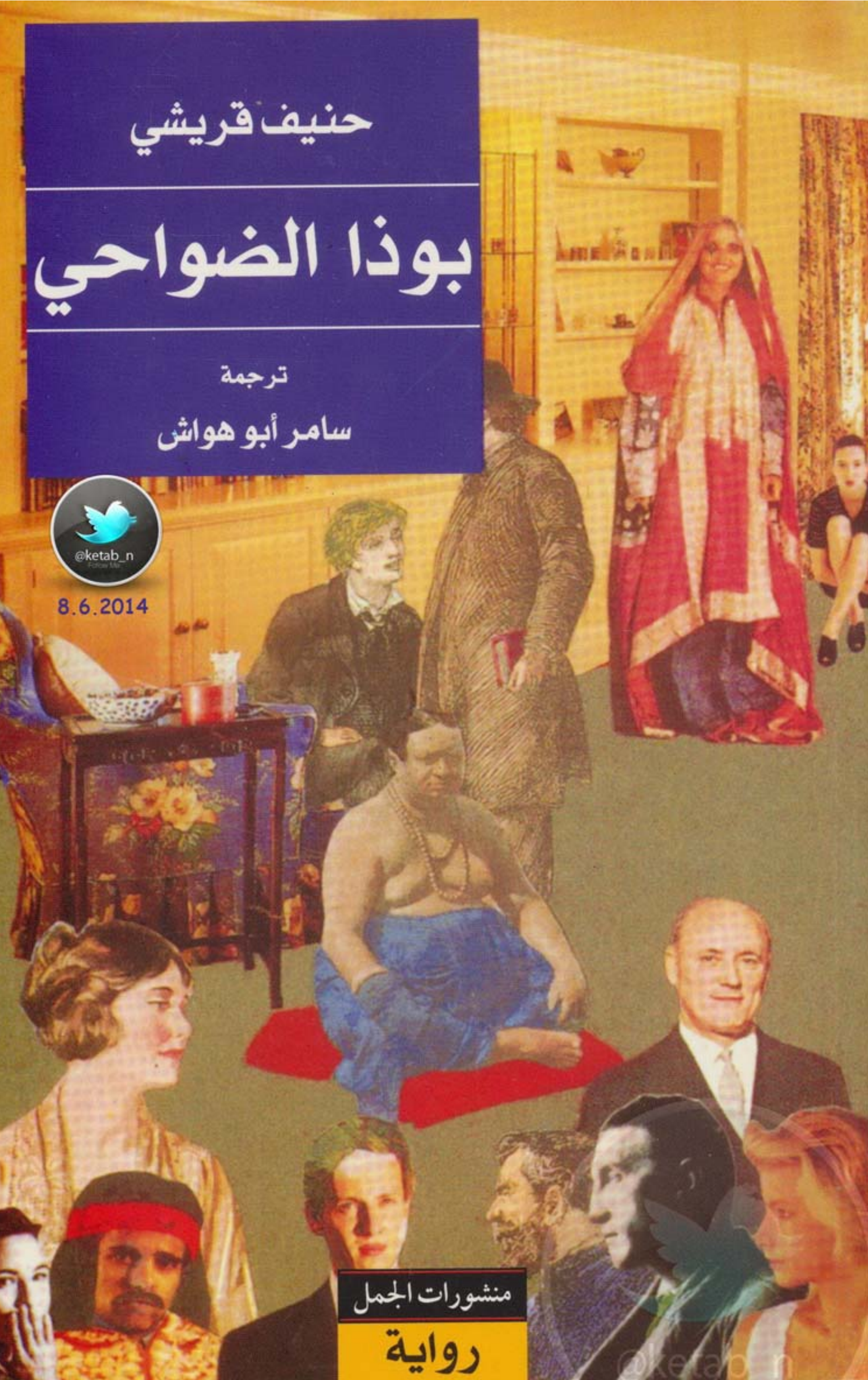

حنيف قريشي
بوذا الضواحي
ترجمة
سامر أبو هواش
@ketab_n
8.6.2014
منشورات الجمل
رواية

حنيف قريشي



بوذا الضواحي

رواية

ترجمة

سامر أبو هواش

منشورات الجمل

حنيف قريشي: بوذا الضواحي

ولد **حنيف قريشي** في الخامس من ديسمبر ١٩٥٤ في لندن، لمهاجر باكستاني وأم إنكليزية. عانى باكراً بوصفه «حصيلة تلاقح تاريخين قديمين»، كما يقول على لسان بطله في بداية «**بوذا الضواحي**»، محنة العنصرية وصراع الثقافات، ليقرّر في لحظة ما «إنكار» أصله الباكستاني الذي بات يمثّل بالنسبة إليه «لعنة أردت التخلص منها، لانني أردت أن أكون كالجميع». غير أن هذا المزيج نفسه، بما حمله من معاناة وتأملات وتطلعات، أصبح المصدر الأساسي الذي اغترف منه قريشي، ولا يزال، مادته الكتابية السردية والسينمائية.

في العام ١٩٨٥ رشح سيناريو فيلم «**مغسلتي الصغيرة الرائعة**»، الذي وضعه قريشي، إلى نيل جائزة أفضل سيناريو في الاوسكارات الاميركية، ونال جائزة «نقاد نيويورك»، ليفتح باب الشهرة واسعاً أمام قريشي، وليشرع أيضاً في وجهه باب السجال والاحتجاج، حيث رأى بعضهم في تصويره للباكستانيين (عبر قصة مهاجر هندي يقع في غرام رجل إنكليزي أبيض)، تشويهاً لصورتهم ونمط عيشهم، وهذه الناحية يتطرق إليها قريشي كذلك في «بوذا الضواحي». بعدها كتب سيناريو فيلم «سامي وروزي يتضاجعان»، الذي أثار جدلاً بسبب عنوانه، لكنه لم ينل الكثير من التقدير والاهتمام. ليعود بعدها بقوة عبر روايته «**بوذا الضواحي**» عام ١٩٩٠، وليفوز عنها بجائزة «وايتبرد بوك» في العام نفسه.

كتب قريشي الاخرى تتضمن: «**الألبوم الأسود**» (١٩٩٥)، «**حميمية**» (٢٠٠١)، «**السيناريوات الكاملة**» (٢٠٠٢)، «**الجسد**» (٢٠٠٣)، «**الأم**» (٢٠٠٣)، «**الأذن على قلبه**» (٢٠٠٤)، «**الكلمة والقنبلة**» (٢٠٠٥)، وغيرها.

ولد **سامر أبو هواش** عام ١٩٧٢ بصيدا ـ لبنان. درس الإعلام والصحافة بالجامعة اللبنانية ١٩٩٦. كاتب وصحافي ومترجم. له العديد من الاعمال الشعرية والروائية والترجمات الادبية، منها: **الحياة تطبع في نيويورك**، شعر، بيروت ١٩٩٦؛ **تحية الرجل المحترم**، شعر، بيروت ١٩٩٩؛ **تذكّر فالنتينا**، شعر، بيروت ٢٠٠١؛ **جورنال اللطائف المصورة**، نص، بيروت ٢٠٠٣؛ **نُزل مضاء بيافطات بيض**، شعر، بيروت ٢٠٠٥؛ **راديو جاز برلين**، شعر، بيروت ٢٠٠٥؛ **شجرتان على السطح**، شعر، بيروت ٢٠٠٥؛ كما يترجم سلسلة شعرية صدر منها ثماني مجموعات ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤. صدر له عن منشورات الجمل: **عيد العشاق**، رواية، ٢٠٠٥؛ **السعادة**، رواية، ٢٠٠٧؛ **يان مارتل**: **حياة باي**، رواية ٢٠٠٦؛ **جان كرواك**: **على الطريق**، رواية، ٢٠٠٧.

حنيف قريشي: بوذا الضواحي، رواية، ترجمة: **سامر أبو هواش**

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

Hanif Kureishi: The Buddha of Suburbia

First published in 1990 By Faber and Faber Limited

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

الجزء الأول

في الضواحي

الفصل الأول

اسمي كريم أمير، وأنا إنكليزي المولد والنشأة(*)، تقريباً. غالباً ما أُعتبر نوعاً غريباً من الإنكليز، نتاج نسل جديد، حصيلة تلاقح تاريخين قديمين. لكن هذا آخر همّي. إنكليزي أنا (ولو لم أكن فخوراً بذلك) من ضواحي ساوث لندن(**)، ومتجه إلى مكان ما. ولعلّه ذلك الخليط الغريب من القارات والأعراق والأمكنة، من الانتماء وعدمه، هو ما يجعلني متقلقلاً وملولاً. أو لعلها نشأتي في الضواحي. ولكن لماذا البحث عميقاً في المسألة، حين يكفي القول إنني كنت أسعى وراء المشكلات، وراء أي نوع من الحركة والإثارة والتجارب الجنسية، لأن حياتنا العائلية كانت ـ لسبب أجهله ـ بالغة البطء والكآبة والثقل، وكان ذلك يحبطني، وكنتُ مستعداً لفعل أي شيء.

ثم، ذات يوم، تغيّر كل شيء. كانت الأمور مستقرّة في الصباح على حال، وانعطفت ليلاً في اتجاه آخر. لقد بلغت السابعة عشرة. وفي ذلك اليوم عاد أبي مهرولاً من عمله، ولم يكن مكتئب المزاج. كانت رائحة القطار لا تزال عالقة في ثيابه، وهو يركن حقيبة يده وراء

(*) يستعمل قريشي تعبير born and bred: الذي يطلق على شخص ولد وتعلّم في بيئة محلية أو ضمن طبقة اجتماعية محددة، بما يعني أنه إنكليزي أصلي، وليس طارئاً أو مهاجراً حديثاً.

(**) ساوث لندن: هي الجزء من العاصمة البريطانية لندن، الذي يقع إلى الجنوب من نهر «تايمز»، وهي منطقة سكنية غالباً، أما المراكز والمؤسسات الحكومية والاقتصادية فتقع إلى شمال النهر، ما يصطلح على تسميته غرب أو سنترال لندن. وحين يتحدث قريشي في الرواية عن الانتقال إلى لندن، فهو يعني قلب المدينة تحديداً.

الباب، ويخلع ممطره، ويطرحه فوق قاعدة الدرابزين. ثم أمسك بأخي الصغير علي ـ الذي حاول التملّص منه ـ وقبّله، ثم قبّلني أنا وأمي بحرارة فائقة، كما لو أننا قد نجونا تواً من هزة أرضية. ثم بطريقة أكثر اعتيادية ناول أمي عشاءه: رزمة من الكباب وخبز «تشوباتي»(*)، وكان الخبز مدهناً إلى حدّ أن الغلاف الورقي الذي لفّ به قد تفّتت. بعدها، وبدلاً من أن يرتمي على أحد المقاعد قبالة التلفزيون ليشاهد نشرة الأخبار، بانتظار أن تسخّن له أمي الطعام وتفرشه على الطاولة، اتجه إلى غرفة نومهما، في الطابق السفلي بجوار غرفة الجلوس، وجعل يتعرّى بسرعة، حتى صار بثيابه الداخلية فقط.

«أحضر لي البشكير الزهر».

جلبته له. ففرده على الأرض وركع عليه، وتساءلت ما إذا كان قد صار فجأة ملتزماً دينياً، لكنه لم يشرع في الصلاة، بل وضع ذراعيه إلى جانبي رأسه وشقل نفسه بالمقلوب في الهواء.

«يجب أن أتمرّن»، قال بصوت مخنوق.

«تتمرّن من أجل ماذا؟»، سألته، متفرجاً على ما يفعله باهتمام وريبة.

«لقد دُعيتُ إلى المشاركة في ألعاب اليوغا الأولمبية». ها قد أصبح أبي محباً للسخرية، فكّرت.

صار الآن قائماً على رأسه، موازناً نفسه بشكل ممتاز، بينما تكوّمت معدته إلى الأسفل، وبرز قضيبه وخصيتاه من كلسونه في كومة واحدة، وانتفخت العضلات الضخمة في ذراعيه، وجعل يتنفس بنشاط. صحيح أن أبي، على غرار كثير من الهنود، كان ضئيل الجسم، لكنه كان أيضاً أنيقاً ووسيماً، ورقيقَ اليدين والحركة، ومقارنة به فإن معظم الرجال الإنكليز كانوا أشبه بزرافات خرقاء. وكان عريض الصدر وقوياً كذلك،

(*) «تشوباتي»: نوع من الخبز الهندي يصنع من الطحين الأبيض والماء والملح.

إذ أمضى ردحاً من شبابه يلعب الملاكمة، وكان مهووساً أيضاً بتمارين تضخيم الصدر، حتى أن افتخاره بصدره هذا، لم يكن ليقلّ عن افتخار جيراننا بسعة مطبخهم. كان عندما ينهض من النوم فجراً يخلع قميصه ويفشخ بخطوات واسعة إلى الحديقة حاملاً كرسيه القماش القابل للطيّ، وعدداً من مجلة «نيو ستايتسمان». وقد أخبرني ذات مرة أنه في الهند كان يواظب على حلاقة شعر صدره، حتى يضمن نموه بكثافة أكبر خلال السنوات التالية. وأحسب أن صدره هو المنطقة الوحيدة في حياته التي أجرى فيها بعض الحسابات المستقبلية.

بعد فترة وجيزة، دخلت أمي ـ التي كانت في المطبخ كعادتها ـ ورأته يتمرن، وبما أنه كان قد انقطع عن ذلك منذ أشهر، فقد عرفت أن ثمة أمراً قد استجد. كانت ترتدي وزرة مزينة بالورود، ماسحة يديها تكراراً بمنشفة شاي، كانت اشترتها كتذكار من قصر «ووبرن آبي» التاريخي. كانت أمي ممتلئة الجسم وغير رياضية، ووجهها مستدير وشاحب وعيناها بنيتان وادعتان، وكان يخيّل إليّ أنها تعامل جسمها ككائن غريب يحيط بها، كما لو كانت عالقة وسط جزيرة صحراوية نائية. وكانت أغلب الأحيان خجولة ومذعنة، لكن حين تغضب تصبح عدائية وعصبية، وتلك كانت حالها في تلك اللحظات.

«علي، انصرف إلى سريرك»، صاحت بأخي، حين رأته ماداً رأسه من الباب، واضعاً تلك الشبكة على رأسه حتى لا ينفش شعره خلال النوم. ثم خاطبت أبي: «يا ربي، يا هارون كيف تترك بضاعتك مكشوفة هكذا، بحيث يمكن أن يراها الجميع». والتفتت نحوي: «أنت تشجعه على هذا. أسدل الستارة على الأقل!».

«لا ضرورة لذلك يا أماه. لا بيوت تشرف علينا لمئة ياردة ـ إلا إذا كانوا يستعملون المنظار».

«وهذا بالضبط ما يفعلونه».

أسدلتُ ستارة النافذة المطلة على الحديقة الخلفية، فتبدّت الغرفة فوراً أصغر حجماً. شعرت بازدياد التوتر. وما عدت أطيق صبراً للخروج من البيت. كنت، لسبب أجهله، دائم الرغبة في الذهاب إلى مكان آخر.

حين نطق أبي جاء صوته رفيعاً وثقيلاً.

«كريم، اقرأ لي بصوت واضح من كتاب اليوغا».

هرعت وجئت بكتابه المفضل، «اليوغا للنساء»، الذي يتضمن صوراً لنساء رشيقات تلتصق ثيابهن السوداء بقاماتهن الممشوقة، وهذا الكتاب هو واحد من مجموعة كتبه حول الصوفية والبوذية والكونفوشوسية والزن، التي كان يشتريها من المكتبة الشرقية في شارع «سيسيل كورت»، بالتقاطع مع «تشارينغ كروس رود». قرفصت قربه حاملاً الكتاب. شهق، ثم حبس أنفاسه، ثم زفر وحبس أنفاسه. ولم أكن بالقارئ السيء، وتخيّلت نفسي واقفاً على خشبة مسرح «أولد ڤيك»، قارئاً بصوتي المهيب: «إن السالامبا سيرساسانا تحيي روح الشباب وتحفظها، وهي ثروة لا تقدّر بثمن. إنه لمن الرائع أن تعرف أنك قادر على مواجهة الحياة، وعلى أن تستخلص منها الفرح الحقيقي».

راح يهمهم استحساناً لكل جملة أقولها، ثم فتح عينيه، بحثاً عن أمي التي كانت مغمضة العينين.

استأنفت القراءة: «هذه الوضعية تحول أيضاً دون تساقط الشعر، وتحميه من المشيب».

وتلك كانت الذروة: يمكن تفادي الشيب! نهض أبي مفعماً بالرضى وارتدى ملابسه.

«أشعر أنني أفضل حالاً. أشعر أنني أتقدّم في السن، أترين». ثم نغّم صوته: «بالمناسبة يا مارغريت، هل سترافقينني إلى منزل السيدة

كاي الليلة؟». فهزّت رأسها بالنفي: «هيا حبيبتي، لمَ لا نخرج ونمضي وقتاً ممتعاً معاً؟».

«لكنني لست من تريد السيدة إيڤا رؤيته، إنها تتجاهلني، ألا ترى ذلك؟ إنها تعاملني كما لو كنت روث كلب يا هارون. لستُ هندية بما فيه الكفاية لأنال إعجابها، لست سوى امرأة إنكليزية».

«أعرف أنك مجرد إنكليزية، لكن يمكنك ارتداء الساري»، أجابها ضاحكاً. كان يحبّ مثل هذا المزاح الاستفزازي، لكنها لم تكن من النوع الذي يتفاعل مع المزاح، ولا تعرف أنه يفترض بالمرء أن يردّ على كلام كهذا بالضحك.

«هذه الليلة ستشهد أيضاً مناسبة خاصة»، قال أبي.

من الواضح أن هذا ما كان يرمي إليه منذ البداية. راح ينتظر أن نسأله عن ماهية هذه المناسبة الخاصة.

«ما هي يا أبتاه؟».

«مثلما تعرفون، لقد طلبوا مني بكل تهذيب أن أشرح لهم ناحية أو اثنتين من الفلسفة الشرقية».

قال ذلك بسرعة، محاولاً أن يخفي مدى اعتزازه بهذا التشريف، هذا الدليل على أهميته، بأن شغل نفسه بتزرير صديريته. شعرت أنها فرصتي السانحة.

«سأرافقك إلى منزل إيڤا إذا ما رغبت بذلك. كنت أعتزم الذهاب إلى نادي الشطرنج، لكنني سأضحي بذلك، إذا ما أردتني أن أرافقك».

قلت ذلك ببراءة كاهن، لأنني لم أرد أن أفسد الأمر بأن أظهر متحمساً جداً. فقد علمتني الحياة أنه حين يراك الآخرون متحمساً، تفتر حماستهم هم، والعكس صحيح. لذا كلما ازدادت رغبتي بأمر ما، تصنّعت بروداً أعظم حياله.

رفع أبي قميصه وراح يطرطق بسرعة بيديه الإثنتين على بطنه العارية. وكان الصوت مدوياً ومزعجاً، وتردّد في أرجاء المنزل كطلقات الرصاص.

«حسناً»، قال أبي، «لقد تغيّرت يا كريم»، والتفت إلى أمي. كان يريدها أن ترافقه، لكي تشاهده وهو يُحترم من قبل الآخرين، «لو أنك تقبلين بالمجيء يا مارغريت».

هرعتُ إلى غرفتي في الطابق العلوي لأبدّل ملابسي. وأمكنني سماعهما من هناك، عبر الجدران المزينة من السقف إلى الأرض بأوراق الصحف، وهما يتجادلان في الأسفل. هل سيقنعها بمرافقته؟ تمنيت ألا يفلح في ذلك، فهو يكون أكثر مرحاً بعيداً عنها. وضعت إحدى تسجيلاتي المفضلة، أسطوانة بوب ديلان «بوسيتيڤلي فورث ستريت»، لكي أتهيأ لمزاج السهرة.

استغرقني الأمر أشهراً: بدّلت ثيابي ثلاث مرات، وأخيراً عند الساعة السابعة نزلت الدرج، لابساً ما ارتأيت أنها الثياب المناسبة لسهرة إيڤا: بنطال فيروزي اللون واسع الرجلين، وقميص أبيض وأزرق شفاف، وحذاء شامواه أزرق ذو كعبان كوبيان، ومعطف وصديري هندي مخملي مذهّب الحواف. وعصبت شعري المسترسل إلى كتفي، وغسّلت وجهي بعطر «أولد سبايس».

كان أبي بانتظاري عند الباب، واضعاً يديه في جيبيه، لابساً كنزة «بولو»، وسترة جلدية سوداء مقلّدة، وبنطال «ماركس أند سبنسر». حين رآني راعه منظري.

«قل وداعاً لأمك».

كانت في غرفة الجلوس تشاهد مسلسل «ستبتو وولده»، وتقضم حلوى «والنت ويب»، الموضوعة على الحشية المستديرة أمامها. كان ذاك طقسها الاعتيادي: تسمح لنفسها بقضمة كل ربع ساعة، ثم تروح تنقّل عينيها باستمرار بين الساعة والتلفزيون. وأحياناً ينفد صبرها فجأة

فتأتي على الحلوى كلها بدقيقتين. «أستحق حلواي هذه»، تقول دفاعاً عن نفسها.

حين رأتني أجفلت هي الأخرى.

«لا تفضحنا يا كريم»، قالت، وعيناها على التلفزيون، «إنك تشبه داني لا رو»(*).

«ماذا عن خالتي جين، إذاً؟»، رددت، «لقد صبغت شعرها باللون الأزرق».

«ليست مشكلة إذا ما صبغت النساء البالغات شعورهن بالأزرق».

خرجت وأبي من المنزل بأقصى سرعة. وبينما ننتظر عند زاوية الشارع الحافلة ٢٢٧، مرّ أحد أساتذتي. كنت أسميه «سيكلوب»، لأن له عيناً واحدة. وخاطبني سيكلوب: «لا تنسَ، إن الشهادة الجامعية تعادل ٢٠٠٠ باونداً شهرياً لمدى الحياة!».

«لا تقلق»، أجابه أبي «سيذهب إلى الجامعة، آه بلى. وسيصبح طبيباً مهماً في لندن. لقد كان أبي طبيباً. إن الطب يجري في عائلتنا».

لم يكن منزل آل كاي بعيداً، نحو أربعة أميال فقط، لكن كان يستحيل على أبي الوصول إلى هناك من دوني. فانا أعرف كل الشوارع وكل مسارات الحافلات، ومع أن أبي يقيم في بريطانيا منذ بداية الخمسينات، أي منذ أكثر من عقدين ـ أمضى خمس عشرة سنة منها هنا، في ضواحي ساوث لندن، فهو يتوه في المدينة مثل هندي وصل تواً إلى البلاد(**)، طارحاً على المارة أسئلة من قبيل «هل يقع ميناء

(*) داني لا رو (١٩٢٧): ممثل بريطاني كوميدي مثلي الجنس كان يقلّد غالباً شخصيات نسائية.

(**) يستعمل قريشي تعبير «ترجّل تواً من القارب»: Just Off The Boat، وهو تعبير عامي يختصر بكلمة «فوبيش» أو «فوبي»، فيه تحامل عنصري على المهاجرين الذين لم يندمجوا في المجتمعات الجديدة، والمفارقة أن التعبير أطلق بداية لوصف المهاجرين الأوروبيين الوافدين إلى أميركا.

دوفر في كنت؟». وكنت أرى أنه يجدر به، بوصفه موظفاً مدنياً لدى الحكومة البريطانية، وعلى الرغم من تفاهة منصبه الوظيفي وضآلة راتبه، أن يكون ببساطة عارفاً بمثل هذه الأشياء، مما كان يجعلني أتصبّب عرقاً من شدة الخجل حين يستوقف الغرباء في الشارع، ليسألهم عن الاتجاه إلى مكان يبعد عنه مئة ياردة، في منطقة يعيش فيها منذ نحو عقدين من الزمن.

لكن سذاجته هذه كانت تجعل الناس يتصرفون تجاهه بحسّ أبوي، أما النساء فكن ينجذبن إلى براءته، ويبدين راغبات باحتضانه، بعد أن يرين على وجهه ملامح الضياع الطفولي. وكان في أحيان كثيرة يتعمّد ذلك ويستغله. حين كان يصحبني في صغري إلى «ليونز كورنر هاوس»، لنحتسي «الميلك شايك»، كان يرسلني كحمامة زاجلة إلى النساء الجالسات إلى طاولات أخرى لأعلن لهن: «أبي يرغب بتقبيلك».

تعلمت من أبي مغازلة الجميع، الصبيان والبنات على حدّ سواء، وصرت مقتنعاً أن الفتنة الشخصية، لا الرصانة ولا النزاهة ولا حتى اللياقة، هي أولى المواهب الاجتماعية، حتى أنني صرت أعجب بالأشخاص الغلظاء أو الرذلاء شرط أن يكونوا مثيرين للاهتمام. لكنني متأكد من أن أبي لم يستعمل كاريزماه اللطيفة هذه لكي يضاجع أي امرأة، خلا أمي.

ومع ذلك، فقد تنامى في داخلي شكّ بأن السيدة إيڤا كاي التي تعرفت إلى أبي قبل سنة في صف «الكتابة للمتعة» في الطابق العلوي من حانة «كينغز هيد» في «بروملي هاي ستريت» كانت تضع عينها عليه. ولقد كان فجورها الصريح من أسباب رغبتي بالذهاب إلى منزلها، أما الحرج فكان من أسباب أمي. كانت إيڤا كاي امرأة جسورة ووقحة وشريرة.

في الطريق إلى منزلها أقنعت أبي بأن نتوقف عند حانة «ثري تانز» في «باكنهام». سبقته بالترجل من الحافلة، فلم يعد من خيار أمامه إلا أن يتبعني. كان المرقص مليئاً بالفتية المتأنقين مثلي، من مدرستي ومن مدارس أخرى في المنطقة، ومعظمهم، ممن تكون أشكالهم عادية خلال النهار، كانت تجري على أجسادهم شلالات من الساتان والمخمل والألوان المبهرجة، وحتى أن بعضهم كان يرتدي الشراشف والستائر. وكان معظم حديثهم عن سيد باريت(*). أن يكون أخوك الأكبر مقيماً في لندن، ويعمل في مجال الموضة، أو الموسيقى أو الإعلانات، كان من شأنه أن يمنحك، بين أترابك في المدرسة، امتيازاً لا يقدّر بثمن. فوجدت نفسي مضطراً إلى أن أقرأ بتمعّن مجلتي «ميلودي مايكر» و«نيو ميوزيكال إكسبرس»(**)، لكي أتمكن من مجاراة زملائي.

سقت أبي من يده إلى الصالة الخلفية. وكان كيفن آيرز وهو عضو في فرقة «سوفت ماشين»، جالساً على كرسي بلا ظهر هامساً في الميكروفون، وترافقه فتاتان فرنسيتان ظلتا تهويان على المنصة. احتسى كل منا زجاجة بيرة. ولم أكن معتاداً على الكحول فثملت فوراً، أما أبي فاعتلّ مزاجه.

«إنني مستاء من أمك»، قال «لا تشاركني الأشياء. هذه العائلة لا تزال متماسكة بجهدي الخالص. لا عجب في حاجتي الدائمة إلى رياضة التأمل غير المجهدة حتى أحافظ على صفائي الذهني».

اقترحت عليه على سبيل المساعدة: «لم لا تطلقان؟».

(*) روجر كيث «سيد» باريت (١٩٤٦ ـ ٢٠٠٦): مغن وعازف غيتار إنكليزي.

(**) «ميلودي مايكر» و«نيو ميوزيكال إكسبرس»: مجلتان موسيقيتان معروفتان في بريطانيا. الأولى أنشئت في ١٩٢٩ (أقفلت عام ٢٠٠٠)، واختصت بموسيقى الجاز، أما الثانية فأنشئت في ١٩٥٢ مستغلة ضعف الأولى في التجاوب مع موسيقى الروك أند رول، وتعتبر ممثلة «حقبة البانكيز على صعيد الموسيقى.

«لأن ذلك لن يروق لكما».

لكن الطلاق لم يكن بالأمر الوارد بالنسبة إليهما. ففي الضواحي نادراً ما يفكر الناس في السعي وراء سعادتهم. حياتهم برمتها تقوم على الاعتياد والاستمرارية: الإحساس بالأمن والأمان هو هبة البلادة. أطبقت قبضتي بشدة تحت الطاولة. لم أشأ التفكير في الأمر. ستلزمني سنوات قبل أن أتمكن من مغادرة الضواحي إلى المدينة، إلى لندن، حيث الحياة، بكل مغرياتها، لا قاع لها.

«أنا متوجس من هذه الليلة»، قال أبي، «لم أفعل شيئاً كهذا من قبل. لا أعرف شيئاً. سوف أخفق».

كان آل كاي أفضل حالاً منا بكثير، كان منزلهم أكبر، يشتمل على طُرقة صغيرة ومرأب وسيارة، ويقع منفرداً في طريق اصطفت بالأشجار قريباً من «بكنهام هاي ستريت»، وفيه أيضاً نوافذ ناتئة إلى الخارج، وعلية، ومستنبت، وثلاث غرف، وتدفئة مركزية.

لم أعرف إيڤا كاي حين استقبلتنا عند الباب، ولوهلة حسبتنا أخطأنا في العنوان. كانت ترتدي فقط كفتاناً طويلاً ملوناً، وكان شعرها مشرعاً في كل الاتجاهات، وعيناها مكحلتين، فبدت شبيهة بدب الباندا. وكانت حافية القدمين، فبرز طلاء أظافرها المتسلسل بين الأخضر والأحمر.

حين أقفل الباب وراءنا ودلفنا إلى الصالة المعتمة، عانقت إيڤا أبي وطبعت قبلات عدة على وجهه، بما في ذلك شفتيه. كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها أحدهم يقبّله بمثل تلك الحرارة. أما المفاجأة الحقيقية فكانت غياب السيد كاي. وحين انتقلت إيڤا إلي، كانت أشبه برشاش محاصيل بشري، يضخ عطراً شرقياً. كنت أحاول أن أخمّن ما إذا كانت إيڤا هي الشخص الأكثر تعقيداً الذي التقيته، أم الأكثر ادعاء، حين طبعت قبلة على شفتي أيضاً. وأحسست بضيق في معدتي، ثم

راحت تتأملني من فوق إلى تحت، وهي تمسك بي، كأنني معطف ستجرب ارتداءه، وقالت لي «كريم أمير إنك إكزوتي جداً، مبتكر جداً! يا لها من هبة! هذه الثياب تعبّر كثيراً عنك!».

«شكراً سيدة كاي، لو كان لديّ المزيد من الوقت لكنت تأنقت للمناسبة».

«من دون أن ننسى ظرف أبيك الرائع والساحق أيضاً».

أحسست أن أحدهم يراقبني، وحين نظرت إلى أعلى رأيت ابنها تشارلي، الذي كان في مدرستي في الصف السادس، ويكبرني بنحو سنة، جالساً أعلى الدرج، متوارياً جزئياً بالدرابزين. كان فتى أنعمت عليه الطبيعة بقدر كبير من الوسامة: أنف شديد الاستقامة، ووجنتان مجوفتان جداً، وشفتان ورديتان، بحيث أن الناس كانوا يخشون الاقتراب منه، فكان يمضي معظم الوقت وحيداً. كانت تنتعظ ذكور الرجال والفتيان لمجرد وجودهم معه في الغرفة نفسها، وآخرون كانوا يعيشون التجربة نفسها لمجرد وجودهم معه في البلد نفسه. أما النساء فكن يتنهدن في حضوره، ويشتاط المعلمون غيظاً وغيرة. قبل بضعة أيام، خلال اجتماع المدرسة، كان أعضاء المجلس التعليمي يفترشون المنصة كسرب من الغربان، وراح المدير يسهب في امتداح ڤوغان وليمز(*)، الذي سنسمع أغنيته «فانتازيا أون غرين سليفز». وبينما يضع معلم الدين المدعو بيد، إبرة الفونوغراف على أسطوانة وليمز القديمة، بدأ تشارلي الواقف في الصف نفسه حيث أقف فيه، يهزهز رأسه ويهمس: «اسمعوا هذا... اسمعوا هذا أيها الحمقى»، «ما الذي يجري؟»، جعلنا نتساءل. فبينما ألقى المدير رأسه إلى الوراء لكي يستمتع بالاستماع إلى موسيقى وليمز الدمثة، كانت بدأت الهمسات

(*) فوغن وليامز (١٨٧٢ ـ ١٩٥٨)، موسيقي بريطاني فولكلوري.

الافتتاحية لأغنية «كام توغزر»(*) تصدح عبر مكبرات الصوت. وبينما شقّ الأستاذ بيد طريقه بين الأساتذة الآخرين لكي يبدّل الأسطوانة، كان نصف المدرسة بدأ يغني الكلمات «غروف إت أب سلولي... هي غات جو جو آي بالز... هي غات هاير داون تو هيز نيز...». بسبب فعلته هذه ضُرب تشارلي فلقة أمامنا جميعاً.

الآن ها هو تشارلي يحيّيني بأن أخفض رأسه بنسبة جزء من الألف من الإنش. وكنت، في طريقي إلى بيت إيڤا، قد استبعدته من تفكيري، إذ لم أكن لأصدق أن أجده هناك، ولذلك مررت بـ «ثري تانز»، أملاً في أن أجده هناك يحتسي كأساً مبكرة.

«تسرّني رؤيتك يا رجل»، خاطبني وهو يهبط الدرج ببطء.

عانق أبي وخاطبه باسمه الأول. أيّ ثقة بالنفس وأسلوب خاص كانا لديه، في تلك اللحظات، كعهدي به دائماً. وحين انضم إلينا في غرفة الجلوس جعلت أرتعش من شدة الإثارة. لم يكن الأمر كذلك في نادي الشطرنج.

لطالما اعتبرت أمي إيڤا امرأة استعراضية وثرثارة، وحتى أنني لاحظت أنها على قدر ما من السخف أيضاً، لكنها كانت الشخص الوحيد فوق سنّ الثلاثين الذي يمكنني التحدث إليه. كانت غالباً ما تكون رائقة المزاج أو شغوفة بشيء ما، وعلى الأقل لم تكن تكبت مشاعرها، على عكس الأحياء الموتى البائسين من حولنا. كانت تحب أسطوانة «رولنغ ستونز» الأولى، وتثيرها «فرقة ثيرد إير باند»، وتؤدي رقصات إيزادورا دانكَن(**) في صالون منزلنا، وأخبرتني من هي إيزادورا وما سرّ ولعها بالأوشحة، كما أنها حضرت آخر حفلات فرقة

(*) «تعالوا معاً» أو «كام توغزر»: الأغنية الرئيسية في شريط البيتلز «آبي رود، ١٩٦٩».

(**) إيزادورا دانكن (١٨٧٧ ـ ١٩٢٧): راقصة أميركية تعدّ مؤسسة الرقص الحديث، وكانت معروفة بمغامراتها الجنسية.

«كريما». وذات مرة في ملعب المدرسة، قبيل دخولنا إلى الصفوف، أخبرنا تشارلي عن آخر مآثرها، حين جلبت له ولصاحبته إفطاراً مكوناً من لحم الخنزير والبيض إلى السرير، وسألتهما ما إذا كانا قد استمتعا بممارسة الجنس.

كانت حين تأتي إلى منزلنا لاصطحاب أبي إلى «حلقة الكتاب»، تهرع إلى غرفتي، كانت تسخر من صور مارك بولان الفوتوغرافية التي علقتها على الجدران: «ما الذي تقرأه؟ أرني كتبك الجديدة!». وذات مرة قالت لي «لماذا تحب كرواك أيها البتول المسكين؟ هل تعرف الملاحظة البديعة التي أطلقها ترومان كابوتي عنه؟».

«لا».

«قال عن كتابته: هذه ليست كتابة، هذه طباعة!».

«لكن إيفا...».

ولكي ألقنها درساً قرأت لها الصفحات الأخيرة من رواية كرواك «على الطريق». «دفاع جيد»، هتفت، وأضافت متمتمة، إذ كان لابدّ من أن تكون لها دائما الكلمة الأخيرة، «أقسى ما يمكن أن تفعله بكرواك هو أن تعيد قراءته في الثامنة والثلاثين». وبينما تهم بالمغادرة فتحت حقيبتها «الشهية» مثلما تسميها، «إليك شيئاً آخر لتقرأه»، وناولتني كتاب «كانديد»(*). «سأخابرك السبت المقبل لأمتحنك بشأنه!».

أما أكثر لقاءاتنا إثارة، فكانت حين استلقت قربي على السرير، وبدأت، على وقع الأغنيات التي أردت إسماعها لها، تحدّثني بحميمية، حاكية لي أسرار حياتها العاطفية، وكيف أن زوجها كان يضربها، وكيف

(*) «كانديد»: أو «المتفائل» (١٧٥٩) رواية أثارت جدلاً في زمنها، يزعم أنها من تأليف الفيلسوف الفرنسي فولتير، رغم عدم اعترافه علناً بكتابتها، وكانديد هو اسم بطل الرواية.

كانت حياتهما خالية من الجنس. وقالت لي إنها تحب الجنس، وتعتبره أروع الأحاسيس المتاحة، واستعملت كلمة «نيك». وأخبرتني كم تحب الحياة. أخافتني؛ أثارتني؛ وعلى نحو ما أدخلت الاضطراب إلى بيتنا كله منذ دخلته.

ما كانت نواياها تجاه أبي؟ ما الذي تعدّ له الآن في غرفة الجلوس هذه؟

كان الأثاث قد أزيح إلى الخلف، بحيث التصقت الكنبات المطرزة والطاولات ذات الأسطح الزجاجية، بأرفف الكتب التي من خشب الصنوبر. وكانت الستائر مسدلة، وفي وسط الغرفة قعدت القرفصاء مجموعة من أربعة رجال أربعينيين وأربع نساء أربعينيات، كلهم من البيض، يتناولون الفستق والنبيذ، وعلى مسافة منهم، مسنداً ظهره إلى الجدار، قعد رجل يصعب تحديد عمره؛ يمكن أن يكون في أي سن بين الخامسة والعشرين والخامسة والأربعين، وكان يلبس بذلة قطنية سوداء جرداء، وحذاء أسود قديم الطرز، حاشراً رجلي البنطال في الجوربين. كان شعره الأشقر متسخاً، وتنفر من جيوبه الكتب السميكة الممزقة، وبدا لا يعرف أحداً، أو إذا كان يعرف أحداً فغير مستعد للتحدث إليه. بدا مهتماً، إنما كمراقب فقط، وهو ينفث دخان سيجارته، بتوتّر واستنفار.

ثم سمعت موسيقى تذكّر بالمآتم.

«ألا تحب باخ؟»، تمتم تشارلي.

«ليست موسيقاي المفضّلة».

«لا بأس بهذا، أظن أنه لدي في الأعلى ما يناسب مزاجك».

«أين والدك؟».

«إنه يعاني من انهيار عصبي».

«يعني ليس هنا؟».

«إنه في مركز علاجي ما حيث يسمحون له بأن يعيش جنونه كله».

في عائلتي كان الانهيار العصبي شيئاً إكزوتياً مثل نيو أورلينز. لم أكن أعرف ما هي ظواهر الانهيارات العصبية، لكن والد تشارلي، في المرة الوحيدة التي زارنا فيها، بدا متوتراً، وجلس وحده في المطبخ ناشجاً بالبكاء، وهو يصلح قلم أبي السائل، بينما كانت تخبرنا إيفا في غرفة الجلوس عن اضطرارها إلى شراء دراجة نارية، مما جعل أمي تتثاءب على ما أذكر.

اقتعد أبي الأرض. كانوا يتحدثون عن الموسيقى والكتب، مردّدين أسماء مثل الموسيقي دفوراك، والفيلسوف الهندي كريشنامورتي، والفلسفة الإغريقية «التخيريّة». وإذ أمعنت النظر فيهم لاحظت، من هيئاتهم، أن الأشخاص الموجودين يعملون في الإعلانات أو الموضة أو ما شابه من وظائف فنية الطابع. وكان والد تشارلي بدوره يعمل في تصميم الإعلانات. لكنني لم أستطع أن أخمّن مجال عمل صاحب البذلة الجرداء. وأياً كانت اختصاصاتهم، فقد كانت تلك الغرفة تشهد قدراً من الاستعراضية والادعاء يفوق ما كان يشهده جنوبي إنكلترا قاطبة.

في المنزل كان أبي ليسخر من هذا كله، لكن هنا وهو في خضم الأمر، بدا كما لو أنه يعيش أسمى أوقات حياته، مديراً النقاش، ومتحدثاً بصوت عال، مقاطعاً الآخرين وملامساً أياً كان على مقربة منه. ورويداً أخذ الرجال والنساء، باستثناء صاحب البذلة السوداء، يتحلقون حوله. لماذا إذاً يوفر لنا في البيت التجهّم والعبوس؟

لاحظت أن الرجل الجالس بجواري التفت إلى شخص قربه وأشار إلى أبي، الذي كان يشرح شيئاً ما لامرأة ترتدي قميصاً رجالياً وبنطالاً

أسود، وتومئ له برأسها استحساناً. وسمعت الرجل يهمس لصديقه «لماذا دعت عزيزتنا إيڤا هذا الهندي الأسمر؟ ألم تدرك أن وجوده سيعكر مزاجنا؟».

«سوف يستعرض لنا الفنون الشرقية!».

«وهل ركن الجَمل في الخارج؟».

«لا، لقد جاء على السجادة الطائرة».

«من ماركة سريل لورد أم دبينامز؟».

نكزت الرجل على خاصرته. فوثب فزعاً.

ثم أنقذتني دعوة تشارلي لي: «تعال إلى غرفتي».

لكن قبل أن نغادر أطفأت إيڤا المصباح الرئيسي، ورمت فوق المصباح الوحيد الذي ظلّ مضاء وشاحاً كبيراً، فأصبحت الغرفة مضاءة بوهج زهري فحسب، وراحت إيڤا تتحرك بخفة راقصة باليه، متبسّمة لضيوفها الذين غرقوا تباعاً في الصمت.

«لِمَ لا نسترخي إذاً؟»، خاطبتهم. فأومأوا موافقين، وقالت صاحبة القميص الرجالي: «لم لا؟»، وأضاف آخر «أجل، أجل»، ورفرف أحد الرجال بيديه، مثل قفازين فضفاضين، فاغراً فمه، ومدلياً لسانه، وجاحظاً عينيه مثل غار الغول. ثم التفتت إيڤا إلى أبي وحيّته بانحناءة على الطريقة اليابانية: «صديقي العزيز والكبير هارون هنا، وسوف يرينا **السبيل**، وينوّر لنا **الطريق**».

«يا إلهي»، همستُ لتشارلي، متذكراً جهل أبي بالطريق إلى «بكنهام».

«أنظر، أنظر جيداً»، دمدم تشارلي، وهو يقعد القرفصاء.

قعد أبي في نهاية الغرفة، على مرأى من جميع الحاضرين الذين راحوا يترقبّون ما سيفعله، في حين تبادل الرجلان الجالسان قربي

نظرات سريعة، كما لو أنهما على وشك الانفجار ضحكاً. تحدث أبي ببطء وبثقة. بدا أن توتره قد زال، كما لو أنه أدرك أنه نال اهتمامهم وأنهم سيتصرفون مثلما يطلب منهم. كنت واثقاً من أنه لم يفعل شيئاً كهذا من قبل. كان على وشك التحليق.

«ما سترونه في هذه الأمسية سيعود عليكم بفوائد جمة، وربما سيغيّركم بعض الشيء، أو يجعلكم راغبين في التغيير، حتى تبلغوا أقصى طاقتكم كبشر. لكن هناك شيء واحد ينبغي ألا تفعلوه: لا تقاوموا. إذا ما قاومتم، فسيكون ذلك مثل قيادة سيارة أثناء وضع المكابح اليدوية».

ساد صمت. ظلوا شاخصين نحوه.

«سوف نقوم ببعض التمارين. رجاء باعدوا أرجلكم».

فباعدوا أرجلهم.

«ارفعوا أذرعكم».

فرفعوا أذرعهم.

«الآن، بينما تتنفسون فلتمدّوا أرجلكم اليمنى».

بعد ممارسة بعض وضعيات اليوغا أمرهم بالاستلقاء على ظهورهم، وانصياعاً لتعليماته الناعمة جعلوا يرخون أناملهم الواحد بعد الآخر، ثم معاصمهم، ثم أصابع أرجلهم، فكواحلهم، وجباههم، وعلى نحو خاص آذانهم. في الأثناء لم يدّخر أبي وقتاً ليخلع حذائيه وجوربيه، ثم - كان يجب أن أخمّن ذلك - قميصه وصديريته النظيفة. ثم راح يطوف بين الحالمين، رافعاً ذراعاً مرتخية هنا، أو رجلاً هناك، مختبراً مدى استرخائهم. إيڤا، التي استلقت أيضاً على ظهرها، ظلت تنظر بإحدى عينيها. هل رأت من قبل شعر صدر بمثل هذين الكثافة والسواد؟ حين مرّ أبي قربها لمست رجله. صاحب البذلة السوداء لم يستطع الاسترخاء

على الإطلاق: اضطجع هناك مثل حزمة عصي شابكاً رجليه، محملقاً في السقف، والسيجارة مشتعلة بين أصابعه.

همست لتشارلي «فلنخرج من هنا قبل أن ننوّم مغناطيسياً كهؤلاء الحمقى!».

«أوليس هذا مذهلاً؟».

كان ثمة في الطابق العلوي من البيت سلّم يؤدي إلى عليّة تشارلي. «رجاء، انزع ساعتك»، قال لي، «ففي حيزي ليس للوقت أي اعتبار». فنزعت ساعتي ووضعتها على الأرض، وارتقيت السلم إلى العلية الفسيحة الممتدة على مساحة البيت، وقد احتشدت جدرانها المائلة وسقفها الواطئ برسوم الماندالا البوذية والرؤوس طويلة الشعر، بينما تربّع طبله وسط الغرفة، واصطفت غيتاراته الأربعة - إثنان عاديان واثنان كهربائيان - على الجدار، وانتشرت على الأرض الوسادات الضخمة، جنباً إلى جنب أكوام التسجيلات، أما أعضاء البيتلز الأربعة فقد تربعوا كالآلهة على أحد الجدران في ملصق كبير من حقبة ألبومهم «سيرجنت بابر».

«هل سمعت شيئاً جيداً مؤخراً؟»، سألني وهو يُشعل شمعة.

«أجل».

بعد صمت غرفة الجلوس وسكينتها، بدا الصخب هنا عبثياً. «أسمعتهم اليوم في رابطة الموسيقى ألبوم «رولنغ ستونز» الجديد، وجن جنون الشباب، فخلعوا ستراتهم وربطات أعناقهم ورقصوا. كنت في الذروة. كان الأمر أشبه بطقس غريب. يا ليتك كنت هناك يا رجل».

عرفت فوراً من ملامح وجه تشارلي أنني لست بالنسبة إليه إلا

حيواناً، كارهاً للموسيقى، طفلاً. رمى شعره المسترسل حتى كتفيه إلى الوراء، ونظر إليّ لبرهة نظرة متسامحة، ثم ابتسم.

«أظن أنه آن أوان أن تنظّف سمعك بشيء مغذ حقاً».

وضع اسطوانة «أوماغوما» لفرقة «بينك فلويد». وأجبرت نفسي على الإصغاء بينما جلس قبالتي يلف سيجارة حشيشة، ناثراً العشب الجاف فوق التبغ.

«والدك هذا، إنه الأفضل. إنه حكيم. هل تمارسون أشياء التأمل هذه كل صباح؟».

أومأت برأسي. إيماءة الرأس لا تعدّ كذباً، أليس كذلك؟

«وتنشدون أيضاً؟».

«لا، ليس كل يوم».

تذكرت كيف تكون فترة الصباح في منزلنا: أبي مهرولاً في أرجاء المطبخ باحثاً عن زيت الزيتون ليضعه على شعره؛ وأنا وأخي نتصارع على صحيفة «دايلي ميرور»؛ وأمي تتذمّر لأنها مضطرة إلى الذهاب للعمل في متجر الأحذية.

ناولني الحشيشة. فمججت نفساً وأعدتها إليه، موقعاً بعض جمرتها المشتعلة على قميصي مما أحدث فيه فجوة صغيرة. كنت مثاراً جداً ودائخاً ونهضت بسرعة.

«ما الأمر؟».

«يجب أن أذهب إلى الحمام».

هرعت على السلّم. في حمام آل كاي كان ثمة ملصقات مؤطرة لمسرحيات جان جينيهٔ. ولفافات من الجلد والبامبو وأشياء شرقية متشابكة حولها. كان هناك كرسي المرحاض، وإذ أخفضت بنطالي

وقعدت عليه، تراءى لي وحي استثنائي. رأيت حياتي بوضوح تام للمرة الأولى: رأيت مستقبلي وما أريد فعله فيه. أريد أن تصبح حياتي كلها بمثل هذه الكثافة؛ مليئة بالصوفية، والكحول، والتوقعات الجنسية، والبشر الأذكياء والمخدرات. لم أبلغ مثل هذا الوضوح من قبل، والآن ما عدت أريد شيئاً سوى هذه الحياة. لقد انفتح أمامي باب المستقبل: وجدتني قادراً على تحديد الطرق التي يجب أن أسلكها.

وتشارلي؟ لم يكن حبي له شبيهاً بأي حب: لم يكن من النوع المعطاء، فعلى الرغم من أنني كنت معجباً به أكثر من أي شخص آخر، فقد كنت أتمنى له السوء. ذلك أنني كنتُ أفضّله عليّ وأرغب بأن أكونه. كنت أغار من مواهبه، ووسامته، وأسلوبه، وأحلم بأن أصحو ذات يوم وأجدها كلها قد انتقلت إليّ.

وقفت في الصالة العلوية. وكان المنزل ساكناً، باستثناء الصوت البعيد المكتوم لأسطوانة «سوسرفول أوف سكرتس»، المتسرب من العليّة. شممت رائحة بخور. نزلت بهدوء إلى الطابق السفلي. وكان باب غرفة الجلوس مشرعاً. ورحت أحملق في الغرفة المعتمة. كان رجال الإعلانات وزوجاتهم مقرفصين على الأرض، مستقيمي الظهور، ومغمضي العيون، ومتنفسين بعمق وبانتظام. أما صاحب البذلة فقد جلس على كرسي مولياً ظهره لهم، قارئاً ومدخناً. لم أرَ لا أبي ولا إيفا في الغرفة. أين تراهما ذهبا؟

تركت «البوذات» المنوّمة ودلفت إلى المطبخ. وكان الباب الخلفي المفضي إلى الحديقة مفتوحاً على وسعه. دلفت إلى العتمة. كان الهواء دافئاً، والقمر مكتملاً.

جثوت على ركبتي (أدركت أنني ينبغي أن أفعل ذلك، فقد صرت متّقد البصيرة منذ العرض الذي قام به أبي)، وبدأت أزحف إلى الخارج. لابدّ

من أنهم أقاموا حفل شواء هنا مؤخراً، لأن نثرات مروسة من الفحم انغرزت في ركبتي، لكنني وصلت إلى حافة المخضرة من دون جروح جدية. رأيت عند نهاية المخضرة مقعداً، وتبيّنت، بمساعدة شعاع القمر، إيڤا على المقعد. وكان كفتانها مرفوعاً إلى فوق رأسها. وكان يمكنني إذا ما حملقت أكثر أن أرى صدرها، وهذا ما فعلته؛ حملقت حتى تصلّب بؤبؤاي في محجريهما. وسرعان ما عرفت أن حدسي كان مصيباً. إيڤا لها نهد واحد، فحيث يفترض أن يكون الآخر كان فراغ.

تحت لحم إيڤا وشعرها كان يجثم أبي الذي لم أستطع رؤيته، لكنني عرفته من صوته. كان صراخه يتردّد في حدائق بكنهام كلها، دونما أي اعتبار للجيران، «آه يا إلهي، يا إلهي، آه يا إلهي». تساءلت ما إذا كنتُ قد تشكّلت جنيناً في رحم أمي على هذا النحو: في هواء الضواحي الليلي، على عويل شتائم مسيحية من فم مرتد مسلم متنكر كبوذي؟

سمعت فرقعة يد إيڤا وهي تسدّ فمه. كانت حركة تعسفية، فكرت، وكدت أتقدّم منهما للاعتراض. لكن يا إلهي، يا للطريقة التي كانت تنطنط فيها هذه المرأة! رأسها إلى الخلف، وعيناها على النجوم، وتقفز كلاعب كرة قدم، وشعرها يطير. لكن ماذا عن وزنها الساحق هذا على جذع أبي؟ لا شك في أن عارضات المقعد الخشبية ستبقى لأيام مطبوعة على مؤخرته المسكينة، مثلما تنطبع عارضات الشواية على شريحة اللحم؟

ثم أزاحت يدها عن فمه، فشرع يضحك. المنيوك السعيد، ظل يضحك ويضحك. كانت تنهدات شخص لا أعرفه، مفعم بالمتعة والامتلاء، وأحبطني ذلك إلى حدّ ما.

عدت إلى المطبخ وسكبت لنفسي كأس ويسكي وغببتها دفعة واحدة. كان صاحب البذلة المتنيّة في زاوية المطبخ، وعيناه ترمشان بطريقة سيئة. مدّ يده وعرفني بنفسه: «شادويل».

عدت إلى تشارلي ووجدته ممدداً على ظهره. أخذت منه سيجارة الحشيشة، وخلعت حذائي وتمدّدت.

«تعال قربي»، قال «أقرب»، ووضع يده على ذراعي «الآن، آمل ألا يزعجك ما سأقوله لك».

«لا أبداً قل ما تشاء يا تشارلي».

«عليك أن تلبس أقل».

«ألبس أقل؟».

«أجل، تلبس أقل».

استند على أحد مرفقيه وحملق بي. كان فمه مقفلاً. وشعرت أنني آخذ حماماً شمسياً تحت وجهه المشع.

«أقترح عليك جينز «ليڤيز»، مع قميص مفتوح الياقة، ربما بلون زهري أو أرجواني، وحزاماً بنياً عريضاً. ودعك من عصبة الشعر».

«أنسى عصبة الشعر؟».

«انسها».

ففككت العصبة ورميتها على الأرض.

«كرمى لأمك».

«أترى يا كريم أنت تبدو قليلاً كالمخنث».

انطبعت كلماته في دماغي كالوشم، إذ لم يكن ثمة ما أطمح إليه في الحياة سوى أن أكون مثله، بمثل ذكائه وشخصيته: بنطال «ليڤيز» وقميص مفتوح الياقة، ربما بلون زهري أو أرجواني خفيف. لن ألبس أي ثياب أخرى طيلة حياتي.

بينما رحت أتأمل نفسي مستذكراً بقرف خزانة ملابسي، شاعراً بالرغبة بالتبول على كل قطعة ثياب فيها، عاود تشارلي الاستلقاء على

ظهره وأغمض عينيه، مطمئناً لصفاء أمور الأناقة في رأسه. عملياً، كل من في المنزل، كان في الجنة، ما عداي.

وضعت يدي على فخذه. فلم تنمّ عنه أي ردة فعل. أبقيتها هناك بضع دقائق حتى تعرّقت أطراف أناملي. ظلّ مغمضاً عينيه، لكن قضيبه بدأ يبرز من جينزه. ومنحني ذلك الثقة. جن جنوني. فانقضضت على حزامه، على سحابة بنطاله، على قضيبه، وأطلقته من عقاله. نمّت عنه إشارة صغيرة، اختلاجة في جسده! ومن خلال مثل هذه الكهرباء البشرية فهمنا بعضنا.

كنت قد داعبت قبلاً ذكوراً أخرى، في المدرسة. كنا نتلامس ونداعب ذكور بعضنا طوال الوقت، كسراً لرتابة التعليم. لكن تلك كانت المرة الأولى التي أقبّل فيها رجلاً.

«أين أنت يا تشارلي؟».

حاولت أن أقبّله، فأمال رأسه جانباً، متفادياً شفتي. لكن حين قذف في يدي كانت تلك واحدة من أروع لحظات حياتي. امتلأت شوارعي بالرقص، ورفرفت راياتي، وصدحت أبواقي!

كنت ألعق أصابعي مفكراً من أين يمكن أن أشتري قميصاً زهرياً، حين سمعت صوتاً آخر سوى موسيقى «بينك فلويد». التفتّ ورأيت عند طرف العلية عيني أبي المشتعلتين، أنفه ورقبته وصدره الشهير، وهو يشقل نفسه ليدخل من الفتحة المربعة. ابتعد تشارلي عني بسلاسة، أما أنا فقفزت. هرع أبي نحوي، تتبعه إيڤا متبسّمة. أخذ أبي ينقّل نظره بيني وبين تشارلي. إيڤا تشمّمت الهواء.

«أيها الولدان الشريران».

«ما الأمر يا إيڤا؟»، سألها تشارلي.

«كنتما تدخنان الحشيشة».

قالت إيڤا إن الوقت أزف حتى توصلنا إلى البيت. نزلنا جميعاً على السلم. وكان أبي أولنا، فهبط على ساعتي في الأسفل، وحطّمها أشلاء، وجرح رجله.

حين أوصلتنا إيڤا إلى البيت قلت لها عمت مساء ومشيت مبتعداً. ورأيتها من مدخل البيت وهي تحاول أن تقبّل أبي، فيما يحاول هو أن يصافحها فحسب.

كان بيتنا معتماً وبارداً ونحن ندلف إليه متعبين. كان على أبي أن يستيقظ في السادسة والنصف صباحاً وأنا لدي جولة توزيع الصحف في السابعة. في الصالة رفع يده لكي يصفعني. كان ثملاً أكثر مما كنتُ مخدراً. وأمسكت بالوغد الجاحد.

«ما الذي كنت تفعله بحق الجحيم؟».

«اخرس»، أجبته بأقصى هدوء ممكن.

«لقد رأيتك يا كريم. يا إلهي. يا إلهي أنت ولد خرائي فعلاً. لوطي! ابني أنا، كيف حدث هذا؟».

كان خائب الأمل بي. راح يقفز ألماً كما لو أنه سمع للتو أن بيتنا قد احترق. لم أعرف ماذا أفعل. لذا رحت أقلد نبرته وهو يخاطب ضيوف إيڤا:

«استرخ، أبي، أرخ جسدك كله من أنامل يديك حتى أصابع رجليك، واذهب بعقلك إلى حديقة هادئة حيث...».

«سأرسلك إلى طبيب لعين لكي يفحص خصيتيك».

كان يجب أن أوقفه عن الصراخ قبل أن تسمع أمي والجيران. فهمست: «لكنني رأيتك يا أبي».

«لم ترَ شيئاً»، قال بازدراء تام. يمكنه أن يكون شديد الصلف أحياناً. لابدّ من أن السبب خلفيته الاجتماعية الراقية. لكنني نلت منه.

«على الأقل أمي تملك نهدين».

دخل أبي إلى الحمام دون أن يغلق الباب وبدأ يتقيأ. فتبعته وجعلت أمسّد ظهره بينما يخرج كل ما في معدته. «لن آتي ثانية على ذكر ما حدث هذه الليلة»، قلت، «ولا أنت أيضاً».

«لماذا عدت به إلى البيت هكذا؟»، قالت أمي. كانت تقف خلفنا لابسة قميص نومها الطويل الذي تلامس أطرافه الأرض، جاعلاً إياها تبدو مربعة. كانت متعبة. أعادتني هيأتها إلى العالم الحقيقي. أردت أن أصرخ بها: أبعدي هذا العالم عني!

«ألم يكن في وسعك الاعتناء به؟»، قالت وهي تشدّني بذراعي. «وقفت وراء النافذة أنتظركما منذ ساعات. لماذا لم تتصل بي؟».

أخيراً وقف أبي وشق طريقه بيننا.

«جهز لي السرير في الغرفة الأمامية»، قالت، «لا أستطيع النوم بجوار هذا الرجل الذي يفوح ثمالة وقيئاً».

حين اضطجعت على الكنبة التي جهزتها لها ـ وهي كنبة صغيرة وغير مريحة ـ قلت لها: «لن أتزوج إطلاقاً، حسناً؟».

«لا ألومك»، قالت، وقد انقلبت إلى الناحية الأخرى وأغمضت عينيها.

لم أحسب أنها ستحظى بقدر وافر من النوم على تلك الكنبة، وأشفقت عليها. لكنني كنت غاضباً منها، بسبب الطريقة التي عاقبت نفسها بها. لماذا لم تستطع أن تكون أقوى؟ لماذا لم ترد؟ سأكون قوياً، قرّرت. لم أنم تلك الليلة، وظللت مستيقظاً أستمع إلى «إذاعة

كارولين»(*). لقد رأيت تلك الليلة لمحة من عالم الإثارة والاحتمالات التي أردت أن أبقيها في رأسي وأوسّعها كأساس للمستقبل.

بعد تلك الأمسية ظل أبي لأسبوع لا يخاطب أحداً، مع أنه في بعض الأحيان كان يلجأ إلى الإشارات، كما لو أنه يطلب الملح والبهار، فبدا أحياناً مثل مارسيل مارسو بأدائه الإيمائي المعقد. ولو نظر زوار من كوكب آخر من نافذتنا، لحسبوا أننا نلعب لعبة «احزر» عائلية، حيث نحاول أنا وأمي وأخي أن نفكّك إشارات أبي ونشرحها لبعضنا، وهو يحاول أن يفهمنا دون كلام أن المزاريب مسدودة بأوراق الأشجار، وأن جانب المنزل بدأ ينتقع، وأنه يريدنا أنا وعلي أن نتسلق السلم ونصلحه، وأنه على أمي أن تمسك لنا السلم. عند العشاء كنا نجلس نأكل البرغر ورقائق البطاطا وأصابع السمك بصمت. مرة طفر الدمع من عيني أمي فخبطت على الطاولة صارخة: «حياتي رهيبة، رهيبة، ألا يفهم أحد هذا؟».

نظرنا إليها مندهشين لوهلة، ثم استأنفنا الأكل. بعد العشاء كانت أمي تتولى غسل الأطباق من دون أن يساعدها أحد. ثم نشرب الشاي ونختفي بأسرع وقت ممكن. أخي عمار، الذي يصغرني بأربع سنوات، وقد سمّى نفسه علياً لكي يتجنب التعرض لمشكلات عرقية، كان دائماً يأوي مبكراً إلى السرير، آخذاً معه مجلات الموضة مثل «فوغ» و«هاربرز» و«كوين»، وأي مجلة أوروبية تقع يداه عليها، مرتدياً بيجامته الحرير الحمراء الرقيقة، وفوقها سترة نوم اشتراها بالتنزيلات، لامّاً شعره بشبكة. «ما الضرر في أن يبدو المرء بمظهر جيد؟»، كان يقول،

(*) «إذاعة كارولين»: محطة إذاعية معروفة تأسست عام ١٩٦٨، وكانت تقرصن بث الأسطوانات الموسيقية، أما كارولين فهو اسم ابنة الرئيس الأميركي جون كينيدي، الذي اختاره مؤسس المحطة رجل الأعمال الإيرلندي رونان أورايلي اسماً لمحطته.

وهو يصعد إلى السرير العلوي. في الأمسيات كنت أذهب غالباً إلى الحديقة لكي أجلس في الظلة التي تفوح برائحة البول، مدخناً مع فتية آخرين فروا مثلي من منازلهم.

كان لدى أبي أفكار صارمة حول توزيع العمل بين الرجال والنساء. كانت أمي تعمل: في متجر للأحذية في «هاي ستريت»، لكي تنفق على علي، الذي قرّر أن يصبح راقص باليه، ويحتاج إلى معهد خاص مكلف. وكانت تقوم بكل الأعمال المنزلية والطبخ. وتتسوق وقت الغذاء، وتحضّر مساء وجبة اليوم التالي. وبعد ذلك تشاهد التلفزيون حتى العاشرة والنصف. كان التلفزيون منطقة سلطتها المطلقة الوحيدة. وكان العرف في بيتنا أنه يحق لها أن تشاهد ما تريده، وإذا ما أراد أحدنا أن يشاهد شيئاً آخر فلا مجال لذلك على الإطلاق. بما تبقّى لها من طاقة في آخر اليوم كانت ترمي في وجهنا غضبها، وإشفاقها على نفسها وإحباطها، بحيث لا يعود أي منا قادراً على التحرش بها. كانت مولعة ببرامج تلفزيونية مثل «ستبتو وولده»، و«الكاميرا الخفية» و«المطارد».

أما إذا ما كان هناك برامج معادة أو سياسية على التلفزيون، فكانت تحب أن ترسم، هي التي درست في معهد فنون. وقد دأبت على رسمنا نحن الثلاثة، رسم رؤوسنا تحديداً، على ورقة واحدة، طوال سنوات. ثلاثة رجال أنانيين، كانت تسمينا. قالت إنها لم تحب الرجال أبداً لأن الرجال محترفو تعذيب. ليسوا النساء اللواتي أطلقن الغاز في «أوشفيتز» أو قصفن فييتنام، على حدّ قولها. وخلال فترة حرد أبي الصامتة تلك رسمت كثيراً، واضعة إضمامة الرسم وراء المقعد، جنب أدوات الخياطة، ومذكرات طفولتها عن الحرب («غارة جوية الليلة»)، وروايات كاثرين ككسن. لطالما حاولت أن أقنعها بقراءة كتب أفضل مثل «ناعم هو الليل» و«دارما بامز»، لكنها كانت تردّ دائماً أن الحروف في مثل هذه الكتب صغيرة جداً.

عصرية يوم ما، بعد بضعة أيام من «العبوس الكبير»، أعددت لنفسي ساندويتش فستق بالزبدة، ووضعت أسطوانة «ليف أت ليدز» لفرقة «ذي هو» بأعلى صوت ـ حيث يمكن الاستمتاع أكثر بصوت بتي تاونسهند القوي في أغنية «سمر تايمز بلوز» ـ ورحت أفلفش في رسومات أمي، متيقناً من أنني سأعثر فيها على شيء ما. قلّبت الصفحات حتى وصلت إلى رسم يمثل أبي عارياً، وبجواره، أطول منه بقليل، كانت تقف إيڤا، عارية أيضاً، بكامل جسدها، وبثدي واحد ضخم، ويمسكان بأيدي بعضيهما كطفلين خائفين، ويواجهوننا من دون إنكار ولا مواربة، كما لو أنهما يقولان: هذان نحن، هذان جسدانا. بدوا مثل جون لينون ويوكو أونو. كيف أمكن أمي أن تكون موضوعية إلى هذا الحد؟ كيف عرفت حتى أنهما يمارسان الجنس معاً؟

لا أسرار تُخفى عني. لم أحصر تحرياتي بأمي. هكذا عرفت أن أبي كان، على الرغم من الهدوء البادي عليه، منشغلاً بأمور أخرى. تلصصت على حقيبة يده، ورأيت كتباً لـ لو بو، لاو تسو، وكريسماس همفريز.

كنت أعرف أن أكثر الأمور إثارة التي يمكن أن تحدث في البيت أن يتلقى أبي اتصالاً هاتفياً، الأمر الذي كان يعرّض صمته لامتحان عسير. لذا حين رن الهاتف في وقت متأخر ذات يوم في العاشرة والنصف مساء، حرصت على أن أصل إلى الهاتف قبله. وإذ سمعت صوت إيڤا، أيقنت أنني أنا أيضاً كنت تواقاً إلى سماع أخبارها من جديد.

«مرحباً، يا فتاي الحلو الأزعر، أين هو أبوك؟ لماذا لم تتصل بي؟ ما الذي تقرأه هذه الأيام؟».

«بماذا تنصحينني يا إيڤا؟».

«يستحسن أن تأتي لزيارتي، وسأملأ رأسك بالأفكار الوردية».

«متى يمكنني أن آتي؟».

«لا حاجة إلى المواعيد، تعال فحسب».

ناديت أبي الذي صودف أنه كان يقف بالبيجاما وراء باب الحمام. أخذ السماعة. لم أصدق أنه سيتحدث معها في منزله.

«مرحباً»، قال بخشونة، كما لو أنه غير معتاد على استعمال صوته. «إيفا، رائع التحدث إليك حبيبتي. لكن صوتي قد اختفى. أظن أنه التهاب في الحنجرة. هل أستطيع الاتصال بك من المكتب؟».

ذهبت إلى غرفتي، شغّلت الراديو البني الكبير، وانتظرت أن يحمى، وتفكرت في المسألة.

أمي انكبت على الرسم مجدداً تلك الليلة.

حصل أمر آخر جعلني أدرك أن «الله»، مثلما صرت ألقّب أبي، كان يخطّط جدياً لأمر ما، وذلك حين سمعت صوتاً خنثوياً ينبعث من غرفته وأنا متجه إلى سريري. وضعت أذني على الباب. بلى، «الله» يتحدث مع نفسه، لكن ليس بحميمية. كان يتحدث ببطء، بصوت أعمق من العادة، كما لو أنه يخاطب حشداً. كان يهسهس حرف السين ويبالغ في نبرته الهندية. لقد أمضى سنوات وهو يبذل جهداً لكي يصبح إنكليزياً أكثر، ولكي لا يكون مثار شكوك، والآن ها هو يعود إلى تلك النبرة. لماذا؟

بعد بضعة أسابيع، صبيحة يوم سبت، ناداني إلى غرفته، وقال لي بشكل غامض «هل أنت معي الليلة؟».

«الليلة ماذا، أيها الرب؟».

«سوف **أظهر**»، قال، غير قادر على مداراة الفخر في صوته.

«أحقاً؟ مجدداً؟».

«أجل، لقد طلبوا مني ذلك. إنه مطلب شعبي».

«هذا عظيم. وأين سيكون ذلك؟».

«في لوكايشن ستريت». وطرطق على بطنه بسعادة. هذا ما كان يرغب حقاً بالقيام به: الظهور. «إنهم يتطلعون لرؤيتي في كل أنحاء أوربنغتون. سأصبح أشهر من بوب هوب. لكن لا تذكر شيئاً لأمك. إنها لا تفهم ظهوراتي على الإطلاق، أو حتى اختفاءاتي. هل اتفقنا؟».

«اتفقنا يا أبي».

«جيد، جيد. جهّز نفسك».

«أجهّز ماذا؟».

لمس وجهي بلطف بظهر كفه «أنت متحمّس أليس كذلك؟»، بقيت صامتاً «أنت تحب هذه المشاوير».

«أجل»، أجبته بحياء.

«وأنا أحب رفقتك، أيها الفتى. أحبك كثيراً. إننا نكبر معاً».

كان محقاً. كنت أنتظر بفارغ الصبر ظهوره الثاني. لقد استمتعت فعلاً بالأمر، لكن كان ثمة أمر مهم كنت بحاجة إلى معرفته. أردت أن أتأكد ما إذا كان أبي دجّالاً، أم أنه صادق في ما يفعله. ففي نهاية الأمر نال إعجاب إيفا، ونجح في أن يفتن تشارلي. لقد نجح سحره معهما، وقد منحته لقب «الله»، لكن بتحفظ، فلم يكن مخولاً كلياً بعد لحمل اللقب. ما أردت أن أتأكد منه هو ما إذا كان أبي، وهو يتفتح على هذا النحو، لديه ما يقدمه للناس فعلاً، أم سيتضح أنه مجرد شخص آخر غريب الأطوار من الضواحي.

الفصل الثاني

كان أبي وأنور جارين في بومباي، وترجع صداقتهما إلى سن الخامسة. وكان جدي الطبيب قد شيّد بيتاً خشبياً جميلاً على شاطئ جوهو(*)، ليعيش فيه مع زوجته وأولاده الإثني عشر. فكان أبي وأنور ينامان على الشرفة، ويهرعان عند بزوغ الشمس إلى الشاطئ ويسبحان. وكانا يذهبان إلى المدرسة بعربة بدولابين يجرها حصان. ويلعبان الكريكت في عطل الأسبوع، وبعد الدوام المدرسي كرة المضرب في ملعب العائلة، حيث يتولى الخدم جلب الكرات. كانت مباريات الكريكت تكون غالباً ضد البريطانيين، وعليك أن تدعهم يفوزون. كان ذلك زمن أعمال الشغب والتظاهرات والمعارك بين الهندوس والمسلمين. وكان يمكن أن تجد أصدقاءك وجيرانك الهندوس محتشدين خارج منزلك يكيلون لك الشتائم.

لكن لم يخلُ الأمر أيضاً من الحفلات، فبومباي هي موطن صناعة السينما الهندية، وعمّي الأكبر كان مدير تحرير مجلة سينمائية. وكان أبي وأنور يتباهيان أمام الآخرين بنجوم السينما الذين يعرفونهما والممثلات اللواتي حظيا بقبلات منهن. مرة، حين كنت في السابعة أو الثامنة، أعرب لي أبي عن رغبته في أن أصير ممثلاً؛ حياة الممثلين جيدة، قال لي، ونسبة العمل قياساً إلى الأجر مرتفعة. لكنه كان يريدني

(*) جوهو: هي ضواحي مدينة بومباي (أو مومباي)، وتعرف بشاطئها الشهير.

حقاً أن أصبح طبيباً، فلم يأت على ذكر موضوع التمثيل ثانية. في المدرسة رأى مستشار الوظائف أنه يجدر بي أن أعمل في الجمارك والضرائب - من الواضح أنه كان يرى فيّ موهبة فطرية في نبش الحقائب. أما أمي فأرادتني أن أنتسب إلى البحرية، وذلك على ما أظن على أساس أنني كنت أحب ارتداء البناطيل واسعة الرجلين.

عاش أبي طفولة بسيطة وبهيجة، وإذ كنت أستمع إلى أخبار مغامراته مع أنور، كنت أتساءل غالباً لماذا - وقد أمضى طفولة سعيدة كهذه - يحكم على ولديه بالعيش في ضواحي لندن الجافة، التي قيل فيها إنه حين يغرق الناس لا يرون حيواتهم بل زجاج نوافذ بيوتهم، تمرّ أمام عيونهم.

تأخر أبي في أن يدرك - قبل مجيئه إلى إنكلترا - مدى تعقيد الحياة العملية. فهو لم يضطر سابقاً إلى الطبخ، أو غسل الأطباق، أو تنظيف الحذاء أو ترتيب السرير. كانت تلك مهام الخدم. وقد أخبرنا مرة أنه حين يتذكر منزله في بومباي لا يستطيع أن يتذكر شكل المطبخ، لأنه لم يدخله قط في حياته. لكنه لم ينسَ حادثة طرد خادمه المفضل من العمل بسبب أخطائه المتكررة؛ مرة لأنه حضّر التوست وهو مستلق على ظهره ومعلقاً الخبز بين أصابع رجله فوق شعلة من النار، والمرة الثانية لأنه نظف الكرفس بفرشاة أسنان، صحيح أنها كانت فرشاته الخاصة، وليست فرشاة «السيد»، لكن هذا لم يكن عذراً. هاتان الحادثتان جعلتا أبي اشتراكياً، وهما بالمناسبة المرتان الوحيدتان التي كان فيهما اشتراكياً.

وعلى الرغم من أن أمي كانت تنزعج من تكاسل أبي الأرستقراطي، فقد كانت أيضاً فخورة بعائلته. «إنهم أعلى مقاماً من آل تشرشل»، كانت تخبر الناس. «كان يذهب إلى المدرسة بعربة يجرها حصان».

هذا لكي تضمن ألا يتم الخلط بين أبي وبين حثالة الفلاحين الهنود الذين تدفقوا على بريطانيا في الخمسينات والستينات، والذين قيل عنهم إنهم لا يعرفون أدوات المائدة وبالتأكيد لا يعرفون التواليت، فهم يقرفصون على المراحيض ويتبرزن من أعلى.

على عكس هؤلاء جاء أبي إلى إنكلترا طلباً للعلم. حاكت أمه له ولأنور عدداً من الصديريات الصوف ولوحت لهما مودعة من بومباي، بعد أن حصلت منهما على وعد جازم بألا يصبحا من أكلة لحم الخنزير. مثل غاندي وجناح من قبله، سيعود أبي إلى الهند محامياً إنكليزياً ومؤهلاً ولامعاً وراقصاً بارعاً، لكن لم تكن لديه فكرة حين حطّ الرحال في لندن أنه لن يرى وجه أمه ثانية. وكان هذا هو الحزن الكبير الصامت في حياته، والذي باعتقادي يفسّر تعلقه اليائس بالنساء اللواتي يعتنين به، نساء يمكنه أن يحبّهن مثلما كان يفترض به أن يحب أمه التي لم يبعث لها برسالة واحدة.

شكّلت لندن، شارع «أولد كنت رود» على وجه التحديد، صدمة هائلة لأبي ولأنور. فهي منطقة ماطرة وضبابية؛ والناس فيها ينادونك بأسماء مثل «صاني جيم»؛ والطعام دائماً شحيح، ولم يعتد أبي على اللحم بالتوست. «إنها أشبه بحثالة الأنف»، كان يقول وهو ينأى بنفسه عن طعام الطبقة العاملة: «ظننت أننا سنتناول لحم العجل المشوي وحلوى يوركشاير طوال الوقت». لكن ترشيد الإنفاق كان لا يزال معمولاً به في بريطانيا، التي كانت لا تزال منهكة بعد أن سويت بالأرض خلال الحرب الكونية. ومع ذلك سرّ أبي برؤية الإنكليز في إنكلترا. ففي بلاده لم يُحظ بفرصة أن يرى فقراء الإنكليز ومشرّديهم، أولئك منهم الذين يعملون زبالين، وبقالين ونَدلاً. لم يكن قد رأى من قبل إنكليزياً يأكل بيديه، ولم يخبره أحد أن الإنكليز لا يستحمون

بصورة منتظمة لأن المياه باردة جداً، هذا إذا كانت متوافرة أساساً. وحين حاول أبي أن يناقش أشعار بايرون في الحانات المحلية لم ينذره أحد بأنه ليس جميع الإنكليز مولعين بالقراءة، أو أنهم يرفضون أن يعلّمهم شخص هندي أشعار رجل شاذ جنسياً ومجنون.

لحسن حظ أبي وأنور كان المسكن متوافراً، في منزل الدكتور لال، وهو أحد أصدقاء جدي. كان دكتور لال طبيب أسنان يعيش وحيداً، وكان يزعم أنه صديق شخصي لبرتراند راسل. في كامبردج حيث عاش وحيداً خلال الحرب، استنتج راسل بالتجربة العملية أن الاستمناء هو الحلّ الشافي للكبت الجنسي. كان اكتشاف راسل العظيم هذا بمثابة الوحي بالنسبة إلى د. لال، الذي زعم بأنه عاش سعيداً مذ ذاك الوقت. هل كانت سعادته إنجازاً إضافياً من إنجازات راسل العظمى؟ إذ على الأرجح لو لم يكن د. لال منفتحاً في أمور الجنس مع الشابين النهمين جنسياً المقيمين لديه، لما كان التقى أبي أمي، ولما كنت أغرمت أنا بتشارلي.

لطالما كان أنور أسمن من أبي، بوجهه المستدير وبطنه المنتفخة. لا تكاد تخرج عبارة من فمه من دون أن يطعّمها بالكلمات السفيهة، وكان يحب العاهرات اللواتي يتسكعن في هايد بارك، ويناديه «بايبي فايس». كان أبي أكثر أناقة منه أيضاً، إذ ما إن يستلم مصروفه الشهري من الهند حتى يسارع إلى «بوند ستريت» لكي يشتري ربطات عنق، وصديريات رمادية، وجوارب تارتان، مما يضطره لاحقاً إلى الاستدانة من «بايبي فايس». خلال النهار كان أنور يدرس هندسة الطيران في نورث لندن، ويحاول أبي أن ينكبّ على كتب القانون. وليلاً يناما في عيادة د. لال، بين معداته الطبية، ويتخذ أنور من كرسي المرضى سريراً. ذات ليلة، وقد طفح الكيل بأبي بسبب فأر ظلّ يحوم حوله، وبسبب إحباطه

الجنسي أيضاً، وصديريات أمه الصوف التي تسبب له حكاكاً حارقاً، حمل أغلظ مثاقيب أسنان د. لال وهاجم أنور وهو نائم، وقد فزع الأخير أيما فزع حين استفاق ووجد «مرشد» تشيزلهرست المستقبلي هاجماً عليه بمثقاب. هذا اللعب، هذا الرفض لأخذ أي شيء على محمل الجد، كما لو أن الحياة غير مهمة، كان يلخص موقف أبي من الدراسة. لم يكن يقدر على التركيز. لم يكن عمل قبلاً ولم يعد الأمر يناسبه الآن. صار أنور يقول عن أبي «هارون، يمكنك أن تجده في الحانة يومياً عند الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة».

وأبي يدافع عن نفسه «أذهب إلى الحانة لكي أفكّر».

«لا، لكي تشرب».

كانا أيام الجمعة والسبت يذهبان إلى المراقص ويروحان يقبلان الفتيات على موسيقى غلن ميلر وكاونت بايسي ولويس أرمسترونغ. هكذا وضع أبي يديه وعينيه للمرة الأولى على فتاة إنكليزية جميلة من الطبقة العاملة من الضواحي تدعى مارغريت. أخبرتني أمي أنها أحبت رجلها الصغير هذا لحظة رأته. كان عذباً ولطيفاً وبدا ضائعاً كلياً، وهذا عادة يحمّس النساء لمساعدته للعثور على ذاته.

كان ثمة صديقة لأمي كان يواعدها «بايبي فايس»، ومن الواضح أنه كان يعاشرها أيضاً، لكن أنور كان متزوجاً من جيتا، وهي أميرة أوصلتها عائلتها إلى العرس الذي أقيم في المركز البريطاني القديم في موري، شمالي باكستان، على صهوات الجياد، وكان إخوتها يمتشقون الأسلحة مما أفزع أنور وجعله راغباً الذهاب إلى إنكلترا.

وبعد فترة قصيرة انضمّت الأميرة جيتا إليه في إنكلترا، وأصبح اسمها العمة جيتا بالنسبة إلي. ولم يكن فيها ما يوحي بأنها أميرة حقاً، وكنت أسخر منها لأنها لا تنطق الإنكليزية بشكل صحيح. كانت شديدة

الخجل وعاشا في مسكن من غرفة واحدة قذرة بجوار سكة الحديد في «بركستون». ذات يوم ربح أنور بالصدفة مبلغاً كبيراً من المال في محل الرهانات. ففتح متجر ألعاب في ساوث لندن، لكنه فشل فشلاً ذريعاً، حتى جعلته العمة جيتا يحوله إلى محل بقالة. قاما بتجهيز المحل جيداً وبدأ الزبائن بالتدفق.

على النقيض منه راوح أبي في مكانه. عائلته قطعت المال عنه حين اكتشفت عبر جاسوسها ـ د. لال ـ أنه يداوم على الحانة لكي يحتسي الجعة لابساً ربطة عنق حريرية وصديرية خضراء.

انتهى الأمر بأبي كموظف إداري حكومي لقاء ٣ باوندات أسبوعياً. حياته، التي كانت في السابق نهراً بارداً من التأمل، ومن ارتياد الشواطئ ولعب الكريكت، والهزء من البريطانيين، ومن مقاعد أطباء الأسنان، أصبحت الآن سجناً من المظلات والرتابة والجمود؛ من القطارات الرائحة والغادية بين ضواحي لندن ومركزها، ومن براز الأطفال، وانفجار الأنابيب الصحية المتجمدة صقيعاً في كانون الأول، وإشعال نيران الفحم في السابعة صباحاً، وتنظيم شؤون الحب في حياة عائلية في الضواحي في بيت من غرفتين أرضيتين، وأخريين علويتين. لم يكن يجيد التعامل مع الحياة، بوصفه طفلاً بريئاً لم يضطر في حياته إلى فعل شيء بنفسه. مرة حين تركت وحدي معه طوال اليوم، تبرزت على نفسي، فأصيب بحال من الذهول. ثم أوقفني عارياً في الحمام وأحضر كوباً راح يسكب منه الماء على رجلي، ساداً فمه باليد الأخرى، وهو واقف في الطرف الآخر من الحمام، كما لو كنت وباء.

لا أعرف كيف بدأ الأمر كله، لكن حين كنت في العاشرة أو الحادية عشرة اكتشف أبي أدبيات لاي تزو، ولا تزو وشوانغ تزو، وانكبّ على قراءتها كما لو أنها لم تُقرأ من قبل، كما لو أنها كتبت خصيصاً من أجله.

ظللنا نزور «بايبي فايس» والأميرة جيتا بعد ظهر أيام الأحد، وهو اليوم الوحيد الذي يقفل فيه المتجر. وظلت صداقة أبي بأنور قائمة بشكل أساسي على لعب الكريكت، والملاكمة، والرياضات ومشاهدة مباريات التنس. حين زاره أبي بنسخة من كتاب «سر الوردة الذهبية» سحبها منه أنور، وراح يضحك.

«ما هذا الشيء الأخرق الذي تلعب به الآن؟».

سارع أبي إلى الرد «أنور يا يار(*) أنت لا تدرك الأسرار العظيمة التي أكشف النقاب عنها! كم أشعر بالسعادة لأنني بدأت أفهم الحياة أخيراً!».

قاطعه أنور، ناكزاً إياه بلفافة سكائره. «أيها الأحمق الصيني. كيف تقرأ هذه القمامة بينما أقوم أنا بجني المال! لقد انتهيت من سداد الرهن اللعين!».

كان أبي شديد الحرص على إفهام أنور عظمة التجربة التي يعيشها: «لا يهمني المال. المال دائماً متوافر. عليّ أن أفهم هذه الأشياء السرية».

نظر أنور إلى السماء ثم إلى أمي التي كانت جالسة هناك ضجرانة. كلاهما كان يحب أبي، حباً مختلطاً بالشفقة، كما لو أنه كان يرتكب خطأً مأساوياً، لا يقل فداحة عن الانضمام إلى شهود يهوه. كلما كان يتحدث أكثر عن الين واليانغ، والوعي بالكون، والفلسفة الصينية، واتباع الطريق، يزداد شعور أمي بالضياع. بدا أنه ينجرف بعيداً عنها إلى فضاء خارجي، مخلفاً إياها وراءه؛ كانت امرأة من الضواحي، هادئة ولطيفة، وتجد الحياة مع زوج وولدين صعبة بما فيه الكفاية. وكان

(*) يار: أي الصاحب أو الصديق.

هناك أيضاً قدر لا بأس به من الكبرياء في اكتشافات أبي الشرقية، جعله يزدري حياة أنور.

«أنت مهتم فقط بلفافات ورق التواليت، والسردين، الورق الصحي، والفجل»، قال له. «لكن هناك أمور أخرى يا صاحبي في الأرض والسماء، تفوق ما تحلم به في بنجي».

«لا وقت لدي للأحلام!»، قاطعه أنور، «ولا أنت يفترض أن تعيش في الأحلام. اصح! لماذا لا تسعى إلى ترقية حتى تستطيع مارغريت ارتداء ثياب جميلة. أنت تعرف كيف هن النساء يا صاحبي».

«البيض لن يمنحوننا الترقيات أبداً»، قال أبي «لن يفعلوا ذلك مع هندي ما دام هناك رجل أبيض على الأرض. أنت لا تحتك بهم ـ لا زالوا يظنون أنه لديهم إمبراطورية، في حين أنهم أفلسوا تماماً».

«لا يمنحوك ترقية لأنك كسول يا هارون. لقد بدأ العشب ينبت على خصيتيك، وأنت تفكر في هذه الأشياء البوذية وليس بالملكة!».

«فلتذهب الملكة إلى الجحيم! اسمع يا أنور، ألا ترغب أبداً بمعرفة ذاتك؟ ألا تشعر بأنك لغز كلي بالنسبة إلى نفسك؟».

«أنا لا أثير اهتمام أحد آخر بي، فلماذا أثير اهتمام نفسي بي؟»، صرخ أنور «استمر بالحياة!».

وكانت تستمر بينهما هذه النقاشات في المتجر حتى يصيرا مستنزفين وعدائيين تجاه بعضيهما، أما أنا وابنتهما جميلة فكنا نتسلل إلى الحديقة ونلعب الكريكت بعصا مكنسة وكرة مضرب.

كان يكمن، تحت كل هذه الضوضاء البوذية، إحساس أبي بالوحدة ورغبته في الارتقاء الداخلي. كان بحاجة إلى التحدث عن الأمور البوذية التي يتعلمها. غالباً ما كنت أمشي معه صباحاً إلى محطة القطارات،

حيث يستقل قطار الثامنة والنصف من الضواحي إلى محطة قطارات فكتوريا. خلال هذا المشي الذي يستغرق نحو عشرين دقيقة كان ينضم إليه آخرون، غالباً من النساء؛ سكرتيرات، وموظفات مكتبيات، ومساعدات، ممن يعملن أيضاً في سنترال لندن. كان يحب التحدث إليهن على كيفية الوصول إلى الصفاء الذهني، وكيف تكون صادقاً مع نفسك، وكيف تفهم ذاتك. وهن بدورهن كن يحدثنه عن حيواتهن، وخلانهن، واضطرابهن النفسي، وذواتهن الحقيقية، على نحو لا يمارسنه مع أي شخص آخر. حتى أنهن ما كن ينتبهن إلى وجودي، حاملاً راديو الترانزستور، ومستمعاً إلى «توني بلاكبورن شو» على «راديو وان». وكلما كان يقلّل أبي من سعيه إلى إغوائهن، كن يغوين أكثر؛ وغالباً ما كن ينتظرن مروره حتى يخرجن إلى الطريق. وإذا ما سلك طريقاً أخرى تفادياً لرشق بعض طلاب المدارس له بالحصى ومكعبات الثلج المليئة بالبول، فقد كن يبدّلن طريقهن أيضاً. في القطار كان أبي يقرأ كتبه أو يروح ينظر بتركيز إلى طرف أنفه، وهو هدف كبير بالطبع. وكان يحمل معه باستمرار قاموساً أزرق صغيراً، بحجم علبة كبريت، ويحرص على تعلم كلمة جديدة يومياً. وفي عطل الأسبوع كنت أسمّع له كلمات معقدة مثل «أنالبتك»، «فروتسنت»، بوليسفلس»، «أورغولوس». وكان ينظر إليّ قائلاً: «لا يعرف واحدنا متى يحتاج إلى كلمة ثقيلة يثير بها إعجاب شخص إنكليزي».

لكنه لم يكن لديه، قبل أن يلتقي إيفا، من يشاركه حقاً اهتمامه بهذه المسائل البوذية، وفوجئ بإمكانية مثل هذا الاهتمام المتبادل.

الآن، افترضت، في ليلة السبت هذه، أن «الله» سيقابل إيفا مجدداً. أعطاني العنوان مدوناً على ورقة صغيرة وصعدنا الحافلة، ووجهتنا هذه المرة ما أعتبره الريف. كان الجو معتماً ومصقعاً حين

ترجّلنا في تشيزلهرست. سقت أبي أولاً في اتجاه واحد، ثم بعد أن سألت المسؤولين، في الاتجاه المعاكس. وكان بالغ الحماسة للوصول بحيث أنه بعد عشرين دقيقة من الصبر اشتاط غضباً.

«أين نحن أيها الأخرق؟».

«لا أعرف».

«استعمل عقلك الذي ورثته عني أيها الوغد!»، قال مرتعشاً: «الطقس مصقع وقد تأخرنا».

«هذا خطؤك أنك بزدان يا أبي».

«خطأي؟».

كان بالتأكيد خطؤه، ذلك أنه كان يرتدي تحت معطفه ما يشبه البيجاما الكبيرة. فوقها قميص حريري طويل ازدانت ياقته بالتنانين، ويصل إلى حدّ ركبتيه. وكان ينتعل صندلاً. لكن الجريمة الحقيقة، وهي سبب تخفيه تحت المعطف المليء بالوبر، فكانت الصديري المخملي المزدان بخيوط ذهبية وفضية، والذي لبسه فوق القميص. لو أن أمي رأته بهذه الهيئة لاستدعت له الشرطة. ففي نهاية الأمر هو موظف حكومي، يحمل حقيبة ومظلة، ولا يجوز له أن يمشي بين الناس بهيئة مصارع ثيران قزم.

منازل تشيزلهرست فيها مستنبتات، وأشجار سنديان ضخمة ومرشّات مياه في مهد العشب. كان المشهد مثيراً بالنسبة إلى أناس مثلنا، حين كنا نمشي في تلك الشوارع مع عائلاتنا يوم الأحد، في زيارة للعمة جين مثلاً، كنا ننظر إلى هذه الأمكنة بوصفها مسارح الطبقة الدنيا، مردّدين كلمات الإعجاب «آآآه»، و«أوووه»، ومتخيلين أي أوقات كنا سنمضيها لو كنا نعيش هناك، وكيف سنزيّن المكان، ونهيء

الحديقة للعب الكريكت والبادمينون وكرة الطاولة. أتذكر أمي مرة وهي تنظر إلى أبي نظرة عاتبة كما لو أنها تقول له: أي زوج أنت يمنحني هذا القليل جداً بينما الرجال الآخرون، آل آلان وباري وبيتر وروي، يؤمّنون لزوجاتهم السيارات والبيوت، والعطل، والتدفئة المركزية والمجوهرات؟ ويستطيعون على الأقل تركيب رف أو إصلاح سياج. ما الذي تستطيع أنت فعله؟ وكانت أمي غالباً ما تتعثر بالحفر، مثلما كان يحدث معنا الآن، حيث أن الطرق كانت عمداً تترك محفرة، لثني الأناس العاديين من أمثالنا عن التجوال بسياراتهم في المنطقة.

حين وصلنا أخيراً مقرقعين على الحصى أمام البيت، حيث وقف «الله» للحظة لكي يلتقط أنفاسه ويمارس بضع دقائق من التأمل ـ أخبرني أن البيت يملكه كارل وماريان، وهما صديقان لإيڤا، باتت الهند تستحوذ على اهتمامهما فصارا يكثران من السفر إليها. وبدا هذا جلياً من اللحظة الأولى، من تماثيل بوذا المنحوتة من خشب الصندل، والمنافض النحاسية، والفيلة المخططة بالجص، التي تزين كل فسحة في البيت. ناهيك عن أن كارل وماريان استقبلانا عند الباب حافيي القدمين، وأيديهما مضمومة في الصلاة ورأساهما محنيين كما لو أنهما خادما معبد، لا شريكان في مؤسسة «رامبولد وتودريب» لتأجير البرامج التلفزيونية.

كانت إيڤا بانتظارنا، لابسة فستاناً أحمر طويلاً تصل أطرافه إلى الأرض، وطرباناً طويلاً. انقضّت عليّ وبعد اثنتي عشرة قبلة دسّت في يدي ثلاثة كتب.

«شمّها!».

قرّبت أنفي من الأوراق المتعفّنة. كانت رائحتها كالشوكولاته.

«إنها مستعملة! اكتشافات حقيقية! وهذا الكتاب لأبيك»، وناولتني

نسخة جديدة من «مختارات من كونفوشيوس»، ترجمة آرثر والي «رجاء احمله معك. هل هو على ما يرام؟».

«إنه متوتر جداً».

نظرت في أرجاء الغرفة، وكانت تضم قرابة عشرين شخصاً.

«إنهم عاطفيون جداً. أغبياء حقيقيون. أنا واثقة من أنه لن يعاني أي مشكلة. حلمي هو ان أجعله يلتقي أناساً يتجاوبون معه أكثر في لندن. أنا مصممة على أن نذهب جميعاً إلى لندن!»، قالت «الآن دعني أعرفك إليهم».

بعد بضع مصافحات جلست على كنبة سوداء لمّاعة، مريحاً رجلي على سجادة صغيرة من الفرو الأبيض، وورائي صف من الكتب الضخمة، نسخ موجزة مع رسومات من «فانيتي فاير» و«المرأة بالأبيض». ورأيت أمامي ما يشبه الضربان المشع، وهو كناية عن لمبة من مئات الألوان تشعّ من القضبان التي تبرز منها، شيء أنا واثق من أنه صمم لكي يتم تقديره بمساعدة الحبوب المهلوسة.

سمعت كارل يقول: «هناك صنفان من الناس، أولئك الذين زاروا الهند وأولئك الذين لم يزوروها»، وأجبرت على النهوض والابتعاد عن مدى السمع.

إلى جانب الباب الفرنسي المطلّ على الحديقة الطويلة وبركتها المليئة بالأسماك الذهبية التي تلتمع تحت الضوء الأرجواني، كان ثمة مشرب. لم يكن كثر يحتسون الخمر في هذه المناسبة الروحية الهامة، لكن أنا يمكنني بسهولة احتساء كأسين من الجعة، وإن لم يكن ذلك سيبدو جيداً، حتى أنا عرفت ذلك. كانت ابنة ماريان، ترافقها فتاة تكبرها سناً، وكلاهما تلبسان بنطالين ضيقين، تقدمان اللاسي والمقرمشات الهندية الحارة، التي من المضمون أن تجعلك تضرط مثل

مسنّ يتناول «ألبران». انضممت إلى الفتاة ذات البنطال الضيق الواقفة وراء المشرب، وأخبرتني أن اسمها هلن وأنها طالبة في الثانوية.

«أبوك يبدو ساحراً»، قالت. ابتسمت لي وخطت خطوتين سريعتين إلى دائرة خصوصيتي فأصبحت بجانبي تماماً. فاجأني قربها وأثارني. كانت تلك مفاجأة تافهة في مقياس ريختر الخاص بي للمفاجآت، ثلاث درجات ونصف الدرجة، لكنني وضعتها في الاعتبار. في تلك اللحظات كنت أتأمل «الله». هل يبدو ساحراً؟ صانع عجائب؟

كان بالتأكيد إكزوتياً، على الأرجح الرجل الوحيد في نورث لندن (إذا استثنينا ربما جورج هاريسون) الذي كان يلبس في تلك اللحظة صديرياً أحمر ذهبياً وبيجاما هندية. كان أيضاً بهياً، بدا مثل نورييف أمام الآخرين شاحبي الوجوه بكنزاتهم الضيقة الملتصقة ببطونهم، وبناطيل جون كولبيه المتهدّلة والمتغضنة عند منشعب الرجلين. ربما كان أبي ساحراً فعلاً، بعد أن حول نفسه من موظف حكومي هندي ينظف أسنانه دائماً بمعجون «مانكي براند» الأسود الذي تصنعه «نوجي وشركاؤها» في بومباي، إلى المعلّم الحكيم الذي يبدو عليه الآن، «سادي المثير»(*) هذا. الآن أصبح محور الغرفة. فقط لو يراه زملاؤه في مبنى «وايت هول» الحكومي!.

كان يتكلم إلى إيڤا، التي شبكت ذراعيها بذراعيه بشكل عادي، معلنة بصورة فاضحة: أجل نحن معاً، ونتلامس بلا وازع أمام الغرباء. مرتبكاً، أشحت بنظري عنهما، والتفت إلى هلن.

«إذاً؟»، سألتني بلطف.

(*) «سادي المثير»: أغنية للبيتلز، كان عنوانها في الأصل «المهاريشا» وكتبها جون لينون بعد أن تحرش المهاريشا ماهيش يوغي بإحدى المرافقات له في الفرقة.

كانت تشتهيني.

عرفت ذلك لأنني طوّرت منهجاً ذاتياً صلباً لتحديد الرغبة. وهذا المنهج أفادني بأنها تشتهيني لأنني لم أكن مهتماً بها. كلما وجدت شخصاً جذاباً كان أكيداً بحسب القوانين الفاسدة التي تحكم الكون بأن هذا الشخص سيجدني منفّراً أو ببساطة صغيراً جداً. القانون نفسه يضمن أنني حين أكون مع شخص مثل هلن، التي لا أشتهيها، فالاحتمال الأكبر أن تنظر إلي، مثلما تفعل هي الآن، بابتسامة ماكرة ورغبة بأن تعصر ذكري بين يديها، وهو أكثر ما كنت أطمح أن يفعله الآخرون معي، شرط أن أجدهم جذابين، وهو ما لم يكن متوافراً في حالة هلن.

أبي، الحكيم الكبير، الذي تنهمر الإرشادات من شفتيه كأمطار سياتل، لم يكن حدثني أبداً عن الجنس. حين سألته مرة، بقصد اختبار مدى ليبراليته، أن يخبرني بوقائع الحياة (التي عرفتها من المدرسة أساساً، غير أنني ظللت أخلط بين معاني أسماء الرحم العلمية المختلفة)، تمتم قائلاً فحسب: «يمكنك دائماً أن تعرف متى تكون المرأة جاهزة للجنس: حين تسخن أذناها».

نظرت باهتمام إلى أذني هلن. حتى أنني مددت يدي ولمست أرنبة إحداهما، للتأكد العلمي. دافئتان!

آه، تشارلي. كم كان كان قلبي تواقاً لملمس أذنيه الحارتين على صدري. لكنه لم يتصل بي منذ آخر مرة مارسنا فيها الحب، ولا كلف نفسه الحضور إلى هنا. كان متغيباً عن المدرسة أيضاً، يسجّل شريطاً موسيقياً تجريبياً مع فرقته. الألم الذي شعرت به لغياب تشارلي، خفّفه على نفسي احتمال أنه سيسعى إلى سماع المزيد من حكمة أبي الليلة. لكن حتى تلك اللحظات لم يكن من أثر له.

بدأت إيفا وماريان بتنظيم الغرفة. أضيئت الشموع وأسدلت الستائر

المعدنية، وأشعل البخور الهندي في أواني الزهور، وفرشت سجادة صغيرة لكي يحلق عليها بوذا الضواحي. مالت عليه إيڤا وقدمت له باقة من النرجس البري. تبسّم «الله» للناس الذين عرفهم من المرة السابقة. بدا هادئاً وواثقاً من نفسه، وأكثر استرخاء من قبل، باذلاً جهداً أقل، ومشعاً فحسب باحترام المعجبين له، ذلك الاحترام الذي لابدّ من أن إيڤا كانت تستحثه فيهم.

ثم دخل العم تيد والعمة جين.

الفصل الثالث

ها هما الزوجان الكحوليان التعسان. هي في حذاء زهري عالي الكعب، وهو ببذلة مزدوجة الصديري، ومتأنقان كأنما لحفل زفاف، كما لو أنهما يدخلان ببراءة إلى حفلة. هي خالتي جين، وهو زوجها تيد الذي يملك مؤسسة للتدفئة المركزية تدعى «بيترز هيترز». وقد صدمتهما رؤية صهرهما المعروف باسم هاري، وهو قاعد في وضعية يوغا أمام جيرتهما. كافحت جين للعثور على الكلمات، ولعله الشيء الوحيد الذي كافحت من أجله في حياتها، لكن إصبع إيڤا ارتفع إلى شفتيها، مشيراً إليها بالتزام الصمت. أقفل فم جين ببطء، مثل «جسر تاور». أما تيد فجال الغرفة بعينيه بحثاً عن إشارة ما عما يجري فيها. رآني فأومأت له برأسي. كان مرتبكاً إنما غير غاضب، على عكس خالتي جين.

«ما الذي يفعله هاري؟»، رسم بصمت هذا السؤال بفمه.

لم يكن تيد وجين يناديان أبي أبداً باسمه الهندي هارون أمير. كان دائماً هاري بالنسبة إليهما، وكانا يذكرانه بهذا الاسم أمام الآخرين. كان يكفيهما سوءاً بالدرجة الأولى أن يكون هندياً، فما بالك بأن يكون اسمه غريباً أيضاً، فبدآ يناديانه هاري منذ المرة الأولى التي التقياه فيها، ولم يكن ثمة ما يستطيع أبي فعله حيال الأمر، سوى أن يكنيهما «جين وتونيك».

كنت والعم تيد صديقين مقرّبين. أحياناً كان يصحبني معه إلى أعمال

التدفئة المركزية، ويدفع لي أجراً لقاء القيام بالأعمال الثقيلة. كنا نأكل ساندويتشات اللحم، ونشرب الشاي من البراد الذي نأخذه معنا. وكان يسديني النصائح الرياضية ويصحبني إلى مضمار «كاتفورد» لسباق الكلاب، ومضمار «إبسوم داونز» لسباقات الخيول. وكان يحدثني عن سباقات الحمام. وقد أحببت منذ نعومة أظفاري العم تيد، لأنه كان يعرف عن الأشياء التي يعرف عنها آباء الأولاد الآخرين، والتي كان يحبطني جهل أبي التام بها: أمور الصيد وبنادق الهواء، والطائرات وكيفية تناول الحلزون البحري.

ازدحمت الأفكار في عقلي وأنا أحاول أن أفهم كيف وصل تيد وجين إلى هنا، مثل شخصيات من كوميديا إيلينغ تدخل فيلماً لأنطونيوني. كانا يعيشان في تشيزلهرست أيضاً، لكن كانت عوالمهما بعيدة كلياً عن كارل وماريان. كيف حصل هذا إذاً؟ بدأت أكوّن فكرة، والفكرة التي كونتها لم تعجبني.

لابدّ من أن أمي المسكينة الغارقة في التعاسة، حكت لأختها عن نشاطات أبي البوذية في باكنهام. ولابدّ من أن جين أصيبت بسكتة قلبية من شدة الغضب تجاه ضعف أختها الذي أتاح حدوث أمر كهذا. لابدّ من أنها كرهتها لأجل ذلك.

لابدّ من أن أمي، حين أعلن أبي، أو بالأحرى جعلني أعلن نيابة عنه، قبل بضع ساعات، بأنه سيظهر مجدداً، هاتفت أختها الصغرى. فشعرت الأخيرة بالكرب، وتحولت إلى تلك السكين الحادة التي كانتها حقاً. وانطلقت لفعل شيء ما. لابدّ من أنها قالت لأمي إنها تعرف كارل وماريان، اللذين على الأرجح ركّب لهما تيد التدفئة المركزية. وجين وتيد يعيشان في بيت جديد مجاور. هذا هو الاحتمال الوحيد لمعرفة زوجين مثل ماريان وكارل بهما. عدا ذلك فإن الأخيرين بكتبهما

وأسطواناتهما ورحلاتهما الهندية و«ثقافتهما»، يشكّلان لعنة بالنسبة إلى تيد وجين اللذين يقيسان الناس بمدى ما يملكونه من مال وسلطة. الباقي كان تظاهر. بالنسبة إلى تيد وجين فإن تومي ستيل، الذي يعيش أبواه في طرف الشارع كان ثقافة، وتسلية، و«شو بيزنز».

في الأثناء كانت إيڤا التي تجهل تماماً هذين الغريبين المتطفلين، تلوّح لهما بضيق. «اقعدا، اقعدا»، همست لهما. فنظر تيد وجين إلى بعضيهما كما لو أنهما أمرا بابتلاع أعواد ثقاب.

«أجل، أنتما»، أضافت. كم يمكنها أن تكون حادة، إيڤا هذه.

لم يكن من خيار أمامهما، سوى اقتعاد الأرض كالآخرين. لابدّ من أنه مضت سنوات منذ آخر مرة اقتربت فيها الخالة جين من الأرض، إلا إذا استثنينا المرات التي كانت تسقط فيها فاقدة الوعي من شدة الثمالة. بالتأكيد ما كانا ليتخيلا بأن تكون الأمسية بمثل هذا الخشوع، وأن يكون الجميع ملتفاً حول أبي بمثل هذا الإعجاب. سنواجه لاحقاً مشكلة كبرى، لم اشك في ذلك.

أوشك «الله» على البدء. مضت هلن وانضمّت إلى المجموعة. أما أنا فوقفت وراء المشرب ورحت أتفرج. نظر أبي إلى الحشد وابتسم، وعندها رأى تيد وجين، لكن تعبيرات وجهه لم تتبدّل البتة.

بالرغم من تكنيته لهما «جين وتونيك»، فهو لم يكن ينفر من جين، وكان يحب تيد الذي كان بدوره يبادله الحب. كان تيد يناقش غالباً مشكلاته الشخصية الصغيرة مع أبي، إذ أنه على الرغم من أنه كان أمراً محيراً بالنسبة إلى تيد أن أبي لا يملك مالاً، فقد كان يشعر أنه يفهم الحياة، وأنه حكيم جداً. هكذا أخبر تيد أبي عن مشكلة جين مع الكحول، أو علاقتها العاطفية مع المحامي المحلي الشاب، أو كيف بدأت حياته تفقد جدواها، أو حال عدم الرضى التي يشعر بها.

كلما كانت تحصل جلسات المصارحة هذه، كان أبي يستغلّ تيد، «يستطيع أن يعمل ويبكي في آن، أليس كذلك؟». كان يقول، بينما يقوم تيد، أحياناً بعينين دامعتين، بتركيب رف لكي يضع عليه أبي كتب الفلسفة الشرقية، أو يشحّم مفصلات باب صدئة، أو يبلّط الحمام، لقاء إصغاء أبي إليه. «أجّل انتحارك حتى تنتهي من هذه الأرضية يا تيد»، كان يقول له.

الليلة لم يكترث أبي لحضور جين وتيد. كانت الغرفة ساكنة وصامتة. وغرق أبي في الصمت أيضاً، ناظراً أمامه مباشرة. في البداية كان صمتاً صغيراً. ثم استمرّ واستمرّ، حتى أصبح صمتاً كبيراً: فراغ تبعه فراغ، ثم فراغ إضافي، وأبي قابع هناك، ناظراً بثبات وباهتمام. بدأ رأسي يتعرّق، وراحت فقاقيع الضحك تكبر في حلقي. تساءلت ما إذا كان سيحتال عليهم ويجلس هناك لساعة صامتاً (ربما مطلقاً عبارة سرية مثل «براز جاف على رأس حمامة»)، قبل أن يرتدي معطفه ويمضي عائداً إلى زوجته، بعد أن أوصل بورجوازيي تشيزلهرست إلى فهم عميق لفراغهم الداخلي. أيجرؤ على فعل أمر كهذا؟

أخيراً بدأ يتمتم «الراب» الخاصة به، المصحوبة هذه المرة بأوركسترا من الهسهسة والصمت والحملقة في الجمهور. وقد فعل ذلك بأقل صوت ممكن، بحيث اضطر الأوغاد المساكين إلى الانحناء لسماعه. لكن لم يحدث أي تراخ. ظلّت آذانهم صاغية.

«في مكاتبنا وأماكن عملنا نحبّ أن نملي على الآخرين ما يفعلونه. نشوّه سمعتهم. نقارن عملهم بعملنا الذي نراه أفضل. نحن دائماً في تنافس. نتفاخر ونثرثر. نحلم بأن يعاملنا الآخرون جيداً، وأن نتمكن من معاملتهم بشكل سيء...».

ببطء فتح زوجان الباب الذي وراء أبي ووقفا هناك. هو شاب

طويل، شعره المصبوغ بالأبيض مقصوص على طريقة سبايكي، ويلبس حذاء فضياً وسترة فضية لمّاعة مثل كائن فضائي. الفتاة التي معه كانت حرفوشة قياساً إليه. في السابعة عشرة تقريباً، ترتدي جلباباً هبياً طويلاً، وتنورة تصل إلى الأرض، وشعر يطاول خاصرتها. أخيراً أقفلا الباب ورحلا؛ لم ينزعج أحد، وظلوا يصغون إلى أبي، باستثناء جين، التي فردت شعرها أمام عينيها كأنها تقيمه حاجزاً بين أبي وبينها، ثم نظرت إلى تيد علها تتلقى إشارة دعم منه، لكنها لم تتلق أي إشارة: كان منصتاً كالآخرين.

مثل مدير مسرح مسرور بأن عرضه يلقى النجاح، وأن لا شيء إضافياً يمكنه عمله، انسللت من الغرفة عبر الباب الفرنسي. آخر الكلمات التي سمعتها كانت «علينا أن نجد طريقة جديدة كلياً للعيش».

كان حضور أبي هو الذي يدخل السكينة إلى نفوس الناس، أكثر من أي كلام يقوله. السلام والهدوء والثقة التي أفرزها جعلتني أشعر بأنني مركّب من الهواء والضوء وأنا أمضي عبر صمت ماريان وكارل إلى غرف بيتهم المعطرة، جالساً أحياناً وناظراً في المدى، ومتجولاً فحسب في أحيان أخرى. ازداد إدراكي للصمت والصوت؛ كل شيء بدا لي أكثر وضوحاً. كان هناك بعض الكاميليا في مزهرية من طرز «آرت نوفو»، ووجدت نفسي أحملق فيها بعجب. تركيز أبي وسكينته ساعداني على تقدير أشجار الحديقة بصورة أعمق، إذ صرت أنظر إلى الأشياء من دون تداعيات أو تحليل. أصبحت الشجرة شكلاً ولوناً، لا أغصاناً وأوراقاً. لكن، ببطء، بدأ يخبو هذا الصفاء، وعادت الأفكار إلى التسارع في عقلي. كان أبي فعالاً وكنت مسروراً لذلك. غير أن الفتنة لم تكن انتهت بعد: سمعت شيئاً آخر ـ صوتاً. وكان الصوت يخاطبني بلغة الشعر وأنا واقف هناك، في صالة كارل وماريان. بدت

الكلمات بعيدة، لأن عقلي كان فارغاً للغاية، صافياً جداً. وكان الشعر:

«هذا صحيح إنه النهار؛ ما الذي سيكونه؟

آه قبل أن تنهضي عني؟

لماذا علينا أن ننهض؟ ألأنه الضوء؟

وهل اضطجعنا لأنه كان ليل؟

الحب الذي في العتمة جمعنا معاً،

ينبغي برغم الضوء أن يبقينا معاً»(*).

كان صوتاً ذكورياً عميقاً، ولم يكن يأتي من أعلى، مثلما ظننت لأول وهلة ـ لم يكن صوت ملاك. تبعت الصوت حتى وصلت إلى بيت زجاجي، حيث رأيت فتى فضي الشعر يجالس فتاة على أرجوحة، ويحادثها، لا بل يقرأ لها، من كتاب جلدي صغير يحمله بيده، وهو مائل نحوها، كما لو ليكبس الكلمات في وجهها. أما هي فجلست مستكينة وعابقة برائحة الباتشولي، ومرتين أزاحت خصلة شعر من أمام عينيها، بينما تابع هو:

«طردت الأفعى من الفردوس

على الغزال الجريح أن يكف عن السعي إلى العشبة

التي يكمن فيها شفاء قلبه...».

الفتاة التي تكاد تموت ضجراً، صارت أكثر حيوية ولكزت رفيقها حين رصدتني أسترق النظر إليهما.

«عذراً»، قلت لهما، وأشحت بنظري عنهما.

«لماذا تتجاهلني يا كريم؟».

(*) من قصيدة «فجر» للشاعر الإنكليزي جون دان (١٥٧٣ ـ ١٦٣١).

عرفت أنه تشارلي.

«لست أتجاهلك، أعني لا أقصد ذلك. لماذا صبغت شعرك بالفضي؟».

«للمزيد من المرح».

«تشارلي، لم أرك من أزمنة. ما الذي كنت تفعله؟ لقد قلقت عليك؟».

«لا داعي للقلق أيها الصغير. لقد كنت أعدّ نفسي لبقية حياتي وكل شيء».

سحرني كلامه هذا.

«أحقاً؟ وكيف ستكون بقية حياتك؟ هل تعرف ذلك؟».

«حين أنظر إلى المستقبل أرى ثلاثة أشياء، النجاح، النجاح...».

«ثم النجاح»، أضافت الفتاة بغرابة.

«آمل ذلك... رائع جداً يا رجل».

نظرت الفتاة إلي باستغراب «أيها الصغير»، قهقهت ودسّت شفتيها في أذنه «تشارلي، هلا قرأت لي المزيد؟».

فبدأ تشارلي مجدداً، قارئاً لكلينا، لكنني بدأت أشعر بالانزعاج، وللصراحة، شعرت بأنني مغفل. كنت بحاجة فورية إلى جرعة من عقار أبي المعالج للرؤوس. لكنني لم أرغب بترك تشارلي. لماذا صبغ شعره بهذا اللون؟ هل دخلنا حقبة جديدة من موضة الشعر فاتني كلياً أن ألاحظها؟

أجبرت نفسي على العودة إلى غرفة الجلوس. كانت «جلسة» أبي تتكون من نصف ساعة.من التعليمات التي يلقيها همساً إضافة إلى الأسئلة، ونصف ساعة من اليوغا وبعض التأمل. في النهاية، حين

نهض الجميع وراحوا يتحادثون ناعسين، حيتني الخالة جين بنوع من الجفاء. كان جلياً أنها راغبة بالرحيل، لكن في الوقت نفسه كانت تحملق في أبي الواقف في الطرف الآخر من الغرفة يتبسّم بارتياح، وبجواره إيفا، بينما عدد من الحاضرين يستفسر منه حول معلومات إضافية. وسأله اثنان منهم ما إذا كان يقبل الذهاب إلى منزلهما وعقد جلسات هناك. أصبحت إيفا تملكية، وراحت تبعد أبي عن هؤلاء المملين، بينما هو يومئ برأسه مغتبطاً.

قبل أن أغادر تبادلت وهلن العنوان ورقم الهاتف. كان تشارلي والفتاة يتجادلان في الصالة. فقد كان يريدها أن ترافقه إلى المنزل، وهي ترفض، تلك الحمقاء الصغيرة: «لكن لماذا ترفضينني؟»، قال لها «أنا أريدك حقاً. أنا أحبك الآن».

ما الذي أفقده رباطة جأشه؟ تساءلت في سري ما إذا كنت سأكون قادراً على عدم الاكتراث، إذا ما رفضني أحدهم يوماً ما؟ نخرت هزءاً وأنا أمرّ من أمامه، وانتظرت في الخارج أبي وإيفا.

كان الوضع كالتالي: هلن أحبتني بلا أمل، وأنا أحببت تشارلي بلا أمل، وهو أحب الآنسة ذات عطر الباتشولي بلا أمل، ولا بدّ من أنها تحب بدورها وغداً آخر بلا أمل. الحب الوحيد المتبادل حقاً كان بين «الله» وإيفا. كان مجرد وجودي معهما في السيارة مزعجاً لي، وأنا أراها تضع يديها على أنحاء جسده. مما اضطرّه إلى أن يلوح لها بإصبعه منذراً لكي تتوقف، وهو الأمر الذي انصاعت له. وأنا جلست هناك كابن طيب، زاعماً أنني غير موجود.

هل كان أبي مغرماً حقاً بها؟ كان يصعب عليّ تقبّل ذلك. كان عالمنا يبدو غير قابل للاختراق. لكن ألم تصبح علاقته بإيفا علانية؟ في نهاية الجلسة طبع على فمها قبلة وبدا كما لو أنه يمتص برتقالة، وقال

لها إنه ما كان ليفلح في الأمر من دونها. دست يدها في شعره بينما أيدي كارل وماريان متضامة في الصلاة، وتيد وجين يتفرجان، في معطفيهما الأخرقين، مثل الشرطة السرية. ما الذي ألمّ بأبي؟

كانت أمي بانتظارنا في الصالة، وجهها متوار جزئياً وراء سماعة الهاتف. كانت تقول القليل، لكنني استطعت سماع صوت جين الخافت في الطرف الآخر. لم تضيع وقتها. أبي هرب إلى غرفته. وكنت سأهمّ بالهرب إلى غرفتي حين خاطبتني «انتظر لحظة، أيها المتذاكي، أحدهم يريد أن يتكلم معك».

«من؟».

«تعال إلى هنا».

ناولتني السماعة وسمعت جين تقول شيئاً واحداً: «تعال لزيارتنا غداً. بلا تأخير. أفهمت؟».

كانت دائماً تصرخ بمن تخاطبه كما لو كان غبياً. اللعنة عليك، فكرت. لم أكن راغباً بالاقتراب منها وهي بهذا المزاج. لكن، بالطبع، أنا الشخص الأكثر فضولاً الذي عرفته في حياتي. لذا قررت أن أذهب إليها.

إذاً، في الصباح التالي نظفت دراجتي الهوائية وانطلقت منطنطاً على الطرقات الوعرة، سالكاً الطريق التي سلكتها وأبي في الليلة الفائتة. قدت ببطء وتفرجت على الرجال وهم ينظفون سياراتهم بالمكانس الكهربائية، ويغسلونها بالخراطيم، ويلمعونها، ويصقلونها، ويحفّونها، ويعاودون طلائها، ويتناقشون حولها، ويعبّرون عن إعجابهم بها. كان يوماً جميلاً، لكن روتينهم لم يتغير. نساء ينادين أن الطعام جاهز، وأناس يرتدون البدلات والقبعات عائدين من الكنائس حاملين الأناجيل، بينما الأولاد نظاف الوجوه، مصففي الشعر.

لم أكن مستعداً تماماً لاستجواب تيد وجين، لذا قررت أن أزور هلن، التي كان بيتها قريباً. كنت قد تسللت باكراً ذاك الصباح إلى غرفة أبي وسرقت واحداً من واقياته الذكرية، التي يكاد يأكلها الغبار، فقط في حال حصل شيء ما.

كانت هلن تعيش في بيت قديم كبير بعيداً عن الشارع العام. كل من أعرفهم، تشارلي وسواه، كانوا يعيشون في بيوت كبيرة، ما عدانا. لا عجب أن تنشأ لدي عقدة نقص. لكن منزل هلن لم يطلى منذ أزمنة، ونمت الأعشاب البرية حوله أكثر من اللازم، حتى أنه كان هناك هندباء برية في الطرقة. وكانت السقيفة نصف منهارة. لو رأى العم تيد هذا لاعتبره عاراً يثير البكاء.

أوثقت الدراجة بسلسلة إلى السياج، ولمّا هممت بفتح البوابة اكتشفت أنها عالقة. فتسلقت الباب. وقرعت الجرس في الشرفة الأمامية وسمعت طنينه يتردد عميقاً داخل البيت. كان ذلك مخيفاً. لم يكن من جواب، فانكفأت عائداً.

«كريم، كريم»، سمعت صوت هلن عجولاً وقلقاً، من نافذة فوق رأسي.

«مرحباً»، هتفت، «فقط رغبت برؤيتك».

«أنا أيضاً».

شعرت بالإثارة. لطالما أحببت أن تحصل الأشياء بسرعة. «ما المشكلة إذاً؟ ألا تستطيعين الخروج؟ ما مسألة روميو وجولييت هذه؟».

عند قولي هذا التفتت هلن إلى داخل الغرفة، وراحت تتجادل مع رجل ما، ثم أقفلت النافذة، ثم أسدلت الستائر.

«هلن، هلن»، ناديت وقد شعرت فجأة بالتعلق بها.

انفتح الباب الأمامي. كان والد هلن. رجل ضخم أسود اللحية، ضخم الذراعين، ولابدّ من أن الشعر ينمو على كتفيه، والأسوأ، على ظهره أيضاً، مثل بيتر سيلرز وشون كونري. (كنت أعددت لائحة بأسماء الممثلين مشعري الظهور، وكنت أجددها باستمرار). وعندها شحب وجهي، ولكن من الواضح ليس بما فيه الكفاية لأن «ذي الظهر المشعر» أطلق الكلب الذي كان يمسك به باتجاهي، وهو كلب ضخم من نوع «دان»، انطلق بهمّة نحوي، فاغراً فمه كمغارة. بدا لي كما لو أن ثلماً قد قطع من دماغه ليشكّل فمه أصفر الأسنان، المضمّخ باللعاب. رفعت ذراعي أمامي بحيث لا يبتر الكلب إحدى يدي. ولابدّ من أنني بدوت كالسائر في نومه، لكن بما أنني كنت بحاجة إلى يدي لأغراض أخرى لم أهتم بشأن هذه الوضعية الباروكية، مع أنني كقاعدة عامة كنت مهووساً بمظهري، وأتصرف كما لو أن العالم برمته ليس لديه ما يفعله سوى مراقبتي ورصد هفواتي في طقس بالغ التعقيد والخصوصية.

«لا يمكنك أن ترى ابنتي مجدداً»، قال «ذو الظهر المشعر»، «إنها لا تخرج مع الفتيان ولا مع الووغز»(*).

«آه، حسناً».

«أفهمت؟».

«أجل»، أجبت بحرد.

«لا نريدكم أنتم السود أن تأتوا إلى بيتنا».

«هل هناك كثر؟».

(*) ووغز: تعبير بريطاني عامي عنصري، يطلق على غير البيض، لا سيما السود.

«كثر ماذا أيها الفحمة الصغيرة؟».

«كثر من السود».

«أين؟».

«يأتون إلى المنزل».

«لا نحب هذا»، أجابني «أياً يكن عدد الزنوج لا نحب ذلك.. نحن من أتباع إينوك»(*). إذا ما لمست يدك السوداء ابنتي فسأحطمها بالمطرقة! بالمطرقة!».

ثم صفق الباب. تراجعت خطوتين إلى الوراء. «ذو الظهر المشعر» اللعين. كنت بحاجة ماسة إلى التبول. نظرت إلى سيارته الروفر الكبيرة. وقررت أن أفرغ عجلاتها من الهواء. يمكنني فعل ذلك في ثوان، وأن أتبول على النافذة، وإذا ما خرج لي يمكنني أن أقفز من السياج أسرع مما تقفز قطة من نافذة. كنت بصدد التحرك نحو السيارة حين أدركت أن «ذا الظهر المشعر» تركني برفقة الكلب، الذي كان يشمشم الغائط على بعد ياردات قليلة مني. بدأ يتحرك. جمدت في مكاني زاعماً أنني شجرة أو حجر حتى أدرت ظهري له برشاقة وتقدّمت خطوتين، كما لو كنت أمشي على أطراف أصابعي على سطح منزلق. كنت آمل أن تفتح هلن النافذة وتناديني، وتنادي الكلب أيضاً. «آه هلن، هلن»، تمتمت.

لابدّ من أن صوتي الناعم أثار الكلب، إذ شعرت بنوع من الجلبة، تلاها ارتطام جسم غريب بكتفي. أجل، كانا مخلبا الكلب. وأحسست بسخونة أنفاسه على رقبتي. عرفت في تلك اللحظة ما الذي ينوي عليه

(*) إينوك (١٩١٢ ـ ١٩٩٨): جون إينوك باول، سياسي بريطاني يميني عرف بآرائه العنصرية المثيرة للجدل.

الكلب. كان مغرماً بي، حركاته السريعة على جسمي أنبأتني بذلك. كانت أذناه حارّتين أيضاً. لم أحسب أنه سيعضني، مع تفاقم حراكه، فقررت أن أركض. وعندها انقض عليّ.

طرت نحو البوابة وتسلقتها، فعلق قميصي بمسمار. وحين بلغت أعلى السياج وشعرت بالأمان حملت حجرين ورشقت الكلب بهما، وأصبته برأسه لكنه بدا غير مبال. وبينما هممت بركوب الدراجة خلعت سترتي، لاكتشف منيّ الكلب عليها.

كنت مدمّر المزاج حين وصلت أخيراً إلى منزل جين. وجين تجبر الجميع دائماً على خلع أحذيتهم قبل الدخول حفاظاً على نظافة السجادة. قال أبي حين زرناهم مرة «ما هذا يا جين، معبد هندوسي؟ أهو اللقاء بين حافي الرجلين وعديم الرجلين؟». كانا يحرصان بشدة على أي غرض جديد يقتنيانه، حتى أن مقاعد سيارتهما التي ابتاعاها قبل ثلاث سنوات لا تزال مغلفة بالنايلون. كان يحب أبي أن يلتفت إليّ ونحن فيها قائلاً: «ألسنا في نعيم في هذه السيارة، يا كريم؟». كان يضحكني فعلاً.

قرّرت ذاك الصباح، حين انطلقت إلى منزلهما، أن أكون دمثاً ومتسامحاً مثل ديك دايفر في رواية فتزجيرالد «عذب هو الليل»، لكن بوجود منيّ كلب على سترتي، ومن دون الحذائين، وتكاد مبولتي تنفجر، كان صعباً أن أتقمّص هذه الشخصية. ساقتني جين فوراً إلى غرفة الجلوس، وأقعدتني مستعملة نهجها المبتكر بأن ضغطت بيديها على كتفي، ومضت تبحث عن تيد.

اتجهت إلى النافذة ونظرت إلى الحديقة، حيث كانت تقام في الصيف، في أيام عز «بيترز هيترز»، الحفلات الرائعة. كنا أنا وتيد وأخي علي ننصب فوق العشب خيمة كبيرة، وننتظر بكل شوق وصول

الضيوف من أرجاء ساوث لندن و«كنت»: أهم العاملين في مجال البناء، ومدراء المصارف، والمحاسبين، والسياسيين المحليين، ورجال الأعمال، ومعهم زوجاتهم وقوالب الحلوى. أنا وعليّ كنا نحب أن نركض بين هذه الجموع التي تملأ الهواء بروائح العطر وما بعد الحلاقة. كنا نقدم الكوكتيلات و«الستروبري» والكريما والجاتو والجبن والشوكولا، وأحياناً في المقابل، كانت النسوة تقرص خدودنا، بينما نحاول أن نمدّ أيدينا داخل تنانير بناتهن.

كان أبي وأمي يشعران دائماً بأنهما غريبان ومصطنعان في هذه المناسبات المهمة، التي يقاس فيها المرء بما يجنيه من مال. كانا غير مفيدين لأي شخص هناك، والعكس صحيح. وكانا يبدوان غالباً غير متأنقين كفاية، بل رثي الهيئة إلى حدّ ما. كان أبي بعد أن يحتسي غالوناً من شراب «بيمز» يحاول عادة فتح نقاش مع الحاضرين حول الجوهر الحقيقي للمادية، معبّراً عن قناعته بأننا نعيش في عصر مادي. الحقيقة هي، كان يقول، إننا لا نقدّر بعمق كاف قيمة الفردية، أو جمالها الخاص. إنه الجشع ما تحتفي به ماديتنا، الجشع والمكانة الاجتماعية، لا قوام الأشياء وكينونتها. هذه الأفكار لم يكن مرحباً بها في حفلات جين، بحيث كانت أمي تؤشّر لأبي همساً أو تربيتاً باليد لكي يخرس. فأصبح ينفر بسرعة من هذه الأشياء، أما طموح أمي بأن تعيش مثل أي شخص آخر، فظل مصيره الكبت، تقابله رغبة أبي بالبروز مثل مهرّج في جنازة.

كان تيد وجين ملكاً وملكة صغيرين في تلك الأيام: ثريان، قويان، مؤثران. جين برعت في تعريف الناس إلى بعضهم، على المستويين المهني والعاطفي. كانت مستشاراً محلياً في أمور الحب، متدخلة في عدد لا يحصى من العلاقات، منذرة، ومسدية النصح، ومدلسة بلطيف

الكلام لإنقاذ بعض الزيجات، وتدمير علاقات أخرى. كانت تعرف ما يجري في كل مكان، على صعيد المال، والأسرّة على حدّ سواء.

بدت جين حصينة ضدّ مشكلات القلب، حتى انخرطت بعلاقة عاطفية مع شاب في الثامنة والعشرين، من عائلة وسطى قديمة ومعتبرة، عائلة سفنكوس. كان بتولاً، وساذجاً وغير مجرّب، وبشرته بشعة، لكنها كانت أدنى طبقة منه بكثير. تدخّل والداه بعد ستة أشهر من علاقتهما ولم تره أبداً بعد ذلك. حزنت لعامين، بينما صار تيد يبدو بنظرها يوماً بعد يوم أكثر رثاثة مما هو عليه حبيبها الغائب توري. توقفت الحفلات وانفضّ الناس.

الآن ها هي الخالة جين تدخل مع العم تيد إلى الغرفة. كان جباناً بالولادة، وعصبياً بلا حدود، ويموت فزعاً من المواجهة أو الجدال من أي نوع كان.

«مرحباً عمو تيد».

«مرحباً بني»، قال ببؤس.

بدأت الخالة جين بالتكلم فوراً: «اسمع يا كريم...».

«كيف حالك وكرة القدم؟»، قاطعتها وأنا أبتسم لتيد.

«ماذا؟»، سأل وهو يهز رأسه.

«فريق سبورز يبلي بلاء حسناً، أليس كذلك؟».

نظر إليّ كما لو كنت مجنوناً. لم يكن لدى الخالة جين أي فكرة عما يحدث. تابعت: «آن أوان أن نذهب لمشاهدة مباراة ثانية، أليس كذلك عمو تيد؟».

كلمات عادية بالتأكيد لكنها فعلت فعلها به. كنت أعرف أنه بعد أن ذكر كرة القدم سيكون على الأقل حيادياً تجاه السجال حول أبي، إن لم

يساند موقفي كلياً. ذلك أنني كنت أعرف بعض الأمور عن تيد التي لا يريد أن تعرفها جين، تماماً مثل حادثة الحديقة مع أبي.

بدأت أشعر بالتحسن.

هاكم ممسكي على تيد:

رغبت يوماً في أن أصبح أول لاعب وسط إنكليزي من أصل هندي وأرسلتني المدرسة للتدرب مع فريقي «ميلوال» و«كريستال بالاس». غير أن «سبيرز» كان فريقنا، وبما أن ملعبهم كان يقع بعيداً في نورث لندن، فلم تكن تتاح لنا مشاهدة مبارياتهم كثيراً. لكن حين جاؤوا للعب مع فريق «تشلسيا» أقنعت تيد بأن يصحبني إلى المباراة. حاولت أمي منعي من الذهاب، مخافة أن يؤذيني المشاغبون، علماً أنني لم أكن مهووساً بالمباريات الحية. فأنت تقف هناك في البرد وتتجلد خصيتاك، وحين يشارف أحدهم على تسجيل هدف، يقفز الملعب كله في الهواء، وكل ما تستطيع رؤيته القبعات الصوف.

ذهبت أنا وتيد وساندويتشاتنا عبر الضواحي إلى لندن. كانت هذه الرحلة التي يقوم بها أبي كل يوم، جالباً «الكيما» و«الروتي» و«الكاري» الملفوف في ورق ينش دهناً في حقيبة يده. قبل أن نعبر النهر مررنا بأحياء «هيرني هل» و«بركستون» الرثة، وهي جذابة جداً ولا تشبه أي من الأمكنة التي اعتدت رؤيتها، بحيث رحت أقفز ضاغطاً وجهي على زجاج النافذة محملقاً في البيوت ال?يكتورية القديمة. الحدائق كانت مليئة بالأشياء المهملة الصدئة والمعاطف القذرة؛ وتشابكت حبال الغسيل فوق الركام. شرح لي تيد «هنا يعيش الزنوج، أولئك السود».

في طريق العودة من المباراة انحشرنا في زاوية العربة مع العشرات من مشجعي «سبيرز» الآخرينالذين يضعون العصبات السوداء والبيضاء. كان لدي خبر كروي مفرقع لأصحابي في المدرسة: لقد فاز «سبيرز». «توتنهام، توتنهام»، رحنا نهتف فرحاً.

ثم نظرت إلى تيد وكان يحمل خنجراً. وقف على مقعده وكسر اللمبات في العربة. فتطاير الزجاج فوق رأسي. شاهدنا جميعاً تيد وهو يفك المرايا بأناة من الجدار الفاصل في العربة، كما لو أنه يفك رادياتور، ثم يرميها من القطار. ثم أفسحنا له في المجال ـ لم ينضم إليه أحد ـ وهو يمزق المقاعد بالخنجر مخرجاً حشواتها. أخيراً ناولني لمبة سليمة وقال لي «هيا متّع نفسك، إنه يوم السبت».

نهضت وقذفت اللمبة بكل قوتي، من دون أن أنتبه إلى أننا وصلنا إلى «محطة بينجي». فتحطمت اللمبة على جدار يستند إليه عجوز هندي صرخ بنا، ثم نهض ومضى. راح الفتيان في القطار يكيلون له الشتائم العنصرية. وحين عدنا إلى البيت أشارت أمي نحوي وسألت تيد ما إذا كنت قد أحسنت التصرف.

الآن خالتي جين تحملق بي.

«لطالما أحببنا أباك. ولم يكن لدينا أي اعتراض على زواجه من مارغريت، رغم أن بعضهم لم يكن تعجبه فكرة أن تتزوج من ملوّن...».

«خالة جين...».

«لا تقاطعني. لقد أخبرتني أمك عن تهريج أبيك في بكنهام. وأنه يجسد بوذياً...».

«إنه بوذي...».

«وهو ماض في علاقته بتلك المرأة المجنونة، وهذا يعرفه الجميع، لأنها أخبرتهم بنفسها، وهذا أمر شنيع».

«شنيع خالة جين؟».

«وبالأمس لم نصدق أعيننا، أليس كذلك تيد... تيد؟».

أومأ تيد برأسه مؤافقة.

«نفترض طبعاً أن هذا الجنون سيتوقف فوراً».

أسندت ظهرها إلى الوراء وراحت تنتظر ردي. الخالة جين هذه تعرف حقاً كيف ترعب المرء بنظراتها، إلى حدّ أنني رحت أجاهد لمنع ضرطة من أن تنفجر. وضعت رجلاً على رجل وضغطت مؤخرتي على الكنبة بأكبر قوة ممكنة. لكن بلا جدوى. الضرطة الشريرة انفجرت أخيراً. وخلال ثوان انتشرت رائحة الغاز القاتل واتجهت نحو الخالة جين، التي كانت لا تزال تنتظر ردي.

«لا تسأليني عن هذا خالة جين. ما يفعله أبي ليس من شأننا، أليس كذلك؟».

«أخشى أنه ليس شأنه اللعين وحده. إنه يؤثر علينا جميعاً! الناس يحسبون أننا جميعاً مجانين. فكر في بيترز هيترز!». قالت والتفتت إلى العم تيد، الذي وضع وسادة على أنفه: «ما الذي تفعله يا تيد؟».

سألتها بأكبر براءة ممكنة: «كيف سيؤثر سلوك أبي على تجارتكم، يا خالة جين؟».

حكّت أنفها، «لم تعد أمك قادرة على الاحتمال، إنها مهمتك أن توقف هذا الجنون فوراً. إذا فعلت ذلك فلن يكون من داع لمزيد من النقاش، وليشهد المسيح».

«ما عدا في الكريسمس»، أضاف تيد. كان يحب قول الأشياء الخطأ في اللحظة الخطأ، كما لو أنه يحصل على بعض احترام الذات بممارسة بعض التمرد.

نهضت جين ومشت على السجادة بكعبها العالي. فتحت نافذة واشتمت عبق الحديقة المنعش. التونيك يحول أفكارها ملكية.

«على أي حال والدك موظف حكومي. ماذا سيكون موقف الملكة لو عرفت بأفعاله؟».

«أي ملكة؟»، تمتمت لنفسي. وأجبت بصوت عال: «لا أجيب عن أسئلة افتراضية»، ونهضت واتجهت إلى الباب. أدركت وأنا واقف هناك أنني أرتعش. لكن جين ابتسمت لي كما لو أنني وافقت على كل ما قالته.

«يا لك من فتى طيب. الآن أعطني قبلة. وما هذا الذي على قفا معطفك؟».

لم أسمع شيئاً من حين وتونيك لبضعة أسابيع، وخلال ذلك الوقت لم أهرع إلى أبي وأرجوه راكعاً على ركبتي، أن يتخلى عن طقوسه البوذية تلك لأنها لا تعجب خالتي جين.

أما إيڤا فلم أسمع شيئاً عنها. وبدأت أظن أن العلاقة بينهما قد انتهت، وأحزنني ذلك، إذ عادت حياتنا إلى رتابتها المملة. لكن ذات مساء رن الهاتف وأجابت أمي. ثم وضعت السماعة بسرعة. كان أبي واقفاً عند باب غرفته. «من المتصل؟»، سألها.

«لا أحد»، أجابته بنظرة متحدية.

الفصل الرابع

أصبح جلياً بطرق أخرى أن إيڤا لن تخرج من حياتنا الآن. كانت حاضرة في انعزال أبي وسرحانه كل ليلة؛ أثناء مشاهدته وأمي برنامج «بانوراما» معاً؛ أو حين يستمع إلى أغنية حزينة أو حين يأتي أحدهم على ذكر الحب. لم يكن أحد منا سعيداً. لم أكن أعرف ما إذا كان أبي يلتقي إيڤا سراً. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ فحياة أهل الضواحي تحسب بالثانية والدقيقة؛ إذا ما تأخر القطار أو ألغيت رحلته دائماً يحلّ محله قطار آخر. لا أعذار يمكن اختلاقها في المساء: لا أحد يخرج، لا مكان للذهاب إليه، وأبي لم يكن له أصدقاء في العمل. زملاؤه أيضاً يغادرون لندن بأقصى سرعة ممكنة ما إن ينتهي دوام عملهم. أما السينما، فكان أبي وأمي يرتادانها مرة في السنة ربما، وكان أبي يغفو دائماً خلال الفيلم؛ وقد شاهدا مرة «وست سايد ستوري». لم نكن نعرف أحداً يرتاد الحانات، ما عدا العم تيد؛ فارتياد الحانات أمر يخص الطبقات السفلى، أولئك الذين هرهرت أسنانهم ويروحون يغنون أشياء من قبيل: «تعالي تعالي وانظري إلي... هناك في بال العتيقة وبوش». على آلات بيانو متهالكة.

الوقت الوحيد السانح لأبي إذاً حتى يرى إيڤا هو استراحة الغذاء، وربما كانت تلتقيه وتتناول معه الغذاء في حديقة «سانت جايمس»، تماماً حيث كان يلتقي أمي قبل الزواج. أما إذا كانا يمارسان الحب أم لا، فلم أكن أعرف، لكنني عثرت على كتاب في حقيبة يده يتضمن

رسومات تشرح أوضاعاً جنسية صينية، تحمل أسماء مثلك «بطتان مندريتان متداخلتان»، وتلك الوضعيتان المعقدتان «شجرة الصنوبر القزمة»، و«القط والفأرة معاً في الحفرة»، وتلك الوضعية الجميلة «الجدجدة السوداء تتدلى من غصن».

وسواء أتدلت الجدجدة السوداء من الغصن أم لا، فقد كانت الحياة متوترة، وإن بدت على السطح، على الأقل، هادئة. حتى ذات صباح يوم أحد، بعد شهرين من زيارتي لجين وتونيك، فتحت باب البيت ووجدت العم تيد واقفاً هناك. ونظرت إليه من دون تحية أو ابتسام، وبادلني النظر، شاعراً بالارتباك حتى تمكن من أن يقول «آه، بني، مررت لكي أرى الحديقة وأتأكد من أن الأزهار قد نبتت».

«الحديقة تزهر».

ثم دلف إلى الصالة منشداً: «سيكون هناك عصافير زرقاء فوق هضاب كليف البيضاء». ثم سألني: «كيف حال أبيك؟».

«تريد أن تتابع نقاشنا الصغير، هه؟».

«احتفظ بهذا لنفسك مثلما اتفقنا سابقاً»، قال وهو يتجاوزني.

«حان الوقت حتى نذهب إلى مباراة كرة قدم أخرى، عمو تيد، بالقطار، هه؟».

دخل إلى المطبخ حيث كانت أمي تضع شواء يوم الأحد في الفرن. خرجا معاً إلى الحديقة وسمعته يسألها عن أحوالها، بالأحرى أين أصبحت علاقة أبي وإيفا وكل المسألة البوذية؟ ما الذي كان بوسع أمي أن تجيب به؟ كل شيء على ما يرام، وليس على ما يرام في آن. فهي لم تكن تملك الأدلة، لكن هذا لا يعني أن الجرائم لا ترتكب.

بعد أن أنهى حديثه مع أمي، وهو لا يزال في مزاج جدي، دخل

إلى أبي في غرفة نومه. ومتطفلاً كعادتي تبعته، حتى وهو يحاول صفق الباب في وجهي.

كان أبي جالساً على شرشف سريره الأبيض، ويقوم بتنظيف حذائه بإحدى صديرياتي المصبوغة. كان من عادة أبي تلميع أحذيته، نحو عشرة أزواج منها، بكل أناة واهتمام، صباح كل أحد. ثم يفرشي بدلاته، ويختار القمصان التي سيلبسها خلال الأسبوع - يوم زهري، والتالي أزرق، والثالث ليلكي، وهكذا دواليك، ويختار القمصان، ويرتب ربطات العنق، التي كان لديه منها مئة واحدة على الأقل. جالس هناك مستغرقاً، وناظراً بعجب إلى الباب وهو ينفتح، وتيد الضخم بجزمة سوداء وكنزة خضراء مترهلة بقبة سلحفاة يملأ الغرفة مثل حصان في زنزانة، بدا أبي صغيراً وطفولياً مقارنة به، وقد اخترقت خصوصيته. تبادلا النظرات، تيد بوجه شرس وأخرق، وأبي فقط جالساً هناك في صديرية بيضاء وبيجاما، ورقبته الضخمة غائرة في صدره الهائل وبطنه غير الهائل. لكن أبي لم ينزعج على الإطلاق. كان يحب خروج الناس ودخولهم، وامتلاء البيت بالأحاديث والحركة، كما في أيام بومباي.

«آه تيد، رجاء هلا ألقيت نظرة على هذا الشيء من أجلي؟».

«ماذا؟».

علا الرعب وجه تيد. فكلما جاء إلى منزلنا يقرر ألا يتم استدراجه لإصلاح أي شيء.

«فقط ألق نظرة على هذا الشيء»، قال أبي.

وساقه حول السرير حيث نضد مخلع كان يضع فيه مشغّل الاسطوانات، وهو على شكل صندوق مغطى بلبدة رخيصة وله مكبّر صوت في مقدمه، وقرص دوار سكّري اللون، مع ذراع طويلة من أجل الأسطوانات الكبيرة. أشار أبي إليه وخاطب تيد كما اعتاد، أنا أكيد، أن يخاطب أحد خدمه.

«قلبي مفطور يا تيد، لا أستطيع سماع نات كنغ كول، ولا بينك فلويد. أرجوك ساعدني».

أمعن تيد النظر فيها. ولاحظت أن أصابعه غليظة كالنقانق، وأظافرها مهشمة ومحشوة بالأوساخ، وحاولت أن أتخيل يديه على جسد امرأة: «لماذا لا يقوم كريم بإصلاحه؟».

«إنه يحافظ على أصابعه حتى يصبح طبيباً. كما أنه وغد بلا فائدة».

«هذا صحيح». أجاب تيد وقد أبهجته هذه الشتيمة.

«والبقاء طبعاً هو لعديم الفائدة»، أردف أبي.

نظر تيد بريبة إليه بعد هذه الملاحظة الصوفية المفاجئة. جئت له بمفك البراغي من السيارة، وشرع يفك الجهاز.

«ارتأت جين إنه ينبغي أن أزورك يا هاري». ولم يعرف تيد ماذا يقول بعد ذلك ولم يساعده أبي، «إنها تقول إنك بوذي».

قال كلمة «بوذي» كما لو أنها «لوطي».

«وما هو البوذي برأيك؟».

«ما قصة هذا المشهد الغريب، وأنت على الأرض حافي القدمين، ذلك اليوم في تشيزلهرست؟»، رد تيد.

«هل شعرت بالاشمئزاز وأنت تستمع إلي؟».

«أنا؟ لا، إنني مستعد للإصغاء إلى أي كان. لكن جين بالتأكيد شعرت بغرابة شديدة».

«لماذا؟».

كان أبي يربك تيد.

«البوذية ليست شيئاً اعتادت عليه. يجب أن يتوقف هذا الشيء. كل ما أنت منخرط فيه، يجب أن يتوقف فوراً!».

دخل أبي في إحدى جولات صمته المحترفة، جالساً هناك فحسب ضاماً إبهاميه وحانياً رأسه بتواضع مثل فتى متهم بأنه مذنب لكنه مقتنع في صميم قلبه بصواب فعلته.

«لذا أقلع عن هذا فحسب، وإلا ما الذي سأقوله لجين؟».

كان تيد يصير انفعالياً. وظل أبي هادئاً.

«قل لها: هاري لا شيء».

هذا أخرج بقية التنهيدة من تيد، بعد أن أخفقت جميع محاولاته الأخرى، وأصبح بحاجة إلى مشاحنة، وإن كانت يداه منشغلتين في الجهاز.

ثم بسرعة خاطفة غيّر أبي الموضوع، ومثل لاعب كرة قدم يمرّر كرة طويلة عبر دفاع الخصم، شرع بسؤاله عن عمله وتجارته. تنهد تيد، لكن بشّ وجهه في الوقت عينه: بدا أكثر ارتياحاً لهذا الموضوع.

«العمل شاق، شاق جداً، منذ الصباح حتى المساء».

«فعلاً؟».

«العمل العمل، العمل لعين».

لم يكن أبي مهتماً، أو هذا ما حسبته.

ثم قام بشيء استثنائي، لا أظن أنه كان هو نفسه يعرف بأنه سيقوم به. نهض واتجه إلى تيد وأحاط رقبته بيديه، وجذبه إليه، حتى صار أنف تيد على صدره. وظل تيد بهذه الوضعية، الجهاز في حضنه، وأبي ينظر من فوق إلى رأسه، خمس دقائق على الأقل، قبل أن يقول أبي: «ما أكثر العمل في هذا العالم».

بطريقة ما حرّر أبي تيد من رباطة جأشه. كان صوته مختنقاً «لا أستطيع التوقف فحسب»، راح يئنّ.

«بلى تستطيع».

«وكيف سأعيش؟».

«لكن كيف تعيش الآن؟ بشكل كارثي. اتبع مشاعرك. اتبع طريق المقاومة الأقل. افعل ما يرضيك، أياً كان. دع البيت ينهار. ينجرف».

«لا تكن سافلاً. الكفاح ضروري في الحياة».

«لا تكافح تحت أي ظرف كان»، أجابه أبي بحزم، ممسكاً رأسه، «إذا لم تتوقف عن الكفاح فستموت قريباً».

«أموت؟ أحقاً؟».

«آه أجل. السعي يدمّرك. لا تستطيع السعي وراء الغرام، أليس كذلك؟ والسعي وراء مملرسة الغرام يؤدي إلى العجز الجنسي. اتبع مشاعرك. كل كفاح هو جهل. هذه حكمة فطرية، فقط افعل ما تحبه».

«إذا ما اتبعت مشاعري اللعينة فسأخرّب كل شيء». قال تيد هذا أو شيئاً يشبهه، إذ كان صعباً التأكد مما يقوله، ووجهه غارق في صدر أبي وصوته مخنوق. وحاولت أن أتبيّن ما إذا كان يبكي، لكنني لم أرد أن أقفز في أرجاء المكان وأشتت انتباههما.

«لا تفعل شيئاً إذاً»، قال «الله».

«سيتداعى البيت».

«من يبالي، دعه يسقط».

«ستنهار تجارتي».

«إنها شبه منهارة على أي حال»، قال أبي بعنف.

رفع تيد نظره إليه «كيف تعرف ذلك؟».

«دعها تنهار. افعل شيئاً آخر في غضون سنتين».

«ستهجرني جين».

«آه، لكن جين هجرتك أصلاً».

«آه يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي، أنت أغبى شخص عرفته يا هاري».

«أجل أعتقد أنني غبي. وأنت تتعذب كما لو كنتَ في الجحيم. أنت تشعر بالخزي جراء ذلك أيضاً. ألم يعد مسموحاً للناس أن يتعذبوا هذه الأيام حتى، تعذّب يا تيد».

راح تيد يتعذب. وأخذ ينتحب بقوة.

«الآن»، قال أبي، مبدلاً أولوياته «ما مشكلة هذا الجهاز اللعين».

خرج تيد من غرفة أبي ليجد أمي آتية من الصالة حاملة صحناً مليئاً ببودينغ يوركشاير. «ما الذي فعلته بالعم تيد؟»، سألت أبي وقد بدت مصدومة فعلاً. وقفت هناك بينما انثنت رجلا العم تيد الطويلتين أسفل الدرج مثل زرافة تحتضر، حاملاً جهاز أبي، وملقياً رأسه إلى الجدار، ليحف مصفّف شعره «برلكريم» على ورق الجدران، وهو الشيء الأكيد أن يجعل أمي تستشيط غضباً.

«لقد حررته»، أجابها أبي فاركاً يديه ببعضيهما.

وأي عطلة أسبوع كانت، بات خلالها الإرباك والألم بين أمي وأبي واضحين للعيان؛ إذا كان للبغض أن يتجسّد بصورة مادية، فإنه كان ليملأ البيت وحلاً. شعرت أن أي تعليق أو حادثة صغيرة بينهما، ستكون كافية لكي يقتل واحدهما الآخر، ليس بسبب الكره، بل اليأس. كنت أمكث في غرفتي حين يسعني ذلك، متخيلاً أنهما سيحاولان طعن واحدهما الآخر في أي وقت، وأرعبتني فكرة ألا أتمكن من الفصل بينهما في اللحظة المناسبة.

يوم السبت التالي، حين كنا جميعاً في البيت وأمامنا ساعات طويلة

نكون فيها معاً، خرجت بدراجتي الهوائية من الضواحي، تاركاً ذلك المنزل المضطرب ورائي. كان هناك مكان آخر يسعني الذهاب إليه.

حين وصلت إلى «بارادايز ستورز»، بقالية العم أنور، رأيت ابنتهما جميلة ترتّب البضائع على الأرفف، والأميرة جيتا وراء درج النقود. كان المتجر قديماً ورثاً، له سقف عال مبهرج ومتقشّر الطلاء. وكان فيه سلسلة طويلة من الأرفف العشوائية في وسط المتجر، يتجمهر حولها الزبائن، متعثرين بالعلب والصفائح. كانت البضائع غير مرتبة، وحشر درج النقود في الزاوية عند الباب، لذا كانت جيتا دائماً بردانة ومضطرة طوال السنة إلى لبس قفازين بلا أصابع. كرسي أنور كان عند الطرف المقابل، في كاشانة يروح ينظر منها بكل جمود. في الخارج صناديق الخضار. يومياً تفتح البقالية عند الثامنة صباحاً وتقفل عند العاشرة ليلاً. لم يعد يوم الأحد عطلة. كل سنة، بعد يوم رأس السنة، كنت أسمع أنور يقول «فقط ثلاثمئة وسبعة وخمسين يوماً ونستطيع أن نرتاح مجدداً».

لم أكن أعرف كم يملكان من المال. وإذا كانا يملكان مالاً فلابد من أنهما يدّخرانه، لأنهما ما كانا يشتريان أي من الأشياء التي كان الناس في تشيزلهرست مستعدين لأن يضحوا بأرجلهم للحصول عليها: الستائر المخمل، أجهزة الستريو، المارتيني، جزازات العشب الإلكترونية، النوافذ الفرنسية المزدوجة. فكرة الاستمتاع بالحياة كانت تجاوزت أنور وجيتا. كانا يتصرفان كما لو أن حياتهما لن تنتهي: حياة بلا عواقب، مجرد واحدة في سلسلة من مئات الحيوات الآتية التي سيستطيعان فيها الاستمتاع بالوجود. كانا أيضاً يجهلان كل شيء عن العالم الخارجي. غالباً ما كنت أسأل جيتا من هو وزير الخارجية أو الخزانة في بريطانيا، فلا تعرف الجواب أبداً، ولم تكن نادمة على جهلها.

نظرت عبر واجهة المتجر بينما أوثق دراجتي إلى عامود الإنارة، ولم أر أنور. ربما يكون ذهب إلى محل الرهانات. وفوجئت بغيابه، لأنه عادة في مثل هذا الوقت، يكون غير حليق الذقن، يدخن، ويرتدي بذلة قديمة هدية من أبي من العام ١٩٥٤، يراقب «اللصوص المحتملين»، الذين كان يسميهم اختصاراً «ل. م»: «رأيت اثنين من ل. م. اليوم... أمام عيني مباشرة يا كريم. ركلت مؤخرتيهما كالمجنون».

تفرجت على جميلة، وضغطت أنفي على الزجاج وجعلت أصدر أصوات الحيوانات، مقلداً «موغلي» وهو يتهدّد شير خان. لكنها لم تسمعني. رحت أنظر إليها بإعجاب: كانت ضئيلة وهزيلة بعينين بنيّتين واسعتين، وأنف صغير تعلوه نظّارة صغيرة. كان شعرها الغامق قد استعاد طوله. الحمد لله أنها تخلت عن تلك الملامح «الطبيعية» الأفريقية التي كانت تجفل أهل بنجي قبل سنتين. كانت قوية ومفعمة بالحماسة، تميل باستمرار إلى الأمام، مجادلة ومحاججة. كان لديها شارب أسود أيضاً، والذي لفترة طويلة كان أكثر بروزاً من شاربي. كان يشبه حاجبي، كان لدي واحد فقط، وكما قالت جميلة، يمتد فوق عيني، كثيفاً وأسود، كذيل سنجاب صغير. أخبرتني أن الرومان كانوا يعتبرون انعقاد الحاجبين من علامات النبل، أما الإغريق فيعتبرون ذلك من سمات الشخص الخائن. «أيهما تريد أن تصبح رومانياً أم إغريقياً؟»، كانت تحب أن تسألني.

كانت جميلة رفيقتي في اللعب خلال طفولتي، وكانت عائلتها بمثابة عائلة بديلة لي. وكان يريحني أن يكون هناك دائماً مكان أقل توتراً وأكثر دفئاً، أستطيع اللجوء إليه حين تجبرني عائلتي إلى التفكير في الفرار.

كانت الأميرة جيتا تطعمني الكثير من الكباب الحار الذي أحبه، وكنت أسكب عليه شوتني المانغا وألفه بالتشوباتي. ولذلك كانت

تسمّيني آكل النار. وكنت أحب الاستحمام أيضاً في منزل جيتا، مع أن حوضه كان عفناً، والجص فيه متقشّر عن الجدران، ومعظم طلاء السقف على الأرض والسخان الذي فيه من نوع «أسكوت» الذي لا يقل خطورة عن الألغام الأرضية، كانت جيتا تقعد قرب الحوض وتدلك شعري بزيت الزيتون، مغلغلة أصابعها في كل جزء من جمجمتي حتى أشعر أن جسدي كله قد ذاب. في المقابل كانت تأمرني وجميلة بأن نمشي على ظهرها، تستلقي على الأرض قرب سريرها وأروح وجايمي نمشي على جسدها، ممسكين ببعضنا، بينما نتلقى أوامر جيتا: «اضغطا بأصابعكما على رقبتي، إنها متصلبة، متصلبة، مصنوعة من الحديد! أجل، هنا، هنا! إلى أسفل قليلاً! أجل عند الحدبة، على الصخرة، أجل، أسفل الدرج، أعلى الدرج، عند المنحنى!».

كانت جميلة أكثر خبرة مني، في كل شيء. كان ثمة مكتبة إلى جوار المتجر، وطوال سنوات ظلت مديرة المكتبة، الآنسة كتمور، تصحب جميلة إليها بعد المدرسة وتقدم لها الشاي. كانت الآنسة كتمور إرسالية في إفريقيا، لكنها كانت تحب فرنسا أيضاً، بعد أن انفطر قلبها في حب أحدهم في بوردو. منذ الثالثة عشرة بدأت جميلة تقرأ بلا توقف، بودلير وكوليت وراديغو، وكل هذه الزمرة الثقيلة، وتستأجر اسطوانات لرافيل، ومغنين مشهورين في فرنسا من أمثال بيلي هوليداي. ثم صارت تريد أن تكون مثل سيمون دي بوفوار، وعندها صرنا نمارس الجنس كل أسبوعين أو ما شابه، حين نجد مكاناً نقصده، عادة موقف الحافلات، أو شارع مقصوف، أو بيت مهجور. لا بد أن تلك الكتب كانت تفعل فيها فعل المتفجرات أو شيء من هذا القبيل، لأننا صرنا نفعلها حتى في الحمامات العمومية. ولم تكن جايمي تخشى الدخول معي إلى حمامات الرجال وإقفال الباب وراءنا. أمر باريسي جداً، كانت

تعتقد، وكانت تضع الريش، بحق الله. كله كان مدعياً بالطبع ولم أتعلم شيئاً عن الجنس، ولا شيء عن أين وكيف وهنا وهناك، ولم يقلّ إطلاقاً خوفي من الحميمية.

تلقت جميلة ثقافة عالية على يدي الآنسة كتمور التي كانت تحبها. ومجرد مرافقتها لسنوات شخصاً يحب الكتب والقهوة والأفكار المنحرفة، ويقول لها طوال الوقت كم هي شخص ذكي، غيرها كلياً، مثلما لاحظت. وكم تألمت من رغبتي بالحصول على معلمة كهذه.

لكن حين غادرت الآنسة كتمور ساوث لندن إلى «باث»، حقدت جميلة عليها وصارت تبغضها لأنها نسيت أصلها الهندي، مصرة على أنها كانت تريد فعلاً استئصال كل ما ليس إنكليزياً فيها. «كانت تتحدث إلى والديّ كأنهما من الفلاحين»، قالت لي، وكانت تفقدني صوابي حين تقول إن الآنسة كتمور استعمرتها، لكن جميلة كانت الشخص الأقوى إرادة الذي التقيته في حياتي: لا يستطيع أحد استعمارها. على أي حال كنت أمقت هذا الجانب غير الوفي في موقف جميلة من الآنسة كتمور، التي لولاها لما سمعت جميلة بكلمة «مستعمرة»: «الآنسة كتمور هي التي جعلتك تنطلقين»، قلت لها.

في المكتبة الموسيقية تحولت جميلة إلى سماع بسي وساره ودينا وإلا، وكانت تحضر أسطواناتهن إلى بيتنا وتسمعها مع أبي، وهما جالسان على السرير، ملوحين بأذرعهما ومغنين بمفردهما. الآنسة كتمور أخبرتها أيضاً عن المساواة، والمؤاخاة، وتلك الكلمة الثالثة التي نسيتها، لذا كانت جميلة تحمل في حقيبتها صورة فوتوغرافية لأنجيلا دايفس(*)، وترتدي ثياباً سوداء، وكان لديها موقف عدائي من

(*) أنجيلا دايفس (١٩٤٤): ناشطة سياسية ومفكرة شيوعية أميركية سوداء كانت مرتبطة بحزب «الفهود السود» الذي اشتهر في الستينات والسبعينات من القرن الماضي.

الأساتذة. وظلت لأشهر تردّد كلمة «سوليداد» في شتى المواقف. أجل، في بعض الأحيان كنا فرنسيين، أنا وجايمي، وأحياناً آخرى كنا أسودين أميركيين، وفي واقع الأمر كان يفترض أن نكون إنكليزيين، لكن بالنسبة إلى الإنكليز كنا دائماً زنجيين و«باكيين»(*)، وهلمّ جرا.

بالمقارنة مع جايمي، كنت، كمقاتل، جباناً حقيقياً. كنت إذا ما بصق الناس في وجهي أشكرهم عملياً لأنهم لم يجبروني على مضغ الحثالة عن الرصيف. لكن جميلة كانت تملك دكتوراه في العقاب الجسدي. فذات يوم مرّ بنا رجل من أصل مكسيكي على دراجة هوائية قديمة وخاطبنا بطريقة عرضية كما لو أنه يسألنا عن الوقت: «كلا خراء أيها الباكيّان». جايمي ركضت بين السيارات ورمت الوغد عن الدراجة وراحت تحلش شعره كما لو أنها تجز عشباً زائداً في حديقة.

الآن، اليوم، كانت العمة جيتا تخدم زبوناً، واضعة الخبز والبرتقال وصفائح شراب البندورة في كيس ورقي بني. جميلة لم تلحظ وجودي على الإطلاق، لذا وقفت قرب جيتا، التي أنا أكيد من أن وجهها الكئيب هرّب على مرّ السنين آلاف الزبائن، الذين لا يعرفون أنها أميرة يمتشق أشقاؤها البنادق.

«كيف حال ظهرك عمة جيتا؟».

«متصلّب مثل دبوس شعر من شدة القلق.

«لماذا تقلقين مع تجارة مزدهرة كهذه؟».

«دعك من أحوالي البائسة... هلا اصطحبت جميلة في واحدة من نزهاتك؟».

(*) «باكي»: أي الباكستاني، لكنها شتيمة عنصرية تستعمل في بريطانيا في وصف جميع المهاجرين المتحدرين من شبه القارة الهندية.

«ما المشكلة؟».

«إليك ساموسا يا آكل النار. حارة زيادة خصوصاً للصبيان الزعران».

«أين العم أنور؟». نظرت إلي بأسف، «ومن هو رئيس الوزراء؟»، أردفت.

تمشيت وجميلة في «بنجي»، وكانت مشّاءة حقيقية، وحين تريد أن تقطع الشارع تقطعه فحسب غير آبهة بالسيارات ومنتظرة منها أن تتوقف أو أن تبطئ سيرها من أجلها، وهذا ما كان يحدث. ثم سألتني سؤالها المفضل: «ما الذي لديك يا قشطة؟ أي أخبار لديك؟».

كانت تحب سماع القصص الواقعية، التي كلما ازداد مضمونها سوءاً، كانت أفضل ـ قصص حول الحرج والإذلال والفشل والقذارة والمني، وإلا كنا نكتفي بالمشي صامتين، مثل مرتادي مسرح غير راضيين بالعرض. لكن هذه المرة كنت مستعداً. القصص القذرة كانت تنتظر مثل الماء للظمآن.

أخبرتها كل شيء عن أبي وإيڤا، وعن مزاج العمة جين وكيف كبست على كتفي فجعلتني أضرط. أخبرتها عن الجلسات الروحية، والمدراء التنفيذيين المصلين، والمحاولات الجارية في «بكنهام» للعثور على الطريق على مقاعد الحدائق. ولم أخبرها شيئاً عما حصل بيني وبين كلب الـ «غرايت دان». وكلما سألتها كيف يجدر بي أن أتصرف حيال أبي وأمي إيڤا، أو ما إذا كان ينبغي عليّ أن أفر من البيت مجدداً، أو نفرّ معاً إلى لندن ونعمل كنادلين، كانت تقهقه.

«ألا ترين مدى جدية هذه المسألة اللعينة؟»، قلت لها، «لا ينبغي أن يجرح أبي أمي، أليس كذلك؟ إنها لا تستأهل ذلك».

«لا، لا تستأهل ذلك. لكن ما حصل قد حصل، هناك على مقعد

الحديقة في بكنهام، بينما كنت تتلصص في وضعيتك المعتادة، على ركبتيك، أليس كذلك؟ آه يا قشطة، أنت تقحم نفسك حقاً في أوضاع غبية. وأنت تدرك أن هذا من صفاتك، أليس كذلك؟».

ثم جعلت تضحك بقوة، حتى أنها اضطرت إلى التوقف والانحناء إلى الأمام لتلتقط أنفاسها، مسندة يديها على فخذيها «لكن أليس على أبي أن يضبط نفسه، ويفكر بنا، نحن عائلته؟ ويضعنا على رأس أولوياته؟».

جعلني إفصاحي عن الأمر للمرة الأولى أدرك حجم التعاسة التي يسبّبها لي. كانت عائلتي تتمزق، ولا أحد يأبه للأمر.

«أحياناً يمكنك أن تكون بالغ البورجوازية يا قشطة. العائلات ليست مقدسة، خصوصاً بالنسبة إلى الرجل الهندي، الذي لا يتحدث عن شيء آخر سوى العائلة، ويتصرف بالعكس تماماً».

«والدك ليس كذلك»، أجبتها.

كانت دائماً تستخف بي. ولم أكن قادراً على احتمال الأمر ذلك اليوم. كانت شديدة القوة والسيطرة والثقة بما ينبغي فعله في كل شأن.

«وهو يحبها. قلت إن أباك يحب إيڤا».

«أجل أحسب أنني قلت ذلك حقاً. أعتقد أنه يحبها. لكنه لم يقل ذلك حرفياً».

«حسناً يا قشطة، الحب ينبغي أن يسلك طريقه. أليس كذلك؟ ألا تؤمن بالحب؟».

«بلى، حسناً، حسناً، نظرياً. بحق الله يا جايمي!».

مررنا بحمام عمومي قرب الحديقة، وقبل أن أدرك شعرت بيدها تشدّني إلى الحمام، حيث تنشقت البول والخراء وذلك الكوكتيل من

المطهرات التي ارتبطت جميعها بالحب عندي، وكنت بحاجة إلى أن أهدأ قليلاً وأفكر. لم أكن أؤمن بالزواج من امرأة واحدة أو شيء بال من هذا القبيل، لكن عقلي كان لا يزال مشغولاً بتشارلي ولم أكن قادراً على التفكير بأي شخص آخر، ولا حتى بجايمي.

كنت أدرك أن رغبتي بمضاجعة فتيان وفتيات على حدّ سواء لم تكن مألوفة. كنت أحب الأجساد القوية، وظهور الفتيان وأعناقهم، وأن يتعامل معي الرجال، وأن تجذبني قبضاتهم؛ وكنت أحب أن تلجني مختلف الأدوات ـ أطرف الفراشي، والأقلام، والأصابع. لكنني كنت أحب فروج النساء وأثدائهن، ونعومتهن وطريقة لبسهن، والسيقان الطويلة الناعمة. وكنت أشعر أن الاختيار بين الاثنين، لا يقلّ إيلاماً عن الاختيار بين «البيتلز» و«ذي رولنغ ستونز». ولم أكن أحب التفكير كثيراً في الأمر حتى لا أكتشف أنني شاذ وأنني بحاجة إلى علاج وهورمونات، وصدمات كهربائية في الدماغ. وحين كنت أفكر في الأمر فعلاً كنت أعتبر نفسي محظوظاً لأنه يمكنني الذهاب إلى الحفلات والعودة إلى البيت مع أيّ شخص من الجنسين، وهذا لا يعني أنني ذهبت إلى حفلات كثيرة، فأنا لم أذهب إلى أي حفلة في الواقع، لكن إذا ما ذهبت، فيمكنني أن أتصرف في الاتجاهين. لكن حبي الكبير في ذلك الوقت كان محصوراً بتشارلي، وحتى أهم من ذلك كنت مشغولاً بأبي وأمي وإيفا. كيف يسعني التفكير بأي شيء آخر؟

خطرت لي الفكرة اللامعة أن أسألها «وما أخبارك أنت يا جايمي؟».

توقفت عن السير. نجح الأمر بطريقة مذهلة «لننعطف مجدداً في نهاية الشارع»، قالت، «لا أعرف ما الذي يحدث لي. بلا مزاح، حسناً؟».

وحكت لي منذ البداية.

تحت تأثير أنجيلا دايفس بدأت جميلة تمارس الرياضة يومياً، وتعلمت الكاراتيه والجودو، وصارت تنهض باكراً لتقوم بالتحمية والركض والحركات السويدية. كانت تجري بكل خفة، حتى بات يمكنها الركض على الثلج من دون أن تنطبع آثارها عليه. كانت تستعد لخوض حرب العصابات التي تعرف أنها ستكون حتمية حين ينقلب البيض أخيراً على السود والآسيويين، ويقررون رمينا في غرف الغاز أو في البحر.

ولم يكن الأمر طريفاً مثلما يوحي ظاهره. فالمنطقة التي كانت تعيش فيها جميلة أقرب إلى لندن من الضواحي التي كنا نعيش فيها، وأفقر بكثير. وكانت مكتظة بعصابات النازية الجديدة، أولئك المجرمون الذين لديهم أنديتهم وملاهيهم ومتاجرهم الخاصة، والذين يخرجون إلى الشارع العام كل سبت ويوزّعون صحفهم ومنشوراتهم، كما كانوا ينشطون خارج المدارس والكليات والملاعب الرياضية مثل «ميلوال» و«كريستال بالاس». أما ليلاً فيجوبون الشوارع، متهجّمين على الآسيويين، وداسّين البراز والخرق المشتعلة في علب بريدهم. وغالباً ما كانت تعقد الوجوه البيضاء الشريرة الطافحة بالحقد اجتماعات عامة، وكانت تتظاهر جماعة «يونيون جاكس» العنصرية في الشوارع تحت حماية الشرطة. ولم يكن ما يدلّ على أنهم سيرحلون يوماً ما، أو أن قوتهم ستتلاشى، بل كانت المؤشرات كثيرة على أنها إلى تصاعد. فكانت حياة جميلة وأنور وجيتا مليئة بالخوف من الاعتداءات المحتملة. وأنا أكيد من أنهم كانوا يتحسّبون لذلك يومياً، بحيث أن جيتا كانت تحتفظ بدلاء من الماء قرب سريرها في حال أحرق متجرهم ليلاً. أما جميلة فقد استلهمت الكثير من مواقفها من احتمال أن تقدم عصابة بيضاء ما على قتل أحدنا يوماً ما. وقد حاولت أن تجندني

وتضمّني إلى تمريناتها، لكنني عجزت عن الاستيقاظ صباحاً. لماذا علينا أن نبدأ عند الثامنة؟»، سألتها متأففاً.

«لم تحرَّر كوبا بالاستيقاظ المتأخر، أليس كذلك؟ فيديل وتشي ما كانا يستيقظان في الثانية ظهراً، أليس كذلك؟ لم يكن لديهما الوقت للحلاقة حتى!».

لم يحبذ أنور تمريناتها تلك، وظن أنها تواعد الشبان في صفوف الكاراتيه تلك وخلال ساعات الهرولة الطويلة في شوارع المدينة، حيث كانت تمرّ أحياناً بـ «دبتفورد» ويكون «بايبي فايس» عند مدخل المتجر وياقته مرفوعة، وأنفه المشعّر بارزاً، فيحيد بنظره مشمئزاً بينما ترسل له ابنته قبلة في الهواء.

وبعد فترة وجيزة من القبلة التي أرسلتها جميلة ولم تصب أنف أبيها المشعر، ركّب أنور هاتفاً وصار يغلق على نفسه الباب في غرفة الجلوس لساعات وساعات. وحين لا يكون موجوداً كان يقفل الهاتف، فتضطر جميلة إلى استعمال الهاتف العمومي. كان قد قرر أنور سراً أنه آن أوان تزويج جميلة. وعبر تلك المخابرات الهاتفية السريّة دبّر شقيق أنور في بومباي زواج جميلة من فتى تواق إلى المجيء والعيش في لندن. غير أن هذا الفتى لم يكن بالفتى حقاً. كان في الثلاثين. وكدوطة زواج طالب الفتى المسنّ بمعطف وثير من «موس بروز»، وبتلفزيون ملون، والأشدّ غرابة، طالب أيضاً بالأعمال الكاملة لكونان دويل. وافق أنور على هذه الطلبات، لكنه استشار أبي الذي اعتبر طلب العريس لأعمال كونان دويل أمراً غريباً. «أي رجل هندي عادي يطلب أمراً كهذا؟ ينبغي التحقق أكثر وبصورة فورية من أمره!».

لكن أنور تجاهل شكوك أبي. كان قد حصل سابقاً شرخ في العلاقة بينهما حول قضية الأطفال. كان أبي فخوراً بأنه رزق بصبيين، ومقتنعاً

بأن هذا يعني أن «بذرته طيبة». بما أن أنور أثمر فقط ابنة واحدة فهذا يعني أن «بذرته ضعيفة». وكان يحب أن يذكّر أنور بذلك. «من المؤكّد يا يار، أنك قادر على إنجاب أكثر من فتاة واحدة في حياتك الإنتاجية كلها، أليس كذلك؟».

«اللعنة»، أجاب أنور، مبربراً «إنه خطأ زوجتي، أيها الوغد، لقد كان رحمها متشنجاً كالبرقوق المجفّف».

أخبر أنور جميلة بقراره: ستتزوج الفتى الهندي وسيأتي إلى لندن، ويحصل على زوجته ومعطفه ويعيش سعيداً إلى الأبد بين ذراعيها الرياضيين. ثم سيستأجر أنور شقة للعريسين، تكون قريبة «وكبيرة كفاية لتتسع لحفيدين»، قال أنور لجميلة المجفلة، آخذاً يدها ومضيفاً «قريباً ستغرقين بالسعادة»، وعلّقت أمها: «كلانا مسرور من أجلك يا جميلة».

لم يكن مفاجئاً أن جميلة بمزاجها المعروف، وعقلها المسلح بأفكار أنجيلا دايفس، لم تسرّ بالخبر.

«بماذا أجبته؟»، سألتها ونحن نمشي.

«كان يمكن أن أغادر البيت فوراً، وأن ألجأ إلى المجلس ليتولى رعايتي. كان يمكن أن أفعل أي شيء، أن أعيش مع أصدقاء... لولا أمي. هي التي ستحصد كالعادة نتيجة غضبه. إنه يسيء معاملتها».

«أيضربها؟ حقاً؟».

«كان يفعل ذلك سابقاً، حتى هدّدته بأنني سأجزّ شعره بسكين إذا ما فعل ذلك ثانية. لكنه يعرف كيف يحول حياتها جحيماً من دون عنف جسدي. إنه يملك سنوات من الخبرة في هذا المجال».

«حسناً»، قلت، شاعراً بالرضى إذ لم يعد ما يقال في الأمر «في نهاية الأمر لا يمكنه إرغامك على فعل ما لا تريدينه».

التفتت إليّ: «لكنه يستطيع! أنت تعرف أبي جيداً، لكن ليس بما فيه الكفاية. هناك أمر لم أخبرك به. تعال معي. تعال يا كريم»، وأصرّت على أن أرافقها.

عدنا إلى المتجر، حيث أعدّت لي بسرعة سندويتش كباب بالتشوباتي، مع البصل والصلصة الحارة، واستقرّ الكباب بنياً فوق البصل النيء. ولذع الخبز الحار أصابعي.

«هلا جلبته معك إلى فوق يا كريم؟»، قالت لي.

نادتنا أمها من خلف درج النقود. «لا يا جميلة لا تأخذيه إلى فوق». وأوقعت زجاجة حليب فأجفلت زبوناً.

«ما الخطب يا عمة جيتا؟»، سألتها، وشعرت أنها على وشك البكاء.

«هيا بنا»، قالت جميلة.

كنت سأحشو فمي بلقمة ضخمة من الكباب حين شدتني جميلة إلى فوق، وأمها تصرخ خلفها «جميلة، جميلة».

شعرت بالرغبة بالعودة إلى البيت في تلك اللحظة، فلدي ما يكفيني من الدراما العائلية. ولو كنت أريد كل هذه المآسي المتحدرة مباشرة من مسرح إبسن لكنت بقيت في البيت. إلى ذلك، كنت راغباً في أن تساعدني جميلة على فهم موضوع أبي وإيڤا، واتخاذ قرار بشأنه، وما إذا سأكون منفتح الذهن حيال الأمر أم لا. لكن الآن لم تعد هناك فرصة للتفكير.

في منتصف الطريق إلى أعلى اخترقت أنفي رائحة عفنة، كناية عن خليط من روائح أقدام وضراط وغائط. كانت شقتهما أشبه بمحل خردة، حيث الأثاث قديم وبصمات الأصابع تملأ الأبواب وورق

الجدران الذي بعمر قرن تقريباً، لكن البيت لم يكن فواحاً ولا مرة، سوى برائحة طبيخ جيتا الرائع، الذي كان باستمرار في المقالي المحترقة الضخمة.

كان أنور على سرير في غرفة الجلوس، الذي لم يكن سريره الطبيعي، ولا كان في مكانه الطبيعي. كان يرتدي سترة بيجاما قديمة ومتعفنة، ولاحظت أن أظافر رجليه تشبه قشور جوز الهند الغليظة. لسبب ما كان فمه يلهث من فمه المفتوح، مع أنه من المستحيل أن يكون قد ركض وراء حافلة خلال الدقائق الخمس الأخيرة. كانت ذقنه طويلة، وبدا أكثر هزالاً مما رأيته طوال حياتي. وكانت شفتاه جافتين ومتقشرتين. وبدا جلده أصفر وعيناه منتفختين، كأنهما لفتا بضمادتين. وإلى جانب السرير كان هناك قدر وسخ في داخله بركة من البول. لم أكن قد رأيت شخصاً يحتضر من قبل، لكنني واثق أن أنور في حالته تلك كان من هذه الفئة. راح أنور يحدّق في الكباب الذي أحمله كما لو أنه أداة تعذيب. فمضغت بسرعة حتى أتخلص منه.

«لماذا لم تخبريني بأنه مريض؟»، سألتها همساً.

لكنني لم أقتنع أنه ببساطة مريض، لأن تعبير الشفقة الذي بدا على وجه جميلة كان مقترناً بالغضب. أخذت تحدّق به، لكنه لم ينظر في عينيها، ولا في عيني، بل ظلّ يحملق أمامه مباشرة، مثلما يفعل دائماً أمام التلفزيون، سوى أن التلفزيون كان مطفأ.

«ليس مريضاً»، قالت.

«حقاً؟»، ثم خاطبته «مرحباً عمو أنور كيف حالك؟».

تبدّل صوته: صار واهناً ومصفراً، «أبعد هذا الكباب اللعين عن أنفي»، قال «وخذ هذه الفتاة اللعينة معك».

لمست جميلة ذراعي وقالت لي «تفرّج». جلست على حافة السرير ومالت نحوه «أرجوك، أرجوك، أوقف هذا كله».

«اغربي عن وجهي!»، حشرج في وجهها «لست ابنتي، لا أعرف من تكونين».

«من أجلنا جميعاً أرجوك كف عن هذا! هذا كريم الذي يحبك قد جاء ليراك».

«أجل، أجل»، أضفت.

«لقد أحضر لك الكباب اللذيذ!».

«لماذا هو الذي يأكله إذاً؟»، وكان كلامه منطقياً، فخطفت جميلة السندويتش مني ولوحت به أمام والدها. وبدأ السندويتش المسكين يهرهر، ويتساقط اللحم والصلصة على السرير. تجاهلها أنور.

«ما الذي يجري هنا؟»، سألتها.

«أنظر إليه كريم، لم يأكل أو يشرب شيئاً منذ ثمانية أيام! سيموت يا كريم، أليس كذلك، سيموت ما لم يأكل شيئاً!».

«أجل يا زعيم ستموت ما لم تأكل مثل كل الناس».

«لن آكل. سأموت. إذا ما استطاع غاندي طرد الإنكليز من الهند بالإضراب عن الطعام، فيمكنني أن أجعل عائلتي تطيعني بالطريقة عينها».

«ما الذي تريدها أن تفعله؟».

«أن تتزوج الفتى الذي اخترته وأخي لها».

«لكنه تقليد قديم يا عمو، فات زمنه»، شرحت له «لا أحد يفعل مثل هذه الأشياء الآن. الناس اليوم يتزوجون من يختارون إذا ما تجشموا عناء الزواج أصلاً».

هذه الموعظة حول الأخلاقيات المعاصرة لم تؤثر به البتة.

«هذه ليست طريقتنا أيها الفتى. طريقتنا صارمة. عليها أن تفعل ما أطلبه منها، وإلا مت. ستكون هي من قتلني».

راحت جميلة تلكم السرير.

«هذا غبي جداً. يا لها من مضيعة للوقت وللحياة!».

لم يحرك أنور ساكناً. لطالما أحببته لأنه كان غير متكلف في أي شيء؛ لم يكن قلقاً على الدوام مثل أهلي. وها هو الآن يقيم جلبة كبرى حول مسألة زواج صغيرة، ولم أكن قادراً على فهم ذلك. أحزنني أن أراه يفعل ذلك بنفسه. لم أكن قادراً على تصديق ما يفعله الناس بأنفسهم، كيف يدمرون حيواتهم ويخربون الأشياء، مثل أبي مع إيڤا، أو انهيار تيد العصبي، والآن العم أنور وهو ماض في صومه الغاندي العظيم. لم تكن الظروف الخارجية ما تدفعهم إلى هذا الجنون؛ بل مجرد آهام في رؤوسهم.

جعلني موقف أنور اللاعقلاني أرتجف، وأهزّ رأسي في كل الاتجاهات. لقد حبس نفسه في غرفة خاصة لا يخترقها عقل، ولا إقناع، ولا حجة. حتى السعادة، قطب القرار ذاك، كان بلا معنى هنا، أعني سعادة جميلة. شعرت مثلها برغبة للتعبير عن استيائي جسدياً. بدا أن هذا كل ما بقي لنا. فركلت قدر العم أنور بعنف، فطرطش البول على شرشف السرير المتدلي. لكنه تجاهلني. وقفت وجميلة هناك، نتهيأ للخروج. لكنني الآن سأجعل العم أنور ينام في بوله. ولنفترض أنه لاحقاً رفع الشرشف إلى أنفه أو فمه. ألم يكن دائماً لطيفاً معي؟ ألم يقبلني دائماً كما أنا، ولم يرفضني بتاتاً؟ دخلت إلى الحمام وأحضرت قطعة قماش مبللة، ومسحت الشرشف حتى تأكدت من أنه لم يعد وسخاً. لم يكن منطقياً مني أن أمقت لاعقلانيته إلى حدّ أن أوسخ

شرشفه بالبول. لكن بينما كنت أنظف الشرشف، منحنياً على ركبتي بالقرب منه، لاحظت أن أنور ليس لديه فكرة عما أفعله.

تبعتني جميلة إلى الخارج بينما كنت أفك رباط دراجتي استعداداً للرحيل.

«ما الذي ستفعلينه يا جايمي؟».

«لا أعرف، ما الذي تقترحه؟».

«لا أعرف أيضاً».

«حقاً؟».

«لكنني سأفكر بالأمر»، قلت لها «أعدك بأنني سأخرج بفكرة ما».

«شكراً».

وراحت تبكي بلا حرج، من دون أن تستر وجهها أو تحاول التوقف. عادة أشعر بالحرج أمام بكاء الفتيات، وأحياناً تنتابني الرغبة بصفعهن لهذه الجلبة، لكن جميلة كانت في وضع مزر حقاً. لابد من أننا وقفنا أمام المتجر لنصف ساعة، حاضنين بعضنا فحسب ومفكرين احتمالات المستقبل.

الفصل الخامس

كنت أحب احتساء الشاي، وأذهب بالدراجة إلى متجر الشاي في «هاي ستريت» لأرى النكهات التي لديهم. وكانت غرفة نومي تحتوي على علب كثيرة من الشاي، وكان يسعدني دائماً الحصول على نقائع جديدة أحضّر بها أنواعاً جديدة من الشاي. كان يفترض بي أن أدرس لامتحانات التاريخ والإنكليزية والسياسة. لكن مهما بذلت من جهد كنت واثقاً من أنني سأخفق فيها. وكانت منشغل البال بأمور أخرى. أحياناً كنت أتناول عقار «بلوز» المنشّط، ذي الحبات الصغيرة الزرقاء، لأظل يقظاً، لكنه كان يحطّ من عزيمتي، ويجعل معدتي تتشنج، ويشعرني بأنني سأصاب بنوبة قلبية. لذا عادة كنت أمضي الليل في احتساء الشاي الساخن والاستماع إلى الأسطوانات. كنت أفضل الموسيقى الخالية من الإيقاعات، مثل: كنغ كريمسون، وسوفت ماشين، وكابتن بيفهارت، وفرانك زابا، ووايلد مان فيشر. كان سهلاً الحصول على معظم الأسطوانات من محلات «هاي ستريت».

خلال تلك الليالي، وسط السكينة الهائلة حولي، حيث معظم الجيران ينامون في العاشرة والنصف، كنت أسافر إلى عالم آخر، وأنا أقرأ مقالات نورمان مايلر الصحافية عن كاتب مغامر يتورط في مواقف خطرة وفي أعمال مقاومة وأنشطة سياسية، وهي مغامرات لا ترجع إلى الماضي البعيد، بل إلى زمننا القريب. كنت قد اشتريت جهاز تلفزيون مستعمل من متجر يبيع السمك، وكان حين يحمى تفوح منه رائحة الدهون

والسمك، لكن في وقت متأخر ليلاً كنت أشاهد عبره برامج متعددة، عن المجموعات التي تقوم باختبارات عيش في كاليفورنيا، أو عن المجموعات الإرهابية في أوروبا التي تقوم بتفجير أهداف رأسمالية، أو عن علماء نفس في لندن خلصوا إلى أنه على المرء أن يعيش حياته على طريقته هو وليس على طريقة عائلته، وإلا أصيب بالجنون. وفي السرير كنت أقرأ مجلة «رولينغ ستون». وأحياناً كنت أشعر أن العالم كله قد اجتمع في غرفتي الصغيرة. وكنت، حين يتفاقم خدري وإحباطي، أفتح نافذة الحمام فجراً، وأنظر إلى الحدائق، والمروج، والمستنبتات الزراعية، والستائر المسدلة، فتجتاحني الرغبة بأن تبدأ حياتي الآن، في تلك اللحظة، التي أكون فيها على أتم الاستعداد لها. ثم يأتي وقت توزيع الصحف، يتبعه المدرسة التي كانت أمراً آخر طفح كيلي منه.

مؤخراً قام أحد الأساتذة بركلي وضربي لأنني ناديته بالمخنث. كان هذا الأستاذ يقعدني دائماً على ركبتيه، وحين يسألني أسئلة مثل «ما هو الجذر التربيعي للرقم خمسة آلاف وستمائة وسبعة وثمانين ونصف؟»، ولا أعرف الإجابة، يروح يدغدغني. ويا له من أسلوب تعليمي ناجع. كنت قد سئمت أيضاً من أن يطلق عليّ الآخرون أسماء مثل «شيت فايس» (وجه الغائط)، و«كاري فايس» (وجه الكاري)، وأن أعود إلى المنزل مليئاً بالبصاق والطبشور والمخاط والنشارة. كنا نقوم بالكثير من أعمال النجارة في مدرستنا، وكان الفتية الآخرون يحبون أن يحبسونني وبقية رفاقي في المخزن ويرغموننا على أن نغني «مانشستر يونايتد، مانشستر يونايتد، نحن فتيان الجزمة»، وهم يضعون الإزميل على رقابنا ويقطعون رباط أحذيتنا. كنا نقوم بالكثير من أعمال النجارة في المدرسة لأنهم كانوا يظنون أننا غير قادرين على فهم الكتب. وذات يوم أصيب مدرّس النجارة بنوبة قلبية حين وضع أحد الفتية قضيب فتى آخر في الملزمة وبدأ يبرم المسكة. اللعنة عليك يا تشارلز ديكنز، لا شيء تغير

على الإطلاق. أحد الفتية حاول مرة وصم يدي بشريط حديد حام. فتى آخر بال على حذائي، وكل ما كان يشغل بال أبي أن أصبح طبيباً. أيّ عالم كان يعيش فيه؟ كل يوم كنت أعتبر نفسي محظوظاً إذا عدت إلى البيت دون أن أكون مصاباً بجراح خطرة.

لذا بعد هذا كله شعرت أنني مستعد للتقاعد. لم يكن من أمر محدد كنت راغباً القيام به. لم يكن عليّ فعل أي شيء. يمكنني فقط الانجراف والتسكع وأن أرى ماذا سيحدث، وهذا يلائمني كثيراً، أكثر حتى من أن أصبح مفتشاً جمركياً أو لاعب كرة قدم محترف، أو عازف غيتار.

إذاً، كنت أمضي الوقت متجولاً في ساوث لندن على دراجتي، وكدت أتعرض مرات عدة للصدم من قبل الشاحنات، ورأسي مائل إلى المقود، مبدلاً بسلاسة بين الغيارات العشرة، منسلاً بين السيارات، مرتقياً الرصيف أحياناً، ثم سالكاً شارعاً أحادي الاتجاه، وضاغطاً على المكابح فجأة، ومسرعاً وقوفاً على الدواستين، جذلاً بالحركة وبالأفكار المتسارعة.

كان عقلي يدبّ بكل شيء. كان عليّ أن أنقذ جميلة من الرجل المعجب بآرثر كونان دويل. ربما ستضطر إلى الفرار من المنزل، لكن إلى أين ستذهب؟ معظم زملائها في المدرسة يعيشون مع أهلهم، ومعظمهم فقير. لا يمكنهم أن يستضيفوا جميلة عندهم. وبالتأكيد لا تستطيع الإقامة عندنا، إذ سيضع هذا أبي في موقف سيئ مع أنور. مع من يمكن أن أناقش الأمر؟ الشخص الوحيد الذي أعرف أنه قد يكون مفيداً وموضوعياً ومنحازاً إلى جانبي هو إيفا. لكن يفترض بي ألا أحبها لأن حبها لأبي يدمر عائلتي. لكنها رغم ذلك كانت الشخص الوحيد العاقل الذي أعرفه، بعد أن شطبت جيتا وأنور من لائحة العاقلين.

كان غريباً بلا شك، تصرف العم أنور مثل مسلم تقليدي. فأنا لم أعهده مؤمناً بأي شيء من قبل، لذلك صدمني أن أراه يرهن حياته حرفياً بمبدأ السلطة البطريركية المطلقة. بمساعدة حب أمها المخلص والمتسامح

(إضافة إلى مخيلتها الرائعة)، لكن بشكل أساسي بسبب لا مبالاة أنور، استطاعت جميلة أن تخوض مغامرات ما كان ليحلم مجايلوها من البيض بعيشها: سنوات من التدخين، وشرب الكحول، والجنس والرقص، وقد ساعدها على ذلك وجود سلم مطافئ خارج غرفتها، وحقيقة أن والديها كانا دائماً ينامان كمومياوين من شدة الإرهاق.

ربما كان هناك بعض التشابه بين ما كان يحدث مع أبي، باكتشافه للفلسفة الشرقية، وموقف أنور الأخير. ربما كان وضع اللاجئ، يعبّر عن نفسه من خلاليهما. لسنوات كان كلاهما سعيداً بالعيش كإنكليزي. وحتى أن أنور كان يأكل الفطائر بلحم الخنزير حين لا تراه جيتا. (لم يلمس أبي طوال حياته لحم الخنزير، مع أنني كنت واثقاً من أن هذا أمر له علاقة بالذائقة الشخصية أكثر مما بالورع الديني، تماماً مثلما يستحيل أن آكل صفن حصان. لكن ذات مرة، لأختبر هذا، حين قدمت له شرائح لحم الخنزير المدخّن، قال وهو يزدردها بجشع، «لم أكن أعلم أنك تحب الخنزير المدخّن»، ثم هرع إلى الحمام وغسّل فمه، صارخاً من شفتيه المليئتين بالصابون بأنه سيحترق في نار جهنم).

الآن، وقد تقدّما في السن، واستقرا هنا، بدا أن أنور وأبي يعودان داخلياً إلى الهند، أو أنهما على الأقل يقاومان الإنكليزي الذي فيهما هنا. كان الأمر محيراً: فهما لم يعبّرا مرة كذلك عن رغبتهما بالعودة إلى موطنهما الأصلي. «الهند مكان عفن»، كان يدمدم أنور ساخطاً، «لماذا قد أرغب بالعودة إلى هناك ثانية؟ إنه مكان بائس وحار يصعب فيه القيام بأي شيء. إذا ما ذهبت إلى أي مكان آخر فسيكون إلى فلوريدا ولاس فيغاس للمقامرة»، أما أبي فكان أكثر تورطاً بالعيش هنا من أن يفكّر بالعودة.

فكّرت في هذا كله وأنا على الدراجة. ثم خيّل إلي أنني رأيت أبي.

بما أنه ليس هناك الكثير من الآسيويين في الناحية التي نعيش فيها من لندن، كان من الصعب أن يكون أي شخص آخر، لكن الشخص الذي رأيته كان يضع وشاحاً يغطي معظم وجهه، فبدا لص مصارف متوتر لا يجد مصرفاً ليسرقه. ترجلت عن الدراجة ووقفت هناك في «بروملي هاي ستريت»، إلى جوار الصفيحة التي تقول «هنا ولد هـ. ج. ويلز».

كان الشخص الذي يضع الوشاح يقف في الجهة المقابلة من الشارع بين حشد من المتسوقين. كان أبناء الضواحي مهووسين بالتسوق، الذي هو بالنسبة إليهم مثل الرومبا والغناء بالنسبة إلى البرازيليين. بعد ظهر أيام السبت، تكتظ الشوارع بالوجوه البيضاء، ويقام كرنفال من الاستهلاك، تخطف فيه البضائع خطفاً عن الأرفف. وكل سنة بعد الكريسمس، مع اقتراب التنزيلات، تجد ما لا يقلّ عن عشرين مغفل نائمين في البرد خارج المتاجر الكبرى قبل يومين من فتحها أبوابها، مدّثرين بالبطانيات أو ممدّدين على الكراسي.

لم يكن من عادة أبي الخروج في مثل هذه الأوقات المزدحمة، لكن ها هو، هذا الرجل رمادي الشعر، الذي يتجاوز طوله الخمسة أقدام بقليل، يدخل إلى حجرة هاتف عمومي، في حين لدينا هاتف شغّال في منزلنا. بدا واضحاً أنه لم يستعمل هاتفاً عمومياً من قبل. إذ وضع نظارتيه وراح يقرأ الإرشادات مرات عدة قبل أن يضع كومة من النقود المعدنية على سطح علبة الهاتف ويطلب الرقم. حين انتهى من ذلك وبدِأ يتكلم علا وجهه السرور وهو يضحك ويحكي، قبل أن يبدو محبطاً في نهاية المكالمة. وضع السماعة من يده، استدار ورآني أراقبه.

خرج من حجرة الهاتف وتقدّمت إليه بين الحشد. كنت راغباً بشدة بمعرفة رأيه في مسألة أنور، لكن بدا واضحاً أنه ليس في مزاج لذلك.

«كيف حال إيفا؟»، سألته.

«ترسل لك حبها».

على الأقل لم يزعم أنه لم يكن يتحدث إليها.

«ترسله لي أم لك يا أبي؟».

«لك أيها الفتى. أنت صديقها. ليس لديك فكرة كم هي معجبة بك. إنها تظن أنك...».

«أبي، أبي، أرجوك أخبرني. هل تحبها؟».

«أحبها؟».

«أجل أبي، تعرف، بحق الله، أنت تعرف».

بدا متفاجئاً بكلامي، ربما لأنني أصبت في التخمين. أو ربما لم يرد أن يستحضر إلى تفكيره ذلك السؤال القاتل حول الحب.

«كريم»، قال، «لقد أصبحنا أنا وهي مقرّبين من بعضنا. إنها شخص يمكنني التحدث إليه. وأحب أن أكون برفقتها. ولدينا الاهتمامات ذاتها، أنت تعرف ذلك».

لم أرد أن أكون عدائياً وتهكمياً، لأنني أردت أن أعرف منه بعض الأمور الأساسية، لكن انتهى بي الأمر إلى القول: «لا بد من أن هذا لطيف بالنسبة إليك».

لم يبدُ أنه سمعني؛ كان يركز على كلامه.

قال: «لا بد من أنه الحب لأنه يؤلم كثيراً».

«ما الذي ستفعله إذاً يا أبي؟ هل ستتركنا وترحل معها؟».

هناك ملامح معينة على وجوه معينة لا أحب رؤيتها ثانية، ومشاعر الارتباك والعذاب والخوف التي جعلت وجهه يكفهر، من إحداها. وأنا أكيد من أنه لم يفكر كفاية بأي من هذه الأمور. حصلت الأمور ببساطة بالطريقة العشوائية التي تحدث بها الأشياء. والآن فوجئ إذ وجد نفسه

مطالباً بإعلان النمط والنوايا خلف ذلك كله بطريقة منظمة لا يستطيع الآخرون فهمها. لكن لم يكن هناك خطة، مجرد شغف ومشاعر قوية وقع في فخها.

«لا أعرف».

«ما الذي تشعر به؟».

«أشعر أنني أختبر أحاسيس لم أعهدها من قبل، قوية جداً، وطاغية، ومهيمنة».

«هل تعني أنك لم تحب الماما يوماً؟».

فكّر لبرهة بهذا. لماذا عليه أن يفكّر حتى!

«هل اشتقت إلى أي كان يا كريم؟ إلى فتاة ما؟»، لا بدّ أن كلانا كان يفكر بتشارلي لأنه أضاف بلطف «أو صديق؟».

هززت رأسي.

«طوال الوقت حين لا أكون مع إيڤا أجدني مشتاقاً إليها. حين أتحدث إلى نفسي، تكون هي دائماً من أتحدث إليه. إنها تفهم العديد من الأمور. أشعر أنني إذا لم أرتبط بها فسأرتكب خطأ فادحاً، وأفوّت على نفسي فرصة حقيقية. وهناك أمر آخر، أمر أخبرتني به إيڤا تواً».

«ما هو؟».

«إنها تقابل رجالاً آخرين».

«أي نوع من الرجال يا أبي؟».

نغض كتفه «لم أسألها أي تحديدات».

«ليسوا رجالاً بيضاً يلبسون قمصاناً بيضاء».

«أيها السنوبي، لا أعرف لماذا تكره هذه القمصان إلى هذا الحدّ. النساء تحب كثيراً هذه الأشياء. لكن أتذكر ذلك الخنفساء شادويل؟».

«أجل».

«إنها غالباً برفقته. إنه في لندن الآن، يعمل في المسرح. وسيصبح نجماً كبيراً يوماً ما، هي تظن ذلك. إنه عرف أهل الفن. وهي تحب كل من لهم صلة بالفن. وتقيم لهم الحفلات في منزلها». هنا تردّد أبي «هي والخنفساء لا يفعلان شيئاً معاً، لكنني أخشى من أن يستحوذ عليها رومانسياً. سأشعر بالضياع التام عندها يا كريم، من دونها».

«لطالما كنت مرتاباً بأمر إيڤا»، فأجبت «إنها تحب الأناس المهمين. إنها تقول لك ذلك لكي تبتزّك، أنا أكيد أنها تفعل ذلك».

«أجل، وجزئياً لأنها تعيسة من دوني. ولا تستطيع انتظاري لسنوات وسنوات. أيمكنك أن تلومها؟».

شققنا طريقنا عبر الزحام. رأيت بعض الرفاق من المدرسة وأنحيت رأسي لأتفاداهم. لم أرد أن يرونني أبكي. «هل أخبرت الماما بهذا كله؟».

«لا، لا».

«لم لا؟».

«لأنني خائف جداً. لأنها ستتعذب جداً. لأنني لا أحتمل النظر في عينيها وأنا أخبرها. ولأنكم جميعاً ستعانون بالقدر نفسه وأنا أفضل أن أعذّب نفسي على أن يحدث أي شيء لكم».

«إذاً ستبقى معنا؟».

ظل صامتاً لدقيقتين. حتى عندها لم يتجشّم عناء الكلام. جذبني إليه وراح يقبّلني، على الخدين والأنف والجبهة والشعر. كان ذلك مجنوناً. كدت أوقع دراجتي. أجفل المارة. وقال أحدهم «عد إلى عربة الريكشو». كان النهار قد أوشك على الانتهاء. ولم أشتر أي شاي وكان هناك برنامج ألن فريمان الإذاعي حول قصة الفريق الغنائي «ذي كنكس»

وكنت أريد سماعه. ابتعدت عن أبي وبدأت أركض، وأنا أجرّ عجلتي إلى جانبي.

«انتظر لحظة»، صرخ.

التفتّ «ماذا أبي؟».

بدا حائراً: «أهذه محطة الحافلات الصحيحة؟».

كانت غريبة تلك المحادثة التي دارت بيني وبين أبي، خصوصاً أنه راح يتصرف، حين رأيته في البيت لاحقاً وخلال الأيام القليلة التالية، وكأن هذا الحديث لم يدر بيننا، كما لو أنه لم يخبرني بأنه واقع في غرام امرأة أخرى.

كل يوم بعد المدرسة كنت أتصل بجميلة، وكل يوم تجيبني عن سؤالي لها «كيف هي الأحوال؟»، بالقول: «على حالها يا قشطة»، «أو على حالها لكنها تسوء». اتفقنا على اللقاء في «بروملي هاي ستريت» بعد المدرسة، حيث سنقرّر ماذا سنفعل.

لكن ذلك اليوم وأثناء خروجي المدرسة مع مجموعة من الأصحاب رأيت هلن. وفوجئت بذلك لأنني نادراً ما فكرت بها منذ ضاجعني كلبها، وهي حادثة أصبحت هلن مرتبطة بها في تفكيري: هي وقضيب الكلب يأتيان معاً. ها هي الآن واقفة خارج مدرستي، تعتمر قبعة فضفاضة سوداء وتضع معطفاً أخضر طويلاً، بانتظار فتى آخر. حين رأتني هرعت نحوي وقبلتني. إنني أتعرض للتقبيل كثيراً مؤخراً: وبالتأكيد كنت بحاجة إلى مثل هذه العاطفة. كنت أسمح لأي شخص بأن يقبلني وأرد عليه باهتمام.

الأصحاب الذين كنت برفقتهم، كانت تصل شعورهم المقرفة إلى أكتافهم ويلبسون سترات مدرسية بالية وبناطيل فضفاضة ملونة، وبدون

ربطات عنق. وقد راجت في المدرسة مؤخراً أقراص «أل أس دي»، و«الأسيد»، وكان هناك طالبان يتعاطيان المخدرات. وكنت قد تناولت نصف جرعة خلال الصلاة الصباحية لكن أثرها زال الآن. بعض الفتيان كانوا يتبادلون أسطوانات «ترافيك» و«فايسيس». وكنت أتفاوض مع فتى لأشتري منه أسطوانة جيمي هندريكس «أكسيس بولد آذ لوف»، كان بحاجة ماسة إلى المال لكي يحضر أمسية إمرسون ولايك وبالمر الموسيقية في «فايرفيلد هول». شككت بأن هذا المغفل بحاجة ماسة إلى المال إلى حدّ أنه يمكن أن يخفي الشروخ في الأسطوانة بطلاء الأحذية الأسود، لذا كنت أفحص سطحها بالزجاج المكبّر.

بين هؤلاء كان تشارلي الذي كلف نفسه المجيء إلى المدرسة للمرة الأولى منذ أسبوعين. وقف بعيداً عن العصبة بشعره الفضي وحذائه الطويل. شعرت أنه أقل جاذبية وشاعرية الآن؛ وكان وجهه أقسى، بذلك الشعر القصير، وعظام الوجنتين الأكثر بروزاً. وكنت أكيداً أن ذلك من تأثير دافيد بوي عليه. بوي، الذي كان اسمه وقتذاك دافيس جونز، قصد مدرستنا مرات عدة سابقاً، وتجد وجهه في صورة فوتوغرافية جماعية هناك في ردهة الطعام، وأمامها عدد من الفتيان الذين يصلون أمام هذا الأيقونة، حتى يصبحوا نجوم غناء، ويتحرروا من حياتهم المقبلة كميكانيكيين، أو موظفين في شركات تأمين، أو مهندسين صغاراً. لكن عداً عن تشارلي، لا أحد كان لديه توقعات كبرى؛ كان لدينا خليط من الآمال البائسة والآمال المتوحشة. أنا شخصياً كانت لدي آمال متوحشة فحسب.

تجاهلني تشارلي مثلما كان يفعل مع معظم أصدقائه منذ ظهوره على الصفحة الأولى من «بروملي أند كنتيش تايمز» مع فرقته المدعوة «ماسنت كرامبل»، بعد إحيائه حفلة في أحد الملاعب الرياضية. أعضاء

الفرقة كانوا يعزفون معاً منذ سنتين، في الحفلات المدرسية الراقصة، وفي الحانات، وكمشاركين ثانويين في حفلتين موسيقيتين أكبر حجماً، لكن لم يكن قد كتب عنهم من قبل. وقد استحوذت هذه الشهرة المفاجئة على إعجاب الجميع في المدرسة، وجعلت بعضهم يضطربون، بما في ذلك المعلمين، الذين نعتوا تشارلي «بنّوتة».

تهلّل تشارلي لدى رؤيته هلن وتقدّم نحونا. لم يكن لدي فكرة أنه يعرفها. قبلته واقفة على أطراف أصابعها.

«كيف التمارين؟»، سألته، ويدها في شعره.

«عظيمة، وسنقوم بحفلة أخرى قريباً».

«سأحضرها».

إذا لم تأتي فلن نعزف»، قال. وضحكت من كل قلبها على هذا. وتدخلت، كان لا بدّ من أن أقول كلمتي في هذا الصدد.

«كيف حال والدك يا تشارلي؟».

نظر إلي بغبطة «أفضل بكثير»، وأوضح لهلن «أبي في مستشفى الأمراض العقلية. وسيخرج الأسبوع المقبل ويظل يقول أنه عائد إلى إيڤا».

«أحقا؟».

إيڤا تعود إلى زوجها؟ فاجأني ذلك. ولا شك في أنه سيفاجئ أبي أيضاً.

«وهل إيڤا مسرورة بذلك؟».

«كما تعرف جيداً، أيها الصغير، لقد أشرفت سابقاً على الموت. إنها مهتمة بأمور أخرى الآن، وبأناس أخرين، أليس كذلك؟ أظن أن الأمور ستنتهي بينهما ما إن يطأ عتبة الباب».

«يا إلهي».

«أجل، لكنني لا أحبه كثيراً على أي حال. إنه سادي. سيكون هناك متسع في منزلنا لشخص آخر. كل شيء في حياتنا سيتغير قريباً. أحب والدك، يا قشطة. إنه يلهمني».

شعرت بالإطراء لسماع هذا. كنت بصدد أن أقول له، إذا ما تزوج أبي من إيڤا، فسنصبح شقيقين، وسنكون قد مارسنا سفاح القربى، لكنني استطعت أن أبقي فمي مقفلاً. ومع ذلك فقد أبهجتني الفكرة التي عنت أنني سأرتبط بتشارلي لسنوات وسنوات، بعد أن ننتهي من المدرسة. شعرت بالرغبة لأن أشجع إيڤا وأبي على المضي قدماً. بالطبع، تبقى أمي التي سيكون عليها أن تكافح وحدها لتعاود الوقوف على رجليها؟ وربما ستجد شخصاً آخر حتى، مع أنني كنت أشكّ بذلك.

فجأة دوى في الشارع صوت أقوى من أي شيء سمعته منذ قصف الطيران النازي له في ١٩٤٤. فُتحت النوافذ؛ وهرع البقالون إلى أبواب متاجرهم؛ وتوقف الزبائن عن مناقشة لحم الخنزير وجعلوا يتلفتون؛ وترجرج معلمونا على دراجاتهم الهوائية إذ ارتطم بهم الصوت مثل عاصفة عنيفة؛ وهُرع الفتيان إلى بوابات المدرسة، مع أن كثيرين غيرهم، ممن يتمتعون برباطة الجأش، نغضوا أكتافهم تعبيراً عن عدم الاكتراث أو أداروا وجوههم بازدراء، شاتمين ومعفّسين بأرجلهم.

سيارة «فوكسهول فيڤا» الزهرية كانت تتمتع بمكبرات صوت عملاقة تصدح منها أغنية «آيت مايلز هاي»، لبيرد. وفي المقعد الخلفي جلست فتاتان، يقودهما مدير أعمال تشارلي، المدعو «السمكة»، وهو شاب طويل وسيم ومستقيم الظهر، من فتيان المدارس الخاصة سابقاً، وكان يتردد أن أباه أميرال في الجيش، وإن أمه «لايدي». كان قصير الشعر ويلبس ثياباً غير متناسقة مكونة من قميص أبيض، وبذلة متجعدة،

وحذاء رياضياً. لم تكن أزياؤه بالفريدة، ومع ذلك كان هبياً ورائقاً. لا شيء كان يهز هذا الفتى، بل هذا اللغز، وكان في التاسعة عشرة فقط، أي الشخص المناسب لإدارة أعمال تشارلي. كان كل عصرية تقريباً، حين يكون تشارلي في المدرسة، يأتي ويقله إلى الاستوديو من أجل التمارين.

«أتريدين أن أوصلك إلى أي مكان؟»، هتف بهلن.

«ليس اليوم! أراك!».

اتجه تشارلي إلى السيارة. وكلما اقترب منها أثيرت الفتاتان أكثر كما لو أنه يرسل أمامه ريحاً تجعلهما تهتاجان. وحين صعد في السيارة إلى جانب «السمكة» انحنيتا إلى الأمام وقبلتاه بحماسة، وراح هو يرتّب شعره في المرآة الأمامية بينما انطلقت السيارة المتوحشة، مفرقة الفتيان الصغار الذين تجمعوا أمامها محاولين فتح الغطاء الأمامي لرؤية المحرك. تفرق الحشد بسرعة مع ذهاب السيارة. «مغفّل»، قال الفتية بقنوط وقد حطمهم جمال الحدث. «مغفّل لعين». كنا سنعود إلى منازلنا، إلى أمهاتنا، إلى شراب الطماطم والبطاطس وكرات اللحلم، لنتعلم كلمات فرنسية، ولنجهّز عدة كرة القدم من أجل الغد. أما تشارلي فسيكون مع موسيقييه. سيذهب إلى الأندية في الواحدة بعد منتصف الليل. وسيلتقي أندرو لوغ أولدهام(*).

لكن على الأقل كنتُ الآن مع هلن.

«أنا آسفة لما حدث حين زرتني في البيت»، قالت، «إنه عادة ودود جداً».

(*) أندرو لوغ أولدهام: منتج موسيقى روك، كان مدير فرقة «ذي رولينغ ستونز» في الستينات من القرن الماضي.

«ألآباء يمكن أن يكونوا مزاجيين جداً أحياناً».

«لا أعني الكلب. لا أؤيد استغلال الناس من أجل أجسادهم فقط، ألا توافقني الرأي؟».

«أنظري»، قلت ملتفتاً بحدة إليها، ومستفيداً من النصيحة التي أسداها لي تشارلي مرة حول معاملة النساء: أبقهن قريبات، وعاملهن بلؤم. «عليّ الذهاب إلى موقف الحافلة. لا أريد المكوث هنا طوال بعد الظهر متعرضاً لسخرية الآخرين مني مثل الأبله. أين هو الشخص الذي تنتظرينه؟».

«إنه أنت أيها السخيف».

«أجئت لرؤيتي؟».

«أجل، هل أنت مشغول بعد ظهر اليوم؟».

«لا، بالطبع لا».

«ابق معي إذاً».

«أجل، رائع».

تأبطت ذراعي ومشينا معاً وسط نظرات فتيان المدرسة. أخبرتني أنها تزمع الفرار المدرسة والذهاب للعيش في سان فرانسيسكو. لقد فاض بها الكيل من فراغ العيش مع والديها والمدرسة تسبب لها الصداع لأنها تجدها عديمة المعنى. في كل أنحاء العالم الغربي كان ثمة حركات تحرر وأنماط عيش بديلة ـ لم يسبق وجود ثورة شبابية كهذه ـ و«ذو الظهر المشعر» لا يسمح لها بالسهر خارجاً بعد الحادية عشرة ليلاً. قلت لها إن ثورة الشباب بدأت بالأفول، بعد أن تناول الجميع جرعات فائقة، لكنها لم تكن تسمعني. ولم ألمها. لكنني كنت كارهاً لفكرة أن ترحل، بشكل أساسي لأنني لم ارد أن أترك في الخلف. كان تشارلي

يقوم بأشياء كبيرة، وها هي هلن تتحضر للفرار، وما الذي أفعله أنا؟ كيف سأهرب؟

نظرت ورأيت جميلة تسرع نحوي لابسة تي شيرت سوداء وشورت أبيض. كنت نسيت أنني اتفقت معها على اللقاء. ركضت الياردات الأخيرة القليلة وكانت تتنفس بثقل، إنما بفعل القلق أكثر مما بسبب الإرهاق؟ عرفتها إلى هلن. جميلة بالكاد نظرت إليها لكن هلن ظلّت متأبطة ذراعي.

«حالة أنور تسوء أكثر فأكثر»، قالت جميلة «إنه ماض في الأمر حتى النهاية».

«أتفضّلان أن أدعكما بمفردكما؟»، سألت هلن.

أجبت بسرعة بالنفي وسألت جايمي إذا كان يمكنني أن أخبر هلن عما يجري.

«أجل، إذا شئت أن تفضح ثقافتنا بوصفها شيئاً سخيفاً وشعبنا بوصفه تقليدياً، ومتطرفاً، ومحدود التفكير».

فأخبرتُ هلن عن الإضراب عن الطعام. وتدخلت جميلة لإضافة آخر المستجدات. أنور لم يتنازل قيد أنملة، لم يأكل حتى بسكويتة أو يشرب الماء أو يدخن سيجارة واحدة. إما أن تطيعه جميلة وإما أن يموت، وقد بدأت أعضاؤه تتداعى الواحد بعد الآخر، وإذا ما اقتادوه إلى المستشفى فسيكرر الشيء نفسه، حتى تستسلم عائلته.

بدأت تمطر، لذا ذهبنا ثلاثتنا للجلوس في خبيئة موقف الحافلات. لم يكن ثمة أي مكان نذهب إليه. كانت هلن صبورة ولطيفة، وظلت ممسكة بيدي لكي تهدئني. قالت جميلة: «عقدت العزم على أن أقرر الليلة، عند منتصف الليل، ما الذي سأفعله. لا أستطيع الاستمرار في هذه الحالة من التذبذب».

كلما تطرقنا إلى احتمال فرارها من المنزل وإلى أين يمكن أن تذهب، وكيف يمكن أن نحصل لها على المال لمساعدتها على العيش، كانت جميلة تجيب «وماذا بشأن أمي؟». أنور سيلوم جيتا على كل ما فعلته جميلة. وحياة جيتا ستصبح أشبه بالموت، وليس ثمة مكان يمكنها أن تفزع إليه. اقترحت على جميلة أن تفرّ وأمها معاً، لكن جيتا لن تترك أنور. الزوجات الهنديات لا يفعلن ذلك. ظللنا نفكر في الاحتمالات حتى خطرت لهلن فكرة.

«سنذهب ونسأل أباك»، قالت «إنه رجل حكيم، إنه روحاني و...».

«إنه مزيف بالكامل»، قالت جميلة.

«دعونا نحاول على الأقل»، ردت هلن.

فذهبنا إلى المنزل.

في غرفة الجلوس، كانت أمي برجليها البيضاوين شبه الشفافتين البارزتين من لباسها المنزلي، ترسم. فأغلقت دفتر الاسكتشات ووضعته وراء الكنبة. كان واضحاً أنها متعبة من نهارها في متجر الأحذية. لطالما أردت أن أسألها عن ذلك، لكنني لم أمتلك الشجاعة لأسألها شيئاً سخيفاً مثل «كيف كان يومك؟». لم تكن تناقش عملها مع أي كان. جلست جميلة على الكرسي وراحت تحدق في الهواء كما لو أنها سعيدة بترك موضوع انتحار والدها للآخرين.

هلن لم تخدم نفسها، ولا زادت من احتمالات السلام على الأرض حين قالت إنها حضرت جلسة أبي في تشيزلهرست.

«لم أشاهدها»، ردت أمي.

«آه، يا للخسارة. كانت عميقة». بدت أمي مشفقة على نفسها، لكن

هلن مضت في الكلام «كانت محررة. جعلتني راغبة بالذهاب للعيش في سان فرانسيسكو».

«هذا الرجل يجعلني راغبة أيضاً بالذهاب والعيش في سان فرانسيسكو»، قالت أمي.

«لكن على أي حال أحسب أنك تعلمت كل ما لديه. هل أنت بوذية؟».

بدت هذه المحادثة بين أمي وهلن غير متناغمة أبداً. كانتا تتحدثان عن البوذية في تشيزلهرست على خلفية توسيع أفق التفكير والحرية والمهرجانات. لكن بالنسبة إلى أمي كانت الحرب العالمية الثانية لا تزال ماثلة في شوارعنا، الشوارع التي نشأت فيها. وغالباً ما أخبرتني عن الغارات الليلية، عن والديها وقد أنهكتهما مشاهدة النيران، وعن البيوت في الشوارع المألوفة وهي تغرق فجأة في الغبار، والناس وهم يرحلون فجأة، والأنباء عن أبناء يقتلون على الجبهة. أي معرفة بالشر أو احتمالات الدمار البشري يمكن أن نملكها مقارنة بذلك؟ كل ما كنت أعرفه بشكل مادي عن الحرب هو ذلك الملجأ المربّع في نهاية الحديقة الذي كنت كطفل أعتبره منزلي الخاص. حتى وقتذاك كان لا يزال يحتوي على صفائح المربى والأسرة العفنة من العام ١٩٤٣.

«إنه أمر بسيط بالنسبة إلينا التحدث عن الحب»، قلت لهلن، «ماذا عن الحرب؟».

وقفت جميلة متبرمة. «لماذا نناقش الحرب يا كريم؟».

«إنها مهمة.. إنها...».

«أيها المغفل... رجاء...». ونظرت متوسلة إلى أمي. «جئنا إلى هنا بهدف محدّد. لماذا تجعلونني أنتظر هكذا؟ لنمض في مسألة الاستشارة».

قالت أمي، مشيرة إلى الجدار المتاخم: «معه؟».

هزت جميلة رأسها وقضمت أظافرها. ضحكت أمي بمرارة.

«هو غير قادر على فهم نفسه حتى».

«هذه كانت فكرة كريم»، قالت جميلة، وخرجت من الغرفة.

«لا تجعلني أضحك»، خاطبتني أمي «لماذا تفعل بها هذا؟ لماذا لا تفعل شيئاً مفيداً مثل تنظيف المطبخ؟ لماذا لا تذهب وتذاكر؟ لماذا لا تفعل شيئاً يوصلك إلى مكان ما يا كريم؟».

«لا تصيري هستيرية»، أجبتها.

«لِمَ لا؟». ردت.

حين دخلنا إلى غرفته وجدناه مضطجعاً على السرير يستمع إلى الموسيقى على الراديو. نظر إلى هلن نظرة استحسان وغمزني. أعجبته؛ لأنه كان تواقاً إلى أن أخرج مع أي شخص كان شرط ألا يكون ذكراً أو هندياً. «لماذا تخرج مع أولئك المسلمين؟»، قال لي مرة، حين جئت بشخص باكستاني عرفتني به جميلة إلى البيت. «لم لا؟»، سألته. «إنهم يسبّبون الكثير من المشكلات»، أجاب بتعجرف. «أي مشكلات؟»، سألته. لم يكن يجيد التحديد؛ فهزّ رأسه كما لو ليقول أنه هناك الكثير من المشكلات بحيث أنه لا يعرف من أين يبدأ بتعدادها. لكنه أضاف، على سبيل المجادلة «أمور المال وما إلى ذلك».

«أنور هو أقدم أصدقائي في العالم»، قال بحزن حين أخبرناه كل شيء، «نحن قدامى الهنود صار يقلّ حبنا لإنكلترا هذه أكثر فأكثر وبتنا نعود إلى هند متخيلة».

أمسكت هلن يد أبي وراحت تربّت عليها مواسية.

«لكنه وطنكم»، قالت «نحن نحب وجودكم هنا. إنكم تثرون البلد بتقاليدكم».

نظرت جميلة إلى السقف. كانت هلن تفقدها صوابها، أما أنا فتجعلني أضحك فحسب، لكن هذه كانت مسألة جدية.

قلت له «لم لا تذهب وتتحدّث إليه؟».

«لن يصغي إلى غاندي نفسه»، أجابت جميلة.

«حسناً»، قال «ارجعوا بعد خمس وتسعين دقيقة أكون خلالها تأمّلت في القضية. وسأعطيكم جوابي».

«عظيم».

غادرنا ثلاثتنا شارع ڤيكتوريا المقفل واتجهنا إلى الحانة عبر الشوارع الكئيبة الخالية، والحدائق المقيتة، والمدرسة الڤيكتورية بمراحيضها الخارجية، والشوارع المتهدّمة التي كانت تشكّل ملاعبنا الحقيقية ومدارسنا الجنسية، وعبر الحدائق الصغيرة وأعداد من الغرف الأمامية التي تحتوي على غرباء مألوفي السحنات وأجهزة تلفاز تشعّ مثل أضواء نائسة. إيڤا كانت تُسمي منطقتنا «الأعماق العليا». كانت الشوارع هادئة جداً خلال سيرنا بحيث أن احداً منا لم يكن راغباً في سماع صوته المحرج نفسها.

هنا بيت الشرطي ويتمان، وزوجته الشابة نولين؛ وبجواره زوجان متقاعدان، السيد والسيدة هولاب، وهما اشتراكيان منفيان من تشيكسلوفاكيا، كان يتسلّل ابنهما ببيجامته من المنزل كل ليلة جمعة وسبت لكي يستمع إلى الموسيقى الرديئة. في المنزل المقابل لهما يعيش زوج آخر متقاعد، معلم وزوجته، آل غوثارد، وإلى جوارهم آل لوفلاس من «الإيست إند»، المتحدرة من تجار بذار طيور، وكانت الجدة العجوز لوفلاس من مرتادي التواليت في «لايبراري غاردنز». وعلى مسافة أبعد، في «فلات ستريت»، يقيم المراسل الصحافي، السيد نوكس، مع زوجته وأولادهما مفرطي السمنة، وإلى جوارهم آل سكوفيلد، وكانت السيدة سكوفيلد مهندسة معمارية.

كانت كل المنازل هناك قد خضعت للتعديلات. شرفة جديدة، أو زجاج مزدوج، أو نوافذ «جورجية»، أو باب جديد مزود بصفيحة نحاسية. المطابخ وسّعت، وغرف التخزين حوّلت، وأزيلت جدران، وأدخلت الكاراجات ضمن البيت. كان هذا الشغف الإنكليزي، ليس من أجل التحسين الذاتي أو الثقافة أو الفطنة، بل بناء على قاعدة «ق. ب. ب»، أي «قم بالأمر بنفسك»، لتوسيع المنازل ومنافعها، تلك المراكمة المؤلمة للراحة وللمكانة الاجتماعية، ذلك العرض المادي للمال المكتسب. العرض كان بمثابة اللعبة. كم مرة خلال زيارة لعائلات في الحي، وقبل أن يقدّموا لنا الشاي، كانوا يصحبوننا في جولة على المنزل، «الرحلة العظيمة مجدداً»، كان يسمّيها أبي متنهداً، لكي نبدي إعجابنا بالغرف ذات الأبواب المستقلة، والخزائن الدقيقة، والأسرة القابلة للطي، والدوشات، والدفيئات، والمدافئ.

وصلنا إلى حانة «شاترتون آرمز»، كان ثمة مجموعة أربعينية من «تيدي بويز» بمعاطفهم المتهدلة، وغرّات شعورهم القاسية تمتد من رؤوسهم كمقدمات السفن. وكان هناك أيضاً عدد من «الروكرز»(*) الشرسين، بسلاسلهم وستراتهم الجلدية المبقعة، يثرثرون حول موضوعهم الأثير: العصابات. وكان هناك شابان من حليقي الرؤوس، ترافقهما فتاتيهما، وكلهم ببناطيل «ليفيز»، وجزمات ضخمة، ومقومات أسنان. كثر منهم كنت قد رأيته في المدرسة من قبل: كانوا يقصدون الحانة كل ليلة، مع آبائهم، وسيظلون فيها إلى الأبد. أجفلوا قليلاً لرؤيتهم فتاتين هبيّين و«باكي»؛ وجعلوا يتهامسون حولنا وينظرون إلينا،

(*) «تيدي بويز»، ثقافة شبابية راجت في بريطانيا في الخمسينات من القرن الماضي وكانت تتمحور أساساً حول ثقافة موسيقى الروك أند رول، أما «روكرز»، فهي الموجة التي حلّت محلها أو انبثقت منها في الستينات.

وكنت حريصاً على ألا نبادلهم النظرات حتى لا نمنحهم ذريعة للشجار. وعلى أي حال، وظللت أخشى أن سينقضون علينا في أي لحظة، حتى غادرنا.

ظلت جميلة صامتة، وكانت هلن تواقة للتحدث عن تشارلي، وهو موضوع من الواضح أنه كان يعنيها له إلى حدّ كبير. ولم تتعامل جميلة، التي راحت تغبّ جرعات البيرة المرة، مع الموضوع بازدراء حتى. كانت قد التقت تشارلي مرتين في بيتنا ولم يعجبها، في أقل تقدير. «الغرور اسمه تشارلي»، كان استنتاجها وقتذاك. وتشارلي بدوره لم يبذل أي جهد معها. ولماذا يفعل؟ جميلة لم تكن ذات فائدة بالنسبة إليه، ولم يكن راغباً في مضاجعتها. وجميلة رأت أعماق تشارلي: قالت إنه هناك طموح جامح تحت مثاليته الأرجوانية التي كانت لا تزال موضة العصر.

أكدت لنا هلن بغبطة أن تشارلي لم يكن «نجيما» في مدرستنا فحسب، لكنه كان يشع أيضاً على مدارس أخرى، لاسيما مدارس الفتيات. ثمة فتيات كن يتبعن فرقة «ماسنت كرامبل» من حفلة إلى أخرى فقط لكي يكونوا على مقربة منه، وكن يسجلن تلك الحفلات. ويمرّرن على بعضهن صور تشارلي الفوتوغرافية حتى صارت خرقاً. وقالت لنا إنه تلقى عرضاً لتسجيل أسطوانة، لكن «السمكة» رفضه، على اعتبار أن الفرقة ليست جيدة كفاية بعد. وحين تصبح جيدة حقاً فإنها ستكون واحدة من كبريات الفرق الموسيقية في العالم. تساءلت ما إذا كان تشارلي يعرف هذا، يشعر به، أم أن حياته وهو يعيش كل يوم بيومه، كانت مدمرة ومشلولة مثل الآخرين جميعاً.

لاحقاً تلك الليلة، مع جايمي وهلن ورائي، طرقت على باب أبي، ولم أسمع جواباً.

«ربما لا يزال في مستوى آخر من التأمل»، قالت هلن. نظرت إلى جايمي وتساءلت ما إذا كانت تسمع مثلي شخير أبي. ومن الواضح أنها سمعته لأنها راحت تطرق بقوة على الباب حتى فتحه أبي، منفوش الشعر، ومتفاجئاً لرؤيتنا. جلسنا حول سريره وبدأ بواحدة من جولات صمته المؤثرة والتي صرت الآن أتقبّلها بوصفها شيئاً ملازماً للحكمة.

«إننا نعيش في عصر من الشك وعدم اليقين. الأديان القديمة التي عاش الناس في ظلها طوال ٩٩ فاصل ٩٩ من تاريخ البشرية تحللت أو لم تعد ذات قيمة. مشكلتنا هي العلمانية. لقد استبدلنا حكمتنا وقيمنا الروحانية بالقيم المادية. والآن الجميع يهيم على وجهه متسائلاً كيف يعيش. وبعض الأشخاص اليائسين يلجأون إليّ حتى».

«عمي، رجاء».

رفع أبي إصبعه قليلاً وصمتت جميلة بتردد.

«لقد قررت التالي».

ركزنا بقوة على ما سيقوله إلى درجة أنني كدت أضحك.

«أعتقد أن السعادة ممكنة فقط إذا تبعت مشاعرك، وحدسك، ورغباتك الحقيقية. فقط التعاسة تتحقق في حال التصرف وفق مقتضيات الواجب أو الفرض أو الذنب أو الرغبة بإرضاء الآخرين. عليك أن تقبل السعادة حين تستطيع، ليس بأنانية، لكن متذكراً أنك جزء من العالم، من الآخرين، ولست منفصلاً عنهم. هل يجدر بالناس أن يحققوا سعادتهم على حساب الآخرين؟ أم ينبغي أن يكونوا تعساء لكي يسعد الآخرون؟ ليس من شخص لم يضطر إلى مواجهة هذه المعضلة».

صمت قليلاً ليأخذ نفساً ونظر إلينا. كنت أعرف أنه يفكر في إيڤا في تلك الأثناء. شعرت فجأة بالعري والكآبة، حين أدركت أنه قد يغادرنا. ولم أرده أن يرحل، لأنني كنت أحبه كثيراً.

«لذا إذا عاقبت نفسك من خلال الإنكار الذاتي على الطريقة التطهرية، المسيحية الإنكليزية، فلن تجني إلا المزيد من التعاسة والاشمئزاز». ثم أخذ ينظر إلى جميلة فقط. «الناس يطلبون النصح طوال الوقت، في حين ينبغي أن يحاولوا أن يكونوا أكثر إدراكاً للواقع».

«شكراً جزيلاً»، قالت جميلة.

كان منتصف الليل حين أعدناها إلى البيت الذي تقدّمت منه مطأطأة الرأس. سألتها ما إذا اتخذت قرارها.

«آه أجل»، قالت، وهي تبدأ بارتقاء الدرج إلى الشقة، حيث كان والداها، معذّباها، مستيقظين، في غرفتين منفصلتين، أحدهما يحاول أن يموت، والثاني بلا شك يتمنى أن يموت. وكان العدّاد الذي ينظم الإضاءة في الصالة يتكتك بصوت مرتفع. حدقت وهلن في وجه جميلة في العتمة باحثين عن إشارة عما ستفعله. ثم استدارت، اختفت في العتمة، وذهبت إلى النوم.

قالت هلن إن جميلة ستتزوج الشاب. وقلت لا، سترفضه. لكن كان يستحيل أن نعرف.

تسلقت وهلن الجدار إلى حديقة «أنيرلي» واستلقينا على العشب قرب الأراجيح، ورحنا ننظر إلى السماء، ثم خلعنا ثيابنا. وكانت مضاجعة جيدة، إنما سريعة، لأن «هايري باك» سيبدأ بالقلق. تساءلت ما إذا كنا كلانا نفكر بتشارلي ونحن نفعل ذلك.

الفصل السادس

الرجل الذي يدخل الآن إلى إنكلترا، باتجاه عيوننا الفضولية، باتجاه المعطف الشتائي الدافئ الذي كنت أحمله بين يدي، لم يكن الكاتب فلوبير، مع أن لديه شارباً رمادياً يشبه شارب فلوبير، ووجنتين ضخمتين، والقليل من شعر الرأس. هذا الذي لا يشبه فلوبير كان أكثر ضآلة مني، بحجم الأميرة جيتا تقريباً. لكن على عكسها ـ رغم صعوبة تحديد حجمها بدقة بسبب رداء «سالوار كارميز» الواسع الذي ترتديه ـ فإن بطن شانغيز كانت تتقدم جسمه، وتعلوها كنزة صوف حمراء غامقة. أما الشعر الذي أبقاه الله له فكان خفيفاً ومتفرقاً وعمودياً كما لو أنه يفرشيه إلى الأمام كل يوم. بيده السليمة جرّ شانغيز عربة ترولي وضع عليها حقيبتين مهترأتين، نجتا من الانهيار النهائي بشريط رفيع وإبزيم بيجاما منسلّ.

حين رأى هذا الذي لا يشبه فلوبير اسمه على اللوح الصغير الذي أحمله توقف ببساطة عن دفع الترولي، تركها بين الحشد وتقدّم باتجاه جيتا وزوجته المستقبلية جميلة.

هلن وافقت على مساعدتنا في يوم الأيام هذا، وهي وأنا جررنا العربة إلى سيارتها الروفر، حيث وضعنا خردة شانغيز في الصندوق، ولم تمسك هلن أي شيء مخافة أن يقفز البعوض من الحقيبة وتصاب بالملاريا. ولم يصعد هذا الذي لا يشبه فلوبير إلى السيارة حتى اطمأن

إلى أنني أغلقت الصندوق على حقيبتيه المقدّستين، اللتين أصبحتا بمأمن من اللصوص والنشالين.

«ربما كان معتاداً على الخدم»، قالت لهلن بصوت مسموع، فاتحاً له الباب حتى يصعد إلى جوار جيتا وجميلة. وصعدت إلى جوار هلن. كانت تلك لحظة انتقام لذيذة بالنسبة إلي، لأن الروفر يملكها والد هلن، «هايري باك». ولو أنه عرف أن أربعة من «الباكي» يريحون مؤخراتهم السوداء على مقاعد سيارته الجلدية الوثيرة، التي ستقودها ابنته، التي مؤخراً فقط ضاجعها أحد أولئك «الباكي»، فلما كان شعر بالرضى على الإطلاق.

الزفاف الفعلي كان سيجري اليوم التالي، حيث سينزل شانغيز وجميلة في فندق «ريتز» لليلتين. أما اليوم فستقام حفلة صغيرة للترحيب بشانغيز في إنكلترا.

كان أنور ينتظر بشوق خارج «باراديز ستورز» حين انعطفت الروفر إلى الشارع، وتوقفت أمام المكتبة. وحتى أنه بدّل بذلته القديمة التي ترجع إلى بداية الخمسينات، بأخرى من فترة نهاية الخمسينات، وكانت مزّرة من فوق إلى تحت، لكي تخفي نحافته المستجدة. أنفه ووجنتاه نتأت إلى الأمام مثلما لم تبدو من قبل، وكان أكثر شحوباً من هلن، كان شاحباً إلى حدّ أنه كان من الصعب أن يشتمه أحد بالوغد الأسود، مع أنه كان لا يزال جائزاً في حالته استعمال كلمة وغد. كان يجد صعوبة في أن يرفع رجليه ويمشي. فمشى كما لو أن أكياساً من السكر علقت في ركبتيه. وحين عانقه شانغيز في الشارع حسبتني سمعت طقطقة عظامه. ثم صافح شانغيز مرتين وقرص خديه. وهذه الحركة بدت كافية لإرهاقه.

كان أنور وبشكل استثنائي شديد الحماسة بشأن زيارة شانغيز. ربما

كان للأمر صلة بعدم إنجابه ابناً وإحساسه بأنه اكتسب واحداً الآن، أو ربما كان مغتبطاً بانتصاره على النساء. أياً يكن مبلغ هزاله الجسدي، فإنني لم أره رائق المزاج إلى هذه الدرجة من قبل، أو كثير الكلام. فالكلام لم يكن مجاله الطبيعي، لكن في تلك الأيام، حين كنت أذهب لمساعدتهم في المتجر، كان ينحيني جانباً ـ بعد أن يبتزني بالساموسا، وشراب الشربت، وبفرصة ألا أعمل ـ لكي يلقي عليّ خطبة طويلة. أنا واثق من أنه كان ينزوي بي، بعيداً من جيتا وجميلة، في المخزن، حيث نجلس على صناديق خشبية مثل عمال المصانع الزائغين من العمل، بسبب إحساسه بالخزي، أو على الأقل بالخجل، جراء انتصاره المر. خصوصاً وأن الأميرة جيتا وجميلة كانتا مؤخراً في مزاج جنائزي، ولم تتيحا لأنور أن يتلذذ لحظة بطغيانه. لذا كل ما كان يسع الوغد المسكين فعله هو الاحتفاء به معي. ألن تفهما إطلاقاً النتائج الطيبة التي سيحققها قراره الحكيم؟

«الأمور ستتغير هنا فعلاً بوجود رجل آخر»، قال لي بفرح عارم. «المتجر يحتاج إلى ديكور جديد. أحتاج إلى شخص يمكنه ارتقاء سلم! إضافة إلى أنني أحتاج إلى من يحمل الصناديق من تاجر الجملة. حين يصل شانغيز يمكنه إدارة المتجر مع جميلة. ويمكنني اصطحاب تلك المرأة»، قاصداً زوجته «إلى الخارج، إلى مكان رائع».

«إلى أي مكان رائع ستصحبها يا عمي، إلى الأوبرا؟ سمعت أنه هناك إنتاج جيد لريغوليتو يعرض حالياً».

«سآخذها إلى مطعم هندي يملكه أحد أصدقائي».

«وإلى أي أمكنة أخرى رائعة؟».

«إلى حديقة الحيوانات، اللعنة! إلى أي مكان قد تود الذهاب إليه». أصبح أنور عاطفياً، مثلما يصبح الأشخاص منعدمي الإحساس عادة.

«لقد كدحت طوال حياتها. وتستحق استراحة صغيرة. لقد منحتنا جميعاً الكثير من الحب. الكثير من الحب. فقط لو تفهمان وجهة نظري. لكنهما ستبدآن بالفهم حين يصل الفتى إلى هنا. ستدركان عندها، أليس كذلك؟».

علمت أيضاً في مخزن الأسرار ذلك مدى تشوّق أنور لأن يصبح جداً. فبحسب تصوره، ستحبل جميلة على الفور، وسرعان ما سيمتلئ البيت بـ«أنورات» صغار يملأون البيت. وسيعنى هو بتنشئتهم ثقافياً ويصحبهم إلى المدرسة والجامع بينما يعيد شانغيز، افتراضياً، تزيين المتجر، ناقلاً الصناديق ومحبلاً صديقتي جميلة مجدداً. بينما كانت تجري مثل هذه الأحاديث بيننا، كانت جميلة تحب أن تفتح الباب وترمقني بتلك النظرة الحادة، كما لو أنني جالس مع أيخمان(*).

فوق في الشقة حضرت جيتا وجميلة وليمة من الكيما الشهية والألو والتشوباتي والنان. وكان هناك أشربة تيزر وكريم صودا وبيرة ولاسي، فرشت كلها على المائدة على شرشف أبيض مع محارم ورقية صغيرة لنا جميعاً. كان يصعب التصديق، مقارنة بالحالة الحالية للغرفة القميئة المطلة على الشارع الرئيسي المؤدي إلى لندن، أن شخصاً حاول الصيام حتى الموت، في المكان نفسه، قبل بضعة أسابيع فحسب.

في البداية كانت الحفلة الجحيم على الأرض، حيث يبدو الجميع غريباً وواعياً. وقام العم أنور، أوسكار وايلد بحدّ ذاته، بثلاث محاولات لاختراق الصمت، دون جدوى. ورحت أحملق في السجادة الجرداء. وحتى هلن، التي كانت تنظر إلى كل شيء حولها بفضول وكثير من التعاطف، والتي يمكن الاعتماد عليها عادة لإبداء الآراء المثيرة المبهجة، لم تقل شيئاً سوى «يام يام» مرتين والنظر من النافذة.

(*) أدولف أيخمان: كولونيل نازي معروف.

جلس جميل وشانغيز متباعدين، ومع أنني حاولت رصد أي نظرات متبادلة بينهما، أستطيع أن أؤكد أنه ولا نظرة أفلتت خفية من الزوجين المستقبليين. ما سيكون رأي شانغيز بزوجته حين ينظر إليها أخيراً؟ أيام الكنزات الضيقة والتنانير القصيرة انتهت بالنسبة إلى جميلة التي تدثرت بما بدا كومة من الأكياس: تنانير طويلة ربما ثلاث أو أربع تنانير فوق بعضها البعض، وفوقها جلباب أخضر باهت تمكن عبره رؤية قوس ثدييها العاريين لمن يهمه الأمر. وكانت تضع نظارتها الاعتيادية «ناشيونال هلث»، وفي رجليها حذاء من نوع دكتور «مارتنز»، الذي يوحي بأنها ذاهبة في نزهة إلى التلال. كانت مسرورة بعثورها على ثياب يمكنها أن ترتديها كل يوم، راغبة مثل فلاحة صينية، ألا تضطر إطلاقاً للتفكير بما ستلبسه. فكرة بسيطة كهذه، ومعبّرة بشكل نموذجي عن جميلة، التي كان لديها بعض الغرور الجسدي، وجدها الآخرون غيربة، وبالتأكيد جعلتني أضحك. الشخص الوحيد الذي لم يبد مستغرباً، لأنه لم يلاحظ الأمر، كان أبوها. كان حقاً يعرف القليل عن جميلة. لو سأله أحدهم لمن أدلت بصوتها في الانتخابات، وما أسماء صديقاتها، وما الذي تحبه في الحياة، لما أمكنه الإجابة. بدا كما لو أن الاكتراث بأمرها يشكّل، بطريقة غريبة، إهانة لكرامته. لم تكن تقع ضمن نطاق رؤيته، وكان ثمة فحسب بعض السلوكيات التي ينبغي لهذه المرأة التي هي ابنته أن تلتزم بها.

جاء أربعة من أقرباء أنور حاملين المزيد من الشراب والطعام، وهدايا من الثياب والأواني. أحد الرجال أهدى جميلة شعراً مستعاراً، أما شانغيز فأهدي عقداً من الصندل. وسرعان ما ضجت الغرفة بالحركة والصخب.

بدأ أنور يوثق معرفته بشانغيز. وبدا مغتبطاً به، وهو يبتسم له ويومئ

له ويلمسه باستمرار. ومرّ بعض الوقت قبل أن يلاحظ أنور أن صهره المنتظر لم يكن مثال الرجل القوي جسدياً مثلما كان يأمل. لم يتحدثا بالإنكليزية فلم أتمكن بالضبط من معرفة عما كانا يتحدثان به، لكن أنور، وبعد نظرة، أتبعها بأخرى أكثر تمعناً، ثم بخطوة إلى الجانب من أجل زاوية رؤية أفضل، أشار بقلق إلى ذراع شانغيز. فهزّ الأخير ذراعه قليلاً وضحك دون إدراك، وحاول أنور أن يبادله الضحك. كانت ذراعه اليسرى ذابلة نوعاً ما، وتلتصق بطرفها كتلة من اللحم القاسي بحجم كرة غولف، تشكل قبضة صغيرة، يبرز منها إبهام صغير فقط، حيث يفترض أن يكون هناك أصابع رشيقة، قادرة على أعمال التزيين وحمل الأوزان. بدت كما لو أن شانغيز وضعها في النار فاختلط اللحم والعظم والطنب في كتلة واحدة. ومع أنني كنت أعرف سمكرياً مميزاً له فقط جذع بدل الذراع الكاملة كان يعمل لدى العم تيد، فلم أستطع أن أرى شانغيز يزين متجر أنور بيد واحدة. وفي واقع الأمر، لو كان يملك أربعة أذرع بقوة محمد علي كلاي لشككت في أنه يعرف كيف يحمل فرشاة طلاء، أو فرشاة أسنان أو أي شيء من هذا القبيل.

إذا كانت تشكلت لدى أنور ملاحظات صغيرة حول شانغيز (علماً أن الأخير بدا مسروراً بأنور، وكان يضحك على كل ما يقوله حتى حين يكون جاداً)، فإنها لا تقارن بنفور جميلة منه. هل كان لديه أي فكرة عن التردد الذي ستعانيه عروسه لكي تقطع عهود الزواج منه، وقد اتجهت الآن إلى رف كتبها، وحملت كتاباً لكايت ميليت، وجعلت تحدق به بضع دقائق قبل أن تعيده إلى مكانه بعد نظرة لائمة من أمها؟

جميلة كانت اتصلت بي اليوم التالي بعد أن تضاجعنا أنا وهلن في «أنرلي بارك» لتخبرني بقرارها. ذلك الصباح كنت متحمساً جداً لانتصاري بإغواء ابنة صاحب الكلب بحيث أنني نسيت كلياً قرار جميلة

المهم. بدت بعيدة وباردة وهي تخبرني بأنها ستتزوج الرجل الذي اختاره لها أبوها من بين الملايين، وهذه نهاية الموضوع. ستعيش، قالت لي. ولن تتسامح مع أي كلمة أخرى تقال في الموضوع.

بالنسبة إلي كان هذا سلوكاً نموذجياً من قبل جميلة، هذا بالضبط القرار الذي يمكن أن تتخذه، كما لو كان يتعلق بمسألة يومية بسيطة، وكنت واثقاً من أنها ستتزوج شانغيز لتناكف أبيها فحسب، فقد كنا نعيش في زمن ثوري وغير تقليدي، في نهاية الأمر، وكانت جميلة مهتمة بالفوضويين و«حركة الموضعية الدولية»(*) و«جماعة ذي وذرمن»(**)، وكانت تقص المقالات عنهم من الصحف وتريها لي. أما الزواج من شانغيز فسيكون بالنسبة إليها ثورة على الثورة، ابتكاراً قائماً بذاته. ستضطرب حياتها كلها، وتدخل في مرحلة من الاختبار، وإن زعمت أنها تفعل ذلك من أجل جيتا فقط، لكنني شككت في أن في الأمر رغبة ذاتية بالمعاكسة.

جلست بجوار شانغيز حين بدأنا بتناول الطعام. وظلت هلن تنظر إلى الموجودين بفضول، غير قادرة على الأكل، وقد بدت مشمئزة من منظر شانغيز وهو يوازن طبقاً على ركبته، وطوق الزهور يسقط في حساء «الدال» الخاص به، بينما يأكل بيده السليمة، مستعملاً أصابعها برشاقة، موحياً أنه لم يستعمل في حياته الشوكة والسكينة. بالتأكيد جميلة سيسليها الأمر. وستنشر الخبر بين أصدقائها «هل تعرفون أن زوجي لم يستعمل بحياته أدوات المائدة؟».

(*) «حركة الموضعية الدولية»: حركة سياسية وثقافية صغيرة ظهرت في ١٩٦٧ في إيطاليا، وهي تجد جذورها في الماركسية والسريالية وتيار «الباوهاوس» الفني.

(**) «ذي وذرمن»: أو «رجال الطقس»، جماعة يسارية أميركية ظهرت في نهاية الستينات من القرن الماضي، واسم هذه الجماعة مشتق من أغنية لبوب ديلان، يقول فيها: «لا تحتاج إلى متنبئ بالطقس لكي تعرف في أية اتجاه ستهب الرياح».

لكن شانغيز بدا منعزلاً، ومن مكاني القريب كان بوسعي أن أرى بعض الشعرات الغليظة ناتئة من ذقنه غير الحليقة جيداً، فأخذتني الشفقة به، ولم أستطع الهزء منه حتى. كما أنه راح يحادثني بلطف بالغ، وبحماسة بريئة جداً، فشعرت بالرغبة بان أقول لجميلة: «اسمعي.. إنه ليس سيئاً إلى هذا الحدّ!»

«هلا جلت بي في المنطقة لأن هناك شيئاً أو اثنين أود رؤيتهما؟».

«بالطبع، متى شئت»، أجبته.

«كما أحب مشاهدة مباراة كريكت. ربما يمكننا الذهاب إلى «لوردز». لقد اشتريت منظاراً خاصاً».

«ممتاز».

«وأن نزور المكتبات؟ سمعت أن هناك الكثير منها في تشارينغ كروس رود».

«أجل. ما الذي تحب أن تقرأه؟».

«الكلاسيكيات»، قال بحزم. رأيت أن فيه جانباً متفاخراً فيه، وثقة بالغة بأنه يمتلك الذوق والحكم المناسبين، «أتحب الكلاسيكيات أيضاً؟».

«لست تقصد ذلك الخراء الإغريقي؟ فرجيل أو دانتي أو هوميروس أو شيء من هذا القبيل؟».

«بالنسبة إلي، أعني ب. ج. وودهاوس وكونان دويل! أيمكنك اصطحابي إلى منزل شرلوك هولمز في بايكر ستريت؟ كما أحب الساينت وميكي سبيلاين. وأفلام الوسترن! أي شيء يمثل فيه راندولف سكوت! أو غاري كوبر! أو جون واين!».

أجبته على سبيل الاختبار «هناك أشياء كثيرة يمكننا فعلها، ويمكننا اصطحاب جميلة معنا».

من دون أن ينظر إليها، وحاشياً فمه بالأرز والفاصولياء حتى انتفخ خداه، كان نهماً فعلاً ـ أجاب: «سيكون هذا مسل جداً».

«إذاً صرتما صديقين حميمين الآن؟». همست لي جميلة لاحقاً. كان أنور قد استعاد شانغيز وراح يشرح له بصبر أمور المتجر، وكيفية التعامل مع بائع الجملة، والوضع المالي. شانغيز وقف ينظر من النافذة ويحك مؤخرته متجاهلاً كلياً حماه، الذي لم يكن من خيار أمامه سوى مواصلة الشرح، حتى التفت شانغيز نحوه وقال «كنت أحسب أن الطقس في إنكلترا سيكون أبرد بكثير من هذا».

أربك أنور واستفز من مقاطعة شانغيز لكلامه.

«لكنني كنت أحدّثك عن أسعار الخضار»، قال أنور.

«لماذا؟» سأل سانشيز «أنا آكل اللحوم بشكل أساسي».

لم يرد أنور، لكن علت وجهه علامات الخيبة والارتباك والغضب. ونظر إلى ذراع سانغيز البليدة مجدداً كأنما ليتأكد من أن أخاه أرسل له حقاً كسيحاً كزوج لابنته الوحيدة.

«شانغيز هذا يبدو جيداً بالنسبة إلي»، قلت لجميلة. «يحب الكتب، ولا يبدو من النوع المستلب جنسياً».

«كيف تعرف أيها الأير الذكي؟ لماذا لا تتزوجه أنت إذاً؟ فأنت تحب الرجال في نهاية الأمر».

«لأنك أردت أن تتزوجيه».

«لا أريد شيئاً سوى أن أعيش بسلام».

«أنت اتخذت خيارك يا جايمي».

كانت حانقة علي.

«آه! أياً يكن ما سيحدث سأكون متكلة عليك للدعم والاهتمام».

الحمد لله، فكرت، حين دخل أبي في تلك اللحظة إلى الحفلة، آتياً من العمل مباشرة، مرتدياً أفضل بذلاته البورتون، وسترة صفراء وساعة بسلسلة (هدية من أمي) وربطة عنق مخططة بالزهري والأزرق مع عقدة بضخامة صابونة. بدا ببغاء. كان شعره يلمع أيضاً، فقد كان يحب أن يصففه بزيت الزيتون، مقتنعاً بأن تزييت فروة الرأس يحول دون الصلع. ولسوء الحظ إذا ما اقتربت كثيراً منه فستضطر للنظر حولك لمعرفة مصدر الرائحة، ظاناً أنها رائحة سلطة قوية. لكنه مؤخراً بات يخفي هذه الرائحة بعطر ما بعد الحلاقة المفضل لديه، «رامباج». كان أبي منفوخاً أكثر من أي وقت مضى. بدأ يتحول إلى بوذا صغير منتفخ، لكن مقارنة بجميع من في الغرفة كان الحياة بحدّ ذاتها، كان ينبض بالحيوية، ويتصرف بمرح ومن غير تحفظ. مقارنة به أصبح أنور عجوزاً. كان أبي دمثاً مع الآخرين، وذكرني منظره بالسياسيين المداهنين الذين يزورون دائرة انتخابية رثة، موزّعين الابتسامات، ومقبلين الأطفال، ومصافحين الحاضرين بحبور، ومغادرين بأسرع ما يمكن.

ظلت هلن تردد «أخرجني من هنا يا كريم»، مما وتّرني كثيراً، لذا بعد فترة وجيزة كنا أنا وأبي وهي ننزل الأدراج.

«ما الأمر؟»، سألتُ هلن «ما الذي ضايقك إلى هذا الحدّ؟».

«أحد أقرباء أنور كان يعاملني بغرابة».

من الواضح أنه كلما كانت هلن في موضع قريب من هذا الرجل كان يهرّبها منه، وهو يتمتم «خنزير، خنزير، خنزير، في دي، في دي، امرأة بيضاء، امرأة بيضاء». إضافة إلى أنها كانت مستاءة من جميلة لزواجها من شانغيز، الذي سبب لها منظره الغثيان. شجعتها على الذهاب إلى سان فرانسيسكو.

في الأسفل كان أنور يعرّف شانغيز على المتجر، وبينما يشرح له

مشيراً إلى العلب الصفيح والرزم والقناني والفراشي، راح شانغيز يهز رأسه كطالب مدرسة فطن، إنما مزعج، يستفز راعي المتحف المتحمس من دون أن يستوعب أي من المعلومات. بدا غير مستعد لإدارة «بارادايز ستورز». وحين لمحني أغادر هرع نحوي وأمسك يدي.

«لا تنسى المكتبات، المكتبات!».

وكان يتصبب عرقاً ودلّت طريقة تمسّكه بي على أنه لا يريد أن يترك وحيداً.

«ورجاء نادني بكنيتي بابل (فقاعة)».

«بابل؟».

«أجل بابل، وما كنيتك أنت؟».

«قشطة».

«إلى اللقاء يا قشطة».

«إلى اللقاء يا فقاعة».

في الخارج كانت هلن أدارت السيارة لتنبعث من مذياعها الجملة المفضلة لدي من أغنية «آبي رود»: «قريباً سنجد طريقنا بعيداً من هنا، دس على البنزين وامسح تلك الدمعة». فوجئت بسيارة إيفا مركونة أيضاً خارج المكتبة، وكان أبي يمسك الباب مفتوحاً. كان مرحاً، لكن أيضاً جدياً وأكثر سلطوية مما رأيته منذ أزمنة، حيث كان في الغالب متجهماً وعبوساً. أوحت ملامحه أنه قد عزم أمره على فعل أمر ما، لكنه ليس واثقاً بعد من أنه الأمر الصواب. لذا بدلاً من أن يكون مسترخياً وراضياً، كان أكثر توتراً وأقل تسامحاً مما كان عليه أبداً.

«اصعد»، قال مشيراً إلى المقعد الخلفي من سيارة إيفا.

«لماذا؟ إلى أين سنذهب؟».

«اصعد فحسب. أنا أبوك، أليس كذلك؟ ألم أهتم بك دائماً؟».

«لا. ويبدو أنه يتمّ اعتقالي. أخبرتك أنني سأكون مع هلن هذا المساء».

«لكن ألا تريد أن تكون مع إيڤا؟ أنت تحب إيڤا. وتشارلي ينتظر في البيت. إنه يريد أن يناقش معك بعض الأمور».

ابتسمت لي إيڤا من مقعد السائق. «قبلة قبلة»، قالت. عرفت أنه سيتمّ استدراجي. يا لهم من حمقى، أولئك الكبار، الذين يحسبون أنك لا تستطيع أن ترى الهدف مما يفعلونه».

ذهبت إلى هلن وقلت لها إن أمراً مهماً يحدث، لست متأكداً من ماهيته، لكن علي المغادرة فوراً. فقبلتني وابتعدت بسيارتها. طوال اليوم كنت أشعر بالهدوء، رغم علمي بأن كل شيء في حياة جميلة قد تغير؛ والآن، في اليوم نفسه، إذا ما كنت مصيباً في قراءة ملامح الوجهين اللذين في السيارة معي، فإن الأمر نفسه سيحدث معي. لوحت مودعاً هلن، لا أعرف لماذا. لكنني لم أرها بعد ذلك. أحببتها، كنا بدأنا نخرج معاً، ثم حدث هذا كله، ولم أرها ثانية.

جلست في السيارة وراء إيڤا وأبي، وكانا يتلامسان، وليس عليك أن تكون عبقرياً حتى تدرك أنهما عاشقان. وبينما كانت إيڤا تقود، لم ينزع أبي عينيه عنها.

هذه المرأة التي بالكاد أعرفها، سرقت أبي. لكن ما هو رأيي بها حقاً؟ لم أكن قد نظرت إليها جيداً حتى.

هذا الجزء الجديد في حياتي، إيڤا، لا تبدو جذابة للوهلة الأولى لدى النظر إلى صورتها في جواز السفر. لم يكن جمالها تقليدياً، ولا ملامحها متناسقة، وكان وجهها ممتلئاً بعض الشيء. لكنها كانت جميلة لأن وجهها المدور مع شعرها المصبوغ بالأشقر، الذي ينسدل على جبهتها وعينيها، كان مفتوحاً، وكان مصدر جمالها. كان وجهها لا

يتوقف عن الحركة، مسجلاً أدق المشاعر، ومواريا القليل منها. أحياناً كانت تتصرف بطفولية فتبدو في الثامنة أو السابعة عشرة أو الخامسة والعشرين. الأعمار المختلفة لحياتها بدت موجودة بالتزامن معاً، كما لو أنها تستطيع الانتقال من سن إلى أخرى بحسب أحاسيسها في لحظة ما. والحمد لله لم يكن فيها برود الناضجين، وكان يمكنها مع ذلك أن تكون جدية ونزيهة، ومتفهمة الأذية والألم، كما لو أننا جميعاً منفتحون مثلها، ولسنا فاسدين وباطنيين ومخادعين. تلك المرة التي أخبرتني فيها كم تشعر أنها وحيدة ومهجورة حين تكون مع زوجها، تلك الكلمات الاعترافية، «وحيدة ومهجورة»، التي عادة تزعجني للغاية، كانت تجعلني أرتعش.

أما حين تكون منتشية، وغالباً ما تكون كذلك، فتشع النشوة من وجهها كما الشمس من مرآة. كانت تعيش بانفتاح، نحو الآخرين، ووجهها كان دائماً يسرّ النظر إذ نادراً ما يرتسم عليه الضجر أو البلادة. لم تسمح للعالم أن يضجرها. وكانت متحدثة لبقة أيضاً، ولم يكن ينحصر حديثها بالاستحسان الغامض أو الرفض، أو المبالغة في التعبير عن المشاعر، بل كان تعبيراً عن حقائق صلبة وقابلة للمضغ كالخبز. شرحت لي أصل معيار بايزلي؛ وتاريخ «بوابة نوتنغ هيل»، واستعمال فارمير للكاميرا الخفية، ولماذا قتلت أخت تشارلز لامب أمهما، وتاريخ تاملا موتاون. وكنت أحب هذه الأشياء وأدوّنها. كانت إيفا تفتح العالم امامي. وهي التي جعلتني شغوفاً بالحياة.

أحسب أن أبي كان ينزعج قليلاً منها، لأنها كانت تفوقه ذكاء وإحساساً. وهو لم يألف في نفسه هذا القدر من الشغف تجاه امرأة من قبل. وكان ذلك جزءاً مما جعله راغباً في حبها. غير أن هذا الحب، القوي جداً، والفاتن جداً، وهو ينمو بالعكس من كل شيء، كان يقود إلى الخراب.

صار جلياً أن أسس عائلتنا تتآكل كل يوم. صار أبي، حين يرجع من العمل ينزوي في غرفة النوم، ولا يخرج منها أبداً. وبدأ في الفترة الأخيرة يشجعني أنا وعلي على التحدث إليه. كنا نجلس هناك معه ونخبره عن المدرسة. شككت أنه يحب سماع أصواتنا لأنه يستطيع أن يتدثّر بها كدخان يحيط به، ويفكّر بإيڤا. أو كنا نجلس مع أمي ونشاهد التلفزيون، مثيرين أعصابها المثارة أصلاً، وتنهداتها المليئة برثاء النفس. وطوال الوقت، مثل مواسير ترشح ماء، وتكاد تنفجر في العلية، كانت القلوب في بيتنا تتحطم ببطء، من دون أن يقال أي شيء.

وبطريقة ما كان وقع الأمر أسوأ على علي الصغير، لأنه لم يكن يعرف شيئاً عما يجري. بالنسبة إليه البيت كان مليئاً بالعذاب وكان يقوم بمحاولات فاشلة لزعم أن هذه العذابات لم تكن موجودة. لكن أحداً لم يكن يتحدث إليه. ولا أحد قال له إن الماما والبابا تعيسين معاً. لا بدّ من أنه كان أكثر اضطراباً منا جميعاً، أو لعل جهله بالأمر جعله لا يدرك مدى سوء الأمور. أياً كان ما يحدث في ذلك الوقت، فقد كان كل واحد منا منعزلاً عن الآخر.

حين وصلنا إلى منزلها وضعت إيڤا يدها على كتفي، وقالت لي أن أذهب إلى الطابق العلوي حيث تشارلي. «لأنني أعرف أن هذا ما ترغب به. ثم انزل إلينا. علينا مناقشة أمر هام».

بينما أصعد إلى الطابق العلوي فكرت كم أنني أكره أن يتم دفعي دفعاً بهذه الطريقة. افعل هذا، وافعل ذاك، اذهب إلى هنا، اذهب إلى هناك. سأعود إلى البيت قريباً، عرفت ذلك. لماذا لا يتطرقان مباشرة إلى الأمور الهامة؟ عند رأس السلم استدرت لبرهة واكتشفت السبب. كانا متجهين إلى الغرفة الأمامية، يداً بيد، وكانا يمدان أيديهما إلى مؤخرتيهما، وتتعانق ألسنتهما، حتى قبل أن يجتازا عتبة الباب. سمعت الباب يقفل وراءهما. لم يستطيعا الصبر نصف ساعة حتى.

مددت رأسي من باب علية تشارلي، لأجدها قد تغيرت كثيراً منذ آخر مرة كنت فيها. مجموعات تشارلي الشعرية، ورسوماته، وأحذيته الكاوبوي، كانت منتشرة في المكان. وكانت خزائنه وأدراجه مفتوحة كما لو أنه يوضّب أغراضه. كان يغادر ويتحول إلى شخص آخر. فتخلى بداية عن مظهره الهيبّي، مما لابدّ أنه أراح «السمكة»، ليس مهنياً فحسب، لكن لأنه يعني أنه يستطيع أن يقنعه بعزف موسيقى السول، أوتيس ردنغ وما شابه، وهي الموسيقى الوحيدة التي كان يحبها. كان السمكة ممدداً على مقعد معدني أسود، ضاحكاً، فيما تشارلي يتحدث يمشي في المكان متحدثاً، مبرطماً ولاعباً بشعره، حاملاً من وقت لآخر جينزاً قديماً أو قميصاً بياقة بيضاء مع زهور زهرية عليها، أو ألبوم باركلاي جايمس هارفست، ورامياً إياها عبر النافذة إلى الحديقة.

«من السخيف كيف يعيّن الناس في الوظائف»، راح يقول، «يجب أن يحدث ذلك بطريقة عشوائية، ينبغي الاقتراب من الناس في الشارع والقول لهم: لقد عيّناك مدير تحرير التايمز لشهر، وأنت قاض، وأنت مفوض شرطة، وأنت صبي حمام. يجب أن يتم ذلك بصورة عشوائية. لا ينبغي أن يكون هناك صلة بين الوظيفة والشخص إلا إذا كانت الوظيفة لا تناسبه إطلاقاً. ألا توافقني على ذلك؟».

«بلا استثناءات؟»، سأله السمكة بفتور.

«لا، هناك أناس ينبغي استثناؤهم من المناصب العليا. هم أولئك الذين يهرعون إلى الحافلات واضعين أيديهم في جيوبهم حتى لا تسقط منها الفكة. هناك آخرون سمّرت الشمس جلودهم وتركت بقعاً بيضاء على أذرعهم، هؤلاء أيضاً ينبغي استثناؤهم، لأنهم سيعاقبون في بعض المخيمات الخاصة».

ثم خاطبني، مع أنني ظننته لم يلحظ وجودي، «سأنزل بعد قليل»، كما لو أنني أعلنت له عن وصول سيارة الأجرة.

لابدّ من أنني بدوت مجروحاً، لأن تشارلي الصغير تهلّل وجهه قليلاً.

«هاي، ايها الصغير»، قال «تعال إلى هنا، سنكون صديقين على الأرجح. بحسب ما سمعته فسنرى بعضنا كثيراً».

لذا دخلت عبر الفتحة واتجهت إليه. ومال ليحيطني بذراعيه، وعانقني بحرارة، لكنها كانت واحدة من حركاته الاعتيادية، على نحو ما كان يقول للناس دائماً أنه يحبهم، مستعملاً نغمة الصوت نفسها مع كل واحد منهم. وأردت أن أخترق كل هذا الخراء.

مددت يدي حول خاصرته وبلغت مؤخرته، وهي كبيرة أيضاً، ورائعة كفاية بالنسبة إلي. حين كما هو متوقع، قفز متفاجئاً، دسست يدي عبر رجليه وشددت على قضيبه. فانكمش وضحك ثم رماني بعيداً عنه عبر الغرفة ووقعت قرب طبوله.

صرخت نصف صرخة وتمددت هناك، زاعماً أنني لم أصب بأذى، بينما تابع هو المشي قاذفاً بالثياب الزهرية إلى الشارع ومناقشاً احتمال إنشاء قوة شرطة لتعتقل عازفي غيتارات الروك، الذين يثنون ركبهم أثناء العزف.

بعد بضع دقائق في الأسفل، جلست إيڤا بجانبي على الكنبة، وأخذت تمسّد جبهتي هامسة «أيها الفتيان الاحمقان». جلس تشارلي خجلاً قبالتي، وإلى جواره «الله» متوتراً. كانت إيڤا حافية، وأبي بلا سترته وربطة عنقه. لقد خطط لهذا الاجتماع بحذر، والآن طقوس «الزن» المتعلقة بالمسألة كلها قد فسدت، لأنه ما إن فتح أبي فمه ليتكلم بدأ الدم يتدفق من أنفي إلى حضني بسبب دفع تشارلي لي.

بدأ أبي بالتكلم كرئيس دولة، كما لو أنه يخاطب الأمم المتحدة، قائلاً إنه أغرم بإيڤا خلال الوقت الذي عرفها فيه وأشياء من هذا القبيل.

لكنه سرعان ما أقلع عن الصلابة الأرضية إلى الهواء الأنقى «إننا نتعلق بالماضي»، قال، «بالقديم، لأننا نخاف. أنا كنت خائفاً من أن أؤذي إيڤا ومارغريت، والأهم من أن أؤذي نفسي». هذه الكلمات كانت توترني حقاً، «حياتنا صارت جافة، رتيبة. إننا نخاف من الجديد، من أي شيء يجعلنا ننضج أو نتغير». وأشعرني كلامه بالخدر في عضلات جسمي، ورغبت بأن أعدو في الشارع لكي أشعر فقط أنني حي من جديد، «لكنها الحياة في الموت، وليست حياة، إنها...».

طفح الكيل بي، فقاطعته «هل خطر لك كم مضجر هذا الكلام؟».

ساد صمت متوتر. اللعنة. «كل هذا الكلام غامض وبلا معنى يا أبي.». نظرا إليّ، «كيف يمكن أن يتكلم الناس فقط لأنهم يحبون سماع أصواتهم من دون أن يفكروا في من حولهم؟».

«رجاء»، خاطبتني إيڤا «لا تكن فظاً هكذا، بحيث لا تسمح لأبيك بأن ينهي كلامه».

«ادخل في صلب الموضوع»، قال تشارلي.

قال أبي، ولا بدّ من أنه عانى الكثير ليتكلم بعد أن أحبطته: «قررت أنني أريد العيش مع إيڤا».

والتفتوا جميعاً إليّ ونظروا بتعاطف «وماذا عنا؟»، سألته.

«أجل، سأعنى بكم مالياً وسنرى بعضنا متى شئتم. أنت تحب إيڤا وتشارلي. فكّر في أنك ربحت عائلة».

«وأمي، هل ستربح عائلة؟».

نهض أبي وارتدى سترته. «أنا ذاهب فوراً لمكاشفتها في الأمر».

ذهب أبي لينهيَ حياتنا معاً، وبقيت مع وإيڤا وتشارلي نحتسي الخمرة ونتكلم حول أمور أخرى. قلت لهما إنني بحاجة إلى التبوّل،

لكنني هرعت خارجاً من البيت وطفت في الشوارع متسائلاً عما بحق الله عليّ فعله، محاولاً أن أتخيل ما يقوله أبي لأمي في تلك اللحظات وكيف تتلقّى الموضوع. ثم ذهبت إلى كشك هاتف واتصلت بالخالة جين، التي كانت سكرانة وسفيهة كالعادة. لذا قلت لها ما كنت أنوي قوله وأقفلت السماعة. «ربما عليك الذهاب إلى بيتنا، خالة جين. لقد قرّر الله، أعني أبي، أن ينتقل للعيش مع إيڤا».

الفصل السابع

تمضي الحياة برتابة. لا يحدث شيء طوال أشهر، ثم ذات يوم تدبّ الفوضى في كل شيء. حين عدت إلى البيت كان أبي وأمي في غرفة نومهما معاً، وعلي الصغير في الخارج يقرع على الباب مثل طفل في الخامسة. أزحته عن الباب وحاولت أن آخذه إلى الطابق الأعلى في حال كان قد تلقّى صدمة حياته، لكنه ركلني على خصيتي.

في الحال تقريباً وصلت إسعاف القلوب: الخالة جين والعم تيد. تيد بقي في السيارة وهرعت جين إلى غرفة النوم، صارخة ودافعة إياي جانباً، بينما أحاول حماية خصوصية والديّ.

بعد أربعين دقيقة أصبحت أمي مستعدة للرحيل. وضبت لها الخالة جين ثيابها بينما قمت أنا بتوضيب ثياب علي. وكانوا مفترضين أنني سأرافقهم إلى تشيزلهرست، لكنني قلت لهم إنني سأتبعهم فيما بعد على دراجتي الهوائية، بعد أن أقوم بترتيباتي الخاصة. كنت أعرف أنني لن أقترب منهم حتى. ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من الانتقال إلى تشيزلهرست؟ لن أكون قادراً، ولو ليومين، على احتمال أن يكون وجه الخالة جين أول ما أراه صباحاً، بلا ماكياج، وشاحب كبيضة، بينما تتناول الإجاص المجفف والسمك المدخّن والسجائر على الإفطار، وتجعلني أشرب شاي «تايفو». كنت أعرف أنها ستشتم أبي طوال الوقت أيضاً. أخذ علي يضرخ ويبكي «أيها البوذي الوغد!»، وهو يغادر مع أمي وجين.

إذاً انطلق ثلاثتهم، وجوههم غارقة بالدموع والخوف والألم والغضب والصراخ. صاح أبي بهم، «إلى أين تذهبون جميعاً؟ لماذا تغادرون المنزل؟ ابقوا هنا!»، وقالت له جين أن يسدّ فمه الثرثار.

أصبح البيت صامتاً، كما لو أنه لم يكن من أحد قبلاً هناك. أبي، الذي جلس على السلم واضعاً رأسه بين يديه، بادر إلى الحركة. كان يريد الرحيل هو أيضاً. وضع أحذيته وربطات عنقه وكتبه في أكياس النايلون المتوافرة قبل أن يتوقف، إذ أدرك أنه من المهين أن يشوه المنزل قبل هجرانه».

«انسَ الأمر»، قال «دعنا لا نأخذ شيئاً».

وأعجبتني الفكرة: بدت ارستقراطية، الخروج بيدين فارغتين كما لو أننا فوق جميع الأشياء.

ثم خابر إيڤا وأخبرها أن البيت بات خالياً. فحضرت إلى المنزل، بكل دفئها ولطفها، واصطحبت أبي إلى سيارتها. ثم سألتني عما سأفعله وكان عليّ القول إنني أريد الذهاب معها. ولم تجفل مثلما توقعت، واكتفت بالقول «حسناً أحضر أشياءك، سيكون لطيفاً أن تعيش معنا. سنمضي جميعاً وقتاً رائعاً معاً، أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟».

فجلبت نحو عشرين اسطوانة، وعشر رزم من الشاي، وروايتي «مدار السرطان» و«على الطريق»، ومسرحيات تنيسي وليامز، وذهبت للعيش مع إيڤا وتشارلي.

تلك الليلة آوتني إيڤا في غرفة الضيوف الصغيرة النظيفة. وقبل أن آوي إلى السرير دخلت إلى غرفة الحمام الكبير بجوار غرفة نومها، التي لم أكن دخلتها من قبل. كان حوض الاستحمام يتوسط الغرفة، مع صنبور نحاسي قديم الطرز. كان ثمة شموع على حافة الحوض، وبجواره دلو ألمنيوم قديم. وعلى الأرفف السنديان كميات من أحمر

الشفاه وزينة الخدود، ومزيلات كحل العين، والمنظفات والمرطبات، ومساحيق الشعر، والصابون الكريم للجلد الناعم، والجلد الحساس والجلد الطبيعي، وقد لفّ في أوراق إكزوتية ووضع في علب جميلة؛ كان هناك نبتة العوينة في مرطبانات مربى، وكأس صغيرة، وأوراق ورد في صحون فخارية، وقوارير عطر، ومنظفات أذن قطنية، ومرطبات شعر، وعصبات شعر، وشامبوات. كان المشهد مربكاً، وشعرت بالنفور من هذا القدر من الاهتمام بالذات، مع أنه جسّد عالماً حسياً، من الرائحة والملمس، من الانغماس بالذات والشعور، وأثارني هذا العالم مثل حنان مفاجئ، ثم تعريت وأضأت الشموع ودخلت إلى الحوض.

لاحقاً تلك الليلة دخلت إيفا إلى غرفتي لابسة الكيمونو، جالبة لي كأساً من الشمبانيا وكتاباً. قلت لها إنها تبدو سعيدة ومشعة، مما يجعلها تبدو أكثر سعادة وإشعاعاً حتى. المجاملات أدوات مفيدة في الصداقة، لكن في حالتها كان ما قلته صحيحاً. قالت لي: «شكراً على هذا الإطراء. لم أشعر بالسعادة منذ زمن طويل لكن الآن أعتقد أنني سأكون كذلك».

«ما هذا الكتاب؟»، سألتها.

«سأقرأ لك»، قالت، «لكي أساعدك على تقدير النثر الجيد. ولأنك ستقرأ لي في الأشهر القادمة أثناء قيامي بالطبخ وأعمال البيت. لديك صوت جميل. والدك ذكر لي أنك تودّ أن تصبح ممثلاً».

«أجل».

«لنفكر في هذا الأمر إذاً».

جلست على حافة السرير وقرأت لي «العملاق الأناني» بصوت درامي مقلدة الكاهن المغرور في النهاية العاطفية للقصة. لم تبذل جهداً

مبالغاً به، أرادات أن تعلمني فقط أنني سأكون بأمان معها، وأن انفصال والدي ليس أسوأ ما يمكن أن يحدث، وأنه لديها من الحب ما يكفينا جميعاً. كانت قوية وواثقة من نفسها، وقرأت لي طويلاً، وشعرت بمكسب إضافي إذ كنت أعرف أن أبي ينتظرها بفارغ الصبر حتى يضاجعها ثانية في أم الليالي هذه، التي تشكّل بداية شهر عسلهما معاً. شكرتها بامتنان، وأجابتني «لكنك رائع، وينبغي منح الأشخاص الرائعين كل ما يستحقونه».

«لكن ماذا عن البشعين؟».

«البشعون»، وأخرجت لسانها «هذه غلطتهم إذا كانوا بشعين. ينبغي لومهم لا الإشفاق عليهم».

أضحكني ذلك، لكنه جعلني أدرك من أين يمكن أن يكون قد ورث تشارلي بعض صفاقته. حين خرجت إيڤا، واضطجعت للمرة الأولى في المنزل نفسه مع تشارلي وإيڤا وأبي، فكرت في الفرق بين الأشخاص المثيرين للانتباه والأشخاص اللطفاء. وأنهم ليسوا الشيء نفسه دائماً. الأناس المثيرون هم الذين تريد أن تكون بصحبتهم، عقولهم غير اعتيادية، ويجعلونك ترى الامور بصورة جديدة معهم، حيث لا يكون موات ولا تكرار. كنت تواقاً لكي أعرف كيف تفكر إيڤا في الأمور، ما رأيها بزواج جميلة من شانغيز مثلاً. كنت أحب سماع آرائها، مع أنها تميل إلى السنوبية أحياناً، لكنني كنت إذا ما شاهدت شيئاً أو سمعت قطعة موسيقى، أو زرت مكاناً ما، لا أشعر بالرضى ما لم تكن إيڤا قد جعلتني أنظر إليه من زاوية معينة. كانت ترى الأمور من زاوية خاصة دائماً؛ وتنشئ الصلات بين الأشياء. ثم هناك الأشخاص اللطفاء الذين لا يثيرون الاهتمام، ولا ترغب بمعرفة رأيهم في أي شيء. على غرار أمي، هم طيبون ووديعون ويستحقون حباً أكبر. لكنهم المثيرون، من

أمثال إيڤا بصلابتها وقدرتها على الأخذ، هم الذين يربحون كل شيء، بما في ذلك سرير أبي.

حين انتقل أبي إلى منزل إيڤا، وانتقلت جميلة وشانغيز إلى شقتهما، أصبح لدي خمسة أمكنة يمكنني ان أمكث فيها: مع أمي عند الخالة جين؛ في منزلنا الجديد الفارغ؛ مع أبي وإيڤا؛ مع أنور وجيتا؛ ومع شانغيز وجميلة. انقطعتُ أخيراً عن الذهاب إلى المدرسة حين توقف تشارلي عن ذلك، وساعدتني إيڤا على الانتساب إلى الكلية حيث يمكنني أن أنهي الدراسة المتقدمة. شعرت أن هذه الكلية ستكون أفضل ما حدث في حياتي. كان المعلمون فيها مثل الطلاب تماماً، والجميع متساو، ها ها، رغم أنني كنت أبدو مغفلاً حين أنادي المعلمين «سيدي»، والمعلّمات «سيدتي». كانت المرة الأولى، أيضاً، التي أكون فيها في صف مشترك مع فتيات، بل قل النساء الفاحشات. كانت البراءة بالنسبة إليهن طقساً منتهياً. وكن يسخرن مني طوال الوقت، لا أعرف لماذا؛ أحسب أنهن حسبنني غير ناضج. في نهاية الأمر، كنت قد توقفت عن توزيع الصحف، وسمعتهن يتحدثن عن أمور جامحة لم أكن سمعت بها من قبل: الإجهاض، والهيروين، وسيلفيا بلاث، والدعارة. تلك النسوة كن من الطبقة الوسطى، لكن منفصلات عن عوائلهن. وكن يتلامسن طوال الوقت؛ ويمارسن الجنس مع المحاضرين ويطلبن منهم المال لشراء المخدرات. كن قليلات العناية بأنفسهن، ويرتدن المستشفيات باستمرار بسبب المخدرات، والجرعات الزائدة، وعمليات الإجهاض. وكن يحاولن رعاية بعضهن، وأحياناً رعايتي. كن يحسبنني ظريفاً ووسيماً ولطيفاً وكل ذلك، وكنت أحب هذا. أحببت كل شيء، لأنني كنت بمفردي للمرة الأولى في حياتي، ورحالاً.

أصبح لدي الكثير من أوقات الفراغ، وبت أمضي جلّ وقتي في

غرفة النوم مع الراديو، بينما والدي في الأسفل، أو أطوف بين بيوت وشقق مختلفة، حاملاً أشياء حياتي في صرة قماش كبيرة، ولا أغسل شعري أبداً. ولم يكن بالأمر السيئ، تنقّلي بين لندن والضواحي بالباص، من دون أن يدري أحد بمكاني. كلما حاول أحدهم، أبي، أو أمي، أو تيد، تحديد مكاني، كنت أكون في مكان آخر، ذاهباً غالباً إلى المحاضرات، ثم لزيارة شانغيز وجميلة.

لم أكن راغباً بالعلم. لم يكن الوقت المناسب في حياتي للتركيز. كان أبي لا يزال مقتنعاً أنني أسعى جهدي لكي أصبح شيئاً ما، محامياً، فمثلما لت له مؤخراً، لأنه حتى هو كان يعرف أن مسألة الطب صارت هباء. لكنني كنت أعرف أنه سيأتي الوقت الذي أصارحه فيه بالطلاق بيني وبين النظام التعليمي. سيفطر ذلك قلبه المهاجر، أيضاً. لكن روح العصر، بين الأناس الذين عاشرتهم، كانت تعبّر عن نفسها بوصفها بطالة عامة وتنصّلاً من الأشياء. لم نكن نريد المال. ولِمَ نريده، ما دمنا قادرين على تدبّر أمرنا، بالاتكال على الأهل، أو الأصدقاء، أو الدولة. أما الضجر، وكنا نضجر عادة، من دون فلم يكن يستفزنا إلا فيما ندر، وكنا نعيشه وفق معاييرنا الخاصة، متمددين محطمين على الأسرة في منازل مدمرة، بدلاً من العمل في الآلة. كنت رافضاً العمل في مكان لا يمكنني فيه ارتداء معطفي الفرو.

على أي حال، كان هناك حولي الكثير من الأحداث المثيرة للاهتمام. كنت شاهداً متحمساً على حب أبي وإيفا، وأكثر افتتاناً حتى بشانغيز وجميلة، اللذين باتا، وإن كان يصعب تصديق ذلك، يعيشان معاً في ساوث لندن.

كانت شقة جميلة وشانغيز، التي استأجرها لهما أنور، كناية عن صندوق من غرفتين، بجوار مضمار سباق الكلاب في «كاتفورد». كانت

جدرانها مصفرة، وتحتوي على الحدّ الأدنى من الأثاث القديم، وبوتوغاز. وكانت غرفة النوم الوحيدة، التي احتوت على فرشة مزدوجة مغطاة بشرشف هندي ملون، فكانت من نصيب جميلة، التي وضعت عند طرف السرير نضداً صغيراً اشتراه لها شانغيز كهدية زفاف، وساعدته على حمله من متجر خردوات محلي، وغطت سطحه بشرشف «ليبرتي باترن»، وأهديت جميلة مزهرية بيضاء كانت تضع فيها دائماً أزهار النرجس. أما أقلامها الحبر والرصاص فكانت تضعها في مرطبان زبدة الفستق. وقد انتشرت على النضد، وحوله، كتبها التي بدأت تقتنيها ما بعد مرحلة السيدة كتمور، «الكلاسيكيات» مثلما كانت تسميها، أي كتب أنجيلا دايفس، وبالدوين، ومالكولم أكس، وغرير، وميليه. ولم تسمح جميلة بتعليق شيء على الجدران، سوى بعض قصائد كريستينا روزيتي، وبلاث، وشيلي، ونباتيين آخرين، كانت تنسخها من كتب المكتبة وتروح تقرأها وهي تنشّط رجليها ببضع خطوات في الغرفة الضيقة. وعلى رف صغير علقته على النافذة وضعت مسجلتها، التي كنا نستمع عبرها، من لحظة الإفطار وحتى نبدأ ثلاثتنا باجتراع الجعة في وقت متأخر من الليل، إلى أريثا (فرانكلين) و«المامات» الأخرى. ولم تكن جميلة توصد باب غرفتها أبداً، مما كان يتيح لي ولشانغيز أن نحتشي الخمرة ونتأمل وجهها وهي تركّز بشدة، حانية الرأس، تقرأ وتغني وتكتب على دفاتر قديمة من المدرسة. كانت مثلي قد جافت كل هذه «الأشياء البيضاء» البليدة القديمة، التي كانوا يعلمونها إياها في المدرسة والكلية. لكنها لم تكن كسولة مثلي، كانت تثقف نفسها، وتعرف ما تريد أن تتعلمه، وتعرف أين تجده، ولم يكن عليها سوى أن تزرعه في رأسها. كنت حين أتفرج عليها أحياناً أفكر في أن العالم ينقسم إلى ثلاثة أصناف من البشر: أولئك الذين يعرفون ماذا يريدون أن

يفعلوا (وهم الأتعس)، والذين لا يعرفون هدفهم من الحياة؛ وأولئك الذين اكتشفوا هدفهم فيما بعد. وكنت أضع نفسي ضمن الفئة الأخيرة، وأتمنى باستمرار لو كنتُ من الفئة الاولى.

وكانت غرفة الجلوس تضم مقعدين وطاولة نتناول عليها الوجبات الجاهزة، وحولها مقعدان من الستيل مع بلاستيك خام أبيض. وقرب الطاولة سرير واطئ قابل للطي، مغطى ببطانيات بنية، أصرت جميلة على أن يكون سرير شانغيز. حسم الأمر بلا نقاش، وشانغيز لم يعترض في اللحظة الحاسمة حين كان ثمة ـ ربما ـ ما يمكنه فعله. وهكذا سيظل الحال بينهما، هي في غرفة وهو في أخرى، تماماً مثلما أجبرته على النوم على الأرض قرب السرير في غرفة فندق «ريتز» حيث أمضيا شهر العسل.

وبينما كانت جميلة تعمل في غرفتها، كان شانغيز يتمدد بفرح على الكنبة السرير، حاملاً بيده السليمة أحد كتبه، أو «الأشياء المميزة»، مثلما كان يسميها. «هذا مميز بشكل استثنائي»، يقول، وهو يطرح جانباً كتاباً آخر لسبيلاين أو جايمس هادلي تشايز أو هارولد روبينز، وهي كتب كانت تثير شانغيز على نحو لم يألفه قط مع كتب كونان دويل. وإذا ما كنت تظن أن الكتب لا تغير البشر فما عليك سوى النظر إلى شانغيز، الذي دخلت إلى مجال إدراكه احتمالات لم يكن يحلم بها من قبل في مجال الجنس، هو المتزوج حديثاً والمتبتل بالكامل، والذي يرى بريطانيا مثلما نرى نحن السويد، كمنجم للفرص الجنسية.

لكن قبل أن تبدأ مشكلات الجنس، بدأت المشكلات الأخرى بين أنور وشانغيز. ففي نهاية الأمر كان أنور بحاجة إلى شانغيز في المتجر بشكل أكثر إلحاحاً الآن بعد أن آهن نفسه إلى هذه الدرجة بالصيام على طريقة غاندي، الذي كان هدفه إحضار شانغيز إلى بريطانيا في المقام الأول.

لكي يجعله ينطلق في مجال البقالة، طلب أنور من شانغيز العمل وراء درج النقود، حيث يمكنه أن يدبّر أمره بذراع واحدة وبنصف عقل، وكان شديد الصبر معه، وخاطبه كأنه طفل في الرابعة، وكان هذا الأمر الصائب فعله، لكن شانغيز كان أذكى من أنور، فتأكد من أن يجعله يدرك أنه لا أمل منه في تغليف الخبز وإرجاع الفكة للزبائن. لم يكن جيداً في الحساب. كان الناس يقفون صفوفاً أمام الدُرج، حتى صاروا يخرجون من المتجر. فاقترح عليه أنور أن يعود إلى العمل على الصندوق في وقت لاحق، وفي الأثناء سيجد له عملاً آخر يضعه في مزاج العمل في البقالة.

أصبحت وظيفة شانغيز الجديدة إذاً أن يقعد على كرسي مثلث الأرجل وراء قسم الخضروات ويراقب النشّالين. كان عملاً بدائياً: تراهم يسرقون وتصرخ «ارجع هذا أيها اللص اللعين». لكن أنور لم يأخذ في الاعتبار حقيقة أن شانغيز أصبح أستاذاً في فن النوم جلوساً، وأخبرتني جميلة أن أنور جاء إلى المتجر ورأى شانغيز يشخر على الكرسي، بينما أمام عينيه المغمضتين كان ثمة لص يدس مرطبان سمك الفسخ في بنطاله. حمل أنور بعض الموز ورمى به صهره، وكانت الضربة قوية إلى حدّ أنها أوقعت شانغيز عن الكرسي فجرحت ذراعه السليمة. راح شانغيز يتلوّى ألماً، غير قادر على الحراك، حتى ساعدته الأميرة جيتا على النهوض ومغادرة المتجر. صار أنور يصرخ في وجه جيتا وجميلة وحتى في وجهي. وكنت أضحك فحسب، مثلنا جميعاً، لكنّ أحداً لم يجرؤ على مصارحته بالحقيقة: لقد كانت غلطته هو. شعرت بالإشفاق عليه.

صار يأسه جلياً. وأصبح مزاجياً وعصبياً طوال الوقت، وحين كان شانغيز في البيت، يداوي ذراعه الجريحة، جاء أنور إلي وأنا أعمل في

المخزن. كان قد فقد أي احترام لشانغيز أو أمل منه، وسألني «ما الذي يفعله الآن ذاك الوغد السمين عديم الفائدة؟ هل تحسنت حاله؟»، أجبته «إنه يتعافى». «سأعافي خصيتيه اللعينتين بقاذفة نيران»، قال العم أنور. «ربما اتصل بالجبهة الوطنية(*) وأعطيهم اسم شانغيز، إيه؟ يا لها من فكرة، إيه».

في الأثناء كان شانغيز يتماثل للشفاء، قارئاً ومتجولاً في المدينة بصحبتي. كان دائم الاستعداد لأي مغامرة لا تتعلق بالعمل في أدراج النقود أو الجلوس على كرسي مثلث الأرجل. ولأنه كان مكدراً إلى حدّ ما، أو على الأقل هشاً ولطيفاً وسهل الانقياد، وكونه من القلائل الذين يمكنني الهزء منهم والسيطرة عليهم، فقد صرنا صديقين. كان يتبعني إلى حيث أريد، خلال جولات هربي من التعليم. وعلى عكس الجميع كان يحسبني منحرفاً، وقد صدم حين نزعت قميصي في الشارع لكي أسمّر صدري قليلاً. «إنك جريء وغير مذعن اجتماعياً يا يار... وانظر كيف تلبس، مثل صعلوك غجري. ما رأي والدك بهذا؟ ألا يؤدبك بشدة؟».

«أبي مشغول مع المرأة التي هرب معها، فلا وقت لديه ليفكر بي كثيراً».

«آه يا إلهي، هذا البلد برمته أصيب بالجنون جنسياً»، قال «ينبغي أن يعود أبوك ويعيش في الهند بضع سنوات، ويصحبك معه، ربما إلى قرية نائية».

ألهمني اشمئزاز شانغيز من الأمور اليومية البسيطة أن أريه ساوث

(*) الجبهة الوطنية: حزب بريطاني يميني متشدّد أنشئ في ١٩٦٧، عرف بشكل أساسي بمناهضته للهجرة إلى إنكلترا.

لندن. وتساءلت كم سيحتاج من الوقت حتى يعتاد على الأمر، حتى - بكلمات أخرى - يصبح فاسداً. ورحت أعمل على الأمر. فأهدر شانغيز أياماً وأياماً راقصاً في «بينك بوسي كلوب»، ومتثائباً وهو يستمع إلى موسيقى «فات ماترس»(*) في «كرويدون غرايهاوند»، وسائلاً لعابه على المتعريات صباح الأحد في إحدى الحانات، وغاطاً بالنوم خلال أفلام غودار وأنطونيوني، ومستمتعاً بالقتال في «ميلوال فوتبول غراوند»، حيث أجبرته على أن يعتمر طاقية تغطي وجهه كي لا تراه الفتيات ويحسبنني «باكي» مثله.

على الصعيد المالي اعتمد شانغيز على جميلة، التي كانت تدفع كل المصاريف بالعمل في متجر أبيها مساء. وكنت أساعده ببعض المال الذي أحصل عليه من أبي. وكان أخوه يرسل له المال أيضاً، مع أنه يفترض أن يكون الأمر بالعكس، إذ أن شانغيز هو الذي يشق طريقه في الغرب الثري، لكنني كنت واثقاً من أن الاحتفالات في الهند، بسبب رحيل شانغيز، كانت لا تزال مستمرة.

سرعان ما وصلت جميلة إلى الوضع الذي يناسبها، وهو ألا تحب ولا تكره زوجها، متسلية بفكرة أنها تعيش حياتها الطبيعية وكأنه غير موجود. وفي المساء تلعب معه الورق، وتروح تطرح عليه الأسئلة عن الهند. فيخبرها قصصاً عن الزوجات الهاربات، والمهور المتدنية جداً، وفحش أغنياء بومباي (وهي قصة استغرقت أمسيات عدة) والأشهى من كل شيء، عن الفساد السياسي. لابد من أن قراءته للكتب قد ساعدته، لأنه كان يحبك تلك القصص كولد يمضغ العلكة، ويجيد سردها، رابطاً بينها بالمزيد من العلكة، معيداً تقديم الشخصيات بكلمات مثل «تعرفين

(*) فات ماترس: فرقة روك أسسها زميل جيمي هندريكس السابق نويل ريدنغ، وأصدرت أسطوانتين في نهاية الستينات وبداية السبعينات من القرن الماضي.

ذلك الرجل السيء جداً الذي قبض عليه عارياً في كوخ الاستحمام؟»، كما في مسلسل تلفزيوني طويل، حتى بات يعرف أن جميلة، في نهاية يومها الذي تمضيه في الأفكار الجدية الصارمة، فإن فمها المتعطش سيسأله حتماً «هاي شانغيز، أيها الزوج أو أياً يكن، هل تعرف المزيد عن ذلك السياسي الفاسد الذي زج في السجن؟».

في المقابل ارتكب شانغيز الخطأ المهذب بسؤالها عن معتقداتها الاجتماعية والسياسية. فألقت ذات صباح كتاب «يوميات السجن» لغرامشي، على صدره، غير مدركة أن إدمانه على الكتب لم يكن مطلقاً. «لماذا لم تقرأ هذا الكتاب إذا كنت مهتماً بأفكاري إلى هذا الحدّ؟»، قالت له بتحدّ بعد أسابيع.

«لأنني أفضل سماعها من فمك». وبالفعل كان يحب ذلك. كان يحب أن يرى فم زوجته يتحرك لأنه صار يحبه أكثر فأكثر. كان فماً يرغب بالتعرف إليه.

ذات يوم بينما كنا نجول بين محلات الخردة والكتب المستعملة، أمسك شانغيز ذراعي وهو واقف قبالتي، وهو منظر لم يكن ساراً أبداً، وبعد دهر من التردد، مثل غطاس مرتعب من القفز في الماء، تمكن من أن يقول «هل تعتقد أن جايمي ستنام معي في السرير يوماً ما. لست افترض شيئاً غير قانوني، فهي زوجتي في نهاية المطاف. رجاء، لقد عرفتها طوال حياتك، ما هو تقديرك الفعلي لحظوظي في ذلك؟».

«زوجتك؟ تنام في السرير معك؟».

«أجل».

«لا مجال إطلاقاً».

«ماذا؟».

«لا مجال يا شانغيز».

لم يستطع تقبّل الأمر. شرحت له أكثر «لن تلمسك حتى وهي تضع قفازين من الحرير الصخري».

«لماذا؟ أرجوك كن صريحاً معي، مثلما كنت دائماً، بل حتى مبتذلاً يا كريم، وهذا هو دأبك».

«أنت دميم جداً بالنسبة إليها».

«أحقاً؟ أتعني وجهي؟».

«وجهك، وجسدك، وكل شيء فيك.. مقرف».

«حقاً؟». في الأثناء نظرت إلى واجهة متجر إلى نفسي وما رأيته كان ساراً. كنت بلا عمل، ولا تعليم، ولا آمال، لكنني بدوت حسن الهيئة. آه أجل، «جميلة شخص يهمه النوعية، أنت تعرف ذلك».

«أحب أن أرزق بأطفال مع زوجتي».

هززت رأسي «هذا محال».

لم تكن مسألة الأطفال ثانوية بالنسبة إلى شانغيز. فقد تعرض مؤخراً لموقف لابدّ من أنه لم يفارق تفكيره، حين طلب أنور مني ومنه أن ننظف أرض المتجر، ظاناً أنني يمكن أن أنجح في الإشراف على شانغيز. بالتأكيد لا يمكن أن نخفق في هذا العمل البسيط؟ كنت أحف الأرض وكان شانغيز يحمل الدلو ويسألني إذا ما كان لدي المزيد من روايات هارولد روبنز. ثم جاء أنور ووقف يتفرج علينا ونحن نعمل. أخيراً عزم أمره حول أمر ما: سأل شانغيز عن جميلة وكيف حالها. سأله ما إذا كانت جميلة «تنتظر؟».

«تنتظر ماذا؟»، سأله شانغيز.

«حفيدي اللعين»، قال أنور. لم يجب شانغيز بشيء، لكنه ارتد إلى

الخلف، حتى لا يلفحه ازدراء أنور اللاهب، الذي كان مشحوناً بخيبة أمل لا قاع لها.

«بالتأكيد»، توجّه انور إلي: «لابدّ من أن يكون هناك شيء ما بين رجلي هذا الحمار؟».

عندها بدأ غضب شانغيز يتفجّر ابتداء من مركز معدته الضخمة. وراحت موجات من الغضب ترتج في داخله، وبدا وجهه فجأة متضخماً ومسطحاً مثل قنديل البحر. وحتى يده المعطوبة بدت ترتعش بوضوح، ثم أخذ جسده كله يرتعد غضباً وإحساساً بالإذلال وعدم الفهم. وصرخ بأنور: «أجل هناك ثمة بين رجلي هذا الحمار ما هو أكثر مما بين أذني ذاك الحمار!». وتناول جزرة كانت بمتناول يده وهجم بها على أنور. جيتا التي كانت قد سمعت كل شيء، هرعت إلى الرجلين، وقد تولّد فيها بعض القوة أو الإقدام ربما بفعل الأحداث الأخيرة؛ تضخم حضورها هي بينما اضمحل أنور. وأصبح أنفها مروساً، أيضاً، وتحول حاجزاً يمنع أي منهما من الوصول إلى الآخر. ثم راحت توبّخ أنور. لم أسمعها تتكلم هكذا من قبل، بلا أي وجل. كان بوسعها أن تقلّص «غاليفر» نفسه. استدار أنور ومضى مبتعداً، صاباً الشتائم. ثم أمرتنا جيتا بالخروج.

الآن، بدا واضحاً أن «فقاعة»، الذي لم يكن قد تسنى له الوقت الكافي حتى يعاين تجربته الإنكليزية، بدأ يفكّر ملياً بوضعه: حرمانه من حقوقه الزوجية، تعليق حقوقه الإنسانية بعض الأحيان، الأمور المزعجة تحصل له في كل مكان؛ الإساءات التي تنهمر على رأسه مثل دشّ من البصاق، هو الرجل المعتبر من العائلة المعتبرة في بومباي! ما الذي يجري؟ ينبغي فعل شيء ما! لكن أولاً بأول. راح يفتش في جيوبه عن شيء ما. وأخرج أخيراً ورقة دون عليها رقم هاتف «في هذه الحال».

«في أية حال؟».

«في حال الدمامة التي ساعدتني كثيراً بأن صارحتني بها. . هناك شيء عليّ فعله».

اتصل شانغيز بأحدهم. كان الأمر بالغ الغموض. ثم اصطحبته إلى منزل كبير مقسّم إلى شقق. وفتحت الباب امرأة عجوز كانت تتوقع حضوره، وأثناء دخوله التفت إلي وأمرني بأن أنتظره. لذا انتظرت كالمغفل عشرين دقيقة، حتى ظهر أخيراً، ولمحت وراءه عند الباب امرأة يابانية أربعينية، ضئيلة الجسم وسوداء الشعر وترتدي كيمونو أحمر.

«اسمها شينكو»، قال بجزل خلال عودتنا إلى الشقة سيراً على الأقدام. كان ذيل قميصه بارزاً من سحّابة بنطاله المفتوح مثل شارة بيضاء صغيرة. قررت ألا أشي به.

«إنها عاهرة أليس كذلك؟».

«لا تكن مزعجاً! كن صديقاً الآن في إنكلترا الباردة غير الودودة معي!». ونظر إلي بفرح. «لقد أنجزت العمل على نحو ما يصفه هارولد روبنز! كريم، كل مشكلاتي قد حلت! أستطيع أن أحب زوجتي بالطريقة الاعتيادية وأن أحب شينكو بالطريقة غير الاعتيادية! أقرضني باونداً، هلا فعلت، رجاء؟ أريد أن أشتري لجميلة بعض الشوكولا!».

كنت أستمتع بالتسكع مع شانغيز، وسرعان ما صرت أعتبره فرداً من العائلة، وجزءاً دائماً من حياتي. لكن كانت لدي عائلة حقيقية ينبغي أن أعتني بها، ولا أعني أبي، الذي كان مشغولاً، إنما أمي، التي صرت أتصل بها كل يوم، لكنني لم أزرها خلال الوقت الذي كنت أعيش فيه عند إيفا؛ لم أكن قادراً على مواجهة أي منهم في ذلك المنزل.

قررت أخيراً الذهاب إلى تشيزلهرست، وكانت شوارعها هادئة وخالية مقارنة بساوث لندن. وكان الصمت فيها ينذر بالشر، وأحسست أنه اجتمع في كومة واحدة ستسقط على رأسي. وأول ما رأيته عملياً حين نزلت من القطار وسرت على تلك الطرق ثانية كان «هايري باك» وكلبه «غرايت داين». كان «هايري باك» يدخن غليونه ويتضاحك مع أحد جيرانه عند عند بوابة منزله. اجتزت الطريق ثم عدت لكي أراه جيداً. كيف يمكنه أن يقف هناك بهذه البراءة بعد أن أساء إلي بتلك الطريقة؟ شعرت فجأة بالتقزز من شدة الغضب والمهانة اللذين لم أحس بهما وقت حدوث الموقف معه. لم أعرف ماذا أفعل. وكان حدس قوي يشير عليّ بأن أرجع إلى المحطة ومنها إلى بيت جميلة. لذا ظللت واقفاً هناك خمسة دقائق على الأقل، ناظراً إلى «هايري باك»، ومتسائلاً ما إذا كنت أعود أدراجي أم أستأنف طريقي. لكن كيف يمكنني أن أبرر الأمر لأمي، بعد أن وعدتها بأنني سأزورها؟ عليّ المضي قدماً.

كان ذلك تذكيراً جيداً لي بمدى مقتي للضواحي، وبأنه عليّ أن أكمل رحلتي إلى لندن وإلى حياة جديدة، لكي أضمن الفرار من أناس كهؤلاء ومن شوارع كهذه.

يوم وصولها إلى منزل جين اضطجعت أمي في السرير ولم تبارحه مذ ذاك. لكن تيد كان في حال جيدة، وكنت أتطلع للقائه، خصوصاً بعد أن أخبرني أخي علي كم تغيّر في الفترة الأخيرة؛ لقد فقد حياته لكي يعثر عليها. كان يشكّل انتصاراً لأبي؛ أحد الذين حررهم فعلاً.

لم يفعل العم تيد شيئاً على الإطلاق منذ طهّره أبي، وهو يضع مشغّل الأسطوانات في حجره. لم يعد يستحم أو ينهض من السرير قبل الحادية عشرة، حيث يبدأ بقراءة الصحيفة، بانتظار أن تفتح الحانات أبوابها. وصار يمضي فترات العصرية متمشياً في ساوث لندن، وذاهباً

إلى جلسات التأمل. أما في المساء فيلوذ بالصمت، التزاماً بنذر قطعه على نفسه، كما صار يصوم مرة في الأسبوع. بات سعيداً، أو أكثر سعادة، على الرغم من حقيقة أنه لم يعد لأي شيء في الحياة معنى يذكر بالنسبة إليه. لكنه على الأقل أدرك هذه الحقيقة، وصار يتأمل فيها. قال له أبي أن «يستكشف» الأمر. وقال له أيضاً أن ظهور المعنى قد يحتاج إلى سنوات، لكن في الأثناء عليه أن يعيش الحاضر، وأن يستمتع بالسماء، والأشجار، والأزهار، ومذاق الطعام الطيب، وربما ـ إذا ما لزمه أي نشاط علاجي ـ أن يقوم بإصلاح بعض الأشياء في منزل إيڤا، ربما المصباح على النضد قرب سرير أبي أو مشغل الأسطوانات. وأجابه تيد بأنه سيذهب إلى صيد السمك إذا ما احتاج إلى أي علاج، لأن أي شيء تقني قد يقذف به مجدداً إلى المدار القديم. «حين أتخيّل نفسي» قال له «أراني ممدداً في عرزال، أتأرجح وأتأرجح».

سلوك تيد «العرزالي» هذا، وانحرافه إلى «بوذية تيد»، مثلما أسماها أبي، أغضب الخالة جين، وكانت تريد أن تقطع حبل العرزال. «إنها تعامله بجفاء» قالت لي أمي، مستملحة الأمر. فهذه المشاجرة بين تيد وجين كانت متعة حياتها الوحيدة، ومن يمكن أن يلومها؟ باتت جين دائمة الغضب والجدال معه، وحتى أنها ذهبت إلى حدّ محاولة ممارسة الحنان، في سعيها إلى إعادته إلى تعاسته الاعتيادية، إنما المنتجة. ففي نهاية الأمر لم يعد لديهم أي مدخول. في الماضي، كان تيد يتباهى غالباً «لدي عشرة رجال يعملون تحت إمرتي»، والآن لم يعد لديه أحد. لم يعد تحته سوى الهواء وهاوية الإفلاس. لكنه كان يبتسم فحسب ويقول «هذه فرصتي الأخيرة لنيل السعادة، ولا أستطيع تفويتها يا جيني». وذات مرة راحت جين تعدّد المزايا التي لا تحصى لعشيقها السابق الفتى توري، لكن تيد صعّد بقوله (ذات مساء، خارقاً تعهده

بالصمت): «في النهاية لقد عاد ذاك الفتى إلى رشده فيما يتعلق بعلاقته بك، أليس كذلك؟».

حين وصلت إلى المنزل كان تيد يغني أغنية شعبية، وقام عملياً بحشري داخل خزانة ملابس ليناقش معي موضوعه المفضل: أبي. «كيف حال والدك؟»، سألني همساً. «هل هو سعيد؟»، وراح يتكلم بصوت حالم، كما لو أنه يسرد مغامرة هومرية. «لقد فرّ فحسب مع هذه المرأة الرائعة. كان هذا لا يصدق. لا ألومه. إنني أحسده! جميعنا نريد أن نفعل ذلك، أليس كذلك؟ أن نتخلى عن كل شيء ونهرب. لكن من يجرؤ على فعلها؟ لا أحد سوى والدك. أودّ أن أراه، وأن أناقش معه الأمر بالتفصيل. لكنّ لقاءه يعدّ ضد القانون في هذا المنزل، من غير المسموح حتى التحدث إليه». وحين دخلت الخالة جين إلى الصالون آتية من غرفة الجلوس وضع تيد إصبعه على شفتيه «لا تقل شيئاً»، حول ماذا يا عمي؟»، «حول أي شيء لعين!».

حتى في تلك الظروف السيئة كانت الخالة جين شامخة وبهية في حذاء عالي الكعب، وفستان كحلي مزين ببروش ألماسي على هيئة سمكة. وكانت أظافرها أشبه بأصداف تلمع، حتى ليحسب المرء أنها طليت حديثاً، ويخشى من أنه إذا لمسها يمكن أن يلطخ شيئاً ما. بدت على أهبّة الذهاب إلى إحدى حفلات الكوكتيل، حيث ستقوم بطبع شفتيها على الخدود والكؤوس والسجائر والمحارم والبسكويت وعيدان كؤوس الكوكتيل حتى لا تعود زاوية في المكان غير ملطخة بالأحمر. لكن لم يعد هناك المزيد من الحفلات في ذلك المنزل نصف الميت، لم يكن سوى المكان القديم نفسه وفيه شخص متحول وآخر محطم. لكن جين كانت قوية وتحب الخمرة؛ يمكنها أن تصمد فترة طويلة بعد. لكن ما الذي ستفعله حين تدرك، وهذا هو واقع الأمر، أنها تمضي حكماً مؤبداً، لا مجرد تعليق مؤقت للملذات الأساسية؟

«هذا أنت، أليس كذلك؟»، قالت الخالة جين.

«أفترض ذلك، أجل».

«أين كنت؟».

«في الكلية. لذلك أمكث في أمكنة أخرى. حتى أكون قريباً من الكلية».

«آه أجل، أراهن على ذلك».

«هل علي موجود؟».

أشاحت نظرها عني «علي فتى طيب، لكنه يتأنق أكثر من اللازم، أليس كذلك؟».

«أجل، لطالما كان متأنقاً».

«إنه يبدّل ملابسه ثلاث مرات في اليوم. إنه أمر أنثوي».

«أنثوي جداً».

«أظن أنه ينتف حاجبيه أيضاً»، قالت بجدية.

«حسناً، إنه غزير الشعر يا خالة جين. لهذا يلقبونه في المدرسة بجوزة الهند».

«يفترض بالرجال أن يكونوا غزيري الشعر يا كريم. الشعر من صفات الرجال الحقيقيين»..

«لقد تحوّلت إلى تحر كبير مؤخراً، أليس كذلك يا خالة جين؟ هل فكرت في تقديم طلب انتساب إلى سلك الشرطة؟»، قلت لها بينما أصعد إلى أعلى. يا لعليّ الطيب، فكرت.

لم أكن أكترث كثيراً بأمر علي، وكنت أنسى معظم الوقت أنه لدي أخ حتى. لم أعرفه كفاية وكنت أزدريه لأنه حسن السلوك إلى هذه

الدرجة، ولأنه يخبر القصص عني هنا وهناك. فآثرت الابتعاد عنه حتى لا تعرف بقية العائلة ما الذي أقوم به. لكنني كنت ممتناً لوجوده، كرفيق يواسي أمي، وكمصدر إزعاج للخالة جين.

على الأرجح أنني لست حنوناً أو أي شيء من هذا القبيل، وأراهن على أنني وغد حقيقي من الداخل ولا أبالي بأحد، لكن كم كنت أكره صعود تلك الأدراج إلى أمي بينما جين في الأسفل ترصد خطواتي. على الأرجح لم يكن لديها شيء آخر تفعله.

«لو كنت قريباً من الآن لنلت صفعة على خدك».

«أي خد؟».

«الخدّ اللعين الذي في داخلك. كله».

«هلا خرست؟»، أجبتها.

«كريم!»، كادت تختنق من شدة الحنق، «كريم!».

«اغربي عن وجهي يا خالة جين».

«أيها البوذي اللعين... بوذيون، كلكم بوذيون».

دخلت إلى غرفة أمي، وأنا أزال أسمع صراخ الخالة جين، لكنني لم أفهم شيئاً مما تقوله.

غرفة الضيوف التي فيها تكوّرت أمي بقميص نومها الزهري، وشعرها المنكوش، كانت تمتد على مساحة أحد جدرانها خزانة ثياب بمرايا، تحتشد في داخلها أثواب السهر البراقة من الأيام الطيبة السالفة. وإلى جانب السرير قفازا الغولف الخاصين بتيد وبضع أزواج من أحذية الغولف المغبرة. لم يوسّعوا الغرفة من أجلها. أخبرني علي عبر الهاتف أن تيد كان يطعمها، داخلاً إلى الغرفة وقائلاً «هيا مارج تناولي لقمة من السمك وبعض الخبز والزبدة»، ثم ينتهي الأمر بأن يتناولها بنفسه.

تردّدت في تقبيل أمي، خشية من أن تعديني، بطريقة غامضة، بضعفها وتعاستها. وبطبيعة الحال لم أحسب للحظة أن حياتي وروحي يمكن أن يحركا شيئاً فيها.

جلسنا لبعض الوقت، ولم نتحادث إلا قليلاً، حتى بدأتُ أصف لها أشياء شانغيز «المميزة»: سريره القابل للطي، ومشهده الغريب وهو يقع في غرام زوجته. لكن سرعان ما فقدت أمي اهتمامها. وإذا كانت تعاسة الآخرين عجزت عن إدخال البهجة إلى قلبها، فلا شيء سيمكنه ذلك. عقلها تحول جليداً تتزحلق الحياة عليه. طلبت منها أن ترسمني.

«لا يا كريم، ليس اليوم»، أجابت متنهدة.

ألححت عليها: ارسميني، ارسميني، ارسميني، ماما! وملأت الغرفة صياحاً لأنني كنت غاضباً منها، لأنني أردتها ألا تكون مستسلمة إلى تلك النظرة إلى الحياة التي تستبطن هذا كله، تلك الفلسفة التي جعلتها تضع نفسها على هامش العالم. بالنسبة إليها، كانت الحياة بشكل جوهري هي الجحيم بعينه. حياة قد قد يصاب المرء فيها بالعمى، قد يغتصب، قد ينسى الناس فيها عيد ميلادك. حياة ينتخب فيها نكسون رئيساً، أو يهرب فيها زوجك مع شقراء من بكنهام، وتصيرين عجوزاً، غير قادرة على المشي، ثم تموتين. لا خير يمكن أن ينتج عن نظرة سوداوية كهذه، وفي حين أنها هي نفسها كان يمكن أن تولّد الصبر والتحمّل، فقد أدت في حالة أمي إلى الإشفاق على الذات. ففوجئت بها حين بدأت أخيراً برسمي، وراحت يدها تتحرك بخفة على الصفحة مرة جديدة، وأشعّت عيناها أخيراً ببعض الاهتمام. مكثت ساكناً قدر المستطاع. وحين نهضت من سريرها وذهبت إلى الحمام، آمرة إياي بألا أسترق النظر، واتتني الفرصة حتى أرى الرسم».

«لا تتحرّك»، قالت لي متآهة، حين عادت واستأنفت الرسم. «لا أستطيع رؤية عينيك بشكل صحيح».

كيف أجعلها تفهم؟ ربما عليّ ألا أقول شيئاً. لكنني كنت عقلانياً.

«أماه»، قلت لها «إنك تنظرين إلي، أنا ابنك الأكبر، كريم، لكن هذا الرسم ـ وهو رسم عظيم، والشخص قليل الشعر فيه ـ هو رسم أبي، أليس كذلك؟ هذا أنفه الضخم، وهذان خداه السمينين، وتلك الجيوب التي تحت جفونه تخصه هو أيضاً. هذا الشخص لا يشبهني على الإطلاق».

«حسناً يا عزيزي، إن الأبناء والآباء، يصيرون متشابهين، أليس كذلك؟»، وحدجتني بنظرة ذات مغزى. «كلاكما هجرتماني، أليس كذلك؟».

«أنا لم أهجرك؟ أنا موجود كلما احتجت إلي. لكنني أدرس. هذا كل ما في الأمر».

«أجل أعرف ما الذي تدرسه»، من الطريف كيف أن عائلتي غالباً تهزأ مني ومما أفعله. ثم أردفت: «أنا وحدي تماماً. لا أحد يحبني».

«بلى نحبك».

«لا، لا أحد يساعدني. لا أحد يفعل شيئاً لمساعدتي».

«أماه، أنا أحبك»، قلت «حتى لو لم أعبّر عن ذلك طوال الوقت».

«لا»، قالت لي.

قبلتها وعانقتها وحاولت الخروج من المنزل من دون وداع أحد. زحفت إلى الأسفل ثم إلى الخارج ووصلت إلى البوابة الأمامية، حين ظهر تيد فجأة وأمسك بي. طان ينتظرني بالتأكيد.

«قل لأبيك أننا جميعاً نقدّر ما قام به. لقد أسدى لي خدمة كبيرة لي».

«حسناً سأفعل»، قلت وأنا أمضي مبتعداً.

«لا تنس».

«لا، لا».

هرعت عائداً إلى شقة جميلة. أعددت ركوة شاي بالنعناع وجلست بصمت إلى الطاولة في غرفة الجلوس. كانت أفكاري مضطربة. فحاولت أن ألهي نفسي بالتركيز على جميلة. كانت جالسة إلى مكتبها كالعادة، ووجهها يشع كالعادة بمصباح القراءة الرخيص. وكان ثمة فوق الكتب مزهرية كبيرة فيها أوكالبتوس وأزهار برية ارجوانية. هناك لحظات محددة تذكرك بالأشخاص الذين تحبهم ـ فترات العصرية، أو الأسابيع كلها، ربما ـ حين يكونون في أفضل أحوالهم، حين يجتمع فيهم الشباب والحكمة، والجمال والرزانة، بكل روعة. وبينما كانت جميلة جالسة هناك تدندن أغنية وتقرأ باستغراق تام، وشانغيز على سريره يحملق فيها، محاطاً «بالكتب المميزة» المغطاة بالزغب، وبمجلات الكريكت ورزم البسكويت المأكول نصفها، شعرت أن هذه هي اللحظة القصوى التي تشبه فيها جميلة نفسها، وأحببت أنا أيضاً جلوسي هناك مثل شخص يتفرج على ممثلته المفضلة، أو عاشق يشاهد حبيبته، وشغلني منظر جميلة عن التفكير بأمي وما يجدر بنا فعله من أجلها. هل هناك ما يمكن فعله من أجل أي كان؟

تركني شانغيز أنهي الشاي، وحتى تبدّد بعض الشيء إحساسي بالاضطراب. ثم نظر إلي.

«حسناً؟».

«حسناً ماذا؟».

نهض عن السرير ومشى كشخص يحمل خمس طابات كرة قدم تحت إبطيه. «تعال»، جرني إلى المطبخ الصغير.

«اسمع يا كريم»، همس «يجب أن أخرج عصر اليوم».

«أحقا؟».

«أجل».

حاول أن يوحي إلي بتعابير وجهه المنتفخ بمقصده. وكلما كان يفعل ذلك كنت أغتبط. كان استفزازه لذة مضمونة بالنسبة إلي. «اخرج إذاً»، قلت «لن يوقفك الحرس، أليس كذلك؟».

«صه. سأخرج مع صديقتي شينكو»، قال بثقة «ستصحبني إلى برج لندن. ثم سنجرب وضعيات جنسية جديدة قرأت عنها، وضعيات جامحة، يكون فيها الرجل خلف المرأة ويلجها وهي راكعة. لذا أريدك أن تبقى هنا وتلهي جميلة».

«ألهي جميلة؟»، ضحكت «يا فقاعة، إنها لا تبالي بوجودك أو عدمه. لا يهمها إلى أين تذهب».

«ماذا؟».

«ولماذا تبالي يا شانغيز؟».

«حسناً، حسناً»، قال بنبرة دفاعية، وهو يرتد إلى الخلف «فهمت».

مضيت في استفزازه، «وعلى ذكر الوضعيات يا شانغيز، أنور يسألني منذ مدة عن وضعيتك الصحية». اجتاح الجزع وجهه. وشعرت أنها الجنة بحدّ ذاتها. لم يكن هذا موضوعه الأثير «تبدو مرتعباً حتى الخراء يا شانغيز».

«حماي اللعين هذا، سيرته ستجعلني غير قادر على الانتصاب طوال اليوم»، قال «من الأفضل أن أعجّل بالذهاب».

لكنني تابعت «لقد مللت من تذمره الدائم لي منك، عليك أن تفعل شيئاً بهذا الخصوص».

«ذلك الوغد، من يحسبني، خادمه؟ لست مدير متجر. التجارة لا تلائمني، ليست أفضل مواهبي. أنا مثقف، ولست واحداً من أولئك المهاجرين القذرين الجهلة الذين يأتون إلى هذه البلاد لكي يعملوا كالعبيد ليل نهار. قل له أن يضع هذا في حسبانه».

«حسناً سأقول له هذا. لكنني أحذرك، سوف يراسل أباك وأخاك ويخبرهما أي مؤخرة سمينة كسولة أنت. أقول لك هذا بكل ثقة لأنني كتبت الرسالة بنفسي على الآلة الكاتبة».

أمسك يدي، وقد تجهم وجهه «بحق المسيح، لا. اسرق الرسالة إذا استطعت، أرجوك».

«سأفعل ما بوسعي يا شانغيز، لأنني أحبك كأخي».

«أنا أيضاً»، أجاب بحرارة.

كان الطقس حاراً، واستلقيت عارياً على السرير قرب جميلة. كانت قد شرّعت جميع نوافذ الشقة، فامتلأت الغرفة بأدخنة السيارات وصخب العاطلين عن العمل وهم يتجادلون في الشارع.. طلبت مني جميلة أن ألمسها، فلاحت أفرك ما بين فخذيها بالفازلين، ملتزماً بتعليماتها، التي عبرت عنها بكلمات مثل «أقوى»، و«مزيد من الجهد رجاء»، و«أجل، لكنك تمارس الحب ولست تنظف أسنانك». سألتها وأنا أدغدغ أذنها بأنفي «هل يهمّك أمر شانغيز أبداً؟».

اعتقد أنها فوجئت بأن مثل هذا السؤال خطر على بالي. «إنه ظريف، شانغيز، هذا صحيح، الطريقة التي يتنهد فيها برضى وهو يقرأ، ويروح يطن في الشقة سائلاً إياي ما إذا كنت راغبة ببعض الكيما. لكنني أجبرت على الزواج منه. لا أريده هنا. لا أرى سبباً لكي أكترث بأمره».

«ماذا إذا كان يحبك».

جلست مستقيمة وحدجتني، ثم لمستني وقالت لي بعاطفة «يا كريم، هذا العالم مليء بالأشخاص المحتاجين إلى التعاطف، فأولئك المضطهدون، مثل أبناء شعبنا في هذا البلد العنصري، يواجهون العنف كل يوم. أنا أتعاطف معهم وليس مع زوجي. في الواقع، إنه يستفزني كثيراً في بعض الأحيان. يا آكل النار، هذا الرجل بالكاد حي، إنه مثير للشفقة!».

لكن بينما رحت أطلي معدتها وثدييها بالقبل الصغيرة التي أعرف أنها تحبها، معضوضاً إياها، ومحاولاً جعلها تسترخي، كانت لا تزال تتحدث عن شانغيز. قالت «بشكل أساسي، إنه مجرد طفيلي، رجل محبط جنسياً. هذا ما أفكر به إذا ما فكرت به أساساً».

«محبط جنسياً؟ لكنه ذهب الآن لهذا السبب، ليقابل عاهرته الاعتيادية! اسمها شينكو».

«لا! أحقاً؟ أهذا صحيح؟».

«بالطبع».

«أخبرني، أخبرني».

فأخبرتها عن قديس شانغيز، هارولد روبنز، وعن شينكو، وعن الوضعيات. وجعلنا هذا راغبين بتجربة وضعيات عدة، مثلما كان يفعل شانغيز وشينكو في تلك اللحظات. لاحقاً ونحن متعانقين، سألتني «لكن ماذا عنك كريم، أنت حزين أليس كذلك؟».

كنت حزيناً بالفعل. وكيف لا أكون كذلك وأمي لا تفارق السرير يوماً بعد يوم، مدمرة كلياً بسبب فرار أبي مع امرأة أخرى؟ هل ستتعافى يوماً؟ كان فيها مميزات عظيمة، من السحر واللطف، والنزاهة العامة، لكن هل سيأتي يوماً ما رجل يقدر صفاتها هذه ولا يؤذيها؟

ثم سألتني «ما الذي ستفعله بحياتك الآن بعد أن تركت الكلية؟».

«ماذا؟ لكنني لم أتركها. كل ما في الأمر أنني لا أحضر جميع المحاضرات. دعينا من هذا الأمر، إنه يحبطني. ما الذي ستفعلينه الآن؟»

أصبحت متحمسة. «آه أنا، لكنني لست متبطلة، وإن بدا الأمر كذلك. إنني أحضر فعلياً لأمر ما. لكنني لا أعرف ماهيته بعد. أشعر أنني ينبغي أن أعرف بعض الأشياء التي ستساعدني يوماً ما على فهم العالم».

مارسنا الحب مجدداً، ولا بدّ من أننا تعبنا، لأنه لا يمكن أن يكون قد مضى أقل من ساعتين حين استيقظت لاحقاً. وكنت أرتعش من البرد. وكانت جميلة نائمة والملاءة تغطي نصفها السفلي، زحفت من السرير لكي أحضر بطانية وقعت على الأرض، وبينما أفعل ذلك ألقيت نظرة إلى غرفت الجلوس، وتبينت في العتمة شانغيز ممدداً على سريره، وينظر نحوي. كان وجهه خالياً من التعابير؛ كان جدياً، إذا كان ثمة فيه أي تعبير، لكن كان بشكل أساسي جامداً. بدا أنه هناك منذ مدة. أغلقت باب الغرفة ولبست ثيابي على عجل، بينما أوقظ جميلة. لطالما تساءلت عما يمكن فعله في وضع كهذا، لكنه كان بسيطاً. خرجت من الشقة من دون أن أنظر إلى صديقي، تاركاً الزوج والزوجة لشأنيهما، شاعراً أنني قد خنت الجميع، شانغيز، وأمي، وأبي، ونفسي.

الفصل الثامن

«أنت لا تفعل شيئاً»، صاح أبي، «أنت متشرد لعين، تدمر حياتك عبثاً، أتعرف ذلك؟ هذا يفطر قلبي».

«لا تصرخ في وجهي، لا أحتمل ذلك».

«عليّ أن أصرخ يا ولد، حتى يصل كلامي إلى رأسك السميك. كيف تمكنت من الرسوب في كل تلك الامتحانات؟ كيف يعقل بأن ترسب في جميع الامتحانات؟».

«هذا سهل. لا تجري أي منها».

«أهذا ما فعلته؟».

«أجل».

«لكن لماذا يا كريم، خصوصاً أنك زعمت لي أنك ستجري الامتحانات اللعينة. لقد غادرت المنزل مليئاً بالثقة التي أعطيتك إياها، والآن أرى السبب»، قال بمرارة، «كيف أمكنك فعل هذا؟».

«لأنني لست في المزاج المناسب للدراسة. إنني مضطرب بسبب كل ما يحدث، أعني هجرانك لأمي وما إلى ذلك. إنه أمر جلل، إنه يؤثر على حياتي».

«لا تلمني إذا ما خربت حياتك»، قال، وقد اغرورقت عيناه بالدموع. «لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لا تتدخلي يا إيڤا»، قال، إذ رآها تدخل إلى الغرفة، بعد أن سمعت صراخنا. «هذا الصبي خسارة تامة. إذاً ما الذي ستفعله، إيه؟».

«أريد أن أفكر».

«تفكر، أيها المغفل اللعين! كيف يمكنك أن تفكر وليس لديك أي عقل؟».

عرفت أن هذا سيحدث؛ وكنت تقريباً مستعداً له. لكن هذا الازدراء كان إعصاراً يطيح كل مواردي وممتلكاتي. شعرت بإحباط لم أشعر بمثله من قبل. ثم تجاهلني أبي. لم يعد بوسعي النوم عند جميلة، خشية من مواجهة شانغيز. لذا صرت مضطراً إلى رؤية أبي، وجعله يتحسّر على حالي، يومياً. لا أعرف لماذا تعامل مع الأمر بهذه الطريقة الشخصية اللعينة. لماذا ينبغي أن يزعجه إلى هذا الحدّ؟ كان يتصرف كما لو أنه لدينا حياة واحدة مشتركة. أنا كنت حياته الثانية، امتداده، وبدلاً من أن أشعره بالإطراء، رميته في الغائط.

لذا كانت مفاجأة سارة حين فتحت باب المنزل يوماً لأجد العم تيد هناك بالأوفرأول الأخضر، حاملاً حقيبة العدة، والابتسامة تغمر وجهه. توجه إلى الصالون وبدأ يفحص بعينيه الخبيرتين الجدران والسقف. جاءت إيڤا ورحبت به كأنه فنان عائد من المنفى، كأنه رامبو العائد من إفريقيا. تحاضنت أيديهما وأعينهما.

كان أبي قد أخبرها أي شاعر هو تيد بين البنّائين. وكيف رفض المضي في حياته السابقة، وكيف أنه الآن يهدر موهبته. وأثّر ذلك في إيڤا، التي دبّرت تناولهم العشاء معاً في الخارج، ثم اصطحبته لاحقاً إلى نادي جاز في «كنغز رود»، وكانت المرة الأولى التي يرى فيها العم تيد جدراناً مطلية بالأسود ـ وهناك همست إيڤا لأبي: «أظن أنه آن أوان الانتقال إلى لندن، ما رأيك؟».

«أحب هدوء بكنهام، حيث لا أحد يزعجنا»، أجابها أبي، وظنّ أن هذه نهاية الموضوع، مثلما كان يحدث حين كان يخاطب أمي.

لكن استمرّ الأمر. وأثناء استماعهم إلى الجاز قدمت إيڤا لتيد عرضاً: «تعال واجعل منزلي رائعاً وتيد، سنستمع إلى معزوفات السوينغ ونشرب المارغريتا ونحن نعمل. لن يكون عملاً بالمعنى التقليدي للكلمة». فرح تيد لهذه الفرصة، أن يعمل مع أبي وإيڤا، جزئياً من باب الفضول، ولكي يرى عن كثب ما الذي فعلته الحرية بأبي، وما يمكن أن تفعله به ربما، وجزئياً بسبب اشتياقه للعمل. لكن كانت تنتظره مهمة أن يخبر الخالة جين بهذا. هذا كان الجزء الصعب في المسألة.

عانت الخالة جين أشد المعاناة حين سمعت بالخبر. ها هو تيد سيعمل أخيراً، أسابيع من العمل مدفوع الأجر، لكن صاحب العمل هو عدوها اللدود، تلك المرأة الرهيبة مفردة النهد، سارقة الرجال. استغرقت جين يوماً كاملاً وهي تفكر بالأمر، بينما انتظرنا قرارها بأنفاس محبوسة. وأخيراً وافقت، شريطة ألا تعرف أمي، وشريطة أن يخبرها تيد في نهاية كل يوم بالتفصيل بما يجري بين أبي وإيڤا. وافقنا على هذه الشروط، وبدأنا نتخيّل أشياء ماجنة يخبرها تيد لجين.

كانت إيڤا تعرف بالضبط ماذا تريد: تحويل المنزل برمته، كل إنش فيه، وأرادت حولها أشخاصاً كادحين مفعمين بالطاقة. شرعنا بالعمل مباشرة. تخليت بكل ارتياح عن التظاهر بالذكاء، وأصبحت يداً عاملة، متولياً أمر الحمل والتفريغ والتكسير، بينما تولت إيڤا التفكير، وعمل تيد على ضمان تنفيذ تعليماتها. حاول أبي بصعوبة أن يتجنب مسألة البناء برمتها، ووجه إلينا شتيمة عربية في إحدى المرات: «الله يهدّ بيتكم»(*). وأجابه تيد - وهو يهوي بمطرقة على أحد الجدران - بغموض ظن أنه سيسرّ أبي: «يا هارون، إنني أقبّل الفرح وهو يطير».

(*) على الرغم من إشارة الكاتب إلى أن هذا الدعاء عربي، فهو في الواقع ألماني الأصل، ولفظه الحرفي «ليحلّ البناؤون في بيتك»، أي فليخرب بيتك بحيث تحتاج إلى البنائين.

عملنا نحن الثلاثة معاً بكل روعة وتلقائية وفرح. ازدادت إيڤا حماسة، وكنا، حين يكون ثمة قرار ما ينبغي اتخاذه، ننتظرها بينما تنزوي في غرفتها في الطابق العلوي، متفكّرة في الشكل النهائي للمستنبت أو المطبخ، حتى يرشدها لا وعيها إلى القرار الصحيح. ولم يكن هذا يختلف كثيراً، على ما أفترض، عما كنت أقرأه في كتاب «الاب والإبن» لإدموند غوس، الذي يصلي فيه الأب، منتظراً توجيهات الرب، قبل اتخاذ أي قرار.

قبل موعد الغذاء كانت تخرجنا إيڤا متعبين إلى الحديقة، حيث نقوم بالحركات الرياضية من تمدد وانحناء، وجلوس بظهور مستقيمة، وتنفّس عبر مناخير بديلة، ثم تقدّم لنا السلطة والفاكهة. وكان تيد يمارس هذه الطقوس بخفة طفولية هائلة، متخذاً وضعية أفعى الكوبرا، كما لو أنها صُممت خصيصاً له. وعلى عكسي، بدا مستمتعاً بأن يبدو مغفلاً، ظاناً أنه بذلك قد أصبح شخصاً جديداً منفتحاً. وكانت إيڤا تشجعنا على اللعب أيضاً، لكنها كانت أيضاً رب عمل داهية. كنا نعمل من أجلها وبسبب إعجابنا بها، لكنها لم تكن تتسامح مع الكسل: كانت كمالية، وصاحبة ذوق رفيع، تصر على استعمال أفضل المواد، وهو أمر غير اعتيادي في الضواحي، حيث البيوت من الحقبة الڤيكتورية أو الإدواردية، تدمّر بشكل عشوائي خلال إعادة بنائها، لكي تُملأ بالفورميكا والخزائن فحسب.

أخيراً طلي البيت كله بالأبيض. «الأبيض هو اللون الوحيد المناسب للبيوت»، أعلنت إيڤا. تمّ تركيب أرضيات لمّاعة من الخشب الغامق وستائر خضراء، وأعيد تركيب المواقد الحديدية السوداء، مما استفز تيد الذي أمضى طوال حياته وهو يزيل من البيوت مثل هذه المواقد، بحيث لا تضطر نسوة مثل أمي إلى النهوض باكراً في الصباحات المصقعة لكي يوقدن النار، وهن جاثيات على ركبهن.

كانت الخالة جين، بعد أن تقدّم للعم تيد في نهاية كل نهار فنجان الشاي، وشطيرة اللحمة والبطاطس، أو ستايك اللحمة بالطرطور (لم يكن يجروء بعد على أن يصير نباتياً)، تجلس قبالته، وأمامها كأس خمرة، وتطالبه بالمعلومات المتعلقة بأبي وإيڤا.

«ما الذي أخبرته إياها ليلة أمس، عم تيد؟»، كنت أسأله في اليوم التالي خلال العمل. ولم أكن قادراً على تخيل ما الذي يمكن أن يخبره تيد عنهما، وهو يتأمل سعادتهما الغامرة، حاكياً كيف يعريان بعضيهما طوال الوقت، ويلعبان ألعاباً سخيفة مثل من يفوز في رمي عدد أكبر من عيدان المصّاصات في سلة القمامة.

وربما كانت مروياته أكثر تحديداً، تتناول ما يراه عادة، حين يصل إلى العمل صباحاً: إيڤا ببيجامتها الزرقاء الحرير وروبها الأحمر، تصرخ وتضحك، وتأمرني بأن أتناول الإفطار، وتقرأ الصحف بصوت مرتفع. في الأيام الخوالي كان أبي وأمي يقرآن صحيفة «دايلي ميرور» فحسب. أما إيڤا فكانت تحب أن تملأ البيت يومياً بخمس صحف وثلاث مجلات، متنقّلة بين صفحات «ڤوغ» و«نيو ستايتسمان» و«دايلي إكسبرس»، قبل أن ترميها في سلة مهملات الصحف قرب السرير. وربما أخبرها عن النزهات التي كنا نقوم بها نحن الأربعة، حين تملّ إيڤا من العمل؛ أو عن تلك المرة حين كانت رجلها تؤلمها فطلبت سيارة أجرة، وهو بمثابة انحلال روماني مطلق بالنسبة لي ولأبي ولتيد. وطفنا لساعتين في ساوث لندن، وإيڤا تشرب بيرة «غينيس» وتشرأب من النافذة محيية الناس، وكيف مررنا بـ «أولد كنت رود»، وتوقفنا عند عيادة د. لال الشهيرة، وقاعة الحب تلك، حيث أغرم أبي بأمي. لكنني شككت في أن تيد يستطيع إخبار جين شيئاً من هذه المسرات والأوقات الجميلة. لم يكن هذا ما تودّ جين سماعه. ولن يعودعليها بأي فائدة تذكر.

من الواضح أنني وتيد لم نكن حاضرين دوماً لكي نرصد بدقة الجوانب المتعدد للإثارة في هذا الحب الجديد، خصوصاً أن أبي وإيڤا كانا يمضيان أمسيات عدة في لندن، مرتادين المسرحيات السجالية، أو الأفلام الألمانية أو محاضرات لماركسيين، أو في حفلات المجتمع الراقي. كان شادويل، صديق إيڤا القديم، بدأ يشق طريقه كمخرج مسرحي، عاملاً كمساعد في «مسرح شكسبير الملكي»، مديراً محترفات لأعمال بيكيت، وعارضاً مسرحيات لأرتو ولكتاب جدد في أمكنة بارزة. وقد ساعدته إيڤا على تصميم أحد هذه الأعمال وصنع الأزياء. وكانت تحب هذه الأجواء، والذهاب بصحبة وأبي وشادويل إلى حفلات يتواجد فيها أناس مهمون إلى حدّ ما، أي من غير طينة الناس الذين نراهم في الضواحي، أشخاص يمثّلون الشيء الحقيقي: يكتبون المسرحيات ويخرجونها فعلاً، ولا يكتفون بالحديث عنها. أرادت إيڤا القيام بالمزيد من هذا؛ وكانت تناقش أمور تأثيث المنازل والديكور الداخلي، مع أناس يشترون أفضل الأمكنة في البلد، وكانت تعرف كيف تجعل نفسها مفيدة.

وكم كانا يبدوان ذكيين وساحرين ومشعين بالسعادة وهما ذاهبان إلى لندن في تلك الأمسيات، أبي ببذلته وإيڤا بالشالات والقبعات والأحذية الفارهة وحقائب اليد. وكنت في غيابهما أتجوّل في المنزل الفارغ، أو اتصل بأمي؛ وأحياناً أتمدد على الأرض في علية تشارلي متسائلاً عما يفعله وأي وقت طيب يمضيه. وحين يرجع أبي وإيڤا لاحقاً، أذهب لرؤيتهما وسماع ما لديهما، وهما يخلعان ملابسهما، من قال لمن ماذا عن هذه المسرحية، أو تلك الرواية أو عن آخر الفضائح الجنسية. وكان يدهشني مشاهدة إيڤا التلفزيون وهي تحتسي الشامبانيا في السرير، وصارت تردد مرة في الأسبوع على الأقل أنها عازمة على نقلنا جميعاً

إلى لندن بشكل نهائي. ويروح أبي يبدي رأيه بمسرحية ما قائلاً أنه لا يمكن مقارنة كاتبها بتشيخوف، وهو كاتبه المفضل، الذي تذكره مسرحياته وقصصه، بحسب قوله، بالهند. لم أفهم هذه الصلة، حتى أدركت أنه كان يعني أن تكاسل شخصيات تشيخوف وبلادتها وأحلامها، هي صفات نموذجية لدى البالغين الذين عرفهم طفلاً.

ولكن لابدّ من أن جين وتيد تناقشا حول موضوع المال، وكان يزعجني أنا أيضاً تبذير المال على البيت. فعلى عكس أمي التي كانت تأخذ الشحّ كأمر مسلم به، كانت إيڤا تشتري كل ما ترغب به. إذا ما ذهبت إلى متجر ولفت شيء ما أنظارها، ألبوم رسومات لماتيس، أو أسطوانة، أو حلقي أذن على هيئة الين واليانغ، أو قبعة صينية، فلم تكن تتردد في شرائه. لم يكن في حياتها مجال لتعذيب النفس والإحساس بالذنب حيال المال، مثلما كان يحدث معنا جميعاً. «أنا أستحق هذه الحياة»، كانت تردد دائماً، «كنت تعيسة قبلاً مع زوجي، ولن أكون تعيسة من جديد». لم يكن يردعها رادع. حين حدثتها عن هذا الإسراف يوماً بينما نقوم بالطلاء جنباً إلى جنب، أجابتني «حين ينفد منا المال سأجلب المزيد منه».

«من أين يا إيڤا؟».

«ألا تلاحظ يا كريم، إن العالم مليء بالمال! ألا ترى أنه يتدفق في البلد برمته؟».

«بلى لاحظت، لكن لا ينال منزلنا من تدفقه طرطوشة».

«حين نحتاج إليه سأحول بعضاً من أمواجه إلى هنا».

«إنها محقة»، أجابني أ]ي أبي، بطريقة حاسمة، حين ذهبت إليه لاحقاً وأخبرته بما قالته لي إيڤا، في سعي مني لتوعيته بمدى الخطأ في ذلك. «عليك أن تكون في حال عقلية سليمة حتى تتمكن من جني المال الوفير».

صدور مثل هذا الكلام عن شخص لم يكن يوماً في الإطار العقلي السليم بحيث يتمكن من جني ما يفوق راتبه ـ الذي كان أنور يشير يسميه دخلاً غير مكتسب ـ بدا فيه قدر من الخصوبة. ولعل الحب وإيڤا فرشا سجادة ثقة أبي بنفسه، التي صار يرقص عليها بانشراح. أشعرني موقفهما هذا بأنني شخص محافظ.

عاد أبي إلى القيام بجلساته التاوية والتأملية، مرة في الأسبوع في المنزل، سوى أن إيڤا صارت تصرّ على أن يدفع الناس رسماً للحضور. كان لدى أبي جمهور دائم من الشباب ـ طلاب، سايكولوجيون، ممرضات، موسيقيون ـ يهزون رؤوسهم باستمرار تأييداً لكل ما يقوله. كانوا يحبونه، وبعضهم كان يخابره ليلاً ويأتي إلى البيت مذعوراً، معتمداً على إصغائه اللطيف إليه. كان هناك أشخاص موضوعين على لائحة الانتظار حتى ينضموا إلى جلساته، التي كانت تجبرني على تنظيف الغرفة بالمكنسة الكهربائية، وإشعال البخور، والترحيب بالضيوف مثل نادل، وتقديم الحلوى الهندية لهم. وألحت إيڤا على أبي أيضاً لتحسين نوعية الخدمة: صارت تجعله يقرأ كتباً مختصة في المكتبة في الصباح الباكر قبل توجهه إلى العمل، لتسأله عند الإفطار، بنغمة لابدّ من أنها هي نفسها التي كانت تستعملها مع تشارلي وهي تسأله ما إذا أنجز فرض الرسم التقني: «وما الذي تعلمته هذا الصباح؟».

كانت إيڤا تعرف شخصاً في الصحيفة المحلية، وهو الصحافي المتعاون نفسه الذي وضع تشارلي على الصفحة الأولى من «بروملي أند كنتيش تايمز»، وجعلته يجري مقابلة مع أبي، فالتقطت له صور فوتوغرافية بصديريته الحمراء وبيجامته الهندية قاعداً على مبزر ذهبي. وقد تأثر رفاقه الذين يرافقونه إلى العمل من الضواحي بهذه الشهرة المفاجئة، وأخبرني أبي مغتبطاً كيف صار المشاة على الرصيف المقابل

يؤشرون عليه بالبنان. فأن يكون معروفاً بسبب إنجاز ما في الحياة، أمر رفع معنويات أبي، الذي كان قبل إيڤا بدأ يرى نفسه كشخص فاشل، ويرى حياته كشيء كئيب. لكن في المكتب، حيث كانوا يعتبرونه هندياً كسولاً فرّ من زوجته وأطفاله، لم تنل شهرة أبي استحسان زملائه، الذين راحوا يسخرون منه من وراء ظهره وفي حضوره. وقد رسموا بجانب صورته في الصحيفة فقاعة تخرج من فمه وفي داخلها عبارة: «لغز الحياة القاتم كشفه دجّال أسود، بأموال دافعي الضرائب». بدأ أبي يتحدث عن الاستقالة. وشجعته إيڤا قائلة إنها ستؤمن معيشتهما معاً، من الحب، افتراضاً.

شككت في أن تيد يتحدث إلى الخالة جين عن هذه المسائل، أو عن تمظهرات الحب الأخرى التي ملأت أوقاتنا؛ كيف تقلّد إيڤا مثلاً، أصوات أبي التي لا تحصى وهو يتكلم. أنا وتيد فاجأناها مرة في المطبخ تقلد سيمفونية أصواته مثل أم فخورة تحاكي أولى كلمات طفلها. كان بوسع إيڤا وأبي أن يناقشا لساعات أتفه المسائل، مثل طبيعة البشر الذين يلتقيهم أبي في القطار، حتى كنت أضطر إلى الصراخ بهما، «اللعنة عما تتحدثان!». فينظران نحوي متفاجئين، بعد أن كانا مستغرقين كلياً بحديثهما. أفترض أنه لم يكن يهمهما موضوع النقاش، بقدر ما كانت الكلمات نفسها شكلاً من العناق، وتبادل الأزهار والقبل. وإيڤا لم تكن ترجع إلى المنزل من دون أن تقول: «هاي هارون، عثرت على شيء قد يعجبك»، وقد يكون كتاباً عن الحدائق اليابانية، أو وشاحاً حريرياً، أو قلم حبر سائل، أو أسطوانة لإيلا فيتزجيرالد، وذات مرة أحضرت معها طائرة ورقية.

بدأت، من وحي ما أراه بينهما، أطور نظريات حانقة عن الحب. بالتأكيد ينبغي أن يكون الحب شيئاً أكثر كرماً من هذا الحب المفعم

بالأنانية؟ معهما بدا الحب وغدا ضيق الأفق، حصرياً، وأنانياً، يمتع نفسه على حساب امرأة أخرى ممددة في السرير في منزل الخالة جين، بلا أي اعتبار لحياتها. بؤس أمي كان الثمن الذي اختار أبي دفعه لقاء سعادته. كيف أمكنه فعل ذلك؟

ويجدر بي أن أقول، إنصافاً له، إن بؤس أمي كان يطارده. وقد تجادل وإيڤا بهذا الخصوص: وكان رأيها به أنه متسامح. لكن كيف يمكن ألا يكون كذلك؟ أحياناً، أثناء مشاهدتنا التلفزيون أو أو تناولنا الطعام، كانت تعلو وجهه موجات من الندم. مشاعر ندم وذنب وألم تغمر كيانه فحسب. كيف أساء معاملة أمي إلى هذا الحدّ، قال لنا. كم أعطته، واهتمت به، وأحبته، وها هو في منزل إيڤا الحميم والمتوهّج، يتوق للذهاب إلى السرير.

«أشعر أنني مجرم»، اعترف ببراءة لإيڤا ذات مرة، في لحظة سهو، تسللت عبرها الحقيقة لسوء الحظ. «أشعر أنني شخص يعيش سعيداً من مال حصل عليه عبر إيذاء أحدهم جسدياً». لم تستطع إيڤا منع نفسها من الصراخ به، ولم يستطع أن يفهم كم فاجأها كلامه الفظ وكم جرح مشاعرها. وهي بدورها كانت غير عقلانية.

«لكنك لا تريدها! لم تكونا مناسبين لبعضيكما! لقد أسقم واحدكما الآخر. ألم تعيشا معاً وقتاً كافياً لتدرك ذلك؟».

«كان يمكنني بذل المزيد من الجهد»، أجابها «لكي أبدي الاهتمام. لم تكن تستحق مني أن أؤذيها إلى هذا الحدّ. أنا لا أؤمن بالناس الذين يهجرون الناس».

«إحساسك هذا بالذنب والندم سيدمر حياتنا».

«لكنه جزء مني».

«رجاء، رجاء، أخرج هذا من رأسك».

لكن كيف يمكنه إخراجه؟ كان يتراكم عليه كما ينتقع الماء على سقف من تنك، يصدأ ويتعفن ويتآكل يوماً بعد يوم. ومع أنه لم يعد يبدي مثل هذه الملاحظات البريئة، ومع أن رغبته وإيفا بممارسة الحب ظلت متقدة ـ وقد فاجأتهما ذات مرة وهي تقوم ضاحكة بأشياء حمقاء معه، مثل قص شعر أذنيه ومنخريه بمقص كبير ـ فقد كان وجهه يكتسي أحياناً بتعابير تفرّ من كل حرص ممكن، ملامح جعلتني أفكر أنه عاجز فحسب عن عيش سعادة فاسدة.

ربما بهدف إزالة هذا العائق قررت إيفا عرض المنزل الرائع المطلي بالأبيض بعد انتهاء تيد منه، للبيع. قررت إبعاد أبي. ستبحث عن شقة في لندن. انتهينا من الضواحي: أصبحت مكاناً للمغادرة. ربما حسبت أن تغيير المكان سيوقفه عن التفكير بأمي. مرة كنا ثلاثتنا في سيارتها في «هاي ستريت» وراح أبي يبكي في المقعد الخلفي. «ما الأمر؟»، سألته، «ما الذي جرى؟».

«إنها هي... أظن أنني رأيت أمك تدخل إلى متجر. وكانت وحدها. لا أريدها أن تكون وحيدة».

لم يكن أبي يكلم أبي هاتفياً، أو يقابلها، لإدراكه أن هذا سيكون أفضل على المدى الطويل. غير أنه كان يضع صورها في كل ستراته، وكانت أحياناً تسقط من الكتب في الوقت غير المناسب وتضايق إيفا؛ وحين كان يريد أن سألني عن أمي، كان علينا أن نذهب أنا وهو إلى غرفة أخرى، بعيداً من إيفا، كما لو أننا نتحدث في أمر معيب.

كانت إيفا، في نقلنا إلى لندن، تبحث أيضاً عن تشارلي، الذي نادراً ما كان يأتي إلى البيت القديم. بالنسبة إليه أيضاً، كان من الجلي أن الضواحي التي نعيش فيها هي مكان للمغادرة، بداية حياة، بعد ذلك إما

أن تهجرها وإما أن تتعفن فيها. كان تشارلي يحب النوم هنا وهناك، من دون أن يملك شيئاً، من دون أن يستقر في أي مكان بشكل دائم، مضاجعاً من يشاء، ومتمرناً وكاتباً الأغنيات. كان يعيش حياة صاخبة ليس بسبب اليأس لكن بسبب التقوق المتزايد لديه للعيش. أحياناً كنت أنهض صباحاً وأجده في المطبخ، يأكل بنهم، كما لو أنه غير واثق من أنه سيحصل على وجبته التالية، كما لو أن كل يوم هو مغامرة يمكن أن تنتهي في أي مكان. ثم يرحل.

كان أبي وإيفا يسافران إلى كافة حفلات تشارلي، في كليات الفنون، وفي الحانات، وفي المهرجانات الصغيرة التي تقام في حقول موحلة، حيث تروح إيفا تحتسي البيرة وترقص حماسة، بينما يقف أبي في الخلف، منزعجاً من الصخب ومن الحشد، وحيث القديس «ڤيتوس»(*) الوحشي يتراقص فوق شباب غارقين في الغيبوبة وفي برك من البيرة. كان يزعجه مدى الحزن في تلك الحفلات، والثياب المقرفة، والرحلات السيئة، والأولاد في سن الرابعة عشرة ينقلون في سيارات الإسعاف، والمضاجعات العشوائية التي لا تنمّ عن الحب، والفرار البائس من الأهل، إلى مناطق قذرة في «هيرن هيل»(**)، شاعراً بأنه يفضل أن يكون برفقة أحد حوارييه ـ الفتاة الجادة فروتبات، ربما، أو عشيقها شوغيام جونز الذي لا يكف عن الابتسام، والذي يلبس ما يشبه سجادة صينية؛ شاعراً بالحاجة إلى إطرائهما له. لكنه كان يرافق إيفا إلى حيثما تريد. وكان بالتأكيد يستمتع في العيش أكثر من السابق، وحين أعلنت إيفا أخيراً أننا سننتقل إلى لندن أقرّ بأن هذا هو الأمر الصواب لفعله.

(*) القديس ڤيتوس: شهيد وقديس مسيحي هو راعي الأشخاص المصابين بالصرع، ورمزية استحضاره في هذا السياق واضحة.

(**) «هيرن هيل»: منطقة في «ساوث لندن».

بينما رحنا أنا وأبي نوضّب أغراض تشارلي في العلية، تناقشنا في مشكلة هذا الأخير: الحقيقة كانت أنه يعرف أن فرقته لا تتمتّع بصوت خاص بها. كان هو أساس الفرقة، بهيئته المذهلة، وبخديه الرائعين ورموشه الأنثوية، ولذلك كان يتلقى العروض لعرض الأزياء للمجلات، إنما ليس للعزف في «ألبرت هول». الفشل جعل تشارلي متعجرفاً. أصبح معتاداً على حمل كتاب شعر في جيبه، يمكن أن يفتحه في أي وقت من أجل جرعة من السمو، وكان تصنّعه منفراً، يشبه أفعال تلميذ في أوكسفورد، خصوصاً أن تشارلي يمكن أن يفعل ذلك وسط محادثة، مثلما فعل مؤخراً في حفلة في إحدى الكليات: كان رئيس اتحاد الطلاب يتحدث إليه حين مدّ يديه إلى جيبه، وأخرج الكتاب وفتحه، وجحظت عينا الرجل غير مصدقتين، بينما تشارلي يغبّ حاجته من الجنوب الدافئ.

أي فتى مضطرب كان تشارلي هذا. لكن منذ البداية أصرت إيفا على أنه الموهبة في حدّ ذاتها، أنه رائع وأن الله نفخ بركاته في قضيبه. كان أورسون ويلز بالحدّ الأدنى. وكان طبيعياً في النهاية أن تنعكس معرفته الطويلة بألوهيته هذه على شخصيته. كان فخوراً، ومنعزلاً، ومراوغاً، وكريماً بشكل اختياري. وكان يجعل الآخرين يفترضون بأن شعراً يصدم العالم سينفجر من رأسه مثلما انفجر من رؤوس فتية إنكليز آخرين: لينون، جاغر، بوي. وعلى غرار أندريه جيد، الذي توقع في صغره أنه سينال إعجاب الناس على الكتب التي سيؤلفها مستقبلاً، أصبح تشارلي يحب الإحساس بتقدير الآخرين لقدراته الكامنة. وهو تقدير اكتسبه من جاذبية شكله التي كان يتم غالباً الخلط بينها وبين موهبته. كان قادراً حتى على أن يفتن ذاته.

ما كانت هذه الفتنة؟ وكيف أسرتني لوقت طويل؟ كنت مستعداً لفعل

أي شيء من أجل تشارلي، مثلما كنت أفعل مع أبي في العليّة، وأنا أفرز عشرين عاماً من مقتنياته. ولم أكن الوحيد في هذا الضعف تجاهه. كثر غيري كانوا مستعدين لتلبية طلباته قبل أن يطلبها حتى. كيف حصل هذا؟ لقد تأملت أنواعاً مختلفة من الفتنة. هناك أولئك الذين بالكاد يملكونها، وهم الأقل موهبة. وهناك أولئك الذين يملكون قوة الشخصية، ويفتقرون إلى أي مزايا أخرى. لكن على الأقل تنشأ قوتهم من داخلهم، لا من جمال خدودهم. هناك أيضاً أولئك الذين لا تستطيع مقاومة الاستماع إليهم؛ وأعلى درجة منهم أولئك الذين يضحكونك. وهناك الذين يثيرون إعجابك بشدّة ذكائهم وسعة معرفتهم، وهذا فيه من الإنجاز بقدر ما فيه من التسلية.

تشارلي كان يجمع هذا كله؛ كان لاعباً في المجالات كلها. لكن قوته الأساسية كانت قدرته على جعلك تعجب بنفسك. الاهتمام الذي يوليك إياه، حين يفعل ذلك، كان مطلقاً. كان يعرف كيف ينظر إليك كما لو كنت الشخص الوحيد الذي أثار اهتمامه أبداً. ويروح يسألك عن حياتك، ويبدو أنه يحفظ كل ثانية في محادثتكما. كان ممتازاً في الإصغاء، وكان يفعل ذلك من دون تهكم. المشكلة في هذا أن الأشخاص العصابيين كانوا ينجذبون إليه. لا أحد سواه يصغي إليهم، وما إن يفعل تشارلي ذلك مرة، حتى لا يعودوا قادرين على نسيانه، وربما يحظى بمضاجعتهم أيضاً. لكن إيفا كانت تسعى إلى إبعادهم عنه، قائلة لهم حين يزورونه في البيت إنه إذا كان الأمر طارئاً يمكنهم ترك ملاحظة له، بينما يفرّ هو من المنزل متسلقاً السياج تاركاً إياهم ينتظرون أمام البيت طوال اليوم.

بعد أن رأيت ذلك ينجح لوقت طويل، بدأت أرى فتنة تشارلي شبيهة بالسطو على البيوت عبر إقناع أصحابها بأن يدعوك إلى دخولها.

لم يكن لدي شك في ذلك: كان ما يقوم به تشارلي نوعاً من السرقة؛ كان ثمة أشياء لديك يريدها. وكان يأخذها. كان زائفاً ومتلاعباً وأعجبت كثيراً بذلك، وكنت أدوّن الملاحظات حول تقنياته، لأنها كانت تنجح، خصوصاً مع الفتيات.

بصورة مطلقة لم تكن تصرفاته هذه غير مؤذية. لا؛ تشارلي كان أحد أكثر المغوين قسوة وأذية. لم يكن ينتزع من ضحاياه الجنس فقط، بل أيضاً الحب والولاء، واللطف والتشجيع، قبل أن يتخلى عنهم. كنت لأود بسرور الحصول على هذه المهارات، لكنني كنت أفتقر إلى مكون أساسي: إرادة تشارلي القوية ورغبته الجامحة بامتلاك كل ما يعجبه. فقد كان تشارلي طوحاً بشكل استثنائي. لكنه في تلك الفترة كان يراوح مكانه وبدأ يشعر بالإحباط. إذ بات يرى أن الوقت يمرّ وهو عالق في فرقة «روك أند رول» فاشلة تدعى «ماسنت كرامبل»، ليست إلا نسخة مقلدة من فرقة «هوك ويند».

قلما كان تشارلي يرى أباه حين كان الأخير شخصاً بائساً ومريضاً يعيش مع أمه. لكن حين كان يأتي إلى منزل إيڤا كان يمضي ساعات مع أبي، وكان يخبره الحقيقة. بينما أبي يساعده على الاستفادة من موهبته، راسماً له الخرائط إلى لا وعيه، مقترحاً طرقاً وسرعات، وثياباً للرحلة، وكيف يجلس في السيارة حتى يصل إلى الداخل الخطير. ولأيام وأيام، على ضوء القمر المكتمل للتوقعات العالية، كدح تشارلي لكي يستخرج الجمال من روحه، وكنت أرى ذلك (وهذا كان يريحني) بلا طائل. ظلّت أغنياته خرائية.

احتجت إلى وقت طويل لكي أستوعب هذا، إذ كان لا يزال لدي عاطفة تجاه تشارلي ولم أكن أستطيع النظر إليه ببرود. لكن حين أدركت ضعفه، توقه إلى الانضمام إلى نادي العباقرة، عرفت أنني نلت منه.

ولو أردت لأمكنني الانتقام منه، وهذا من شأنه أن يعبّر أيضاً ـ يا للقوة الهزيلة ـ عن لا جدوى حياتي.

أحياناً كنت أقول لإيڤا إنني أريد أن أصبح مصوراً فوتوغرافياً أو ممثلاً، أو ربما صحافياً، ومن الأفضل مراسلاً حربياً، في كمبوديا أو بلفاست. كنت أكره السلطة والخضوع للأوامر. وقد أحببت العمل مع تيد وإيڤا، لأنهما كانا يدعانني أتحرك بحرية. لكن حلمي كان الانضمام إلى «ماسنت كرامبل»، كعازف غيتار إيقاعي. فقد كنت أجيد العزف قليلاً في نهاية الأمر. وحين أخبرت تشارلي بهذا كاد يختنق من الضحك «لكن هناك عمل يناسبك تماماً».

«حقاً، ما هو؟».

«تبدأ السبت»، قال.

وجعلني مسؤول التجهيزات في الفرقة. كنت لا أزال شخصاً تافهاً، لكنني بت في وضع جيد يمكنني من النيل من تشارلي في اللحظة المناسبة. وقد جاءت هذه اللحظة ذات مساء، بعد حفلة في كلية فنون، حين كنت أساعد على جرّ العدة إلى الشاحنة الصغيرة. وكنت قبل ذلك قد استمعت في الحانة إلى تحليل أبي وإيڤا لأداء تشارلي كما لو أنه الأداء الوداعي لمايلز دايڤس. مر تشارلي من أمامي، ومعه فتاة ضخمة الثديين، وقال لي بهدف إضحاكها «أسرع يا كريم، أيها البلوزة البناتية العظيمة، يا صديق دوروثي، أحضر لي المخدر إلى غرفة تبديل الملابس ولا تتأخر».

«لكن علام العجلة؟»، قلتُ «فلستَ ذاهباً إلى أي مكان، لا كفرقة ولا كشخص».

نظر إلي نظرة مشكّكة، متحسساً شعره كالعادة، غير متأكد ما إذا كان ما أقوله هزلاً أم جداً «ماذا تقصد؟».

نلت منه. لقد وقع في الفخ مباشرة.

«ماذا أقصد؟».

«أجل»، قال.

«لكي تصل إلى أي مكان ينبغي أن تكون موهوباً يا تشارلي، يجب أن تملك هذا فوق»، ووضعت إبهامي على جبهتي «وبحسب ما يظهر حالياً لا يبدو أنه لديك هذا فوق. أنت لديك المظهر، لديك الوجه، أقرّ بهذا. لكن عملك لا يذهلني، وأنا أحتاج إلى أن أذهل. أنت تعرفني. يجب أن أترنح، ولست أترنح أبداً».

نظر إليّ لبرهة، متفكراً، بينما الفتاة تشدّه من ذراعه. وقال أخيراً «لا أعرف بهذا الخصوص. سوف أحلّ الفرقة على أي حال، وليس لما تقوله دخل بقراري هذا».

ثم استدار ومشى مبتعداً. وفي اليوم التالي اختفى مجدداً. انتهت الحفلات. انتهيت وأبي من توضيب أغراضه.

في السرير قبل أن أغفو كنت أتخيل لندن وما الذي سأفعله فيها حين تصبح لي. وفي تخيلاتي كان للندن صوت ما. كان صوت الناس في «هايد بارك» وهم يقرعون على الطبول؛ كان هناك أيضاً، على «الكيبورد»، موسيقى «أشعل ناري» لفرقة «ذي دورز». كان ثمة فتية يرتدون عباءات مخملية ويعيشون حيوات حرة، وآلاف السود، فلا أشعر أنني مكشوف؛ كان ثمة مكتبات فيها مجلات مطبوعة، من دون حروف كبيرة، أو ذلك الإزعاج البورجوازي الذي تشكله النقطة. كان ثمة متاجر تبيع كافة أنواع الأسطوانات؛ وحفلات يأخذك الفتيان والفتيات الذين لا تعرفهم فيها إلى الطابق الأعلى ويضاجعونك؛ وشتى أنواع المخدرات. لم أكن كثير التطلب من الحياة؛ كانت تلك حدود أمنياتي. لكن أهدافي كانت، على الأقل، واضحة. كنت أعرف ماذا أريد. كنت في العشرين. وكنت مستعداً لكل شيء.

الجزء الثاني

في المدينة

الفصل التاسع

كانت الشقة في «وست كنزنغتون» تتكون فقط من ثلاث غرف كبيرة وأنيقة وعالية الأسقف، إلى حدّ أنني غالباً ما كنت أتفرج على أبعادها، كما لو كنت في كاتدرائية مهجورة. لكن الأسقف كانت العنصر الأكثر إثارة للاهتمام في الشقة. كان الحمّام في نهاية الصالون، وفيه نافذة مكسورة يتسّرب منها الهواء البارد من خلالها، ويصفع مؤخرتك مباشرة. كان البيت ملكاً لامرأة بولندية، أمضت طفولتها فيه ثم بدأت بتأجيره للطلاب منذ خمسة عشر عاماً. وحين ماتت اشترته إيڤا على حاله، ومن ضمنه الأثاث. كان ثمة في الغرف قوالب قديمة من الجصّ، وجرس بمقبض معدني لاستدعاء الخدم من القبو، الذي كان يقطن فيه حالياً مدير الطرق في شركة «ثين ليزي»، وهو رجل سيء الحظ مثلما أخبرتني إيڤا، حتى أن الشعر ينبت على كتفيه. كانت الجدران البائسة، التي أصبحت بلا لون، مليئة بمرايا قاتمة متصدعة ولوحات ضخمة متسخة، ثم بدأت الأخيرة تختفي تدريجياً من المنزل، حين لا نكون فيه، من دون أن نجد أي آثار لاقتحام البيت عنوة. والأعجب من كل ذلك كان عدم استياء إيڤا من اختفائها. «هاي، أظن أن لوحة أخرى اختفت يا إيڤا »، أقول لها، فتجيبني «آه أجل، ربحنا مساحة لأشياء آخرى». أخيراً أسرّت لنا بأن تشارلي كان يسرقها ليبيعها، وأنه يجدر بنا ألا نأتي على ذكر هذا الموضوع. «على الأقل لديه دافع»، قالت «ألم يكن جان جينيه لصاً؟».

ضمن الغرف الثلاث الكبيرة كان ثمة جدران فاصلة تكوّن غرفاً أصغر حجماً، والمطبخ، الذي يشتمل على الحمام. كان البيت أشبه بشقق الطلاب، الأرضية وسخة ومدمرة وزهور برية بيضاء تنبت في الموقد الرخامي. المساحات الشاسعة في الغرف كان يشغلها أثاث بني قديم. ولم يكن هناك سرير لي حتى، فصرت أنام على الكنبة في الصالون. وكان تشارلي، الذي لم يكن له أيضاً مكان ينام فيه، ينام أحياناً قربي على الأرض.

حين دخل أبي إلى البيت للمرة الأولى وقف ينظر إليه بقرف. لم تكن إيڤا سمحت له برؤيته قبلاً؛ اشترته بسرعة حين بعنا البيت في «بكنهام»، وكان علينا المغادرة. «آه يا إلهي» قال أبي مشمئزاً، «كيف وصل بنا الحال إلى أن نقيم في مثل هذه المكان البائس؟».

رفض أن يجلس حتى، خشية من أن يقفز عليه عنكبوت من المقعد. اضطرت إيڤا إلى أن تغطي المقعد بأكياس بلاستيكية حتى يصبح صحياً كفاية لمؤخرته. وكانت سعيدة «أستطيع فعلاً أن أفعل شيئاً بهذا»، ظلت تردد، وهي تجول فيه، بينما شحب وجه أبي؛ وهناك وسط الغرفة عانقته وقبلته مرة وأخرى لكي تعيد إليه هدوء أعصابه وإيمانه بها، وخشية من أن يكون استبدّ به الشوق إلى أمي. «ما رأيك؟»، سألني، أنا الذي أشكّل مصدر القلق الثاني في حياته. فأجبته «أحببتها»، وأسعده ذلك، وسأل إيڤا «لكن أستكون مناسبة له؟». فأجابته أجل «سأعتني به»، أضافت مبتسمة.

شرّعت لندن نوافذ عقلي بالكامل. لكن كثرة الاحتمالات في مدينة برّاقة وسريعة ورائعة إلى هذا الحد، كانت أمراً مدوّخاً، من دون أن يعني ذلك بالضرورة حصولك على هذه الاحتمالات. لم يكن لدي فكرة بعد عما سأفعله. وشعرت أنني فاقد الاتجاه وضائع بين الحشود، لأنني لم أكن قد فهمت بعد آلية عمل المدينة، لكنني بدأت أستكشف.

كانت «وست كنزنغتون» نفسها مكونة من صفوف من الأبنية ذات الخمسة طوابق، قسمت إلى حجرات يقيم فيها غالباً تلاميذ أجانب، وجوالون، وفقراء يقطنونها منذ سنوات. كان شارع «بارونز كورت رود» يشكّل حدود المنطقة، وتتوازى معه القطارات المتجهة إلى «تشارينغ كروس»، ثم إلى «إيست إند»، المنطقة التي يتحدر منها العم تيد. وعلى عكس الضواحي، التي لم يعش فيها أي شخص مهم، باستثناء هـ. ج. ويلز، لا تستطيع في «وست كنزنغتون» تفادي رؤية الأشخاص المهمين، غاندي نفسه أقام فيها ذات مرة، وكان ملاك الأراضي المشهور رخمان يملك شقة للشابة ماندي رايس دايفز، في الشارع التالي؛ وكانت كريستين كيلر تقصده لاحتساء الشاي. وكان إرهابيو الجيش الإيرلندي يقيمون في غرف صغيرة ويلتقون في حانات «هامرسميث»، منشدين للجيش الإيرلندي عند الإغلاق. وكان مسرين عاش سابقاً قرب محطة قطارات الأنفاق.

إنها لندن أخيراً، ولم يكن يمتعني شيء مثل التجوال في أملاكي الجديدة طوال اليوم. فقد بدت لندن بالنسبة إلي منزلاً بخمسة آلاف غرفة، كل واحدة منها تختلف عن الأخرى، والتحدي هو أن تكتشف كيفية اتصالها ببعضها، وأن تتمكن من دخولها كلها. باتجاه شارع «هامرسميث» كان النهر وحاناته، المليئة بضجيج أبناء الطبقة الوسطى؛ وكان هناك الحدائق المنعزلة الممتدة على طول نهر «لور مول»، والنزهة الظليلة على طول النهر إلى «بارنز». كان هذا الجزء من وست لندن يمنحني الإحساس بالريف، من دون أي من مساوئ الريف، وحيث لا أبقار ولا مزارعين.

وعلى مقربة كان يقع شارع «كنزنغتون» المترف، حيث تتبضع السيدات الثريات، ثم شارع «إيلز كورت»، حيث ترى رجالاً بوجوه طفولية يتجادلون مع العاهرات ويتشاجرون في الحانات، وترى أيضاً

المتحولين جنسياً ومدمني مخدرات والكثير من المنحرفين والنصابين. كان هناك فنادق صغيرة تفوح منها الروائح المقرفة والمطهرات، ووكالات سفر أسترالية، ومتاجر تفتح طوال الليل يديرها بنغاليون أقزام، وحانات فاخرة يتبادل خارجها مثليو الجنس بشواربهم الكثة الإشارات السرية، وغرباء يهيمون مفلسين وبعيون باحثة. لا أحد ينظر إليك في «كنزنغتون»، أما في «إيرلز كورت» فالجميع يفعل، متسائلاً عما يمكن أن يسلبه منك.

لكن وست كنزنغتون كانت تقع بين المنطقتين، وهي المكان الذي يمكث فيه الناس مؤقتاً قبل الانتقال إلى سواه، أو يبقون فيه لأنهم لم يجدوا مكاناً آخر يذهبون إليه. كانت أهدأ، وفيها القليل من المتاجر العادية، والمطاعم التي فتحت أبوابها بناء على وعد بازدهار اقتصادي آت، ليجد أصحابها أنفسهم بعد بضعة أسابيع واقفين عند أبوابها متسائلين عن الخطأ الذي ارتكبوه، وعيونهم اليائسة تقول لك إن المنطقة لن تنتعش خلال حياتهم. لكن إيڤا تجاهلت هذه العيون: هذا هو المكان الذي حسبت فيه أنها يمكن أن تنجز شيئاً. «هذا المكان سيصير مختلفاً»، تنبأت لنا ونحن جالسين حول مدفأة «الكيروسين»، التي كانت المصدر الوحيد للدفء وقتذاك، والتي كانت إيڤا تنشر عليها ثياب أبي الداخلية لتجف.

كانت تقع في زاوية الشارع حانة «ناشڤيل» الشهيرة بصخبها وشجاراتها ومخدراتها. وكانت تتشكّل واجهتها من عوارض من السنديان والزجاج المقوّس على هيئة «جكبكس» من نوع «ورليتزر». وكل ليلة كانت الحشود الصاخبة تطيح «وست كنزنغتون» في الهواء.

ومثلما توقعت إيڤا، كان موقع الشقة جذاباً لتشارلي، الذي صار يتردد على البيت، وحين عاد ذات مساء ليتناول الطعام وينام قلت له «لنذهب إلى ناشڤيل». فحدجني باستغراب ثم أومأ برأسه موافقاً. بدا

راغباً بالذهاب، لكي يتحرى عن آخر الفرق الموسيقية وماذا يحدث في عالم الموسيقى. لكنه ردّ على الدعوة بتثاقل، وحاول أن يغيّر رأيه قائلاً «ألا تريد الذهاب إلى مكان لأكثر هدوءاً، حيث يمكننا أن نتحادث؟». كان تشارلي يتجنب الأمسيات والحفلات الموسيقية منذ أشهر، خشية من أن يكتشف أن الفرق اللندنية جيدة جداً، كما لو أنه ـ إذا رأى فرقة شابة تتمتع موهبة كبيرة وواعدة ـ فستتحطّم آماله وتطلعاته في ثانية رهيبة من التبصّر وإدراك الذات. أما أنا فكنت أقصد ناشفيل كل ليلة، وأدركت هناك أن المجد الذي حققه تشارلي في ساوث لندن كان أقصى ما يستطيع الوصول إليه. كان فتيان لندن ساحرين، يتأنقون ويمشون كآلهة صغيرة. أما نحن، أبناء الضواحي، فكنا كالآتين من بومباي، ولم نكن لنتمكّن من اللحاق بأولئك الفتيان أبداً.

كما هو متوقع، كان عليّ أن أدفع عن تشارلي، وفعلت ذلك طوعاً لأنني كنت ما زلت أحب رفقته كثيراً، لكن كان معي مال قليل. مع ارتفاع أسعار العقارات في لندن، كان قوام خطة إيڤا الحاذقة أن تعيد تصميم الشقة ديكورياً ثم تبيعها محققة الربح. لكنها كانت لا تزال تنخرط ساعات في جلسات تأملية، منتظرة أن تخاطبها الشقة، لتخبرها عن اللون الجديد الذي تفضله. حين يصل الوحي، سنكون أنا وتيد جاهزين للإطاعة، وسيمكنني عندها جني بعض المال. وحتى ذلك الوقت كنت مفلساً، أما تيد فالتزم منزله مستذكراً مع أمي أيام الحرب العالمية الثانية، محاولاً إقناع جين بالتوقف عن معاقرة الخمرة.

سرعان ما ثمل تشارلي. كنا جالسين إلى البار الجانبي، ولاحظت أن رائحة سيئة تفوح منه. لم يكن يبدّل ملابسه غالباً، وحين يفعل ذلك كان يلبس أي شيء يصادفه، كنزات إيڤا أو صديريات أبي، ودائماً قمصاني التي كان يستعيرها ولا أعود أراها أبداً، إذ حين يذهب تشارلي إلى إحدى الحفلات ويجد شيئاً أفضل يرتديه فوراً، تاركاً قمصاني

هناك. لذلك صرت أخبئها في درج المكتب وأقفل عليها كل ليلة، سوى أنني أضعت مفتاح الدرج الذي يحتوي على كل قمصاني من ماركة «بن شيرمان».

كنت أتطلع قدماً لإخبار تشارلي عن مدى إحساسي بالإحباط والوحدة منذ انتقلنا إلى لندن. لكن قبل أن أتمكن من إطلاق تنهيدة واحدة، سبقني هو. «لدي ميول انتحارية» أعلن بفخامة، كما لو أنه يعلن أنه حامل. قال إنه يدور في فلك اليأس غير مبال بما يحدث له أو لسواه.

كان جالساً بجوار تشارلي لاعب كرة قدم معروف، فسمع ما يقوله، وأخذته الشفقة به، مثلما يفعل الناس عادة، وراح تشارلي يسأله عن الضغوط التي يعاني منها بسبب الشهرة، كما لو كانت أمراً يشغله كل يوم. «ما الذي تفعله؟»، سأله تشارلي «حين لا يدعك الصحافيون وشأنك؟ حين تجدهم خارج نافذتك كل صباح؟». وأجابه اللاعب «الأمر يستحق هذا العناء... أحياناً أهرع إلى الملعب وقضيبي منتصب من شدة الإثارة».

قدّم لتشارلي بعض الكؤوس وتجاهلني. وأردت التخلص منه لكي أتمكن من محادثة تشارلي، لكن تشارلي ظل ملتصقاً به. لحسن الحظ كنت قد تناولت قبلاً بعضاً من عقار «سبيد»، وهو ما يمكنني عادة من مواجهة أي شيء. ومع ذلك شعرت بخيبة أمل. ثم، حين ذكر أحدهم أن الفرقة تتحضر للعزف في القاعة المجاورة، تبدّل حظي. رأيت تشارلي فجأة يترنح إلى الأمام ويتقيأ في حضن الرجل، قبل أن يقع إلى الخلف عن كرسيه، مما أغضب اللاعب، ففي نهاية الأمر كانت بركة من الطعام الصيني من وجبة تشارلي الأخيرة في حضنه، وكان يخطط لاصطحاب امرأة إلى «ترامب» بعد قليل، فقفز وركل تشارلي بتلك القدمين الشهيرتين مرتين على أذنه، حتى قام الحراس بإبعاده عنه.

تمكنت من إبعاد تشارلي إلى البار الرئيسي حيث أسندته إلى جدار. كان نصف واع ويحاول وقف نفسه عن البكاء. كان مدركاً إلى أي درك قد هوى.

«هوّن على نفسك»، قلت له «تجنّب الناس هذه الليلة».

«أشعر أنني أفضل حالاً، حسناً؟».

«جيد».

استرخيت ورحت أنظر حولي في الغرفة المعتمة، التي تنتهي بمنصة صغيرة مع عدة طبول ومذياع. ربما كنت مجرد شخصي ريفي أو ما شابه، لكنني بدأت أكتشف أنني أقف بين أغرب جمهور أراه حتى الآن في «ناشفيل». كان يقف في الخلف طوال الشعور الاعتياديين وذوو الرؤوس المصبوغة، ببناطيل مخملية، أو جينزات وسخة، وأحذية بالية، ومعاطف جلد الغنم، متناقشين حول أجرة الحافلات إلى «فيز»، وفرقة «باركلي جايمس هارفست»، ومسائل المال. كان هؤلاء الزبائن الاعتياديين، السكان المخدرين الذين يقيمون في البيوت المحتلة والبدرومات.

لكن في مقدم القاعة، قرب المنصة، كان هناك نحو ثلاثين مراهقاً يرتدون أسمالاً سوداء، ملصقين قطعها الممزقة بالدبابيس. كانت شعورهم جميعاً سوداء، لكن بعضها كان بالغ القصر، وبعضها الآخر طويلاً تمّ تجميده على طريقة «سبايكي»، فينبثق من رؤوسهم مثل كومة إبر، يعجز إعصار عن تحريكها. أما الفتيات فكن يلبسن الثياب المطاطية والجلدية والتنانير القصيرة والجوارب السوداء المثقّبة، مغرقات وجوههن بالبودرة البيضاء وشفاههن تلتمع بأحمر الشفاه. كانوا مصدر إزعاج للآخرين، وكان من بينهم ثلاثة متحولين جنسياً من جنوب أمريكا يلبسون الفساتين ويضعون أحمر الشفاه، وكان أحدهم يضع يعلق حول رقبته سدادة قطنية مستعملة. وقف تشارلي متجمداً هناك، غارقاً في رثاء

النفس، بينما نتأمل هذا الجنس البشري الغريب الذي يلبس أشياء لم نكن لنتخيل إمكانية وجودها. بدأت أفهم ما تعنيه لندن وأي صنف من البشر الغاضبين سيكون علينا التعامل معه. أمدّنا هذا المشهد بقدر من الفهم النسبي للأمور.

«ما هذا الخراء؟»، قال تشارلي. كان منعزلاً، لكنه إلى حدّ ما كان متلهفاً أيضاً؛ كان ثمة رهبة في صوته.

«اهدأ يا تشارلي»، قلت، وأنا لا أزال أتأمل الجمهور.

«أهدأ؟ إنني مدمّر. لقد ركلني لاعب كرة قدم في خصيتي».

«إنه لاعب كرة قدم مشهور».

«وانظر إلى المنصة.. أي حثالة هذه؟ لماذا أحضرتني إلى هنا؟».

«أتريد الرحيل إذاً؟».

«أجل، كل هذا يسقمني».

«حسناً»، قلت «استند إلى كتفي وسنخرجك من هنا. لا يعجبني المشهد أيضاً، إنه غريب جداً».

«أجل، فائق الغرابة».

«لا يمكن احتماله».

«أجل».

لكن قبل أن نتحرك بدأت الفرقة، المكونة من فتيان يلبسون ثياباً شبيهة بثياب الجمهور، بالعزف. وسرت حماسة فورية في الحاضرين، فجعلوا يقفزون في الهواء ويرتمون على الأرض، صارخين وباصقين على الفرقة حتى بدأ اللعاب يسيل من المغني النحيل. بدا متوقعاً هذا وبالكاد ردّ على إساءة الجمهور هذه، باصقاً عليهم بدوره، متزحلطاً على مؤخرته، وشارباً الخمرة، وماشياً بتراخ على المنصة كما لو كان في غرفة الجلوس في منزله. كان هدفه ألا يكون كاريزماتياً؛ كان يريد

أن يكون على سجيته أياً تكن الطريقة التي يفعل بها بذلك، كان يريد أن يكون صورة مضادة للنجم، ولم أستطع نزع عيني عنه. ولابد من أن الأمر كان أسوأ بالنسبة إلى تشارلي.

«إنه مغفل»، قال تشارلي.

«أجل».

«وأراهن انهم لا يجيدون العزف أيضاً. أنظر إلى هذه الآلات. من أين أحضروها، من سوق الأحد؟».

«صحيح»، قلت.

«هذا غير احترافي».

حين بدأت الفرقة الفوضوية أخيراً بالعزف، تدفقت الموسيقى متفجّرة، وأكثر عدائية من أي موسيقى سمعتها منذ بدايات فرقة «هو». لم تكن موسيقاهم سلاماً وحباً؛ لم يكن من عزف منفرد على الطبول، ولا تناغم موسيقي، ولا أي شيء «تقدمي» أو «تجريبي»، بل كان عزفاً فوضوياً مليئاً بالكراهية. لم تكن أي مقطوعة أطول من ثلاث دقائق، وبعد كل واحدة منها كان الفتى برتقالي الشعر يشتمنا داعياً علينا بالموت، وشعرت أنه يصيح بي وبتشارلي تحديداً، الذي بدأت أشعر بتذبذبات توتره. عرفت أن لندن ستقتلنا حين سمعته يصرخ بنا: «انقلعوا، أيها الهبيز المقرفين العجائز! أيها المنايك الملاعين! يا رائحة الضراط! انقلعوا إلى الجحيم».

لم أعاود النظر إلى تشارلي، حتى النهاية. وحين عادت الإنارة رأيته واقفاً بشكل مستقيم ومتحفزاً، وقد جفّ القيء على خديه.

«فلنذهب»، قلت له.

كنا ذاهلين ولم نرد أن نتكلم خشية من العودة إلى ذاتينا التافهتين

مجدداً. همّ الفتيان الجامحون بالخروج، وشققت وتشارلي طريقنا عبرهم. ثم توقف فجأة.

«ما الأمر يا تشارلي؟».

«يجب أن أذهب إلى الكواليس وأتحدث مع أولئك الفتيان».

احتججت «ولماذا قد يرغبون بالتحدث إليك؟».

حسبته سيضربني؛ لكنه تقبل كلامي بشكل جيد.

«أجل، ليس من سبب يجعلهم راغبين بذلك»، قال «لو رأيت نفسي داخلاً إلى غرفة تبديل الملابس لطردت نفسي».

جلنا في «وست كنزنغتون» وتناولنا السجق المتبّل والبطاطس المخللة والمملحة. كان الناس متجمعين في مجموعات خارج محل البرغر، بينما آخرون يشترون السجائر من المتجر الهندي في الزاوية، أو ينتظرون عند موقف الحافلة. في الحانات بدأ الندل يقلبون الكراسي فوق الطاولات صارخين بمن تبقى من زبائن «عجلوا الآن رجاء، شكراً لكم». وخارج الحانة كان بشر يتجادلون حول وجهتهم التالية. فتنتني المدينة ليلاً لمن فيها من سكرانين ومتشردين، ومنبوذين وموزعي مخدرات باحثين عن شجار. وكانت سيارات الشرطة تجوب الشوارع، وأحياناً يقفز الشرطيون في الشارع فجأة ويشدّون الفتيان المحطمين من شعورهم ويضربون رؤوسهم بالجدران، لأنهم كانوا يبولون على أبواب المتاجر.

ثم تحمّس تشارلي «وجدتها. . وجدتها» قال ونحن نمشي. «وجدتها حقاً»، جعل يترنّم جزلاً. «لقد انتهت الستينات الليلة. أولئك الفتية الذين رأيناهم قضوا على كل أمل. إنهم المستقبل اللعين».

«أجل، ربما، لكننا لا نستطيع اللحاق بهم»، قلت بشكل اعتيادي.

«لمَ لا؟».

«من الواضح أننا لا نستطيع أن نرتدي الثياب المطاطية ونضع الدبابيس وما إلى ذلك. كيف سنبدو؟ هذا أكيد يا تشارلي».

«لم لا يا كريم؟ لم لا يا رجل؟».

«ليس نحن».

«لكن علينا أن نتغير. ما هذا الذي تقوله؟ أليس علينا أن نواكب التطورات؟ فتيان الضواحي من أمثالنا يعرفون دائماً كيف يتأقلمون؟».

«سيكون ذلك مفتعلاً»، أجبته «نحن لسنا مثلهم. لا نكره بالطريقة التي يكرهون فيها. ليس لدينا سبب لذلك. لسنا من أميركا.. ولم نخض التجربة التي خاضوها».

حدجني بواحدة من أكثر نظراته حدة.

«لن تصل إلى أي مكان يا كريم. لست تفعل شيئاً في حياتك لأنك كالعادة تمضي في الاتجاه الخطأ. لكن لا تحاول جرّي معك. لا أحتاج إلى تشجيعك. لا تحسب أنه سينتهي بي الأمر مثلك».

«مثلي؟»، بالكاد تمكنت من النطق. «من أنا لتكرهني إلى هذا الحدّ؟»، تمكنت من القول أخيراً.

لكن عينا تشارلي كانتا على الرصيف المقابل وليس عليّ، حيث أربعة فتية ممن كانوا في «ناشفيل»، فتاتان وفتيان، كانوا يدخلون إلى سيارة، وهم يشتمون المارة ويرشونهم ببنادق الماء. ثم فوجئت بتشارلي يعدو بين السيارات باتجاههم. اختفى لبرهة وراء حافلة، وتساءلت في سري ما إذا كان قد أغمي عليه. وحين ظهر ثانية كان يخلع قميصه، الذي كان واحداً من قمصاني. وحسبته في البداية يلوح به للناس، لكنه كوّره بعد ذلك وقذفه باتجاه سيارة شرطة. وبعد ثوان قفز بصدره العاري إلى سيارة الفتية وجلس على حضن أحدهم في المقعد الأمامي.

وانطلقت السيارة خارجة من «نورث إند رود»، ولم يكن قد أغلق الباب بعد. انطلق تشارلي إلى مغامرة جديدة. وأنا عدت مشياً إلى البيت.

بعد بضعة أيام قامت إيڤا بإعلان: «كريم»، قالت «لنعمل معاً من جديد. لقد آن الأوان. اتصل بالعم تيد».

«عظيم»، أجبت «أخيراً».

لكنها كانت تريد القيام بأمر أخير قبل الشروع بالعمل. كانت تريد إقامة حفل وداعي للشقة. وكان لديها نظرية حول الحفلات قالت إنها تريد أن تجربها، وهي أن تدعو الأشخاص الذين تظن أنهم لا يحبون بعضهم بعضاً، وتتفرج عليهم وهم يتأقلمون مع بعضهم. ولسبب ما لم أصدق ذريعتها هذه؛ لكن أياً كانت نواياها، وكان لديها نوايا معينة، فقد أمضت أياماً وهي تعدّ لائحة بالمدعوين، حتى خرجت بورقة مليئة بالأسماء كانت تحملها طوال الوقت. وكانت تتصرف بسرية حول الأمر كله وأجرت مكالمة هاتفية مع أحدهم، وبالتأكيد لم تطلعني أو تطلع أبي على شيء مما تحضر له.

لكنني عرفت أن شادويل له صلة ما بالأمر. كانت تستعمل معارفه. وتتواطأ معه. وتلاطفه، وتستغله، وتطلب منه الخدمات. وأزعجني ذلك، لكن أبي لم يكن قلقاً. كان يستلطف شادويل ولم يشعر بالتهديد منه. كان يرى أنه من المسلّمات أن يغرم الرجال بإيڤا.

لكن كان الأمر يؤثر بأبي الذي أراد أن يدعو مجموعة التأمل الخاصة به إلى الحفلة، لكن إيڤا ألحت على ألا يدعو أكثر من اثنين منهم. لم ترد أن يظن المدعوين في مجموعتها المنتظرة أنه تم خلطهم مع مجموعة من صانعي السلال من «برروملي». وفي ليلة الحفلة وصل شوغيام جونز وفروتبول، قبل ساعة، حين كانت إيڤا لا تزال تحلق شعر ساقيها في حمام المطبخ. وغفرت لهما مجيئهما المبكر بما أنهما كانا يدفعان المال، وبالتالي ثمن عشائها، لقاء أفكار أبي، لكن حين دخلا

إلى غرفة النوم لكي يصليا، سمعتها تقول لأبي، وهي ترتدي بلوزتها الحرير الصفراء من أجل أمسيتها العظيمة، «ليس ضرورياً أن يتضمن المستقبل الكثير من الماضي». لاحقاً، حين كانت الحفلة على وشك البدء، وكانت إيڤا تناقش أصل كلمة «بوهيمية» مع أبي، حملت فروتبات دفتر ملحوظات وسألت ما إذا كان يمكنها تدوين رأي أبي. وأومأ بوذا الضواحي برأسه بشموخ، بينما بدت إيڤا كما لو أنها تريد أن تقص رموش فروتبات بالمقص.

مضت أربعون دقيقة، بعد بدأ الحفلة المنتظرة فعلياً، حين أدركتُ وأبي أننا لا نعرف أحداً من المدعوين. كان شادويل يعرف الجميع. ووقف عند الباب، مرحباً بالضيوف، ومبتسماً لهم بتكلف ومقهقهاً وسائلاً إياهم عن أحوالهم. كان يتصرف كشاذ جنسياً بالكامل أيضاً، لكن حتى هذا كان سلوكاً متعمداً، حيلة، نوعاً من أنواع تقديم الذات. وكان، كالعادة، مثالاً للصحة، لابساً أسمالاً أسود وحذاء أسود ويرتعش بجنون. كان وجهه أبيض وجلده منقراً وأسنانه فاسدة.

مذ عشت في الشقة وشادويل يأتي لزيارة إيڤا على الأقل مرة في الأسبوع، خلال النهار، حين يكون أبي في المكتب. ثم يذهبان في نزهات طويلة، أو إلى السينما في مؤسسة الفن المعاصر، لكي يشاهدا أفلام سكورسيزي أو معارض فنية للحفاضات الوسخة. لم تبذل إيڤا أي مجهود لكي تقرّبنا من بعضنا، وشعرت في الواقع أنها أنها لا تريدنا أن نتواصل. وكلما رأيتهما معاً كانا يبدوان متوترين، كما لو أنهما خاضا تواً شجاراً أو تبادلا الكثير من الأسرار.

الآن مع وصول ضيوف الحفلة بثيابهم المتألقة، بدأت أدرك أن إيڤا لا تستعمل هذه الأمسية للاحتفال، بل لإطلاق نفسها في لندن. فقد دعت كل شخص يعملَ في المسرح والسينما التقته خلال السنوات القليلة الفائتة، ممن لم تلتق معظمهم. وكان كثر من معارف شادويل،

أشخاص التقاهم بدوره مرة أو اثنتين. فامتلأت الشقة بممثلين من الدرجة الثالثة، ومساعدي مخرجين سينمائيين، وكتاب ثانويين، ومنتجين بدوام جزئي، وجلبوا معهم أصدقائهم، إذا ما كان لديهم أصدقاء. بينما أمي العزيزة الجديدة (التي أحببتها) فراحت تتنقل في الغرفة بكل تألق معرفة ديريك الذي أخرج تواً مسرحية «إيكوس» في «كونتراكت ثياتر»، إلى برايان وهو صحافي حر متخصص في الأفلام، أو إلى كارين وهي سكرتيرة في وكالة أدبية، إلى روبرت، وهو مصمم؛ وخلال حديثها عن ألبوم بوب ديلان الجديد وآخر إصدارات استوديوات «ريفرسايد»، رأيت أنها تريد أن تمحو بصمة الضواحي تلك عن جلدها؛ لم تكن تدرك أنها تسري في الدم وليست على الجلد فقط، وأنه لا شيء أكثر تعبيراً عن أهل الضواحي، سوى أهل الضواحي وهم يحاولون إنكار ذواتهم.

كانت بمثابة إغاثة لي حين رأيت أخيراً شخصاً أعرفه. كانت جميلة التي لمحتها عبر النافذة تترجل من سيارة أجرة، وبصحبتها امرأة يابانية، وشانغيز. سررت برؤية وجه صديقتي السعيد ثانية، وهي تنظر إلى المبنى القديم الذي تقع فيه شقتنا. وحين تلاقت عيناي بعيني شانغيز أدركت كم أنني أودّ معانقته بشدة كفيلة بعصر الدهن في جسده. غير أنني لم أكن رأيته منذ شاهدني عارياً بجوار زوجته الحبيبة، المرأة التي لطالما وصفتها له بأنها بمثابة «أخت» لي.

كنت أتحدث من وقت لآخر إلى جميلة عبر الهاتف، بالطبع، وأخبرتني أن شانغيز، الصلب، الثابت، الذي لا يهتز، جن جنونه بعد مشهد العري ذاك. فاتهمها بالزنى، وسفاح القربى، والخيانة والعهر والخداع والسحاقية، وكره الزوج، والبرود الجنسي، والكذب والحقد، إلى جانب الشتائم العادية الأخرى.

ولم يكن غضب جميلة بأقل، وهي تشرح له لمن ينتمي جسدها

اللعين. وعلى أي حال، لم يكن الأمر يخصه: أليس يمارس الجنس بوتيرة دائمة؟ يمكنه أن يحشو نفاقه في مؤخرته السمينة! شانغيز وهو في صميمه مسلم تقليدي، شرح لها تعاليم الإسلام حول هذا الموضوع وعندها، حين لم تعد الكلمات كافية لإقناعها، حاول أن يضربها. لكن جميلة لم تكن من النوع الذي يمكن ضربه. لكمت شانغيز على فكه مقفلة فمه فوراً، فجرجر نفسه إلى سريره والتزم الصمت طوال الليل.

وها هو الآن يصافحني ويعانقني. وأعترف أنني كنت متوجساً بعض الشيء من احتمال أن يستل خنجراً ويقتلني.

«كيف حالك يا شانغيز؟».

«أبدو جيداً، أبدو جيداً».

«أحقاً؟».

وأجاب بلا تردد «دعنا من النفاق. كيف يمكن أن أسامحك بعد أن ضاجعت زوجتي؟ هل هذا أمر تفعله بصديق؟ هه؟».

كنت مستعداً لمواجهته.

«إنني أعرف جايمي منذ الطفولة، يا يار. وهناك تدبير يرجع إلى زمن بعيد، وهو أنها تخصّني، إذا ما كانت تخص أحداً أساساً، ولم تكن تخصّ أحداً يوماً ولن تكون، أنت تعرف ذلك. هي لها شخصيتها المستقلة».

ارتعش وجهه الأسود وهو يهز بجدية رأسه المجروح ويجلس.

«لقد خدعتني. طعنتني في الصميم. ولم أستطع الاحتمال. كان الأمر يفوق الاحتمال، لقد طعنتني بقوة، في الصميم يا كريم».

ما الذي يمكنك فعله حين يعترف أصدقاء لك بأنك سببت لهم مثل هذه الأذية، من دون رغبة بالانتقام أو توجيه كلام لاذع؟ لم تكن نيتي أبداً أن أؤذيه في الصميم.

«كيف أمورك على أي حال؟»، سألته، مبدلاً الموضوع. جلست قربه وفتح كل واحد منا بيرة «هاينكن». وكانت ملامحه جدية وتأملية.

«عليّ أن أكون واقعياً حيال التغييرات التي تحدث. إنها غير اعتيادية بالنسبة إلي كرجل هندي، تلك الأمور المتعلقة بزوجتي. إنها تجعلني أقوم بالتسوق والغسيل وتنظيف المنزل. وقد تصادقت مع شينكو».

«شينكو؟».

وأشار إلى المرأة اليابانية التي وصلت معه. نظرت إليها؛ وعرفتها فعلاً. إنها صديقته العاهرة، التي مارس معها وضعيات هارولد روبنز الجنسية. أذهلني ذلك وشلّ لساني، لكنني ضحكت ضحكة خفيفة، إذ ها هما، زوجة شانغيز وعاهرته معاً، تناقشان الرقص الحديث مع فروتبات.

كنت منذهلاً. «شينكو صديقة جميلة إذاً؟».

«فقط مؤخراً، أيها الفُرج. قالت جميلة بأنه ليس لديها صديقات من النساء، واتصلت بشينكو في منزلها. أنت الذي أخبرتها عن شينكو في نهاية الأمر، وبلا أي ضرورة، شكراً جزيلاً لك. سأفعل بك الشيء نفسه يوماً ما. كان الأمر في غاية الإحراج في البداية، أقول لك، حين جلست تلك الفتاتان أمام ناظري».

«وما الذي فعلته؟».

«لا شيء! ما الذي يسعني فعله؟ أصبحتا صديقتين فوراً، وراحتا تناقشان كل المسائل الحميمة. القضيب هنا، والفرج هناك، الرجل في الأعلى، المرأة هنا، وهناك وفي كل مكان. كان عليّ فقط أن أحتمل كل الإذلال الذي انهمر على رأسي في هذا البلد العظيم. كان الأمر صعباً أيضاً، بعد ان جن جنون أنور بالكامل».

«ما الذي تتحدث عنه يا شانغيز؟ لا علم لي بهذا كله».

تراجع إلى الخلف، وحدجني ببرود، وهزّ كتفيه بلامبالاة.

«لكن ما الذي تعرف عنه؟».

«ماذا؟».

«أنت لا تذهب إلى الدكان يا يار، تماماً مثلما تتجاهلني الآن».

«أفهم».

«وهذا يحزنك».

أومأت برأسي. كان صحيحاً أنني لم أزر جيتا أو أنور منذ وقت طويل، منذ الانتقال وإحباطي وكل شيء، ورغبتي بالبدء بحياة جديدة في لندن والتعرف إلى المدينة.

«لا تتخلّ عن قومك يا كريم».

قبل أن تتسنى لي فرصة التخلي عن قومي، ومعرفة كيف جن أنور بالضبط، تقدمت إيفا مني.

«عذراً»، قالت لشانغيز، «تعال، خاطبتني.

«إنني مرتاح هنا»، أجبتها.

فجذبتني حتى وقفت «بالله عليك يا كريم ألا تريد أن تفعل شيئاً لنفسك؟». كانت عيناها تتوهجان حماسة، ولم تتوقفا عن الحملقة في أرجاء الغرفة. «عزيزي كريم، إنها لحظتك المهمة في الحياة، هناك شخص هنا يتوق للقائك، والتعرف إليك جيداً، شخص سيساعدك».

ساقتني بين حشد الضيوف. «بالمناسبة»، همست لي «لا تقل شيئاً متعجرفاً أو مغروراً».

استفزني جرها لي هكذا بعيداً من شانغيز. «لِمَ لا؟»، سألتها.

«دعه هو يتكلم»، قالت.

ذكرت لي شخصاً يمكنه مساعدتي، لكنني لم أر سوى شادويل. «آه

لا»، قلت، وحاولت الانسحاب. لكنها استمرّت بدفعي إلى الأمام مثل أم مع طفلها المزعج. «هيا»، قالت، «هذه فرصتك. تحدث إليه عن المسرح».

لم يكن شادويل يحتاج إلى الكثير من التحفيز. كان سهلاً أن أرى أنه ذكي ومثقف، لكنه كان مملاً أيضاً. ومثل الكثير من الأشخاص المملين كانت أفكاره مصنّفة ومفهرسة. حين أسأله سؤالاً يجيب «الجواب على هذا هو... في الواقع الأجوبة المتعددة على هذا هي... النقطة الأولى، أ...». ثم يتبع النقطة ألف النقاط باء وتاء، وبيد فاء، وبرجل جيم، حتى تجد الألفباء كلها قد انفرشت أمامك، وكل حرف تحول صحراء بحد ذاته. وراح يكلمني عن المسرح والكتاب الذين يحبهم: أردن، بوند، أورتون، أوزبورن، ويسكر، ولابد أن كل واحد من هؤلاء شعر بالاختناق لمجرد مروره العابر في فمه. ظللت أحاول العودة إلى شانغيز الحزين، الذي كان يتكئ بكرب على يده السليمة بينما يملأ الضيوف الهواء حوله بضجيجهم المثقف. ورأيت كيف ينظر بحنان إلى زوجته، ثم إلى وركي العاهرة المحزّزين، وهما ترقصان على أغنية لمارثا ريفز مع فرقة «ڤانديلاس». ثم نهض بعفوية وبدأ يراقصهما، رافعاً بتثاقل كل قدم عن الأرض على حدة مثل فيل يؤدي عرضاً، ومادّاً مرفقيه كما لو أنه طلب منه، في صف تمثيل، أن يلعب دور طائر فلامنغو. ورغبت بالرقص معه احتفالاً باستئناف صداقتنا. فزحفت مبتعداً عن شادويل. لكنني التقطت عيني إيڤا تحملقان بي.

«أرى أنك تريد الذهاب»، قال شادويل، «إلى أشخاص أكثر جاذبية. لكن أخبرتني إيڤا أنك مهتم بالتمثيل».

«أجل منذ وقت طويل، على ما أظن».

«حسناً، هل أنت مهتم أم لا؟ هل أهتم بك أم لا؟».

«أجل، إذا كنت مهتماً».

«جيد، أنا مهتم. أريدك أن تفعل شيئاً لي. لقد أعطوني مسرحاً لموسم. هلا جئت وقدمت تجربة أداء؟».

«أجل»، قلت «أجل، أجل سأفعل».

بعد مغادرة الضيوف، في الثالثة فجراً، بينما جلسنا بين الركام وشويغام وفروتبات يضعان القمامة في أكياس بلاستيكية، شعرت بالرغبة بمناقشة موضوع شادويل مع إيفا. وقلت لها إنه مملّ كالجحيم. وكانت إيفا مستفزة أصلاً، «مدام فيردورا»(*) الوست لندنية هذه، شعرت أنني وأبي لم نقدر نوعية ضيوفها. «بذكاء من خضت هذه السهرة يا كريم؟ كلاكما تصرفتما كما لو أننا لا نزال في الضواحي. وإنه لؤم منك يا كريم، أن تلوم شادويل لأنه مضجر. هذا حظه السيئ وليس خطأه، مثل أن تكون ولدت بأنف يشبه اللفت».

«لقد بدّلت نبرتها»، قلت لأبي. لكنه لم يكن يصغي. كان يرمق إيفا طوال الوقت، ثم رغب بالمزاح، فراح يربّت على الوسادة التي بجواره قائلاً: «تعالي إلى هنا، تعالي إلى هنا، يا إيفا الصغيرة، ودعيني أخبرك سراً». لا زالا يلعبان ألعاباً مضجرة يصعب تفاديها، مثل وضع المني على أنف كل منهما ومناداة بعضيهما بأسماء مثل «مركين» و«مافن»، بحق الله. شوغيام التفت إلى أبي «ما رأيك بمسألة الضجر هذه؟».

سلّك أبي حلقه وقال إن الأشخاص المملين هم مملون عمداً. هذا قرار يتعلق بالشخصية، ولا يمكن أن نعفيهم من مسؤوليتهم الشخصية بالقول إنهم مثل اللفت. المملون يريدون أن يخدروا حواسك بحيث لا تعود حساساً تجاههم».

(*) مدام فيردورا: إحدى الشخصيات في الجزء الأخير من رواية بروست «البحث عن الزمن المفقود»، وهي سيدة بورجوازية طموحة، تدير صالوناً أدبياً وتعتبر نفسها ذواقة ممتازة للأدب والفن.

«على أي حال»، همست إيڤا، وهي تجلس قرب أبي وتهدهد رأسه الناعس ناظرة إلي. «شادويل لديه مسرح حقيقي وهو معجب بك لسبب ما. دعنا نرى ما إذا كنا نستطيع الحصول لك على عمل في المسرح، حسناً؟ أليس هذا ما ترغب به؟».

لم أدر ما أقول. كانت هذه فرصة، لكنني كنت مرتعباً من اقتناصها، مرتعباً من فضح نفسي والإخفاق. على عكس تشارلي، لم تكن إرادتي أقوى من توجساتي.

«اتخذ قرارك»، قالت «وسأساعدك يا قشطة، بأي طريقة تشاء».

خلال الأسابيع القليلة التالية، تحت إدارة إيڤا ـ وكانت تحبّ ذلك ـ حضّرت مقطعاً من مسرحية سام شيبارد «ماد دوغ بلوز» لتجربة الأداء التي سأقوم بها أمام شادويل. لم أعمل بمثل تلك الجدية على أي شيء آخر في حياتي؛ كما لم أرغب، ما إن بدأت، بشيء بهذه القوة. يبدأ النص: «كنت على حافلة غرايهاوند خارج كارلسباد متجهاً إلى لوفينغ، نيو مكسيكو. عدت لأرى أبي، بعد عشر سنوات، وكنت تام الأناقة، ببذلة مزدوجة وحذاء لمّاع. نادى السائق: لاڤينغ، وترجلت من الحافلة...».

كنت أعرف ما الذي كنت أفعله؛ حضرت نفسي جيداً؛ لكن هذا لم يعن أنه حين جاء يوم التجربة لم أكن منهاراً عصبياً. «هل تعرف ماد دوغ بلوز؟»، سألت شادويل، متأكداً من أنه لم يسمع بها.

جلس في الصف الأمامي متفرجاً علي، واضعاً دفتر ملحوظات على ركبتيه. اومأ برأسه «شيبارد هو كاتبي المفضّل. ليس هناك الكثير من الفتيان الذين لا يودون أن يشبهونه، لأنه أ. جذاب، ب. موهوب، ج. قارع طبول، ود. جامح وثوري».

«صحيح».

«الآن قم بأداء ماد دوغ بلوز، رجاء، وبشكل رائع».

كان المسرح، وهو كناية عن بناء خشبي يشبه كوخاً كبيراً، يقع في ضواحي نورث لندن. وكان بهوه صغيراً لكن منصته كبيرة، وأضاءته جيدة ويشتمل على مائتي مقعد. وعرضت فيه مسرحيات من مثل «فرنسي بلا دموع»، وآخر أعمال آيكبورن، أو فراين. كان بصورة أساسية مسرحاً للهواة، لكنهم كانوا يقدمون فيه ثلاث مسرحيات محترفة كل سنة، معظمها في الإطار المدرسي على غرار «الصيد الملكي للشمس».

حين انتهيت أخذ شادويل يصفق بأطراف أصابعه، كما لو أنه يخشى أن كل من يديه ستعدي الأخرى بالمرض. صعد إلى المنصة. «شكراً لك يا كريم».

«أعجبك؟»، سألته برهبة.

«كثيراً، إلى حدّ أنني أريدك أن تؤديه مجدداً».

«ماذا؟ مجدداً؟ لكنني فهمت منك أن هذه أفضل أداء لي، سيد شادويل».

تجاهلني. كانت لديه فكرة. «هذه المرة شيئان إضافيان سيحدثان: أ. سيكون هناك نحلة تطن حولك. وب. النحلة تريد أن تلسعك. وسيكون دافعك ـ وجميع الممثلين يحبون أن يكون لديهم دافع ـ إبعاد النحلة عنك».

«لست أكيداً من أن سام شيبارد ستعجبه مسألة النحلة هذه»، قلت بثقة. «لن تعجبه إطلاقاً».

طاف بعينيه في أرجاء المسرح المهجور «لكنه ليس هنا، إلا إذا كنتُ قد عميت».

جلس ثانية، منتظراً أن أبدأ. شعرت، وأنا ألوّح بيدي لإبعاد النحلة الوهمية، أنني أحمق حقيقي، لكنني كنت راغباً بالحصول على الدور بأي ثمن. لم أكن قادراً على مواجهة العودة إلى تلك الشقة في «وست

كنزنغتون» من دون أكون قد عرفت ما الذي سأفعله بحياتي ونلت احترام الجميع ومعاملتهم اللطيفة.

حين انتهيت من شيبارد والنحلة، أحاطني شادويل بذراعه «أحسنت! تستحق فنجان قهوة. هيا بنا».

أخذني إلى مقهى سائقي الشاحنات في الجوار. شعرت بالغبطة، خصوصاً حين قال لي «إنني أبحث عن ممثل يشبهك تماماً».

راحت أجراس الفرح تقرع في رأسي. جلسنا نحتسي القهوة. شادويل أسند مرفقه على الطاولة، واضعاً خده على راحته، وجعل يحملق بي.

«أحقاً؟»، سألته بحماسة. «ممثل مثلي بأي معنى؟».

«ممثل يملأ الدور».

«أي دور؟».

نظر إلي بنفاد صبر «الدور الذي في الكتاب».

يمكنني أن أكون شديد المباشرة في بعض الأحيان: «أي كتاب؟».

«الكتاب الذي طلبت إليك أن تقرأه يا كريم».

«لكنك لم تطلب مني ذلك».

«طلبت من إيفا أن تطلب منك».

«لكن إيفا لم تقل لي شيئاً، لو قالت لي لكنت تذكرت».

«آه يا إلهي، سأصاب بالجنون يا كريم. لماذا تزعم هذه المرأة الاهتمام إذاً؟». ووضع رأسه بين يديه.

«لا تسألني»، قلت له «على الأقل أخبرني ما هو الكتاب. ربما يمكنني أن أشتريه اليوم».

«كفّ عن أن تكون عقلانياً إلى هذا الحد»، قال «إنه كتاب الغابة، لكبلنغ، تعرفه بالتأكيد».

«أجل، لقد شاهدت الفيلم».

«بالتأكيد».

يمكنه أن يكون وغداً، شادويل هذا. لكنني كنت مصمماً على الحفاظ على هدوء أعصابي مهما قال. ثم تبدّل موقفه كلياً. بدلاً من التكلم عن العمل قال لي بضع كلمات بالبنجابية أو الأوردو، وبدا كأنه يريد الخوض في غمار نقاش كبير حول راي أو طاغور أو شيء من هذا القبيل. للحقيقة، كان حين يتكلم يبدو كأنه يغرغر.

«حسناً؟»، قال، وأضاف بضع كلمات أخرى «ألا تفهمها؟».

«لا، ليس حقاً».

ما الذي يمكنني قوله؟ لم أستطع الفوز. عرفت أنه سيكرهني لهذا.

«لكنها لغتك الأم!».

«أجل، حسناً، أنا أفهم القليل منها. الكلمات الفاحشة. أعرف حين يشتمني أحدهم: حثار جمل».

«بالطبع. لكن والدك يتحدث لغته، أليس كذلك؟ يجدر به ذلك».

بالطبع، شعرت أنه عليّ أن أجيبه إن أبي يتحدث من فمه، وليس مثلك، أيها الحيوان الخرائي.

«أجل، لكن ليس معي»، قلت. «سيكون هذا غبياً، لأنني لن أفهم شيئاً. الأمور صعبة كفاية مثلما هي».

أصرّ شادويل. لم يبد أنه هناك أمل بأن يغير هذا الموضوع.

«لم تسافر إلى هناك على ما أظن».

«إلى أين؟».

لماذا كان عدائياً إلى هذا الحدّ حول الموضوع؟

«تعرف أين، بومباي، دلهي، مادراس، بانغلور، حيدر أباد، تريفندرام، جوا، البنجاب. ألم تشتمّ تربة تلك البلاد؟».

«لم أشتممها، أبداً».

«عليك أن تذهب»، قال كما لو أن أحداً لم يذهب إلى هناك سواه.

«سأفعل، حسناً؟».

«اجل احمل جعبة واذهب لرؤية الهند، حتى لو كان هذا آخر ما تفعله في حياتك».

«حسناً، سيد شادويل».

كان يعيش في عالمه الخاص حقاً. هزّ رأسه عندها وأصدر من حنجرته سلسلة أصوات قصيرة شبيهة بالنباح، لابدّ من أنها صوت ضحكه: «ها، ها، ها، ها، ها!». ثم قال «أي نسل أنتجت مائتا سنة من الامبريالية.. أي ذهول سيعتري الرواد الأوائل من إيست إنديا كومباني(*) لو رأوك. أنا أكيد أن الجميع يراك ويصيح: فتى هندي، يا للإكزوتية، يا للإثارة. أي قصص عن العمات والفيلة سنسمعها منه الآن. بينما أنت من أوربينغتان»(**).

«أجل».

«آه يا إلهي، يا له من عالم غريب. المهاجر هو الإنسان العادي في القرن العشرين. أليس كذلك؟».

«سيد شادويل...».

(*) شركة شرق الهند: شركة إنكليزية أنشئت مطلع القرن السابع عشر، بهدف تطوير الأنشطة التجارية مع المستوطنات الإنكليزية الجديدة في الهند وجنوب شرق آسيا.

(**) أوربينغتان: منطقة في ضواحي لندن.

«إيفا يمكنها أن تكون امرأة صعبة جداً كما تعرف».

«أحقاً؟».

تنفست الصعداء بعد أن غير الموضوع أخيراً. «وأفضل النساء يكن كذلك»، تابع «لكنها لم تعطك الكتاب. إنها تحاول حمايتك من قدرك، وهو أن تكون مختلط العرق في إنكلترا. لابد من أنها حالة صعبة، أن تكون غير منتم إلى أي مكان، ولا تريد الانتماء إلى أي مكان. أتعاني من العنصرية؟ أخبرني رجاء».

«لا أعرف»، قلت بنبرة دفاعية «لنتحدث عن التمثيل».

«لا تعرف»، أصرّ. «ألا تعرف حقاً؟».

لم أستطع الرد على أسئلته. بالكاد كنت أستطيع التكلم أساساً. أحسست بتصلب في عضلات وجهي. كنت أرتجف حرجاً من أنه يعطي نفسه الحق للتكلم إلي بهذه الطريقة أساساً، كما لو أنه يعرفني، كما لو أنه لديه الحق باستجوابي. لحسن الحظ لم ينتظر مني رداً.

قال «حين كنت أرى إيفا أكثر مما أراها حالياً، كانت غالباً مضطربة. عالقة بشدة. لقد جالت كثيراً، وخبرت الكثير. ذات صباح استيقظنا في طنجة، حيث كنت أزور بول بولز، الكاتب اللوطي الشهير ـ ووجدتها تختنق. كان شعرها كله قد تساقط ليلاً وكانت تختنق به».

نظرت إليه فحسب.

«غير معقول أليس كذلك؟».

«غير معقول، لابدّ من أنها كانت حالة نفسية». وكدت أضيف أن شعري يمكن أن يتساقط على الأرجح لو اضطررت إلى أن أمضي برفقته وقتاً كثيراً إلى هذا الحدّ.

«لكنني لا أريد التحدث عن الماضي»، قلت.

«أحقاً؟».

هذه الأشياء عنه وعن إيڤا كانت فعلاً مزعجة. لم أرد أن أعرف شيئاً عنها.

«حسناً»، قال أخيراً. فتنفست الصعداء. «إنها سعيدة مع أبيك، أليست كذلك؟».

يا إلهي، كم هو محقق صغير تافه. كان يمكنه أن يجزّ أعناق الناس بأسئلته، من دون أن يصغي إطلاقاً إلى الأجوبة. لم يكن يريد الأجوبة، بقدر ما يستمتع بالاستماع إلى صوته.

«فلنأمل أن تدوم هذه السعادة، أليس كذلك؟»، قال. «إنني شكاك، إيه؟».

هززت كتفي موافقاً. لكن أصبح لدي ما أقوله.

«لقد كنت في الكشافة. وأتذكر جيداً كتاب الإدغال، إنه يحكي عن بالو وبهيرة، أليس كذلك؟».

«صح، عشرة على عشرة، ومن أيضاً؟».

«من؟».

«وموغلي».

«آه صحيح، موغلي».

بحث شادويل على وجهي على تعليق، على تعبير أو ربما على سحنة ساخرة ربما، «أنت مناسب لدوره تماماً»، تابع «في الواقع أنت موغلي. أنت قاتم البشرة، صغير، ونحيف، وستكون حلواً ورائعاً بالزي، الذي آمل أنه لن يكون بورنوغرافياً كثيراً. سيحبك النقاد بهذا الدور. آه بلى. ها. ها. ها. ها، ها!».

قفز واقفاً عند دخول امرأتين تحملان كتباً إلى المقهى، وعانقهما،

وقبّلتاه، من الواضح من غير نفور. تحادثتا معه بكل احترام. وكان هذا أول مؤشر لي عن مدى اليأس الذي قد يبلغه الممثل.

«لقد عثرت على الشخص الذي سيلعب دور موغلي»، أخبرهما شادويل، مشيراً إلي. «عثرت أخيراً على موغلي الصغير. إنه ممثل مجهول، جاهز للاختراق».

«مرحباً»، قالت إحداهما لي. «أنا روبرتا»، قالت الأخرى.

«مرحباً»، قلت.

«أليس رائعاً؟»، قال شادويل.

حملقت فيهما. وجدتاني ممتازاً للدور. لقد نجحت. لقد حصلت على عمل.

الفصل العاشر

تسارعت الأحداث خلال ذلك الصيف في حياتي وحياة تشارلي: هو حقق قفزات كبرى؛ وحققت قفزات أصغر، إنما مهمة. ومع أنني لم أرَ تشارلي لأشهر، فقد كنت أتصل بإيفا بشكل شبه يومي لسؤالها عن أحواله. وبالطبع، كانت أخباره تملأ التلفزيون والصحف. فجأة بات مستحيلاً ألا تسمع به وبنجاحاته. لقد نجح حقاً. بالنسبة إلي، كان علي أن أنتظر الصيف كله، وحتى نهاية الخريف، حتى تبدأ التمارين على «كتاب الغابة»، لذا عدت إلى ساوث لندن، مغتبطاً بمعرفة أنني سأشارك قريباً في عمل مسرحي محترف، وسأجد بين الممثلين من أغرم بها. كنت واثقاً من ذلك.

علي سافر إلى إيطاليا مع أصدقائه الأذكياء في المدرسة، ليتفرج على الأزياء في ميلان. ولم أرد أن تبقى أمي وحيدة، بعد أن تركت منزل تيد وجين وعادت إلى منزلنا القديم. ولحسن الحظ سمحوا لها بالعودة إلى وظيفتها في متجر الأحذية، وصرنا نمضي الأمسيات وعطلات الأسبوع معاً. بدأت أمي تشعر بتحسن كبير، وعاد إليها النشاط، رغم أنها سمنت كثيراً خلال إقامتها عند تيد وجين.

كانت لا تزال مقلة في الكلام، مدارية ألمها وجراحها، بعيداً من ابتذال الأصوات والتعبيرات. لكنني شاهدتها وهي تحول المنزل من كونه مكانها المشترك مع أبي ـ وقد كان مكاناً وظيفياً لتربية الأطفال، إلى منزلها وحدها. ارتدت البنطال للمرة الأولى، وقامت بحمية، وتركت شعرها يطول. اشترت طاولة من خشب الصنوبر من متجر

خردوات وراحت تسنفرها في الحديقة على مهل، ثم سدّت الشقوق التي فيها، وهو أمر لم تفعل مثله، ولم تفكر في فعله من قبل. فوجئت أساساً من معرفتها بالسنفرة؛ لكنني غالباً ما أكتشف أنني لست فطناً كفاية في معرفة الناس. كان هناك كراسي خيزران مهزوزة مع الطاولة، حملتها إلى البيت، وهناك جلست أمي ساعة بعد الأخرى، وهي تقوم بكتابة بطاقات المعايدة للكريسمس وأعياد ميلاد معارفها على أوراق مربعة خضراء. صارت تنظف البيت كما لم تفعل من قبل، بكل عناية واهتمام (فهذا لم يعد شغلاً بالنسبة إليها) راكعة على الأرض بفرشاة حف ودلو ماء، ومنظفة وراء الخزائن وحواف الجدران السفلية. كما قامت بغسل الجدران وأعادت طلاء الأبواب التي لطخت عبر السنين ببصمات أصابعنا. أعادت وضع كل النباتات في قدور جديدة، وبدأت تحب الأوبرا.

كان تيد يزورها حاملاً النباتات. وكان يحب الملتفة منها، ولا سيما الليلك، التي حظرتها جين في حديقتها، لذا كان يشتريها لمنزلنا. كان يجلب معه أيضاً الراديوات القديمة، والأطباق، والدوارق والشمعدانات الفضية، وأي شيء يعثر عليه خلال جولاته في ساوث لندن، بانتظار إشارة إيفا لاستئناف العمل في الشقة الجديدة.

قرأت الكثير من الكتب المهمة مثل «الأوهام الضائعة»، و«الأحمر والأسود»، وصرت أنام مبكراً، لكي أحضر نفسي للحب والعمل الآتيين. ومع أنني كنت على بعد أميال قليلة فقط من النهر، فقد بدأت أفتقد لندن التي كنت بدأت أعرفها، طارحاً على نفسي حزازير مثل: إذا ما أمرك البوليس السري بالعيش في الضواحي لبقية حياتك. فما الذي ستفعله؟ تقتل نفسك؟ تقرأ؟ كانت الكوابيس تنتابني كل ليلة تقريباً وكنت أتعرق. وكان النوم مجدداً في منزل الطفولة هو السبب. أي

خوف كان لدي من المستقبل، كنت سأتجاوزه، كان شيئاً تافهاً بالقياس إلى مدى اشمئزازي من الماضي.

ثم ذات صباح بدأت التمارين. ودّعت أمي بحزن، وغادرت ساوث لندن وعدت للإقامة مع أبي وإيڤا. وصباح كل يوم صرت أهرع من القطار إلى قاعة التمارين. وكنت آخر من يغادر ليلاً. أحببت العمل الشاق ورفقة الممثلين العشرة الآخرين، في الحانة، وفي المقهى، أحببت الانتماء إلى المجموعة.

من الجلي أن شادويل قد أمضى عطلات أسبوع كثيرة متنقلاً في أرجاء القارة ومشاهداً المسرح الأوروبي. إذ أراد تحويل «كتاب الغابة» إلى عرض إيمائي، مكون من الإشارات، والأصوات والإبداع الجسدي. ستكون الأزياء والديكورات شديدة التقشف. أما الادغال نفسها، بأشجارها ومستنقعاتها، وحيواناتها الكثيرة، ونيرانها وأكواخها، فستتشكل من أجسادنا، وحركاتنا، وأصواتنا. غير أن معظم الممثلين الذين جمعهم لم يكن قد سبق لهم العمل بهذه الطريقة. في اليوم الأول، حين عدونا جميعاً خمس مرات حول قاعة التمارين على سبيل التحمية، تعب كثر منا. كانت إحدى الممثلات تعمل مقدمة لبرنامج إذاعي غنائي. أحد الممثلين، الذي نشأت صداقة بيني وبينه، ويدعى تيري، كان قام فحسب بعرض دعائي سياسي حول إضراب عمال المناجم عام ١٩٧٢ يدعى «ديغ»!، طائفاً البلاد في شاحنة صغيرة مع فرقة تدعى «ڤانيارد». وها هو الآن يتقمّص دور «كا»، الأفعوان الأصم المشهور بقوة عناقه، وتيري بدا فعلاً صاحب عناق قوي. كان دوره في العرض أن يهسهس ويتلوى على الصقالة المقنطرة التي تمتد عبر المنصة وفوقها، وتتدلى منها القردة، مستفزة الدب بالو، الذي لا يستطيع التسلق والذي يغمغم كثيراً. كان تيري في مطلع أربعيناته، وجهه وسيم أبيض، وملامحه طيبة هادئة من ملامح أبناء الطبقة العاملة. أحببته

فوراً، خصوصاً أنه كان مهووساً باللياقة الجسدية، فكان جسمه صلباً ومشدوداً. قررت أن أسعى إلى إغوائه، لكن من دون أمل كبير بالنجاح.

لم يحدث أي تصادم بيني وبين شادويل حتى الأسبوع التالي، خلال جلسة تجريب الأزياء. كان الجميع في البداية يعامله باحترام، ويصغي باهتمام إلى شروحاته المضجرة. لكنه سرعان ما تحول نكتة بالنسبة إلى معظمنا، ليس فقط بسبب حذلقته وتصنعه، لكن لأنه كان مرعوباً مما بدأ به، ولا تعجبه الاقتراحات، خشية من أن توحي أنه يقوم بالأمور بطريقة خاطئة. ذات يوم نحاني جانباً وتركني مع مصممة الأزياء، فتاة متوترة ترتدي الأسود دائماً. كانت تحمل بيد وشاحاً أصفر، وتخفي بالأخرى وراء ظهرها قارورة من الكريما البنية يشبه لونها لون الغائط.

«هذا هو زيك يا سيد موغلي».

مددت عنقي لأرى ماذا تحمل.

«أين هو؟».

«اخلع ثيابك رجاء».

اتضح أنني سألبس على الخشبة مبزراً يلفّ على خصري وسيطلى بقية جسدي بتلك الكريما البنية، بحيث أبدو شبيهاً بقطعة غائط في مؤخرة بكيني. تعريت. «رجاء لا تضعي هذا على جسدي»، قلت مرتعداً. «عليّ ذلك»، أجابتني. «كن كبيراً الآن». وراحت تكسوني من رأسي إلى أخمص رجلي بهذا الطين البني، وفكرت في جوليان سوريل في «الأحمر والأسود»، وهو يخفي مشاعره بصمت من أجل طموحه، بينما كبرياؤه يتحطم، لكنه تحت هذا كله كان صلباً بتفوقه. لذا أبقيت فمي مغلقاً حتى وأنا أطلى بالقذارة. بعد بضعة أيام سألت شادويل عن إمكانية ألا يتم إغراقي بالخراء من أجل سمعتي كممثل محترف. أجاب شادويل باقتضاب للمرة الأولى في حياته: «هذا هو الزي اللعين! حين

قبلت أول دور لعين يعرض عليك، هل كنت تحسب أن موغلي سيرتدي الكفتان؟ أو بذلة سانت لوران؟».

«لكن سيد شادويل ـ يا جيريمي ـ لست مرتاحاً به. أشعر إنني أنا وهو نجعل العالم أكثر قبحاً».

«ستنجو».

كان محقاً. لكن ما إن بدأت آلف هذا الزي، وحين حفظت دوري قبل الجميع وبدأت أصبح كفؤاً في دور سعلاة صغيرة على الصقالة، اكتشفت أن صراعي مع شادويل لم ينته. نحاني جانباً وقال لي «أريد أن أبدي لك ملاحظة حول لهجتك يا كريم. أعتقد أنها ينبغي أن تكون أصلية».

«ما الذي تعنيه بأصلية».

«أين ولد موغلي؟».

«في الهند».

«أجل، ليس في أوربنغتون. أي لهجة يتحدثون بها في الهند؟».

«اللهجة الهندية».

«عشرة على عشرة».

«لا يا جيريمي، رجاء لا».

«كريم لقد اخترناك من أجل عنصر الأصلية هذا، لا لخبراتك في التمثيل».

لم أستطع تصديق طلبه هذا. وحتى حين صدقت ناقشته بشأنه مراراً وتكراراً، لكنه ظلّ متشبثاً برأيه.

«فقط حاول»، ظل يردد ونحن نخرج من قاعة التمارين لكي نتجادل «أنت محافظ جداً يا كريم. جرب اللهجة حتى تشعر أنك مرتاح كبنغالي. يفترض أنك ممثل، لكنني بدأت أشك في أنك مجرد عارض».

«جيريمي، ساعدني، لا أستطيع فعل هذا».

هزّ رأسه. أقسم أن عيناي كادتا تذوبان قهراً.

مرت بضع أيام من دون الإتيان على ذكر اللهجة مجدداً. خلال هذا الوقت جعلني شادويل أركز على الأصوات الحيوانية التي يفترض أن أصدرها ما بين الحوارات، بحيث أنه مثلاً حين أكون أتحدث مع «كا»، الأفعوان المنسل، الذي ينقذ حياة موغلي، عليّ أن أهسهس. أنا وتيري علينا أن نهسهس معاً. وخلال ذلك ساعدني تذكّري لصوت أبي وهو يحاضر على مسمع تيد وجين في منزل كارل وماريان. أن أكون حديقة حيوانات بشرية، كان أمراً مقبولاً، ما دامت اللهجة الهندية خارج اللائحة.

المرة التالية التي ذكر فيها الأمر كان جميع الممثلين حاضرين.

«الآن أسمعني اللهجة»، قال شادويل فجأة «أنا واثق من أنك كنت تتمرن عليها في البيت».

«جيريمي» رجوته «إنها مسألة سياسية بالنسبة إلي».

حدجني بحدة. ورمقني الممثلون بتعاطف. أحدهم، ويدعى بويد، كان قد خضع لجلسات علاج بالصدمة الكهربائية، وكان يقوم بتمارين تعزز الثقة بالنفس، وكان يحب أن يقذف بالكراسي في الغرفة كتعبير عن العفوية. تساءلت ما إذا كان يملك أي عفوية في تلك اللحظات بحيث يبرز للدفاع عني. لكنه التزم الصمت. فنظرت إلى تيري الذي، كتروتسكي فاعل كان يشجعني على الإفصاح عن الظلم والإساءة اللذين تعرضت لهما كهندي. وفي المساء كنا نتحدث عن اللامساواة، والإمبريالية، والتفوق الأبيض، وما إذا كان التجريب الجنسي نوعاً من الغرق البورجوازي في الملذات أم مساهمة في تفسخ المجتمع التقليدي. لكن الآن، مثل الآخرين، لم يفعل تيري شيئاً سوى الوقوف هناك لابساً زيه، منتظراً أن ينسل على الأرض ويهسهس مرة أخرى.

فكرت: أنت تفضل التعميمات مثل «بعد الثورة سينهض العمال مغمورين بفرح جبّار»، على مواجهة فاشي مثل شادويل.

خاطبني شادويل بقسوة «كريم هذه مجموعة موهوبة ومكلفة من الممثلين المدربين تدريباً رفيعاً. إنهم جاهزون للعمل، تواقون للتمثيل، مليئون بحب مهنتهم المتواضعة، متحمسون ومركزون. أما أنت، فأخشى أنك، أجل أخشى أنك خارج الجميع هنا، وأنك تؤخر العرض برمته. هل ستقوم بالأداء المناسب الذي يطلبه منك هذا المخرج المجرّب؟».

أردت الهروب من الغرفة، والعودة إلى ساوث لندن، حيث أنتمي، والتي أخطأت حين غادرتها بكل عجرفة. كرهت شادويل وكل الممثلين.

«أجل»، أجبته.

تلك الليلة، في الحانة، لم أنضم إلى الآخرين، بل انتقلت إلى البار الآخر مع جعتي وصحيفتي. كنت أشعر تجاههم بالازدراء لأنهم لم يدافعوا عني، ومن قهقهاتهم حين أدّيت اللهجة أخيراً. ترك تيري المجموعة وانضم إلي.

«هيا»، قال «اشرب كأساً أخرى. لا تأخذ الأمر بهذا السوء، الأمر دائماً سيء بالنسبة إلى الممثلين»، كانت، هذه الكلمات الأخيرة، هي المفضلة إلى نفسه. كل شيء دائماً سيء بالنسبة إلى الممثلين وعليك أن تتعامل معه فحسب، فيما يستمر الفساد الراهن.

سألته ما إذا كان أشخاص مثل «شيتويل»، مثلما كنا ننعته بين نعوت أخرى، سيعاملونني بالسوء بعد الثورة؛ ما إذا كان سيكون هناك مخرجون مسرحيون أساساً، أم أن كل واحد منا سيحظى بدوره في أن يملي على الآخرين أين يجب أن يقفوا وماذا يجب أن يلبسوا. بدا أن تيري لم يفكر في هذا سابقاً وبدا حائراً، وهو يحملق في طعامه.

«سيكون هناك مخرجون مسرحيون»، أجاب أخيراً «اظن، لكن سيتم انتخابهم من قبل الممثلين. وإذا ما كانوا مزعجين فسيطردهم الممثلون ويعيدونهم إلى المصنع الذي جاؤوا منه».

«المصنع؟ كيف سندخل أناساً مثل شادويل إلى المصانع أساساً؟».

بدا متذبذباً، وكأنه يقف على أرض رجراجة.

«سيؤمر ذلك».

«آه، بالقوة؟».

«لا سبب لأن يقوم الأشخاص أنفسهم بالأعمال القذرة نفسها، هل من سبب؟ لا أحب فكرة أن يقوم أشخاص بتوجيه الأوامر لأشخاص آخرين للقيام بأعمال يرفضون القيام بها بأنفسهم».

كان تيري أكثر شخص أحببته منذ وقت طويل، وكنا نتحادث يومياً، لكنه كان يؤمن أن الطبقة العاملة، التي كان يشير إليها كأنها شخص واحد، ستقوم بأمور مفاجئة نوعاً ما. «سيتولى العمال أمر أولئك الأوغاد بسهولة تامة»، قاصداً المنظمات العنصرية. «إن العمال على وشك الانفجار»، قال في مناسبة أخرى «لقد ملوا من حزب العمال. ويريدون تغيير المجتمع». وذكرني كلامه في البشر الذين يسكنون بجوار أمي، حيث لابدّ من أن أبناء «الطبقة العاملة»، سيضحكون في وجه تيري، ـ إذا لم يصفعوه لتسميتهم بالطبقة العاملة. أردت أن أخبره أن البروليتاريا في الضواحي لديها شعور قوي بالانتماء الطبقي، وهو شعور حقود ومليء بالكراهية وموجه مباشرة إلى البشر الأدنى منها. لكن كان هناك أمور لا أملَ من نقاشها معه. أظن انه لم يتدخل في خلافي مع شادويل لأنه أراد أن يتأزم الوضع أكثر. تيري لم يكن مؤمناً بالعمال الاشتراكيين، والساسة اليساريين، والمحامين الراديكاليين، أو الليبراليين أو بالتطور التدريجي. كان يريد أن تسوء الأمور أكثر، لأنه حين تصل

إلى لحظة الذروة سيحدث التحول. لذا ولكي تتحسن الأمور ينبغي أن تسوأ أولاً؛ وكلما ساءت أكثر اليوم، ستكون أفضل مستقبلاً؛ لا يمكنها حتى أن تبدأ بالتحسّن ما لم تشرع بالانهيار بصورة عميقة. على هذا النحو كنت أفسّر أفكاره، وكان هذا يستفزه كثيراً. طلب مني الانضمام إلى الحزب لكي أثبت أن التزامي بالنضال من أجل إنهاء الظلم ليس مجرد بهورات كلامية. فأجبته بنني سأنتسب بكل سرور لكن بشرط واحد: أن يقبّلني. وقلت له إنه بذلك سيبرهن عن التزامه بتخطي أخلاقه البورجوازية الغريزية. فأجابني بأنني ربما لستُ مستعداً بعد للانضمام إلى الحزب.

استهواني عقلياً شغف تيري بالمساواة، وتوافق كرهه للسلطة مع ازدرائي لها. لكن رغم كرهي للامساواة، لم أكن راغباً بأن أعامل كالجميع. أدركت أن ما أحبه في أبي وفي تشارلي هو إصرارهما على التفرد. أحببت قوتهما وقدرتهما على إثارة اهتمام الآخرين ونيل إعجابهم. لذا على الرغم من المبزر الأصفر الذي كان يخنق خصيتي، والطلاء البني، وحتى اللهجة، فقد استملحت كوني مركز المسرحية.

بدأت أطالب «تشاغبادلي» بأشياء صغيرة. فطالبت باستراحة أطول وأن يتولى أحدهم إيصالي بسيارته إلى البيت، حين أكون متعباً. وطالبت أيضاً بأن يكون شاي «أسام» (الهندي الأسود) متوافراً باستمرار خلال التمارين. وصرت أقول أشياء من قبيل: هل يستطيع هذا الممثل أن يزيح قليلاً إلى اليمين؛ لا، أكثر بعد، مدركاً أنه يمكنني طلب الأشياء التي أحتاج إليها، مما أكسبني ثقة بالنفس.

صرت أمضي وقتاً أقل في البيت، خصوصاً أنني ما عدت أحتمل أن أكون شاهداً كالسابق على تفاصيل الغرام العظيم. ولاحظت أن انشغال إيڤا بتفاصيل حياة أبي بدأ يقلّ. كما أقلا من مشاهدة أفلام ساتياجيت راي، ومن الذهاب إلى المطاعم الهندية؛ وتخلت إيڤا عن تعلم اللغة

الأوردية والاستماع إلى موسيقى «السيتار» عند الإفطار. أصبح لديها اهتمام جديد. كانت تستعد لغزوة لندن.

في الشقة كانت تقام أسبوعياً حفلات الشراب وبعض حفلات العشاء، وكان هذا يضايقني، إذ أكون مضطراً إلى انتهاء الجميع من ملء الهواء بأفكارهم حول آخر رواية صدرت، قبل أن أتمكن من النوم على الكنبة. وغالباً بعد التمارين، أضطر إلى سماع شادويل وهو يخبر الآخرين في حفل العشاء كيف أن التحضيرات للمسرحية تمضي بشكل جيد، وكم ستكون المسرحية «تعبيرية». لحسن الحظ كانت إيڤا وأبي غالباً خارج البيت، حيث كانت إيڤا تلبي جميع الدعوات التي تتلقاها من مخرجين وروائيين، وسكرتيريي تحرير، وقراء مسودات، وأدعياء، أو أي شخص تلتقيه.

لاحظت أنه في هذه «التسالي»، مثلما كنت أسميها، مستفزاً إيڤا، كانت الأخيرة تبني لنفسها حضوراً فنياً. أشخاص مثلها يحبون الفنانين وكل شيء «فني»؛ الكلمة نفسها كانت ضرباً من العشق؛ نسيم يهب من الأعالي؛ هي مفتاح كل ما هو جامح ومفعم بالإلهام. أناس مثلها يفعلون كل شيء لكي يضيفوا قبل أسمائهم هذه الكلمة السماوية. (وعليهم أن يفعلوا ذلك بأنفسهم، فلا أحد سيفعل ذلك عنهم). سمعت إيڤا تقول مرة «أنا فنانة، مصممة، أنا وفريقي نصمم المنازل».

في الأيام الخوالي حين كنا عائلة عادية تسكن الضواحي، كان هذا الجانب المدّعي والمتكبّر اجتماعياً في إيڤا يسليني أنا وأبي، وبدا لفترة أنه قد انحسر بعض الشيء. لكن الآن كان هذا الاستعراض للنفس يزداد يومياً، بحيث بات مستحيلاً تجاهله. والمشكلة كانت أن إيڤا لم تكن فاشلة في غزوتها اللندنية، بل قوبلت بالاهتمام، مما جعلها تتسلق إلى أعلى كل يوم. كان ذلك رائعاً، كل حفلات الغذاء والعشاء تلك، والرحلات والحفلات والاستقبالات وإفطارات الشامبانيا، والافتتاحات،

والإقفالات، والليالي الأولى، والليالي الأخيرة، والليالي المتأخرة التي يقصدها بشر لندن أولئك. لا يكفون أبداً عن الاكل أو التكلم أو مشاهدة العروض. مع بداية احتلال إيفا للندن، متقدمة نحو حقول إيزلنغتون الغريبة، وتيزويك، وواندسوورث، إنشاً بإنش، وحفلة بعد حفلة، وعلاقة اجتماعية بعد أخرى، كان أبي يستمتع بالكامل. لكنه لم يدرك مدى أهمية هذا كله لإيفا. وذات حفل عشاء في الشقة، حين كانا معاً في المطبخ يحضران اليوغارت والتوت الشوكي، سمعتهما يتشاجران للمرة الأولى. قالت إيفا، «بحق المسيح ألا تستطيع أن تتوقف قليلاً عن الصوفية اللعينة، لسنا في بكنهام الآن. هؤلاء أناس أذكياء مثقفون، إنهم معتادون على السجال، لا على الموافقة، على الحقائق لا على الأوهام».

أبي أرجع رأسه إلى الخلف وضحك، غير شاعر بقوة انتقادها. «إيفا، ألا تفهمين أمراً واحداً بسيطاً؟ عليهم التخلي عن عقلانيتهم، عن التفكير الدائم بكل شيء. إنهم مهووسون بالسيطرة. لكن فقط حين ندع الحياة تمضي ونسمح لحكمتنا الداخلية بأن تزهر، نبدأ بالعيش حقاً».

حمل الحلويات وهرع إلى الغرفة، مناقشاً الجالسين إلى المائدة بهذه الأفكار، وأصبحت إيفا أكثر توتراً حتى بدأ الجميع يناقش أهمية الحدس في عصر الإنجاز العلمي. أزهرت الحفلة.

خلال هذا الوقت كان أبي يكتشف كم يحب الآخرين. ومن دون أن تكون لديه فكرة عن مدى أهمية هذا الشخص أو ذاك، سواء أكان يعمل في «بي. بي. سي» أو «تي أل أس» أو «بي أف آي»، كان يعامل الجميع بقدر متساو من الاحترام.

ذات ليلة بعد التمارين وتناول الشراب مع تيري، عدت إلى الشقة لأجد تشارلي يبدّل ملابسه في غرفة نوم إيفا وأبي، مقعياً أمام مرآة

بالحجم الكامل للجسد، أسندت إلى جدار فاصل. ولم أعرفه للوهلة الأولى. ففي نهاية الأمر لم أكن قد رأيت شخصيته الجديدة إلا من خلال الصور الفوتوغرافية. كان شعره مصبوغاً بالأسود الآن، على طريقة «سبايكي»، ويلبس كنزة ممزقة نقش عليها باليد باللون الأحمر صليب معقوف. أما بنطاله الأسود فكان مبكلاً بالدبابيس، والإبر وقصاصات الورق. وفوق هذا كان يرتدي ماكنتوش سوداء؛ ويلف حول خاصرته خمسة أحزمة ورقعة رمادية من الكتان في مؤخرة البنطال. كان الوغد يرتدي إحدى صديرياتي الخضر، أيضاً. وكانت إيڤا تنتحب.

«ما المشكلة؟»، سألت.

«لا تتدخل بهذا»، أجابني بحدة.

«رجاء تشارلي»، تضرعت إليه إيڤا «رجاء إخلع كنزة الصليب المعقوف هذه، لا يهمني جميع الملابس الأخرى».

«في هذه الحال لن أخلعها».

«تشارلي».

«لطالما كرهت نقك اللعين».

«هذا ليس نقاً، إنه اهتمام».

«صحيح. لن أرجع إلى هنا يا إيڤا. لقد تحولت إلى شخص مزعج. إنه تأثير العمر عليك. إنه سن اليأس الذي يفعل بك ذلك؟».

وبجوار تشارلي على الأرض كانت كومة من الملابس راح يختار منها الستر والكنزات قبل أن يعاود رميها لأنها غير مناسبة. ثم كحّل عينيه، وغادر الشقة من دون أن ينظر إلى أي منا. وصرخت إيڤا خلفه «فكّر في أولئك الذين ماتوا في مخيمات التعذيب! ولا تتوقع مني أن

آتي الليلة إلى حفلتك، أيها الخنزير! تشارلي يمكنك أن تنسى دعمي لك إلى الأبد!».

مثلما كان مدبّراً ذهبت تلك الليلة إلى حفلة تشارلي في ناد ليلي في «سوهو». ولم أبذل جهداً كبيراً لإقناع إيڤا بمرافقتي، ولا شيء كان سيمنعني شخصياً من الذهاب لأرى ما الذي حول زميلي في المدرسة إلى ما أسمته صحيفة «دايلي إكسبرس»، بـ «الظاهرة». حتى أنني حرصت على أن نصل إلى هناك قبل ساعة لكي لا يفوتنا شيء. وحتى في ذلك الوقت المبكر كان صف البشر يمتد إلى الخارج. سرت وإيڤا بين الفتيان. وكانت متحمسة ومذهولة من ضخامة الحشد، وظلت تردد «كيف فعل تشارلي هذا؟». «سنعرف عما قريب»، . أجبتها. «هل تعرف أمهاتهم أنهم هنا؟»، سألتني. «هل يعرف حقاً ما الذي يفعله يا كريم؟». بعض الفتيان كانوا بسن الثانية عشرة؛ لكن معظمهم كان في السابعة عشرة. كانوا يلبسون على طريقة تشارلي، غالباً بالأسود. بعضهم صبغ شعره بخطوط برتقالية أو زرقاء، فبدا مثل الطاووس. وكانوا يتشاجرون مع بعضهم ويبصقون على المارة وعلى وجوه بعضهم، في برد ومطر لندن المتحللة، بينما رجال الشرطة غير العابئين يتفرجون عليهم. وكمساهمة مني في الموجة الجديدة لبست كنزة سوداء، وجينزاً أسود، وجوربين أبيضين وحذاء سويدياً أسود، لكنني كنت أعرف أن شعري لم يكن مثيراً للاهتمام. ولم أكن الوحيد كذلك: فقد كان هناك أيضاً بعض الرجال الأكبر سناً، في ثياب الستينات الفاخرة، وجينزات «فيروتشي» والأحذية الجلدية عالية الكعوب، ممن كانوا يتبعون الفرقة من مكان إلى آخر، أملاً بالحصول على تواقيعهم.

ما الذي فعله تشارلي إذاً منذ تلك الليلة في «ناشڤيل»؟ لقد اختلط بـ «البانكي» ورأى طقوسهم عن كثب. وشكّلت تلك بداية ثورته في عالم

الموسيقى. فبدّل اسم الفرقة إلى «كوندمند» (مدانون)، وصار اسمه تشارلي هيرو. ومع انتقال مزاج الموسيقى الإنكليزية من ذروة إلى أخرى، من الباروكية الممرّعة إلى موسيقى «الكاراج» الغاضبة، تمكن تشارلي من تحويل «ماسنت كرامبل» إلى واحدة من أهم فرق «البانكي الموجودة.

كانت الصحف المحلية لا تكف عن مطاردته، ومثلها المجلات ودارسو الطقوس الباحثون عن اقتباسات تعبر عن «العدمية» الجديدة، واليأس الجديد، والموسيقى الجديدة التي تحاكيهما. هيرو كان يشرح يأس الشباب للمهتمين، وذلك بالبصق على الصحافيين أو بضربهم فحسب. كان ذكياً: تعلم أن نجاحه، مثل نجاح الفرق الأخرى، يقوم على مدى قدرته على إهانة الميديا. ولحسن حظه كان يملك فطرياً موهبة الفظاظة. وكانت تنتشر إهاناته على نطاق واسع، مثل تهجمه على «الهبيين»، وعلى الحب، وعلى الملكة، وميك جاغر، والسياسة، و«البانكي» نفسها. «نحن خراء»، قال في عرض تلفزيوني ذات مرة. «لا نستطيع الأداء، ولا الغناء ولا الكتابة، والأناس الخرائيون يحبوننا». وقيل إن أبوين غضبا من كلامه فحطما التلفزيون. وحتى إيڤا ظهرت على صفحات «دايلي ميرور» تحت عنوان «أم شاب بانكي تقول: إنني فخورة بابني!».

ضمن «السمكة»، أن يحتل تشارلي الأخبار وأن يصبح وجهه مكرساً. كما كان يعمل على إصدار تسجيل الفرقة الأول «كبرياء المسيح» خلال أسابيع قليلة. وبمساعدة الإهانات التي ينشرها تشارلي، وقليل من الحظ، فقد تمنع الأسطوانة، مما سيضمن لها المصداقية والنجاح التجاري. لقد برز نجم تشارلي أخيراً.

في تلك الأمسية، كالعادة، كان «السمكة» مهذباً ويتصرف

كجنتلمان. أكد لإيڤا أنه وتشارلي على دراية تامة بما يقومان به. ولم يطمئنها ذلك، فقبّلت «السمكة» وأمسكت ذراعه وراحت ترجوه «أرجوك أرجوك، لا تدع ابني يصبح مدمناً على الهروين. أنت لا تعرف كم هو هش».

أمّن لنا «السمكة» موقعاً جيداً في الجانب الخلفي من النادي، حيث وقفنا على صناديق بيرة خشبية، واستندنا إلى بعضنا، شاعرين أن الأرض تحتنا ستنفلق من شدة الصخب والحرارة. سرعان ما شعرت أن الجمهور كله فوقي، وكانت الفرقة لا تزال في غرفة الملابس. ثم خرجت. وجن جنون الجميع. تخلص «ذي كوندمند» من أشكالهم السابقة ـ شعورهم، ثيابهم، موسيقاهم ـ وأصبحوا جدداً بالكامل. لكنهم كانوا متوترين، غير متأقلمين بعد مع أزيائهم الجديدة. وراحوا يتعاركون مع آلاتهم كما لو أنهم في في سباق حول من يستطيع أن يؤدي أكبر قدر ممكن من الأغاني في أقصر وقت، ليبدوا مثل نسخة غير خبيرة من الفرقة التي رأيتها وتشارلي في «ناشڤيل». لم يعد تشارلي يعزف على الغيتار الإيقاعي، بل وقف على حافة المنصة ممسكاً بحامل المذياع، صارخاً بالفتيان، الذين كانوا يقفزون أمامه مثل حفارات الطرق، ويبصقون ويحطمون القناني حتى امتلأت المنصة بحطام الزجاج. وتسبب هذا بجرح تشارلي في يده. وإلى جانبي شهقت إيڤا وغطت وجهها. ثم راح تشارلي يلطخ وجهه بالدماء ويمسحها على عازف الباص.

لم يكن بقية أعضاء الفرقة بالبارزين بعد، كانوا أشبه بموظفي الخدمة المدنية في عالم الموسيقى. لكن تشارلي كان رائعاً في غلّه، في ثورته المصنعة، في غضبه، وفي تحديه. أي قوة كانت لديه، وأي إعجاب حصل عليه، وأي نظرات حصل عليها من تلك الفتيات. كان مذهلاً:

لقد جمع العناصر الصحيحة، التي شكّلت قناعه وحيلته البارعة. أما العيب الوحيد فيه، قلت لنفسي، فكانت أسنانه الحليبية البيضاء، التي شعرت أنها تتناقض مع كل شيء آخر في مظهره وسلوكه.

ثم عمّت الجلبة. وبدأت الزجاجات تتطاير، وراح الغرباء يلكمون بعضهم بعضاً، حتى أنه طار سن أحدهم وحطّ على إيڤا. أما أنا فغمرتني الدماء. الفتيات أغمي عليهن، واستدعيت سيارات الإسعاف. وقام «السمكة»، بكل فعالية، بإخراجنا من المكان.

رحت أفكر في ما شاهدته وأنا أمشي في «سوهو» تلك الليلة، وبجانبي إيڤا بالجينز والحذاء الرياضي، تحاول أن تدندن إحدى أغنيات تشارلي، وأن تساير خطوي السريع. ثم تأبطت ذراعي. كنا سلسين معاً، كما لو أننا في موعد عاطفي. وبقينا صامتين؛ أظن أنها كانت تفكر في مستقبل تشارلي. ومن جهتي، كان يحرقني حسدي له، إنما بقدر أقل لما حسبت أنه سيصل إليه. هذا لأنه كان يسيطر عليّ إحساس واحد: الطموح، وإن لم يكن مكثفاً بعد. لكنني كنت متأثراً بخدعة تشارلي الكبرى، بكونه قرع على باب الفرص الذي انفتح له بكل ما في داخله من أشياء. الآن بات بإمكانه الحصول على ما يريده. حتى تلك اللحظة كنت أشعر أنني غير قادر على التفاعل مع العالم؛ لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك؛ كانت تسيّرني الأحداث. وبدأت أدرك أنه ليس ضرورياً أن تكون الأمور كذلك. سعادتي وتقدمي وتعلمي يمكنها الاعتماد على نشاطي الذاتي - ما دام النشاط المناسب في اللحظة المناسبة. مشاركتي المقبلة في «كتاب الادغال» كانت سراباً قياساً إلى إنجاز تشارلي، لكن قريباً ستنصبّ العيون علي؛ كنت في البداية، وشعرت بالقوة والعزم - سترفعني تلك الخطوة إلى أعلى.

بينما نركب السيارة رمقتني إيڤا وابتسمت. شعرت أنها لم تكن تفكر

في تشارلي بالمرة، إلا كنوع من الإلهام، وأنها مثلي سارحة في ما ستفعله في العالم. وهي تقود بنا إلى البيت، كانت تقرع على المقود وتغني وتصرخ من النافذة.

«ألم يكونوا عظيمين؟ أليس نجماً يا كريم؟».

«بلى، بلى!».

سيحصدون نجاحاً كبيراً يا كريم، نجاحاً ضخماً حقاً. لكن سيكون على تشارلي أن يتخلص من هذه الفرقة. يمكنه النجاح بمفرده، ألا تظن ذلك؟».

«أجل، لكن ما الذي سيحدث لهم؟».

«أولئك الفتية؟»، ولوحت بيدها إشارة إلى أنهم ليسوا مهمين، «أما ولدنا فصاعد إلى فوق، فوق! فوق!»، ومالت عليّ وطبعت قبلة على خدي. «وأنت أيضاً، حسناً؟».

مضت جيداً تجربة الأزياء في «كتاب الغابة»، وفوجئنا جميعاً بمدى السلاسة التي حصلت بها؛ لم ينسَ أيّ منا نصه، وسارت الأمور التقنية على أفضل ما يرام. لذا انطلقنا إلى العرض الأولي أمام جمهور، بكثير من الثقة. كانت الأزياء مسلية وصفقَ الجمهور استحساناً لها. وراحت القردة المزعجة تزعق عالياً بينما المجلس ملتئم لمناقشة مستقبل موغلي «الشبل البشري». لكن مع زئير النمر شير خان من بعيد بصوته الشبحي الهاملتي، «هذا الشبل لي. أعطوني إياه. ما شأن البشر الأحرار بشبل بشري؟»، سمعت قرقعة فوقي، وبطريقة غير محترفة نظرت إلى أعلى، لأرى الشبكة المعدنية للصقالة تنبعج، وتتأرجح وأخيراً تنحلّ براغيها وتسقط باتجاهي، وتتحطم مصابيح الإنارة على الأرض. صرخ الجمهور تحذيراً لنا. وهرع معظم الجالسين في الصف الأول نحو الممر بعيداً من الخطر. تركت الخشبة مثلما فعل بقية الممثلين، وقفزت

باتجاه الجمهور. وحططت على شادويل، الذي كان يصرخ على العاملين التقنيين. توقف العرض تلك الليلة. كانت الشجارات رهيبة، وتحول شادويل وحشاً. وتوقف عرضان أوليان آخران، وتقرّر أنه سيكون هناك عرض واحد فقط قبل ليلة الافتتاح.

رغبت بطبيعة الحال بحضور أمي العرض الأول، وأبي أيضاً. لكن بما أنهما لم يتقابلا منذ غادرا البيت كلٌ في اتجاه، فلم أظن أن أول ظهور لي في «كتاب الغابة» سيكون المناسبة الأمثل للجمع بينهما. لذا دعوت أمي، مع العم تيد والخالة جين، إلى العرض. وهذه المرة مضى كل شيء على ما يرام. بعد العرض أعلن العم تيد الذي كان يلبس بذلة ويصفف شعره بالبرلكريم عن دعوتنا جميعاً إلى «ترايدر فيكس» في فندق «هيلتون». وكانت أمي متأنقة وحلوة بثوبها الأزرق المزدان بالشرائط. وكانت مبتهجة، أيضاً. كنت قد نسيت كم يمكن أن تكون سعيدة. علمت أنها بقرار جريء تركت متجر الأحذية وصارت تعمل موظفة استقبال في عيادة، وصارت صاحبة دراية في شؤون الأمراض.

بكت أمي بفخر على أدائي لشخصية موغلي. أما جين، التي لم تبك منذ موت همفري بوغارت، فقد ضحكت كثيراً وكانت ثملة ورائقة المزاج.

«ظننت أنه سيكون عرضاً هاوياً»، ظلت تردد، متفاجئة من انخراطي بشيء لا يتحول إلى فشل تام. «لكنه كان محترفاً حقاً! ومن الرائع رؤية كل أولئك الممثلين التلفزيونيين!».

كان مفتاح التأثير بأمي وبجين وشغل ألسنتهم عن التحدث بموضوع زيي، الذي لم يستطيعوا كبت قهقهاتهم عليه، أن أعرفهم إلى الممثلين بعد العرض، ذاكراً لهم أي برامج فكاهية قصيرة وأي مسلسلات بوليسية ظهروا فيها. وبعد العشاء ذهبنا إلى ناد ليل في «وست إند». لم أر أمي

ترقص من قبل، لكنها خلعت صندالها وراحت ترقص مع الخالة جين على موسيقى «جاكسون فايف». كانت أمسية باهرة.

على أي حال، خيّل إليّ أن المديح الذي تلقيته تلك الليلة، ليس إلا عينة صغيرة من التقدير الحار الذي سأحصده بعد العرض الجماهيري الأول. لذا بعد الافتتاح خرجت من غرفة الملابس إلى حيث كان يقف أبي، بصديريته الحمراء، منتظراً مع الآخرين. لم يظهر على أي منهم الابتهاج. ذهبنا سيراً على الأقدام إلى مطعم مجاور، ولم يكن قد تحدث إلي أحد بعد. «حسناً أبتاه»، سألته «هل استمتعت بالعرض؟ ألست سعيداً بأنني لم أصبح طبيباً؟».

مثل المغفل نسيتُ أن أبي يحسب الصدق فضيلة. كان رجلاً متعاطفاً، لكن ليس على حساب لفت النظر إلى آرائه الخاصة.

«إنه عمل لعين نصف مطبوخ»، قال «ذاك الوغد اللعين السيد كيبلنغ يزعم أنه يعرف شيئاً عن الهند! ويا للأداء المروع الذي قام به ابني مثل منشد شعبي بالأبيض والأسود!».

قاطعته إيفا «كان أداء كريم واثقاً»، وربتت على ذراعي.

لحسن الحظ أن شانغيز ضحك طوال العرض. «عرض مسل»، قال «هلا دعوتني ثانية إليه؟».

قبل أن نجلس إلى الطاولة نحّتني جميلة جانباً وقبلتني على فمي. وشعرت أن شانغيز يراقبني.

«كنتَ رائعاً»، قالت كما لو أنها تتحدث إلى فتى في العاشرة بعد عرض مدرسي. «بريء وفتي جداً، ومتباه بجسدك الجميل الهزيل. لكن لا شك في أن المسرحية ليست إلا تعبيراً عن الفاشية الجديدة».

«جايمي».

«ومقرفة، وتلك اللهجة وذاك الخراء الذي طليت به نفسك. لقد كنت مجرد قواد لحساب الأفكار المسبقة»

«جايمي».

«وتلك الكليشيات حول الهنود. واللهجة، يا إلهي، كيف أمكنك فعل هذا؟ أحسب أنك تشعر بالخزي، أليس كذلك؟».

«هذا هو إحساسي في الواقع».

لكنها لم تشفق علي، وراحت تقلّد لهجتي في المسرحية «في الواقع لا تتمتع بأي حس أخلاقي، أليس كذلك؟ ستحصل عليه لاحقاً، حين يمكنك دفع ثمنه».

«إنك تبالغين يا جايمي»، قلت وأدرت ظهري لها. وذهبت وجلست بجوار شانغيز.

الحدث الوحيد الآخر المهم تلك الليلة كان شيئاً حدث بين إيڤا وشادويل عند الطرف البعيد من المطعم، بجوار الحمام. كان شادويل متكئاً إلى الجدار وإيڤا تلوح بقبضتها بغضب، وقد ارتسم الكثير من القرف والألم والرفض على وجهها. وفي لحظة ما التفتت وأشارت نحوي، كما لو أنها كانت غاضبة منه لأمر ما ارتكبه بحقي. أجل، لقد خذلها شادويل. لكنني عرفت أن شيئاً لم يكن ليثبط همته؛ لم يكف عن الرغبة في أن يكون مخرجاً، مع أنه لن يجيد الإخراج يوماً.

وتلك كانت نهاية الأمر. لم يأت أي منهم على ذكر «كتاب الغابة»، كما لو أنهم كانوا غير مستعدين لرؤيتي ممثلاً بل يفضلونني في دوري القديم كفتى عديم الفائدة. غير أن المسرحية حصدت نجاحاً، خصوصاً في المدارس، وصرت أكثر استرخاء واستمتاعاً بالتمثيل على الخشبة. جعلت اللهجة ساخرة وكنت أضحك الجمهور باللجوء إلى اللكنة لندنية في أوقات غير متوقعة، مردداً عبارات مثل «دعك من هذا الأمر يا

بهيرة». كنت أحب أن يتم التعرف عليّ في الحانة بعد العرض، وأقف في موضع بارز للعيان في حال أراد أحدهم الحصول على توقيعي.

كان شادويل يأتي من وقت لآخر لمشاهدة العرض، وذات يوم صار لطيفاً معي. وسألت تيري عن السبب. «أنا مندهش أيضاً»، أجابني. ثم دعاني شادويل إلى مطعم «جو ألن» الفاخر وعرض عليّ دوراً في مسرحيته القادمة، وهي مسرحية موليير «البورجوازي النبيل». وشجعني تيري، الذي أثر بي بطيبته البالغة، فصرت أساعده على توزيع منشورته خارج المعامل، وفي صفوف العمال المضربين، وخارج قطارات الأنفاق في «إيست إند»، في السابعة والنصف صباحاً، على قبول الدور. «اقبل به»، قال لي «سيكون مفيداً لك».

«بالتأكيد هذه قمامة بالنسبة إلى الممثلين، لكنه سيكسبك خبرة».

على عكس الممثلين الآخرين ـ الذين بدأوا التمثيل قبلي بكثير ـ لم تكن لدي فكرة عن أي عمل يمكنني الحصول عليه. لذا قبلت. وتعانقت وشادويل. ولم تعلق إيفا بتاتاً على الأمر.

«ماذا عنك يا تيري؟»، سألته ذات مساء. «هل حصلت على أي دور مقبل؟».

«آه أجل».

«ما هو؟».

«ليس شيئاً محدداً»، أجاب، «لكنني أنتظر المخابرة الهاتفية».

«أي مخابرة؟».

«لا أستطيع أن أخبرك يا كريم؟ لكن يمكنني الجزم بأن المخابرة ستأتي».

صرت، حين أصل إلى المسرح وأبدل ملابسي أنا بجوار تيري، أسأله: «حسناً تيري هل وصلت المخابرة؟ هل اتصل بيتر بروك؟».

أو يدخل أحدهم مسرعاً إلى غرفة تبديل الملابس قبل رفع الستارة، ويخبر تيري أن أحدهم يطلبه على الهاتف بشكل طارئ. وقد خدع مرتين، راكضاً نصف عار من غرفة الملابس إلى حيث الهاتف، طالباً وقف العرض بضع دقائق. لم ينزعج من مكايدتنا هذه له، «لست مستاء من ألاعيبكم الطفولية هذه. أنا أكيد من أن المخابرة ستأتي. لست قلقاً على الإطلاق. سأنتظر بكل بصبر».

وذات ليلة، خلال استراحة منتصف العرض، اتصل بنا مدير شباك التذاكر بحماسة في الكواليس، وأخبرنا بأن المخرج المسرحي ماثيو بايك حجز تذكرة لمشاهدة العرض. خلال خمس عشرة دقيقة كان كل الممثلين - ما عداي - يتحدثون عن ذلك. لم أر مثل هذا الهذر والتوتر والبهجة في حجرة تبديل الملابس من قبل. لكنني كنت أعرف مدى أهمية زيارة مخرجين معروفين بالنسبة إلى الممثلين القلقين دوماً على دورهم التالي. ذلك أن «كتاب الغابة» باتت من الماضي. وها هم الآن في غرفة تبديل الملابس الصغيرة، ينشرون ملابسهم على مشعاعات التدفئة، ويتناولون الأطعمة الصحية، ويرسلون بلا كلل سيرهم الذاتية وصورهم الفوتوغرافية إلى المخرجين والمسارح والوكلاء وشركات التلفزة والمنتجين. وحين يتنازل الوكلاء أو المسؤولون عن اختيار الممثلين ويأتون لمشاهدة العرض، ويبقون حتى نهايته، وهذا كان نادر الحدوث، كان يحتشد الممثلون حولهم بعد انتهاء العرض، مقدمين لهم الشراب وهادرين بالضحك، من أي شيء قد يتفوهون به. كانوا تواقين لأن يتذكرهم هؤلاء الزوار، لأن مستقبلهم المهني يتوقف على ذلك.

لهذا السبب كان مجيء بايك بالغ الأهمية. كان الزائر الأهم حتى الآن. كانت لديه فرقته الخاصة. لم يكن جسراً للوصول إلى مخرج آخر

مهم: كان مهماً في حدّ ذاته. لكن لماذا سيأتي لمشاهدة عرضنا الخرائي هذا؟ لم نستطع أن نخمّن السبب، مع أنني لاحظت أن تيري كان هادئاً حيال المسألة كلها.

قبل العرض المنتظر احتشد بعضنا في حجرة الإضاءة الصغيرة بينما اختل بايك، ببدلته الدينيم وكنزته الخفيفة البيضاء، وشعره المسترسل، مقعده في الصالة. كانت برفقته زوجته مارلين، وهي شقراء أربعينية. ورأيناه يقرأ كتيب المسرحية، مقلباً كل صفحة، وممعناً النظر في وجوهنا وسيرنا الذاتية التي تحت الصور.

وقف بقية الممثلين خارج الحجرة منتظرين دورهم لرؤية بايك. وبقيت صامتاً، إذ لم تكن لدي أي فكرة عمن يكون هذا الرجل وما هي إنجازاته. أهي مسرحيات؟ أم أفلام؟ أم عروض أوبرا؟ أم مسلسلات تلفزيونية؟ وهل هو أميركي؟ وأخيراً سألت تيري، مطمئناً إلى أنه لن يقابل جهلي بالاحتقار. وأوضح لي الصورة بكل ترحاب؛ كان يعرف عن بايك معلومات تكفي ليكتب سيرته الذاتية.

كان بايك نجم «المسرح البديل» المزدهر؛ أحد أكثر المخرجين المسرحيين أصالة. درس وعمل في «ماجيك ثياتر» في سان فرانسيسكو؛ ودرس أيضاً في «مؤسسة إيزالين» في مدينة «بيغ سور» مع فريتز بيرلز؛ وعمل في نيويورك مع شايكين و«لا ماما». ثم أنشأ في لندن، مع اثنين من معاصريه من كامبريدج، فرقته الخاصة التي أسماها «المسرح الجوال»، وكان يخرج عملين ضخمين سنوياً.

وكانت أعماله تعرض في لندن في نهاية جولتها على المراكز الفنية، ونوادي الشباب ومسارح الاستوديو. وكان علية القوم يحضرون عروضه الافتتاحية في لندن: نجوم روك بارزون، وممثلون مثل تيرانس ستامب، وسياسيون مثل طارق علي، ومعظم العاملين في مجال التمثيل، وحتى الجمهور العام. وكانت هذه العروض تستقطب الاهتمام أيضاً بسبب

فترات الاستراحة المدهشة فيها، والتي تشكّل مناسبة رائعة حيث يأتي الجمهور الفني لابساً على طريقة الفلاحين الصينيين، أو العمال (اللباس من قطعة واحدة)، أو ثوار أميركا الجنوبية (البيريه).

بطبيعة الحال كان لدى تيري آراء نقدية تجاه هذا كله، وبينما كنا نبدّل ملابسنا للعرض في تلك الليلة المهمة أعلن عن آرائه أمام بقية الفرقة، كما لو كان يخطب في اجتماع حزبي.

«أيها الرفاق، ما الذي يقدمه بايك في نهاية الأمر، فقط فكروا قليلاً ـ ليست سوى سياسات إصلاحية ويسارية مدعية. إنها كناية عن ممثلين سمينين يزعمون أنهم من الطبقة العاملة، في حين أن آباءهم جراحو أعصاب. إنها كناية عن ممثلات شهوانيات ـ أجمل منكم جميعاً حتى ـ يختارهن بايك بيديه ويحتضنهن! ولماذا يقدمون العرض كله دائماً عراة؟ اطرحوا على أنفسكم هذه الأسئلة! ما يقدّمه هراء بالنسبة إلى الممثلين، أيها الرفاق. هراء مطلق!».

صاح الممثلون الآخرون به أن يصمت.

«ليست هراء!»، هتفوا «على الأقل إنه يقدّم عملاً محترماً للممثل بعد أدائه «أرنب الغابة» والمسلسلات التشويقية وإعلانات البيرة».

كان تيري قد خلع بنطاله في الأثناء، وراحت ممثلتان تنظران إليه من فتحة في الستارة بينما يستعد لتحليل مسرح بايك. علق سرواله ببطء على القضيب المعدني المشترك في غرفة تبديل الملابس. كان يحب أن يُري الفتيات فخذيه العضليين، مثلما يحب إسماعهن نقاشاته العضلية أيضاً.

«آه بلى إنكم محقون. هناك حقيقة فيما تقولونه. إن أعماله هي الأفضل بما لا يقاس. لذلك يا رفاق أرسلت له سيرتي الذاتية».

كان الجميع خائفاً. لكن بوجود بايك بين الجمهور كان لدينا الدافع

للقفز بكل طاقتنا على الصقالة. وقدمنا أفضل عروضنا حتى الآن، وأنهيناه في الوقت المحدّد أيضاً، بعد أن صرنا في الفترة الأخيرة نختصر منه عشر دقائق، حتى نحظى بمزيد من الوقت في الحانة. بعد العرض بدلنا ملابسنا بسرعة، من دون النكات والشجارات ومحاولة أن ينزع واحدنا كلسون الآخر. وبطبيعة الحال كنت الأبطأ، بسبب نوعية زيي. كان «الدش» معطلاً، فاضطررت إلى أن أنظف نفسي بالكريما وبرش المياه من المغسلة على نفسي. انتظرني تيري بفارغ الصبر. حين انتهيت وبقي كلانا فقط في الغرفة أحطته بذراعي وقبلته على وجهه.

«هيا»، قال «لنتحرك، بابك ينتظرني».

«لنبق هنا لبعض الوقت».

«لماذا؟».

قلت «أفكر في الانضمام إلى الحزب، وأودّ مناقشتك في مسائل أيديولوجية عدة تشغل بالي».

«كلام فارغ»، قال وابتعد عني، «لستُ ضدّ هذا»، قال.

«ضدّ ماذا؟».

«الملامسة».

لكنه كان ضدها.

«لكن كل ما في الأمر أنه عليّ أن أفكر حالياً بمستقبلي. لقد حانت لحظتي يا كريم».

«فعلاً؟ هل هذه هي؟ هل هذه هي اللحظة؟».

«أجل، هذه هي اللحظة اللعينة... هيا عجّل رجاء».

«بكّل لي أزراري»، قلت له.

«يا إلهي، يا لك من فتى غبي. حسناً، تعال. بابك ينتظرني».

هرعنا إلى الحانة. لم أر تيري مفعماً بالأمل مثلما كان تلك الليلة. وتمنيت له فعلاً أن يحصل على هذا العمل.

كان بايك واقفاً إلى البار مع مارلين، يشرب نصف بيرة «لاجير». لم يبد من النوع المسرف في الشرب. اقترب منه ثلاثة من فرقتنا وتحدثوا معه لفترة موجزة. ورد بايك عليهم، لكنه بالكاد بدا معنياً بتحريك شفتيه. ثم جاء شادويل إلى الحانة، رأى بايك، فأومأ لنا برأسه بازدراء، وغادر. بدلاً من الاتجاه نحو بايك قادني تيري إلى طاولة في الزاوية بين العجائز الذين يشربون وحدهم كل ليلة، وهناك راح يدخّن لفافاته بينما نحتسي البيرة المعتادة مع االويسكي.

«بايك لا يظهر اهتماماً كبيراً بك»، أشرت إليه.

كان تيري واثقاً. «سيأتي. إنه بارد جداً، وأبناء الطبقة الوسطى كما تعرف هم كذلك، بلا مشاعر. أحسب أنه يريد تجربتي كواحد من الطبقة العاملة لكي تضفي على أفكاره السياسية السطحية بعض الأصالة».

«ارفض العمل معه»، نصحته.

«ربما أفعل ذلك. النقاد يقولون دائماً إن عمله «متجهم»، و«طهراني»، لأنه يحب المنصات المتقشفة ولا يحبذ الديكورات، معتقداً أن أمي وأبناء الطبقة العاملة يحبون ذلك. لا يعرف أنهم يحبون المقاعد الوثيرة والنوافذ الفرنسية والحلويات».

عندها فقط التفت بايك نحونا ورفع كأسه بنسبة جزء من الإنش. وابتسم له تيري.

«بالطبع بايك له حسناته. ليس مروجاً لذاته مثل أولئك المخرجين المخنثين وقائدي الفرق والمنتجين الذين يعيشون على مواهب الآخرين. لا يجري أي مقابلات صحافية ولا يظهر على التلفاز. وهذا حسن فيه،

لكن. . . »، ومال نحوي «ثمة ما ينبغي أن تعرفه، إذا واتاك الحظ وعملت معه يوماً ما».

أخبرني أن حياة بايك الخاصة لم تكن منصة للممارسات المتقشفة والطهرانية. وأنه إذا ما عرف النقاد المشوهون المعجبون بعمله ـ والنقاد الذين كانوا يجلسون في الصفوف الأمامية متفرجين علينا كانوا بالفعل يشبهون «الغارغويلز»، بينما تحتشد ممرات المسرح بكراسيهم النقالة ـ إذا ما عرف أولئك ببعض عناصر الضعف لدى بايك، أو فلنقل ببعض ممارساته ـ لنظروا إلى عمله بطريقة أخرى. «آه أجل، بطريقة مختلفة كلياً».

«أي طريقة؟».

«لا أستطيع أن أقول لك ذلك».

«لكننا يا تيري لا نخفي شيئاً عن بعضنا».

«لا، لا أستطيع أن أخبرك، آسف».

لم يكن تيري نماماً. كان يعتقد أن الناس يتشكلون عبر القوى التاريخية غير الشخصية، لا عبر الجشع، والمكر، والشهوة. وإلى ذلك، فإن بايك كان يتجه الآن نحونا. أطفأ تيري بسرعة سيجارته، وأرجع كرسيه إلى الوراء ووقف، وحتى أن يده ارتفعت إلى رأسه ليسوّي شعره. صافح بايك. وعرفنا إلى بعضنا.

«لطيف أن أراك يا تيري»، قال بايك بودّ.

«أجل، وأنت أيضاً، وأنت أيضاً».

«أنت تؤدي أفعواناً ممتازاً».

«شكراً لك، والشكر لله لأن أحدهم يقوم بعمل راق في هذا البلد المترهل، إيه؟».

«من تقصد؟».

«أنت يا ماثيو».

«آه أجل أنا».

«أجل».

نظر إلي بايك وابتسم «تعال واشرب كأساً معي على البار يا كريم».

«أنا».

«لم لا؟».

«حسناً أراك لاحقاً يا تيري»، قلت.

بينما أنهض نظر إلى تيري كما لو أنني أعلنت تواً أنه لدي دخل خاص. غاص في كرسيه بينما ابتعدت برفقة وبايك، وراح يشرب الويسكي.

بينما قدم لي بايك نصف كأس من البيرة المرة، وقفت هناك أنظر إلى صفوف القناني الموضوعة بالمقلوب وراء الساقي، غير ناظر إلى الممثلين الآخرين في الحانة، الذين كنت أعرف أنهم جميعاً يحملقون بي. تأملت لبضع ثوان، مركزاً على تنفسي، مدركاً فوراً كم كان ثقيلاً. حين وصل الشراب قال لي بايك: «أخبرني عن نفسك».

ترددت. نظرت إلى مارلين، التي كانت وراءنا تتحدث إلى ممثل «لا أعرف من أين أبدأ».

«أخبرني شيئاً تعتقد أنه قد يثير اهتمامي».

ونظر إليّ بكل اهتمام. لم يكن أمامي خيار. بدأت أحكي بسرعة وبشكل عشوائي. لم يعلّق. تابعت. حسبت أنه يحلّلني نفسياً، وخيل إلي أنه يتفهم كل ما أقوله، وسررت لوجوده؛ كان هناك أشياء من الضروري قولها. لذا أخبرته أشياء لم أخبرها لأحد قبله، مدى استيائي

من أبي بسبب ما فعله لأمي، وكيف عانت هذه الأخيرة، وكم كان الأمر كله مؤلماً، مع أنني كنت بدأت الآن فقط أحسّ بهذا الألم.

الممثلون الآخرون، الذين تجمعوا الآن حول طاولة تيري، بأكواب ضخمة من البيرة الصفراء، أداروا كراسيهم ليتفرجوا علي، كما لو أنني مباراة كرة قدم. لا بد من أنهم كانوا مندهشين ومستائين من فكرة رغبة بايك بالاستماع إلي، من بين الجميع، أنا الشخص الذي بالكاد له علاقة بالتمثيل. حين تلعثمت، حين صفعني إدراكي أنه ليست أمي التي هجرتني بل أنا الذي هجرتها، قال بايك بلطف «أظن أنك سترغب بالمشاركة في عملي المقبل».

أفقت من حلمي الاستعادي وقلت «أي نوع من العمل هو؟».

لاحظت أنه حين يكون بايك بصدّد التكلم يميل رأسه إلى جانب واحد، في وضعية شخص مستغرق في التفكير، وتسرح عيناه. وكان قليلاً ما يستعمل يديه، فيحركهما ببطء، من دون أن يرفرف أويشير بهما، إنما برقة، كما لو انه يمسح راحة يده على بعد إنشات من سطح لوحة. أجاب «لا أعرف».

«ماذا سيكون دوري؟».

هزّ رأسه بأسف.

«كم عدد الأشخاص سيكون فيه؟».

صمت طويلاً. ملوحاً بأنامله المنفرجة المشدودة، أمام وجهه.

«لا تسألني».

«هل تعرف ما الذي ستفعله»، سألته بجرأة أكبر.

«لا».

«حسناً، لا أعرف إذا كنت راغباً بالعمل بهذه الطريقة الغامضة. أنا لا خبرة لدي كما تعرف».

نطق أخيراً «أظن أنها قد تكون عن الموضوع الوحيد في إنكلترا».

«فهمت».

«أجل».

نظر إلي كما لو أنني واثق من ماهية هذا الأمر.

«الصراع الطبقي»، قال «أيناسبك هذا؟».

«أجل، أظن ذلك».

لمس كتفي. «حسناً، شكراً لك لانضمامك إلينا»، قال ذلك كما لو أنني أسديه معروفاً كبيراً.

أنهيت شرابي، وذعت على عجل الممثلين الآخرين وخرجت بأسرع ما أمكنني، غير راغب برؤية فضولهم وابتساماتهم الساخرة. كنت أمشي في موقف السيارات حين نطّ أحدهم عليّ من الخلف. كان تيري.

«دعني»، قلت بعنف.

«أحقا؟».

لم يكن يضحك. بدا شديد الإحباط. وجعلني أخجل من سعادتي المفاجئة. مشينا بصمت معاً إلى موقف الحافلات. كان برد وعتمة ومطر.

«هل عرض عليك بايك دوراً؟»، سألني أخيراً.

«أجل».

«كذاب!».

لم أقل شيئاً. «كذاب!»، قال. كنت أعرف أنه حانق جداً بحيث لا يستطيع السيطرة على نفسه؛ لم يمكنني لومه على هذا الغضب «لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً»، قال.

صرخت فجأة في الهواء الليلي «بلى، بلى، إنه صحيح». والآن العالم بات فيه بعض التوتر؛ الآن بدأ يطن ويرتعش بالمعنى والاحتمالات، «بلى، بلى، بلى لعينة!».

حين وصلت إلى المسرح افي ليوم التالي كان أحدهم قد فرش سجادة حمراء قذرة، من باب حجرة تبديل الملابس إلى الزاوية التي أغير فيها ملابسي عادة. «هل أستطيع مساعدتك على ارتداء زيك؟»، قال أحد الممثلين «هل يمكنني الحصول على توقيعك؟»، قال آخر. تلقيت النرجس، والزهور وكتاباً للمبتدئين عن التمثيل. غريب الأطوار بويد، قال لي وهو يخلع سرواله ويلوح بقضيبه أمامي، «لو لم أكن أبيض ومن الطبقة الوسطى، لكنت الآن في عرض بايك. من الواضح أن مجرد الموهبة لا توصلك إلى أي مكان هذه الأيام، فقط غير المؤهلين سيفلحون في إنكلترا السبعينات».

بقيت لبضعة متجانباً عن أن أخبر شادويل بعرض بايك، وأنني لن أشارك معه في مسرحية موليير. كنت سعيداً ولم أشأ إفساد لذة الترقب بالشجار معه. لذا راح «شيتفوليومز» يحضر عرضه التالي كما لو أنني سأكون فيه، حتى ذات يوم، قبل العرض، دخل إلى غرفة تبديل الملابس.

«جيريمي»، قلت له «أظن أنه من الأفضل أن أخبرك بأمر ما».

ذهبنا إلى المرحاض العمومي، المكان الوحيد الذي فيه بعض الخصوصية في الكواليس، وأخبرته بالأمر. أومأ برأسه وقال بلطف «هذا جحود من قبلك. لا يفترض بك أن تغادرنا هكذا، هذا ليس بصحيح، نحن جميعاً نحبك، حسناً».

«أرجو أن تفهم يا جيريمي، بايك رجل مهم، مهم جداً. هناك بالتأكيد مرحلة في علاقات الرجال الذين...».

ارتفع صوت «شادشت» فجأة وخرج من التواليت وإلى غرفة تبديل الملابس. خلفنا في الأوديتريوم كان العرض على وشك أن يبدأ، واحتل الجمهور مقاعدهم. وكان بوسعهم سماع كل كلمة يقولها. وشعرت بالسخف وأنا أركض وراءه بزيي ذاك.

«أي مرحلة أيها السافل المنحط؟»، قال «ليس لديك الخبرة للتعامل مع بايك. ستصبح لحماً مفروماً بثلاثة أيام. أنت لا تعرف أي وغد قوي هو بايك هذا. إنه ساحر حسناً. كل الأناس المثيرين للاهتمام فيهم سحر. لكنه سيصلبك!».

«لماذا قد يرغب بأن يصلب كائناً صغيراً مثلي؟»، قلت بضعف. بويد ابتسم ورسم بفمه كلمة «بالضبط» لتيري، الذي تجاهله لكنه راح يهزّ رأسه موافقاً على كلام «شوتبولت».

«بهدف التسلية أيها المغفل! لأنه هكذا يعمل أمثال بايك! يزعمون أنهم ديمقراطيون لكنهم لينينيون صغار».

تيري شعر بالإهانة من هذا الكلام. نظر إلى «شادويل» وقال «يجدر أن يكونوا محظوظين للغاية!»، لكن «شودي» لم يكن ليتراجع الآن.

«إنهم فاشيون متثاقفون ونخبويون يحسبون أنهم يعرفون أفضل من سواهم! إنهم رهابيون، أناس خائفون!».

راح بعضهم يقهقه، مخفين وجوههم بأيديهم، مثل طلاب المدارس حين يعاقب الأستاذ أحد زملائهم. مضيت إلى الخشبة على سجادتي الحمراء.

«لا يهمني ما تقوله. أستطيع الاعتناء بنفسي».

«ها!»، صرخ، «سنرى. يا محدث النعمة الصغير!».

الفصل الحادي عشر

جاء الربيع. بعد فترة قصيرة من وداعي لبهيرة وبالو والآخرين، وقولي «انقلع» لشادويل، وعدم ذهابي إلى الحفلة بعد العرض الأخير، وجدت نفسي في قاعة تمارين ناصعة نظيفة ذات أرضية خشبية ملمعة، (بحيث يمكننا أن نركض فيها عراة الأقدام) في بهو كنيسة إلى جوار نهر «تشلسيا». كان هناك ستة ممثلين في فرقة بايك، ثلاثة رجال وثلاث نساء. اثنان منا كانا رسمياً «سوداً» (علماً أنني كنت في الواقع بيج أكثر من أي شيء آخر). ولا واحد منا كان فوق الثلاثين. كان هناك فتاة واحدة فقط تدعى كارول مبثرة الوجه، (كانت تعيش أيضاً في الضواحي فحصلت على رقم هاتفها فوراً) كانت عملت من قبل مع بايك. وكان هناك فتاة صهباء الشعر تدعى إليانور، في بداية العشرينات، بدت حساسة وصاحبة خبرة في التمثيل، وعلى عكس كارول لم تكن تحلم بنفسها كنجمة صغيرة. وكان هناك ممثلة سوداء في التاسعة عشرة، تدعى ترايسي، لها آراء حازمة لكن غريبة. الرجلان الآخران، ريتشارد (لوطي) وجون، كانا من أولئك الممثلين الودودين الساخرين، دخلا إلى المشهد المسرحي اللندني منذ سنوات، ممثلين في غرف صغيرة فوق الحانات لقاء حصة من الدخل، وفي الأقبية، وفي المهرجانات وفي مسرح الشارع. كانوا يطلبون القليل، دوراً جيداً، ومخرجاً غير سلطوي، وحانة مريحة قرب المسرح تقدم الجعة الأصلية. كان هناك أيضاً مؤلفة، لويز لورنس، وهي امرأة صادقة وقانعة ذاتياً من الشمال،

تضع نظارة سميكة، وتتكلم قليلاً، لكن تكتب كل ما تتفوه به أمامها، خصوصاً إذا كان غبياً.

في العاشرة من كل صباح كنت أتوجه بالدراجة إلى «تشلسيا»، مستمداً الطاقة من ساندويتشات الفطر المحمص الذي تعده لي إيڤا لكي يمدّني بالطاقة، وأقود في محيط القاعة مفلتاً يدي عن المقود، احتفالاً بالحياة. لم أكن بمثل هذه الحماسة في حياتي تجاه أي شيء. كانت تلك فرصتي الكبرى، بأكثر من ناحية واحدة.

كان بايك، ببدلته الرياضية الزرقاء اللماعة، وجشده الرشيق وشعره الرمادي، يجلس عادة على طاولة مسنداً رجله على كرسي، محاطاً بالممثلين الضاحكين ومديرتي المسرح، وهما شابتان رائعتان، كانتا بمثابة خادمتيه الشخصيتين؛ تحضران له الصحف، وعصير البرتقال، وتخططان أسفاره إلى نيويورك. وكانت إحداهما تحمل دفتر ملاحظاته، وتحمل الأخرى القلم الرصاص والمبراة. أما سيارته (التي أشار إليها ريتشارد بوصفها «قضيب بايك»، قائلاً مثلاً: «قضيب بايك يسد المدخل»، أو «قضيب بايك يمكنه الوصول إلى سرعة ستين ميلاً بثلاثين ثانية»)، فكانت من أولوياتهما. كما كانتا تمضيان صباحات كثيرة على الهاتف، تعتنيان بمواعيده العاطفية.

كان الجو الذي يخلقه بايك نقيضاً لأجواء شادويل المتوترة والفوضوية، والتي هي مجرد محاكاة لما يحسبه شادويل طريقة عمل العباقرة. يبدأ صباح بايك بالإفطار والنميمة الضرورية حول الطاولة، متحدثاً عن الآخرين بتطرف وفظاظة لم أعهد مثلهما من قبل (لم تكن أمي لتسمح لنا بالتكلم على أي شخص بهذه الطريقة)، متهجماً على مخرجين آخرين، «لا يستطيع إخراج الهواء من منفخ»)؛ أو على كتاب لا يحبهم («لو كان الأمر بيدي لسلمته بكل سرور إلى ستالين لكي يعيد تثقيفه»؛ أو على نقاد («وجهه يمكن أن يجعل النساء الحوامل

يجهضن»). بعد ذلك ننهض ونلعب لعبة «امسكني»، أو السباقات على الظهر، أو «كم الساعة أيها السيد ذئب؟».

كل هذا بدا لي أبعد ما يكون عن العمل، وكنت أحب أن أفكر بما يمكن أن يكون رأي جيراني من ساكني الضواحي، الذين كانوا يسدّدون أجورنا عبر الضرائب، بمجموعة من البالغين من أمثالنا يتقمصون خلال تلك الألعاب آلات كاتبة وآلات تحميص وألواح ركمجة.

بعد الغذاء، لكي نحمّي ثانية، كان يجعلنا بايك نلعب «الإحساس»، حيث نقف وسط دائرة ضامين أرجلنا ومغمضين أعيننا، وندع أنفسنا نقع فحسب، متنقلين باسترخاء بين أعضاء الفرقة. وكنا نلمس بعضنا البعض ونتبادل القبل والعناق. وبهذه الطريقة صهرنا بايك ببعضنا. وقد أحسست خلال إحدى المرات، ونحن نلعب «الإحساس»، أن إليانور مكثت بين ذراعي أطول بقليل من اللازم.

في اليوم الرابع، جالساً هناك عند العاشرة صباحاً ونحن حوله، لعب بايك لعبة أقلقتني، وجعلتني أفكر أنه ثمة جانب خفي منه. نظر بمكر إلى المجموعة، وقال إنه سيتنبأ من منا سيمارس الجنس مع من. نظر ملياً إلى كل واحد منا وقال «أظن أنني أعرف أي طريق ستسلكه الملذات. سأدون توقعاتي على ورقة، وفي الليلة الأخيرة من العرض سأقرأها عليكم، حسناً؟».

خلال ألأسبوع الثاني أشرقت الشمس وفتحنا الأبواب. لبست قميص هاواي مفتوح كنت أزرره أحياناً عند المعدة. وكاد ينقطع نفس إحدى مديرتي المسرح حين رأتني على هذا النحو. كان كل واحد منا يجلس على ما كان يسميه بايك «المقعد الحار» يحيط به بقية أعضاء الفرقة بشكل نصف دائري، مستمعين إلى قصة حياته. «ركزوا في ما تروونه على الطريقة التي تشكّل فيها بصورة نهائية وضعكم في المجتمع»، قال لنا بايك.

كوني شكاكاً وارتيابياً، من النوع الإنكليزي الذي يحرجه كشف الذات على هذا النحو، وجدت قصص حياة الآخرين التي تحكي عن التناقضات والبؤس، الفوضى والسعادة العابرة، مؤثرة بصورة غريبة. وكم ضحكت حين راحت لورنس تروي قصة عملها في صالة تدليك في سان فرانسيسكو (حين كانت عالقة هناك)، حيث لم يكن مسموحاً لها ولزميلاتها أن يعرضوا خدمات جنسية إضافية على زبائنهن الرجال مخافة أن يكونوا من رجال الشرطة. فيسألونهن بالإشارة: «هل هناك أي عضلة أخرى بحاجة إلى الاسترخاء يا سيدي؟»، وخلال عملها هذا اكتشفت لورنس الاشتراكية، إذ في تلك الغابة من الذكور وبرك المني، «سرعان ما أدركت أن لا شيء إنسانياً كان غريباً عني»، مثلما صاغت كلماتها.

تكلم ريتشارد عن رغبته بمضاجعة رجال سود فقط، والأندية التي يطوف عليها باستمرار للحصول عليهم. وأخبرتنا إليانور، وسط سرور بايك واندهاشي، كيف عملت مع فنانة أقنعتها بأن تستخلص نصوص الشعر (من قبيل «أسنان البقرة مثل ندف الثلج تعض العشب الثومي»)، من فرجها قبل أن تقرأها. وكانت الفنانة نفسها تضع ميكروفوناً في فرجها، وتُسمع الجمهور خريره. كان هذا كافياً بالنسبة إلي. ، حتى تهيجني إليانور. وكنت قد تخليت، مؤقتاً، عن تيري.

كل بضعة أيام كنت أتصل بجميلة لأخبرها هذه التفاصيل كلها. وكان الجميع مشجعاً: إيڤا بعد أن سمعت ببايك، كانت شديدة التأثر؛ وأبي كان سعيداً لحصولي على عمل. الشخص الوحيد الذي كنت أكيداً من أنه سيبول على شعلتي هو جميلة.

لذا شرحت لها الألعاب والهدف منها «بايك رجل فطن»، قلت لها «عبر جعلنا نفضح أنفسنا، جعلنا هشين ومعتمدين على بعضنا. لقد بتنا مقرّبين جداً من بعضنا كمجموعة، أمر لا يصدق».

«هراء. لستم قريبين من بعضكم. إنه أمر زائف، مجرد تقنية».

«ظننت أنك تؤمنين بالعمل الجماعي وما إلى ذلك. . . تلك الأمور الشيوعية».

«كريم، هل تريد أن تعرف ما الذي جرى هنا في المتجر بينما أنت هناك تعانق الغرباء؟».

«ما الذي جرى؟».

«لا، لن أحكي معك. أنت شخص اناني يا كريم، لا يهمك سوى نفسك».

«ماذا؟».

«عد والعب دور شجرة»، وأقفلت السماعة.

بعد فترة قصيرة توقفت اجتماعاتنا الصباحية في قاعة التمارين: ذهب كل واحد منا في طرق منفصلة ليقوم بأبحاث حول مختلف الشخصيات من مختلف الطبقات الاجتماعية، تلك الشخصيات التي ستحاول لويز لورنس توليفها في عمل واحد. بدأنا في فترات العصرية نرتجل الشخصيات ونبني المشاهد. كان تشارلي خياري الأول، لكن بايك لم يشجعني، «نريد شخصاً من خلفيتك الاجتماعية»، قال، «شخصاً أسود».

«أحقاً؟».

لم أكن أعرف أي شخص أسود، مع أنه كان ثمة فتى نيجيري مع في المدرسة، لكنني لم أكن أعرف أين يمكنني أن أجده، «من تعني؟»، قلت له.

«ماذا عن عائلتك؟»، قال بايك. «العمات والأعمام؟ سيضفون على العمل بعض التنويع. أراهن أنهم خلابون».

فكرت لبضع دقائق.

«هل من أفكار؟»، سألني.

«وجدتها»، أجبته.

«ممتاز، عرفت أنك الشخص المناسب للعرض».

بعد أن تناولت الإفطار مع أبي وإيفا عبرت بدراجتي إلى الجانب الآخر من النهر، واجتزت ملعب الكريكت البيضاوي إلى متجر جيتا وأنور. كنت بدأت أفكر في جعل أنور أساس الشخصية التي سأؤديها، وأردت أن أرى كيف تغير بعد مجيء شانغيز، الذي كان خيبة أمل كبيرة له، بعد أن راهن على الحصول على طاقة جديدة بحصوله على ابن، وقد عجّل بشيخوخته هذا العنصر الجديد، الذي اتضح أنه غير جديد على الإطلاق.

حين وصلتُ وقفت جيتا وراء درج النقود وعانقتني. لاحظت كم بات «بارادايز ستورز» كئيباً الآن: الطلاء تقشّر عن الجدران، والرفوف وسخة، والحشوات على الأرض متصدعة، واللمبات معطلة، مما زاد من عتمة المكان وكآبته. في الخارج، في صناديق البرتقال القديمة، حتى الخضار بدت مهملة، وجيتا سئمت من محو الشعارات العنصرية التي تظهر على الجدران كلما أزاحت الصناديق. متاجر أخرى في المنطقة، وفي لندن كلها في الواقع، كانت تتعصرن بسرعة، بعد شراء الباكستانيين والبنغاليين الطموحين لها. إخوة عدة باتوا يأتون معاً إلى لندن، يحصل كل واحد منهم على وظيفتين، في مكتب خلال النهار وفي مطعم ليلاً. ثم يشترون متجراً، ويسلمون إدارته لواحد منهم، وتكون زوجته أمينة الصندوق. ثم يشترون متجراً آخر ويكررون الأمر نفسه مع أخ آخر، حتى تتأسس سلسلة. كانت الأموال تتدفق جراء هذا العمل، لكن متجر أنور وجيتا لم يتغير منذ سنوات، فتراجعت إنتاجيته. كل شيء كان يسوء؛ لكنني لم أرد أن أشغل نفسي بالأمر. كانت المسرحية بالغة الأهمية بالنسبة إلي.

أخبرت جيتا عن المسرحية وما أريده، فقط لكي أضعها في الصورة، عارفاً أنها لن تفهم شيئاً ولن تهتم. لكن كان لديها ما تقوله.

«أياً كان ما تفعله»، قالت «إذا كنت ستأتي إلى هنا يوماً بعد يوم، فعليك أن توقف عمك عن الخروج حاملاً العكاز».

«لماذا يا عمة جيتا؟».

«لقد جاء بعض المجرمين ذات يوم، ورموا رأس خنزير على واجهة المتجر، فحطموها، بينما كنت جالسة هنا».

لم تخبرني جميلة شيئاً عن هذا.

«هل تأذيت؟».

«جرح بسيط. بعض الدم هنا وهناك».

«وما الذي فعلته الشرطة؟».

«قالوا إنها فعلة متجر آخر، وإن السبب تنافسي».

«يا لمنيكتهم».

«فتى سيء، لغة سيئة».

«عذراً عمتي».

«جعلت هذه الحادثة عمك يتصرف بغرابة. صار يطوف الشوارع كل يوم بعصاه، صارخاً على أولئك الفتية البيض «اضربني أيها الفتى الأبيض، إذا ما أردت!». واحمرّ وجهها خجلاً وخزياً. «اذهب إليه»، قالت، وشدّت على يدي.

وجدت العم أنور في الطابق الأعلى بالبيجاما. بدا أن جسده قد تقلص خلال الأشهر القليلة الفائتة: هزل بدنه، بينما بقي رأسه بالحجم نفسه، مرتفعاً فوقه مثل مصباح على عكاز.

«أيها الوغد»، قال محيياً «أين كنت؟».

«سأزورك كل يوم من الآن فصاعداً».

همهم استحساناً وتابع مشاهدة التلفزيون. أحب وجودي بجواره، مع أنه نادراً ما كان يتكلم أو يسألني عن أخباري. منذ أسابيع قليلة صار يرتاد ابمسجد بصورة دائمة، وصرت أرافقه من وقت لآخر. كان المسجد كناية عن منزل رث له شرفة وتفوح منه رائحة «الكاري». وكانت أرضه مليئة بقشور البصل، أما «المولفي» (الشيخ) قمر الدين فجلس وراء مكتبه محاطاً بالمجلدات الإسلامية وبهاتف أحمر، ممسداً لحيته التي طالت حتى معدته. اشتكى له أنور أن الله تخلى عنه على الرغم من من صلواته المنتظمة وتعففه عن النساء. ألم يحب زوجته ويمنحها متجراً، والآن ها هي ترفض العودة معه إلى بومباي؟

اشتكى لي أنور جيتا ونحن جالسان في المخزن مثل تلميذين فارين من المدرسة. «أريد العودة إلى وطني الآن»، قال «لقد فاض بي الكيل من هذا المكان اللعين».

لكن مع مرور الأيام رأيت تقدّم جيتا. كانت بالتأكيد لا تريد العودة إلى الهند. بدا كما لو أن جميلة علمتها إمكانية ذلك، وتحولت إلى مثال لها. أرادت الأميرة الحصول على رخصة لكي تبيع الخمور في المتجر؛ أرادت بيع الصحف وزيادة البضاعة. كان يمكنها أن ترى كيف يتم فعل الأمر كله، لكن أنور كان مستحيلاً، لا يمكنك أن تناقش معه أي شيء. مثل العديد من الرجال المسلمين ـ ابتداء من النبي محمد نفسه، الذي أسّستَ أقواله المطلقة، المستمدة من الله، للأحكام المطلقة ـ كان أنور يظن أنه مصيب في كل شيء. لا شك في أي موضوع يدخل إلى رأسه.

«لماذا ترفض العمل باقتراحات جيتا؟»، سألته.

«لأي غرض؟ ما الذي سأفعله بالأرباح؟ كم من الأحذية يمكنني أن

ألبس؟ كم من الجوارب؟ هل سآكل أكثر؟ ثلاثون إفطاراً بدلاً من واحد»، وكان دائماً يختم بالقول «كل شيء ممتاز».

«هل تؤمن بذلك يا عمو؟»، سألته يوماً.

«لا»، ردّ «كل شيء يصيّر إلى الأسوأ».

كانت قدريته الإسلاموية ـ قناعته بأن الله مسؤول عن كل شيء ـ تحبطني. وكنت دائماً أشعر بالارتياح حين أغادر. كان لدي مشروع آخر ينشأ على الضفة الأخرى من النهر. اخترت إليانور لتكون حبيبتي، وبدأت أحرز تقدماً.

تقريباً كل يوم بعد التمارين كنت أنتظر بشوق سؤال إليانور لي: «هل ستزورني لاحقاً لكي تسليني؟»، وهي تنظر إليّ بترقّب، عاضة على أظافرها وقاضمة بأسنانها الجلد من حولها، ولافة شعرها الأحمر الطويل حول أصابعها.

لاحظت إليانور، منذ بداية التمرينات، خوفي وانعدام خبرتي، وساندتني معنوياً. كانت قد ظهرت في أفلام، وفي برامج تلفزيونية، وفي «ويست إند». وشعرت أنني ولد بحضورها، لكن كان هناك فيها ما هو بحاجة إليّ أيضاً، شيء ضعيف أكثر مما هو لطيف أو شغوف، كما لو أنني مصدر راحة خلال مرض، شخص يمكنها أن تلمسه ربما. وما إن أدركت هذا الضعف حتى تقرّبت منها. لم أكن قد خرجت سابقاً مع نساء جميلات وناضجات مثلها، فشجعتها على الخروج معي حتى يحسب الناس أنها صاحبتي.

بدأت أتردد على شقتها في «لادبروك غروف»، وهي منطقة كانت تصبح تدريجياً محصورة بالأثرياء، على الرغم من أن تجار مخدرات «الراستا» ما زالوا يتسكعون خارج الحانات؛ في الداخل، كانوا يقطعون الحشيش على الطاولة بسكاكينهم. كان هناك الكثير من «البانكي» أيضاً، مراهقون يلبسون مثل تشارلي، بالأسود الرث. كانت تلك ذروة

الموضة. ما إن تصل بثيابك الجديدة إلى البيت حتى يكون عليك أن تشرطها بالشفرة. وكان هناك الباحثون الأكاديميون والصحافيون وما شابه، ممن درسوا معاً في جامعة أوكسفورد، ويرتادون صالونات النبيذ بسيارتهم الإيطالية الحمراء والزرقاء، خائفين من أن يسرقها الفتيان السود، لكنهم كانوا أكثر تحفظاً من الناحية السياسية للاعتراف بمخاوفهم هذه.

لكن كم كنت غبياً وساذجاً. لقد جعلني جهلي بلندن أفكر بأن حبيبتي إليانور لا تنتمي إلى الطبقة وسطى قبل أن يتضح لي أنها كذلك بالفعل. لم تكن تختار ثيابها بأناقة، وتضع الكثير من الأوشحة، وتعيش في «نوتنغ هيل» وتحكي أحياناً بلكنة «كاتفورد». كانت أمي لتفزع من ثياب إليانور وتصرفاتها، وقولها كلمات مثل «خراء»، و«اللعنة» كل عشر ثوان. ما كان هذا ليزعج إيڤا: ربما كان خاب أملها من إخفاء إليانور لأصولها الإجتماعية الراقية والطريقة التي تأخذ فيها «علاقاتها الاجتماعية» على أنها أمر مسلم به، إيڤا كانت مستعدة للتضحية بالكثير لتدخل إلى البيوت التي كانت إليانور تلعب فيها في طفولتها.

كان والد إليانور أميركياً يملك مصرفاً؛ وأمها رسامة بورتريات إنكليزية محترمة؛ وأحد أشقائها بروفسوراً جامعياً. وقد تنقلت بين منازل ريفية، ودرست في مدرسة خاصة، ثم في إيطاليا، وعرفت الكثير من العائلات الليبرالية والأناس الذين ظهروا خلال الستينات: رسامون، روائيون، محاضرون، شباب يحملون أسماء مثل: كانديا، إيما، جاسبر، لوسي، إنديا، وبالغون يدعون إدوارد، كارولين، فرانسيس، دوغلاس، و«لايدي لوكهام». كانت أمها صديقة الملكة، وحين تطل بسيارتها «البنتلي» يحتشد أولاد الحي حول السيارة ويهللون فرحين. وذات يوم اضطرت إليانور لقطع التمارين لأن أمها طلبت منها أن تحدّد لها تكلفة غذاء على شرف الملكة. كانت أصوات أولئك الناس

ولهجتهم تذكرني بأشخاص مثل إنيد بلايتون، وبانتر وجننغز، وبالحضانات والمربيات والمدارس التمهيدية، عالم من الأمان الكامل كنت أحسبه موجوداً في الكتب فحسب. لم يكن لديهم أي فهم لحقيقة أنهم يمتلكون أكثر من سواهم. كنت أرتعب من ثقتهم بنفسهم، من تعليمهم، ومكانتهم الاجتماعية، وأموالهم، وبدأت أدرك مدى أهميتهم.

وقد فوجئت حين اكتشفت أن الأناس الذين كانت إليانور تصحبني معها إلى بيوتهم ليلة بعد ليلة، خلال «اعتنائي بها»، كانوا لطفاء ومهذبين وأبدوا اهتماماً بي، وكانوا أكثر لطفاً بكثير من تلك العصبة المتعجرفة التي كانت إيڤا تستكشفها. مجموعة إليانور، بخليطها الطبقي والثقافي والمالي، وبعدم اكتراثها بهذه العناصر الثلاثة معاً، كانت بالضبط المزيج الذي سمّم روح إيڤا، لكنها لم تكن قادرة على الاقتراب منه. كانت هذه بوهيمية طبيعية؛ وهو ما كانت تسعى إليه؛ كان ذروة الطموح. على أي حال، أخفيت عن إيڤا هذه الجانب من ارتقائي الاجتماعي، موفراً إياه للدفاع الكامل أو الهجوم الكامل حين تأتي المناسبة، علماً أنها سمعت، هي وأبي، أنني أضع عيني على إليانور. وكان ذلك مصدر ارتياح بالنسبة إلى أبي، الذي كان مرتعباً من أنني قد أكون لوطياً بحيث ما عاد يجرؤ على فتح السيرة. في عقله المسلم كان يكفي المرء سوءاً أن يكون امرأة؛ أما أن يكون رجلاً وينكر ذكورته فهذا انحراف وتدمير للذات. حين كنت أشعر أن أبي يفكر في الأمر كنت آتي على ذكر أمي، كيف أحوالها وما الذي تفعله، عالماً أن هذا عذاب التفكير بها سيطغى على مسألة ميولي الجنسية.

وكانت إليانور غريبة الأطوار بعض الشيء. لم تكن تحب الخروج ما لم تكن الزيارات خاطفة ويمكنها الرحيل ساعة تشاء. لم تكن تبقى خلال وقت العشاء كله مثلاً، بل تصل خلاله، وتتناول الكثير من

الحلويات، متحدثة مع هذا وذاك، مختارة موضوعات مختلفة، باحثة في أصلها وفصلها، قبل أن تجرني إلى الخارج بعد نصف ساعة، وقد واتتها رغبة مفاجئة بالذهاب إلى حفلة أخرى في مكان ما، للتحدث مع شخص ما خبير بقضية «علاقة بروفيومو العاطفية»(*).

غالباً ما كنا نبقى في البيت وتتولى هي الطبخ. لم أكن بالمرة شخصاً محباً للعلم والخضروات، بعد أن تلقحت ضد الاثنين في المدرسة، لكن في معظم الليالي، كانت إليانور تعد لي الكرنب الهليوني أو الملفوف، أو «كرنب بروكسل»، مغمسة إياها لبضع ثوان بالزبدة المقلية والثوم. وفي أحيان أخرى كانت تعدّ فطائر منفوخة من سمك «سنابرز» الأحمر، الذي يذكّر طعمه الحرّيف بلحم الحوت، مع القشدة الحامضة والبقدونس، وكنا عادة نتناول زجاجة من نبيذ «شابلي» الأبيض، ولم أكن من قبل اختبرت أي من هذا! ولم تكن إليانور تستطيع النوم قبل أن تثمل، ولم أكن أركب دراجتي وأعود إلى البيت قبل أن تنام حبيبتي، بعد أن تكون قد قرأت القليل من جين ريز أو أنتونيا وايت. كنت أفضل بالطبع لو كنت رفيقها الليلي.

كان واضحاً أن إليانور عاشرت عدداً كبيراً وعشوائياً من الرجال، لكن حين اقترحت عليها أن تنام معي، كان جوابها «لا أظن أنه يجدر بنا ذلك، ليس في الوقت الحالي، ألا تظن ذلك؟». كرجل وجدت في ردّها إهانة كبرى. لكن كان هناك بيننا الكثير من العناق الودي وحين يتمادى الأمر (كل بضع ساعات)، كانت تعانقني وتبكي، أما العناق الكبير فلم يكن وارداً.

سرعان ما علمت أن حارس إليانور ومنافسي الرئيسي على حبها كان

(*) علاقة بروفيومو العاطفية: فضيحة سياسية حصلت عام ١٩٦٣ حين كشف عن علاقة عاطفية تربط وزير الدفاع البريطاني آنذاك جون بروفيومو بفتاة تعمل في مجال الاستعراض.

زبّالاً يدعى هيتر، وهو رجل اسكتلندي بالغ السمنة والدمامة، يرتدي سترة سخيفة، وقد تبنّته إليانور قبل ثلاث سنوات بوصفه قضيتها. كان يزورها كل ليلة حين لا يكون في المسرح، ويجلس في الشقة قارئاً بلزاك مترجماً، ويروح يتشدق بآرائه المدعية، حول آخر إنتاج لمسرحية «لير» أو الخاتم». وكان يعرف عشرات الممثلين، خصوصاً اليساريين منهم، الذين كانوا كثراً في تلك المرحلة السياسية. وكان هيتر الشخص الوحيد من الطبقة العاملة الذي التقاه معظمهم. مما جعله رمزاً للجماهير بالنسبة إليهم، وصار يتلقى الدعوات للعروض الأولى وللحفلات التي تليها، ليحظى بحياة اجتماعية حافلة أكثر من سيسيل بيتون(*). وكان يتردد حتى على التمرين على الأزياء ليعطي رأيه «كرجل من العامة». إذا لم تحب هيتر، وقد كرهتُ شخصياً كل إنش منه ـ ولم تصغ إليه بوصفه الصوت الأصلي للبروليتاريا، فقد كان سهلاً، خصوصاً إذا كنت من الطبقة الوسطى، (مما يعني أنك ولدت مجرماً وساقطاً)، أن يعتبرك الرفاق والمتعاطفين معهم شخصاً «سنوبياً» نخبوياً، منافقاً، وغوبلزياً.

وجدت نفسي أنافس هيتر على حب إليانور. إذا ما جلست قريباً أكثر من اللازم منها كان يحدجني بنظرات حادة؛ وإذا لمستها بشكل عرضي كانت تشتعل عيناه مثل حلقات البوتوغاز. وكانت غايته في الحياة ضمانة سعادتها، وهي مهمة أصعب من كنس الطرقات، إذا أخذنا في الاعتبار مدى كره هذه الأخيرة لنفسها. أجل، كانت إليانور تحتقر نفسها، ومع ذلك تتطلب المديح، الذي لا تصدقه أيضاً. لكنها كانت تحكي لي أحياناً أشياء من قبيل: «أتعرف ماذا قال لي فلان هذا الصباح؟ قال حين احتضنني، إنه أحب رائحتي، وأحب جلدي والطريقة التي أضحكته فيها».

(*) السير سيسيل بيتون (١٩٠٤ ـ ١٩٨٠)، مصور فوتوغرافي بريطاني اشتهر بتصوير الموضة والنجوم.

حين ناقشت هذا الجانب من إليانور مع مستشارتي، جميلة، لم تخذلني. «يا إلهي، يا آكل النار يا قشطة، أنت مغفل كبير مئة بالمئة، هذا بالضبط ما يحبه هذا النوع من الفتيات، الممثلات والمغفلات من أمثالها. العالم يحترق وهن يمشطن حواجبهن، أو يحاولن وضع العالم المحترق على خشبة المسرح، من دون أن يخطر على بالهن إطلاقاً أن يطفئوا النيران. ما الذي تورط نفسك فيه؟».

«الحب، إنني أحبها».

«آه».

«لكنها ترفض حتى أن تقبلني. ما الذي عليّ فعله؟».

«هل أصبحت مستشارة العذاب الآن؟».

«أجل».

«حسناً. . . لا تحاول أن تقبلها حتى أشير عليك بذلك. انتظر».

ربما كانت إليانور فارغة ومهووسة بنفسها، مثلما قالت جميلة، لكنها لم تكن تعرف كيف تعتني بنفسها أيضاً. كانت لطيفة مع الآخرين فقط. كانت تشتري لي الورود، والقمصان، وتأخذني إلى الحلاق؛ كانت تمضي اليوم بطوله في التمارين ثم تعدّ الطعام لهيتر، وتستمع إليه طوال الليل وهو ينتحب على حياته الضائعة. «النساء ينشأن على التفكير في الآخرين» أجابتني حين قلت لها أن تحمي نفسها أكثر، وأن تفكر في مصلحتها الخاصة، «حين أفكّر بنفسي أشعر بالمرض».

مؤخراً صار هيتر مأخوذاً بمخرج مسرحي تجريبي مهتم بالمحرومين. وقد التقى في منزله كلوديو أبادو وإيتالو كالفينو، حيث شجّع التجريبي هيتر على التحدث عن العراك بالخناجر، والفقر في «غلاسغو» والبؤس والعنف العامين. وكانت مهمة هيتر، بعد العشاء أن يفتح النافذة ويدخل نسائم الحياة الحقيقية للحاضرين، وكان يقدّم هذه الخدمات الممتعة، التي يعرف أنه مضطر إلى تقديمها، مثلما يضطر

كلابتون إلى أن يغني «ليلى»، كل مرة يغني فيها. لكنه كان يمر سريعاً على هذه الأمور، لكي يتمكن من فتح موضوع آخر، رباعيات بتهوفن مثلاً، وشيء ما أزعجه في كتابات الروائي الفرنسي ويسمان.

ذات ليلة ذهب هيتر لمشاهدة العرض الخاص بالصحافة لمسرحية «البوهيمي»، في «كوفنت غاردن»، وغصت وإليانور في صوفتها بحميمية كاملة، نشاهد التلفزيون ونشرب. وكان يناسبني ذلك: أن أكون معها فقط، طارحاً الأسئلة حول الأناس الذين نزور منازلهم، أولئك المهمون، أصحاب التواريخ، التي كانت إليانور تسردها عليّ كقصص، راوية كيف تجادلت جدة أحدهم مع ليتون سترايشي؛ وكيف أقام والد شخص آخر وهو من البارزين في حزب العمال علاقة مع زوجة نائب من حزب المحافظين؛ وكيف أن عاهرة أخرى محظوظة مثّلت في فيلم سينمائي سيعرض قريباً وسيذهب الجميع لمشاهدة عرضه الأول في «كورزون ستريت». وكيف كتب أحدهم رواية عن عشيقته السابقة، وعرف الجميع من تكون.

لابدّ من انه كان واضحاً ذلك اليوم أنني لم أكن مصغياً جيداً إليها، لأنها التفتت إلي وقالت: «هاي، أيها الوجه المرح، أعطني قبلة». ولفت هذا انتباهي، «لقد مضى وقت طويل يا كريم، كما تعرف، حتى أنني أكاد أنسى كيف هو طعم الشفتين».

«على هذا النحو»، قلت.

شعرت أنني حار ورائع، ولابدّ من أن القبلة استمرت نصف ساعة. لست أكيداً كم من الوقت دامت، لأنني سرعان ما صرفت انتباهي عما ينبغي أن تكون قبلة العمر. وانشغل تفكيري بأمور أخرى. آه أجل، كنت مليئاً بالأفكار الغاضبة، التي اندفعت إلى مقدّم تفكيري، ولم تخدّر شفتي بقدر ما فصلتهما عني، كَما لو كانتا نظارتين.

جعلتني ظروف الأسابيع الأخيرة أكتشف مدى جهلي. كنت في

الفترة الأخيرة محظوظاً، وتغيرت حياتي بسرعة، لكنني لم أكن أفكر في الأمر كثيراً. وحين كنت أفعل كنت أقارن نفسي بأولئك الذين تعرفهم إليانور، وبت مدركاً أنني جاهل كلياً على المستوى الثقافي. لم أكن أعرف شيئاً عن الزيولوجيا، ولا الجيولوجيا، ولا علم الفلك، ولا اللغات، ولا الرياضيات، ولا الفيزياء.

معظم الفتية الذين نشأت معهم تركوا المدرسة في السادسة عشرة، والآن تعيلهم الحكومة، أو يعملون ميكانيكيين، أو مدراء مبيعات في أقسام الراديو والتلفزيون في المخازن التنويعية. وأنا تركت الكلية من دون أن أفكر بالأمر مرتين، على الرغم من تحذيرات أبي لي. ففي الضواحي لا يعدّ التعليم مهماً في حدّ ذاته. الدخول إلى العمل باكراً هو الأمر المهم. لكن الآن صرت أختلط بأناس يؤلفون الكتب بالصورة الطبيعية نفسها التي نمارس بها كرة القدم. وما أغضبني ـ وجعلني أكرههم وأكره نفسي ـ هو ثقتهم الكبيرة بأنفسهم وثقافتهم الواسعة. وكيف يتكلمون بسهولة عن الفن، والمسرح، والعمارة، والرحلات، واللغات، والمفردات، وكيف يعرفون عن حضارات بأكملها. كان هذا رأسمال لا يعوّض ولا يقدّر بثمن.

في مدرستي كانوا يعلموننا بعض الفرنسية، لكن كل من يحاول أن يلفظ كلمة فرنسية بصورة صحيحة، يصبح عرضة لسخرية الآخرين. خلال رحلة إلى «كالي» هاجمنا «ضفدعاً»(*) خلف مطعم. بمثل هذا الجهل كنا نعرف أننا اكثر تفوقاً من فتيان المدارس الخاصة الآخرين، بزيهم المدرسي البشع وحقائبهم الجلدية، والذين ينتظرهم الماما والبابا في الخارج لكي يصحبانهم إلى البيت. كنا أقوى منهم؛ كنا نخرب كل الدروس، كنا مقاتلين، لا نحمل حقائب مدرسية خنثوية، ولا نؤدي

(*) الضفدع: شتيمة بالمحكية الإنكليزي للشخص الفرنسي.

الفروض المدرسية. كنا فخورين لكوننا لم نتعلم شيئاً سوى أسماء لاعبي كرة القدم، وعازفي فرق الروك، وأشعار أغنية «أنا فيل البحر». كم كنا مغفلين ومضلّلين! لمَ لم نفهم أننا، بكل ابتهاج، نحكم على أنفسنا بألا نصبح شيئاً أفضل في الحياة من الميكانيكيين؟ لمَ لم نستطع رؤية ذلك؟ بالنسبة إلى جماعة إليانور كانت الكلمات الصعبة والأفكار المعقدة شيئاً يتنفسونه كالهواء منذ الولادة، وهذه اللغة كانت العملة التي تستطيع أن تشتري بها أفضل ما في العالم. لكنها بالنسبة إلينا لا يمكن إلا أن تكون لغة ثانية، نكتسبها بشكل واع.

وكيف يمكنني أن أحكي لإليانور عن الحادثة التي ضاجعني فيها كلب «هايري باك»، كانت الأولوية لقصصها، تلك التي تتصل بعالم قائم بالكامل. كان كما لو أنني شعرت أن ماضيَ لم يكن مهماً كفاية، ولا أساسياً مثل ماضيها، بحيث قررت التخلي عنه. لن أتكلم أبداً عن أمي أو أبي، أو عن الضواحي، مع أنني تكلمت عن تشارلي. تشارلي كان مشهوراً. وذات مرة توقفت عن التكلم نهائياً وقد اختنق صوتي في حنجرتي، حين قالت إليانور إن لكنتي ظريفة.

«أي لكنة؟»، سألتها.

«اللكنة التي تحكي بها، إنها عظيمة».

«لكن بأي طريقة أحكي؟».

نظرت إلي بضيق خلق، كما لو أنني ألعب لعبة سخيفة، حتى أدركت أنني جاد.

«لديك صوت شوارعي يا كريم، أنت من ساوث لندن، لذا هكذا تتكلم. إنها لكنة الأحياء الفقيرة، سوى أنها ليس فجة. ليست غير اعتيادي. إنها مختلفة عن لكنتي بالتأكيد».

بالتأكيد.

قررت في تلك اللحظة أن أغيّر لكنتي؛ أياً تكن، فلن تعود موجودة. سأتكلم مثلها. لم يكن ذلك بالأمر الصعب. لقد هجرت عالمي؛ كان عليّ فعل ذلك، لكي أمضي قدماً. ليس أنني لم أكن راغباً بالعودة، لكنني كنت ما أزال تواقاً إلى المغامرة والأحلام التي اشتهيتها تلك الليلة في حمام إيفا في «بكنهام». لكن بطريقة ما عرفت أيضاً أنني أغوص في مياه أعمق.

بعد القبلة، حين وقفت في الغرفة المعتمة ونظرت إلى الشارع، شعرت بوهن في رجلي.

«إليانور، لن أكون قادراً على الذهاب بالدراجة إلى البيت»، قلت «أظن أنني لن أستطيع استعمال رجلي».

قالت بنعومة «لا أستطيع النوم معك الليلة، حبيبي، رأسي كله مضطرب، ليس لديك فكرة. إنه في مكان آخر، وهو مليء بالأصوات والأغنيات والأشياء السيئة. وأنا مصدر مشكلات كثيرة لك. أنت تعرف لماذا، أليس كذلك؟».

«رجاء أخبريني».

التفتت بعيداً. «مرة أخرى، أو اسأل أياً كان. أنا أكيدة أنهم سيكونون سعداء بإخبارك يا كريم».

قبلتني قبلة الوداع عند الباب. ولم أكن حزيناً لرحيلي. كنت أعرف أنني سأظل أراها كل يوم.

حين عثرنا على الشخصيات التي نريد أن نلعبها، طلب منا بايلك ان نعرضها أمام بقية المجموعة. اختارت إليانور شخصية امرأة إنكليزية أرستقراطية في الستينات من عمرها، نشأت في «راج» الهندية، وتعتقد أنها جزء من عظمة إنكلترا، لكنها كانت تسقط مع سقوط الإمبراطورية وتصبح، لذعرها الشديد، محرومة جنسياً مثلما أصبحت بريطانيا نفسها. أدت إليانور شخصيتها ببراعة. كانت حين تمثل لا تعود واعية

بنفسها، وتصبح ساكنة، وتروح تقودنا نحوها، مثل راو خفيض الصوت، مضيفة قدراً من السخرية، يكفي لإبقائنا حائرين تجاه موقفها الشخصي من الشخصية.

أنهت عرضها وسط استحسان عام وقبلات مسرحية. ثم جاء دوري. نهضت وأديت شخصية أنور، في مونولوج أعرّف فيه عنه، وأصفه، ثم أقلّده وهو يهذي في الشوارع. وقد تمكنت من الانتقال إلى هذا بسهولة، لأنني تمرنت كثيراً في منزل إليانور. ظننت أن أدائي كان بجودة الآخرين في المجموعة، وللمرة الأولى لم أشعر أنني متخلف عنهم.

بعد الشاي جلسنا لنناقش الشخصيات. لسبب ما، ربما لأنها بدت حائرة، قال بايك لترايسي، «ما رأيك بشخصية كريم؟».

على الرغم من أن ترايسي كانت من النوع المتردد، فهي قوية أيضاً. كانت وقورة وجدية، ولم تكن على الموضة مثل الكثيرين من فتيان الطبقة الوسطى الذين يحلمون بأن يصبحوا ممثلين. كانت محترمة بأفضل طريقة تتيحها الضواحي، نزيهة ولطيفة وغير مدعية، وكانت تلبس مثل السكرتيرة؛ لكنها كانت أيضاً تهتم بالأشياء: كان يقلق تفكيرها ما يعنيه أن تكون إحداهن امرأة سوداء. كانت تبدو خجولة وغير منسجمة تماماً مع العالم، باذلة أقصى جهد لديها لتختفي من غرفة ما، من دون الخروج منها حقاً. غير أنني حين رأيتها ذات مرة في حفلة كل الحاضرين فيها من السود، وجدتها مختلفة كلياً ـ شغوفة، وغير مهمومة، وترقص كثيراً. لقد ربتها أمها، وهي عاملة تنظيفات، وشاءت مصادفات عجيبة أننا رأيناها ذات مرة تنظف عتبة منزل بجوار قاعة التمارين، حين كنا نتمرن في الحديقة. ودعاها بايك إلى التحدث إلى المجموعة خلال استراحة الغذاء.

لم تكن ترايسي كثيرة الكلام عادة، لذا حين بدأت بالتكلم عن دور

أنور أصغى إليها الجميع، وإن كانوا باستثنائي خارج النقاش. أصبح الأمر فجأة بين «الأقليات».

«هناك أمران يا كريم»، قالت «إضراب أنور عن الطعام يقلقني. ما تريد قوله يؤذيني. يؤلمني حقاً، ولست واثقة من أننا ينبغي أن نعرضه!».

«أحقاً؟».

«أجل». وراحت تخاطبني كما لو أن كل ما يلزمني هو بعض الإدراك «أخشى أنه يظهر السود...».

«الهنود...».

«السود والآسيويين».

«إنه عجوز هندي محدد...».

«على أنهم لا عقلانيين، وسخفاء، وهستيريون، ومتعصبون».

«متعصبون؟»، اشتكوت للمحكمة العليا. القاضي بايك كان يصغي بانتباه «ليس إضراباً تعصبياً عن الطعام. إنه ابتزاز مخطط له بهدوء».

لكن القاضي بايك أشار لترايسي بأن تتابع.

«وذلك الزواج المدبّر. إنه يقلقني يا كريم، مع كل احترامي إنه يقلقني».

رحت أحملق بها، من دون أن أقول شيئاً. كانت مضطربة للغاية.

«أخبرينا بالضبط لماذا يقلقك»، قالت إليانور بتعاطف.

«من أين أبدأ حتى؟ إن الصورة التي تقدّمها هي ما يفكر به البيض عنا أصلاً. أننا سخفاء، عاداتنا وتقاليدنا غريبة. بالنسبة إلى البيض نحن أصلاً لا إنسانيين، وها أنت تجعل أنور يلوح بعصاه بجنون في وجوه الفتيان البيض. لا أستطيع أن أصدق أن أمراً كهذا ممكن الحدوث. أنت

تظهرنا كأشخاص غير منظمين نعتدي على الآخرين. لماذا تكره ذاتك والسود على حدّ سواء، يا كريم؟».

بينما كانت تتكلم، نظرت إلى المجموعة. حبيبتي إليانور بدت متشككة، لكن كان واضحاً أن الآخرين كانوا مستعدين لموافقة ترايسي على رأيها. كان صعباً عدم الموافقة مع شخص ترى أمه راكعة وأمامها دلو وممسحة، على عتبة منزل من الطبقة الوسطى.

«كيف يمكنك أن تكون رجعياً إلى هذا الحدّ؟»، قالت.

«لكن ما تقولينه يشبه الرقابة».

«علينا أن نحمي ثقافتنا في هذه المرحلة يا كريم. ألا توافقني الرأي؟».

«لا، الحقيقة تمثل قيمة أعلى».

«هراء.. الحقيقة. من يعرف الحقيقة؟ أي حقيقة؟ إنها الحقيقة البيضاء التي تدافع عنها هنا. إنها الحقيقة البيضاء التي نناقشها».

نظرت إلى القاضي بايك. لكنه كان يحب أن يدع الأمور تستمر. كان يظن أن الصراع شيء إبداعي.

قال أخيراً: «ربما عليك إعادة التفكير في الشخصية يا كريم».

«لكنني لست واثقاً من قدرتي على ذلك».

«أجل. لا تحصر نفسك بشكل غير ضروري، سواء كممثل وكشخص».

«لكن ماثيو لماذا عليّ أن أفعل ذلك؟».

نظر إلي ببرود «لأنني أقول ذلك». وأضاف: «عليك أن تبدأ من جديد».

الفصل الثاني عشر

«هاي، ما أخبارك أيها البدين؟».

«الأمور نفسها أيها الممثل الشهير»، أجاب شانغيز، وعطس في الغبار الذي يثيره وهو ينظف البيت، ثم سألني: «ما العمل الكبير الذي تمثل به الآن، لكي نستطيع أن نأتي ونضحك؟».

«حسناً، دعني أخبرك، حسناً؟».

حضّرت كوب شاي بنكهة جوز الهند والموز، من بين علب الشاي الكثيرة التي أحملها معي طوال الوقت في حال لم يكن لدى مضيّفي إلا ماركة «تايفو». وكنت أحتاج إلى جلبها معي، في شقة شانغيز خاصة، لأنه كان يصنع الشاي بأن يغلي الحليب والماء والسكر وكيس الشاي وحب الهال معاً لخمس عشرة دقيقة. «شاي الرجال» كان يسميه، أو «الشاي الأعلى. إنه مفيد للانتصاب».

لحسن الحظ أن جميلة، لأنني لم أكن أريدها أن تسمع حديثي مع شانغيز، لم تكن في البيت، بعد أن بدأت بالعمل مؤخراً في مركز يعنى بالنساء السود في الجوار، حيث كانت تجري أبحاثاً حول الاعتداءات العنصرية على النساء. كان شانغيز وهو يمسح الغبار،لابساً ثوب جميلة الزهري الحرير، بينما أنابيب الدهن البنية في جسمه ترجرج وهو ينظف بمنفضة الغبار شباكاً عنكبوتية بحجم المجلدات. كان يحب ثياب جميلة: كان دائماً يرتدي أحد قفازاتها أو قمصانها، أو يجلس على سريره لابساً معطفها، لافاً أحد وشاحاتها على رأسه، في تقليد هندي، يجعله يظهر كما لو أنه يعاني من ألم أسنان.

«إنني أجري بعض الأبحاث من أجل مسرحية، يا شانغيز، وأبحث عن شخصية، وأفكر في أن أبنيها على شخص يعرفه كلانا. سيكون شخصاً محظوظاً إذ سيتم تصوير شخصيته».

«جيد، جيد، تقصد جميلة أليس كذلك؟».

«لا، أقصدك أنت».

«ماذا؟ أنا؟»، وجلس بشكل مستقيم، ودسّ أصابعه في شعره، كما لو أن أحدهم سيلتقط له صورة فوتوغرافية.

«لكنني لم أحلق يا يار؟».

«إنها فكرة رائعة، أليس كذلك؟ واحدة من أفضل أفكاري».

«إنني فخور بأن أكون موضوع عمل درامي مهم»، قال. لكن وجهه اكفهر فجأة. «هاي، لن تظهرني بصورة سيئة، أليس كذلك؟».

«صورة سيئة؟ هل أنت مجنون سأظهرك مثلما أنت بالضبط».

عند تأكيدي هذا بدا راضياً. الآن بعد أن ضمنت موافقته غيرت الموضوع بسرعة.

«وشينكو كيف حالها؟».

«آه، كما هي، كما هي»، قال برضى، مشيراً إلى قضيبه. كان يعرف أنني أحب هذا الموضوع؛ وكما لو أنه الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يتباهى به، كنا كلانا نستمتع بالحديث عنه».

«لقد اختبرت وضعيات جنسية أكثر من معظم الرجال. أفكر في تأليف كتيب. أحب كثيراً تلك الوضعية، حيث آتي المرأة من الخلف وهي جاثية على ركبتيها، كما لو أنني جون واين يركب حصاناً».

«ألا تعترض جميلة على مثل هذه الأشياء؟»، سألته، متأملاً فيه بدقة، ومتسائلاً كيف سأؤذي يده الكسيحة، «أعني البغاء وما إلى ذلك؟».

«أصبت قلب الموضوع يا رجل! في البداية أدانتني جميلة وشينكو معاً واتهمتاني بأنني رجل خاطئ كلياً، خنزير ذكوري استغلالي...».

«لا!».

«ولبضعة أيام كان عليّ الاكتفاء بممارسة الاستمناء مرتين في اليوم. أرادت شينكو التوقف عن هذه اللعبة وأن تعمل حداثقية وما إلى ذلك».

نغض كتفيه. «لديها أنامل رشيقة مع الأعشاب. لكن الشكر لله في عليائه، أدركتا كلاهما أن شينكو هي التي تستغلني، وأنني كنت الضحية وما إلى ذلك، لذا سرعان ما عادت إلى سابق عهدها». ثم أمسك شانغيز ذراعي ونظر في عيني. أصبح حزيناً. كم كان كائناً عاطفياً. «أيمكنني أن أخبرك شيئاً؟»، نظر أمامه، عبر النافذة وإلى مطبخ الجيران «نحن نضحك حول أمر أو اثنين في شخصيتي، أجل، لكنني سأخبرك شيئاً غير مضحك. أنا مستعد للتخلي عن كل الوضعيات الجنسية، لقاء خمس دقائق أقبل فيها زوجتي على شفتيها».

زوجته؟ أي زوجة؟ دار عقلي حول كلماته؛ حتى تذكرت. كنت دائماً أنسى أنه متزوج من جميلة، «لا تزال ترفض أن تلمسك؟».

هز رأسه بحزن وتنهّد، «وأنتما هل تتضاجعان دائماً؟».

«لا، لا، بحق السماء يا فقاعة، ليس منذ رأيتنا معاً. لن يكون الأمر نفسه من دون وجودك هناك».

همهم «إذاً ليست تفعل شيئاً مع أحد بالمرة؟».

«بالمرة يا رجل».

«جيد».

«أجل. النساء لسن مثلنا. لسن مضطرات إلى الجنس طوال الوقت. يرغبن به فقط إذا أحببن الرجل. أما بالنسبة إلينا فلا يهم من تكون المرأة».

لكنه لم يبد مصغياً لملاحظاتي حول سيكولوجية الحب. استدار فحسب ونظر إلي بتصميم وعزم كبيرين، وتلك لم تكن من الصفات التي أنعم الله بها عليه. ضرب قبضته السليمة بالطاولة وصرخ «سأجعلها تحبني! أعرف أنني سأفعل ذات يوم!».

«شانغيز»، قلت بجدية «رجاء لا تعوّل على ذلك. لقد عرفت جميلة طوال حياتي. ألا ترى أنها قد لا تتغير بتاتاً تجاهك».

«أنا أعول فعلاً على ذلك، وإلا فحياتي ستنتهي. سأقتل نفسي».

«هذا راجع لك، لكن».

«بالطبع، سأفعلها، سأجز عنقي».

«بماذا».

«بحجر!».

رمى فنجانه وصحنه إلى الأرض، ووقف وراح يمشي في الغرفة. عادة يده الكسيحة كانت تتدلى ساكنة إلى جانبه، جذع لا حاجة له. لكن الآن، ناتئة من الكم الخلفي المثني لثوب النوم الزهري، فقد برزت أمامه وهي تتأرجح من جانب إلى جانب. بدا شانغيز رجلاً آخر، يتصرف انطلاقاً من ألم فعلي بدلاً من النقمة الساخرة على النفس الذي كان يرى حياته الغريبة عبرها. وحين نظر إلي، إلى صديقه، كانت نظرته مليئة بالكراهية، حتى وأنا أرهق نفسي محاولاً مساعدة الوغد السمين.

«شانغيز هناك نساء أخريات في العالم. ربما أستطيع أن أعرفك على بعض الممثلات إذا ما أنقصت بعض الوزن. أعرف العشرات منهن، وبعضهن مثيرات فعلاً، يحببن الجنس. بعضهن متعاطفات مع السود والعالم الثالث. إنهن مناسبت لك، وسأعرفك إليهن».

«أنت إنكليزي صغير، بوجه أصفر كالشيطان. مستوى الأخلاق لديك يساوي صفراً! أنا لدي زوجتي التي أحبها وستحبني. سأنتظر حتى يوم القيامة حتى...».

«قد يستغرق هذا وقتاً طويلاً».

«أريدها بين ذراعي!».

«هذا كل ما أتحدث عنه، الزمن. وفي الأثناء يمكنك أن...».

«اللعنة على كل شيء. سأفعل اللعنة على كل شيء حتى أحصل عليها. وهناك أمر آخر. لا يمكنك استعمال شخصيتي في عملك التمثيلي. لا، لا، لا، قطعاً لا. وإذا ما حاولت سرقتي لا أستطيع أن أرى كيف يمكن أن نبقى أصدقاء أو نتكلم مع بعضنا، أتعدني بذلك؟».

صرت كالمسعور. ما هذا ـ الرقابة. «أعدك؟ أيها الفرج، لا أستطيع أن أعد بأي شيء الآن! ما هذا الذي تقوله؟». لكن كان هذا أشبه بالصراخ على صخرة. شيء ما فيه تصلب من ناحيتي.

«لقد ولجت زوجتي»، قال «عليك أن تعدني بألا تلجني أنا من الخلف وتؤدي شخصيتي في مسرحيتك».

كنت مهزوماً. ما الذي يمكنني قوله؟ «حسناً، حسناً، أعدك ألا ألجك»، قلت بنصف حرارة.

«أنت تحب أن تصغّر من شأني، تحب أن تهزء بي وأن تستغفلني. ذات يوم سأكون أنا الذي يسخر منك. أستفي بوعدك؟».

أومأت برأسي موافقاً. ورحلت.

قدت دراجتي كالمجنون إلى شقة إليانور. كان عليّ مناقشة الوضع معها. أولاً خسرت أنور والآن ها أنا أخسر شانغيز الذي من دون شخصيته ستنهار حياتي المهنية. أي شخص آخر يمكن أن أبني شخصيتي عليه؟ لم أكن أعرف أي «سود» آخرين. بايك سيتخلى عني.

حين دخلت إلى صالة المنزل كان هيتر يهم بالخروج. سدّ عليّ الطريق كأنه جبل من الأسمال، وكلما حاولت أن ألتف من حوله، ارتطمت بجسده المقرف.

«يا إلهي ما الذي تفعله يا هيتر؟».

«لقد جاءها الكلب»، قال لي «اهرب أيها الفتى الصغير».

«أي كلب لعين؟ هوت دوغ؟ ابتعد عن طريقي أيها السافل. هي وأنا لدينا أمور نهتم بها».

«الكلب الأسود، الإحباط. لذا ليس اليوم، شكراً لك، عد في يوم آخر».

لكنني كنت ضيئلاً وسريعاً بالنسبة إلى هيتر. فانسللت من أمامه، تحت ذراعه، ودخلت إلى شقة إليانور في لمح البصر، مقفلاً الباب ورائي. وسمعته يشتمني وراء الباب.

«اذهب ونظف روث الكلاب من الشوارع بلسانك، أيها الفُرج البروليتاري»، صرخت به.

نظرت إلى غرفة إليانور من دون أن أعرفها للوهلة الأولى. كان لوح الكي في وسط الغرفة، وإليانور عارية تكوي كومة من الملابس. ضاغطة بقوة على المكواة، كما لو أنها تحاول غرزها في اللوح، باكية، ودموعها تنهمل على الثياب.

«إليانور ما الأمر؟ أخبريني رجاء. هل تلقيت خبراً سيئاً من وكيل أعمالك؟».

اقتربت منها. تحركت شفتاها الجافتين، لكنها لم ترد أن تتكلم. مضت في تحريك المكواة عبر البقعة نفسها من القميص. وحين رفعت المكواة شعرت أنها تريد أن تضعها على نفسها، على ظهر يدها أو ذراعها. كانت في حال نصف جنونية.

فصلت شريط المكواة ووضعت سترتي الجلدية على إليانور، وسألتها مجدداً ما الأمر، لكنها فقط هزت رأسها، ناثرة دموعها عليّ. تخليت عن طرح الأسئلة الغبية، وأدخلتها إلى غرفة النوم ووضعتها في السرير. تمددت وأغمضت عينيها. أمسكت يدها وبقيت جالساً هناك، ناظراً إلى الثياب المنثورة، وأدوات الماكياج، والشعر والصناديق الملونة في الخزانة، والوسادة الحرير من تايلاندا والتي عليها رسم فيل، وأكوام الكتب على الأرض. على النضد بجوار السرير صورة بإطار مذهّب فيها رجل أسود في منتصف ثلاثيناته، يرتدي سترة «بولو» قاتمة. كان شعره قصيراً، ويبدو رياضياً ووسيماً جداً. خمّنت أن الصورة قد التقطت قبل أربع أو خمس سنوات.

شعرت أن إليانور أرادتني أن أبقى معها، لا لأقول شيئاً، لكنها لم تردني أن أذهب فحسب. لذا وبينما تغفو، رحت أفكر بجدية بشانغيز. إليانور ستفكر بالأمر لاحقاً؛ في الوقت الحالي لا يمكنني فعل شيء..

إذا ما تحديت شانغيز، وبدأت بالعمل على شخصية تستند إليه، إذا ما أستعملت الوغد، فهذا يعني أنني غير جدير بالثقة. لكن إذا لم أستعمله فهذا يعني أنه لن يكون لدي ما أقدمه أمام المجموعة بعد رفض شخصية أنور. بينما كنت جالساً هناك بدأت أدرك أن هذه واحدة من المرات القليلة في حياتي التي أكون فيها واعياً بأنه لدي أزمة أخلاقية. قبلاً، كنت أفعل بالضبط ما أريده؛ الرغبة كانت دليلي ولم أكن مسكوناً بشيء سوى الخوف. لكن الآن، في بداية عشريناتي، كان ثمة شيء ينمو في داخلي. تماماً مثلما تغيّر جسدي عند سن البلوغ، بدأ ينشأ في داخلي إحساس بالذنب، إحساس لا يتعلق فقط بكيف يراني الآخرون، لكن كيف أرى نفسي، خصوصاً وأنا أنكث بمحظورات مفروضة ذاتياً. ربما لن يعرف أحد أنني أسّست شخصيتي على شانغيز، ربما لاحقاً

شانغيز نفسه لن يبالي، وربما سيشعر بالإطراء. لكنني سأكون عارفاً دائماً ما فعلته، أنني أخترت أن أكون كذاباً؛ أن أخدع صديقاً، أن أستغل أحدهم. ماذا ينبغي أن أفعل؟ لم تكن لدي فكرة. فكرت في الأمر مراراً وتكراراً ولم أستطع إيجاد المخرج.

نظرت إلى إليانور لأتأكد من أنها نائمة. حسبت أنني سأتسلل خارجاً وأذهب إلى بيت إيڤا لتحضّر لي وجبة من الخضار المقلية أقوي نفسي بها. لكن حين وقفت وجدت إليانور تنظر إلي، وتبتسم ابتسامة خفيفة.

«هاي، أنا مسرورة أنك هنا».

«لكنني كنت أنوي الذهاب لكي أدعك تنامين».

«لا، لا تفعل هذا يا عزيزي».

ربتت على السرير «تعال يا كريم». كنت مسروراً بأن أراها مبتسمة بحيث أطعت فوراً، واضطجعت بجوارها، واضعاً الشرشف علي وملقياً رأسي على الوسادة نفسها. «كريم أيها المغفل الصغير، اخلع حذاءك وبقية ثيابك».

راحت تضحك وأنا أخلع جينزي، لكن قبل أن يصل إلى ركبتي بدأت تمصّ قضيبي، متجاوزة التمهيدات التي، كما كنت أعرف من كتيبات الجنس التي لا تحصى التي كرست نفسي لها لسنوات، كانت ضرورية لممارسة الحب السماوي. لكن من جهة أخرى، إليانور قد تفعل أشياء كهذه، فكرت، وأنا ممدّد هناك، مستمتعاً بالأمر. كانت روحها متطرفة، وفي بعض الحالات قد تقدم على فعل أي شيء، ولطالما فعلت كل ما يخطر على بالها، وهو ما لم يكن، علينا أن نعترف بذلك، بالأمر الصعب بالنسبة إلى شخص في وضعها، هي المتحدرة من بيئة يعتبر خطر الفشل فيها بالحدّ الأدنى؛ وفي الواقع عليك أن تبذل جهداً كبيراً حتى تفشل في عالمها.

هكذا بدأت حياتنا الجنسية معاً. وكنت مفتوناً بها؛ لم أكن حظيت بمشاعر جنسية وعاطفية قوية إلى هذا الحدّ من قبل. أردت أن أخبر الجميع أن حياة تشتعل فيها النيران في الدماء بشكل دائم ممكنة حقاً؛ بالتأكيد لو أنهم خبروا شيئاً كهذا، لما توقفوا عن ممارسة الجنس. وأي إثارة كانت. ذات مرة خلال التمارين، حين نظرت إليها لابسة تنورة طويلة زرقاء وبيضاء، جالسة على مقعد ورافعة قدميها العاريتين عن الأرض، حاشرة ثنيات الفستان بين فخذيها، وكنت قد طلبت منها ألا تلبس ملابس داخلية، سال لعابي من شدة الإثارة. كنت غالباً ما أشعر بالانتصاب، فأترك التمارين الارتجالية وأهرع إلى الحمام، لكي أستمني، مفكراً فيها، وحين كانت تفهم من ابتساماتي أن هذا ما سأفعله، كانت تنضم إلي. بدأنا نفكّر أن كل أمكنة العمل ينبغي أن يكون فيها أمكنة مريحة، فيها أزهار وموسيقى، للاستمناء وممارسة الحب.

جسدياً لم تكن إليانور خجولة مثلي، لم تكن تخفي رغبتها؛ لم يكن هناك عيب بالنسبة إليها. في أي وقت كان يمكن أن تمسك يدي وتضعها على نهديها ضاغطة بأصابعي على حلمتيها، لكي أمسدهما وأقرصهما. أو ترفع كنزتها وتكشف لي نهديها لأمصهما، مدخلة حلمتها في فمي بأصابعها. أو تقحم يدي داخل تنورتها، راغبة بأن تلمس. أحياناً كنا نتعاطى بعض الكوكايين أو «سبيد» أو الحشيشة، وأمددها على الكنبة، ثم أعريها بالكامل، ورجلاها منفرجتان، بينما أكون ما زلت في ملابسي. كانت إليانور أيضاً أول شخص يعرفني على روعة التكلم خلال الجنس. همساتها كانت تخطف أنفاسي: كانت تطلب النيك، أو الولوج أو المص، أو الصفع على المؤخرة أو أي شيء من هذا القبيل. وكان الجنس مختلفاً كل مرة. كان له إيقاع

مختلف، مع ملامسات جديدة، وقبلات تدوم ساعة، وجماع مفاجئ في أمكنة غريبة - خلف الكاراجات أو في القطارات، حيث كنا نتعرى ونباشر الجنس بكل بساطة. في أوقات أخرى كان الجنس يدوم دهوراً، ورأسي بين رجليها ملحوساً فرجها، الذي تبقيه مفتوحاً لي بأصابعها.

كان ثمة أوقات كنت أنظر فيها إليها وأشعر تجاهها بحب غامر - بدت تشعّ بوجهها وكامل كينونتها - بحيث لم أكن أحتمل قوة الأمر وأضطر إلى الفرار. لم أكن أريد أن أحس بهذه القوة، والاضطراب، والتملك. الجنس أحببته؛ وكان يفعل فيّ مفعول المخدرات. لكنني نشأت مع فتية علموني أن الجنس مقرف، وأنه كناية عن روائح، وفجور، وإحراج وضحكات مزمجرة. لكن الحب كان أقوى مني، وتغلغل فيّ مباشرة، إلى الصمامات، إلى العضلات والدم، بينما الجنس، القضيب، فيبقى باستمرار شيئاً خارجياً. كنت أريد فعلاً وقتذاك، في جزء من نفسي، أن أوسّخ الحب الذي شعرت به، أو على نحو ما أن أستخلصه من الجسد.

ولم يكن عليّ أن أقلق بهذا الشأن. فقد بدأ حبي وحده يصير حارقاً. كنت مرعوباً من أن تعترف لي إليانور في أي لحظة إنها أغرمت بشخص آخر، أو إنها ملّت مني أو إنني غير مناسب كفاية لها، ومثل هذه الأمور المعتادة.

دخل الخوف حياتي. ودخل عملي. في الضواحي يخشى الجميع رأي جيرانه به. لهذا لم تكن أمي تنشر الغسيل في الحديقة من دون أن تمشّط شعرها. ولم أكن أبالي البتة برأي أولئك الناس؛ لكن الآن بات أمراً جوهرياً بالنسبة إلي أن يعجب بايك وترايسي والآخرون بتمثيلي. مكانتي في المجموعة لم تكن مرتفعة، وشعرت بعدم التشجيع. لم أحك لإيڤا حتى عما كنت أقوم به.

ليلاً، في البيت، كنت أتمرن على مشية شانغيز الفوضوية ويده الكسيحة، وعلى لهجته، التي عرفت أنها ستبدو غريبة على الأذن البيضاء، وطريفة ونموذجية في الهند. بنيت قصة لشخصية شانغيز (الذي أسميته طارق)، الذي يصل إلى هيثرو حاملاً حقيبته البالية، وكله شوق وترقب بعد أن أخبره أحد معارفه ممن يعملون في مضمار السباق في بومباي أنه ما إن تهمس كلمة «عري»، في إنكلترا حتى تبدأ النساء البيض بخلع ملابسهن الداخلية.

قرّرت أنه إذا ما واجهت اعتراضاً على شخصية شانغيز، فسأخرج من غرفة التمارين إلى البيت مباشرة. لذا بروح دفاعية عنيدة حضّرت نفسي لأداء شخصية طارق أمام المجموعة. وفي اليوم المحدد، في تلك القاعة على ضفة النهر، تحلق الجميع حولي. حاولت ألا أنظر إلى ترايسي، التي مالت إلى الأمام بكل تركيز. ريتشارد ويون أسندا ظهريهما إلى الخلف بدون أي تعبير. إليانور ابتسمت لي بتجشيع. بايك أومأ برأسه، ودفتر الملحوظات على ركبته؛ لويز لورانس كانت تحمل دفترها أيضاً وخمسة أقلام رصاص جاهزة. وكارول جلست في وضعية زهرة اللوتس، واضعة رأسها إلى الخلف وممددة من دون اهتمام.

حين انتهيت ساد صمت. الجميع بدا منتظراً غيره ليتكلم. نظرت إلى الوجوه حولي: كانت إليانور قد استمتعت أما ترايسي فكانت محتجة. رفعت ذراعها جزئياً. سيكون عليّ أن أرحل، وكان هذا أكثر ما أخشاه، لكنني عزمت أمري. لكن على نحو ما رأى بايك أن هذا سيحدث أيضاً. فأشار إلى لويز وقال لها أن تبدأ بالكتابة.

«ها هو»، قال بايك «طارق يأتي إلى إنكلترا، يلتقي في الطائرة صحافية إنكليزية، تلعب دورها إليانور، لا بل كارول. وهي امرأة أرستقراطية، يعيش طارق بسببها لفترة وجيزة بين أبناء الطبقة

الأرستقراطية، مما يوفر لنا منطقة أخرى للبحث فيها! الفتيات يغرمن به فوراً بسبب ضعفه وحاجته إلى الرعاية الأمومية. إذاً، لدينا الطبقة، العرق، الكوميديا والجنس. ما الذي قد تطلبونه أكثر لسهرة مسلية؟».

كان وجه ترايسي مقفلاً تماماً. رغبت بأن أقبّل بايك.

«أحسنت»، قال لي.

كان الممثلون غالباً يحبون ماثيو. ففي نهاية الأمر كان رجلاً جذاباً ومركباً، وكانوا يشعرون نحوه بالامتنان. وبطبيعة الحال كنت أتملقه كالآخرين، لكن في العمق كنت مرتاباً به وأفضل البقاء على مسافة منه. وأرجعت هذا الارتياب إلى أصولي الساوث لندنية، حيث تشعر أن كل من لديه موقف فني، أي شخص، أي كل من قرأ أكثر من خمسين كتاباً، أو يستطيع لفظ اسم مالارميه بشكل صحيح، أو يميز الفرق بين «كاميمبير» و«بري»، هو بشكل جوهري مدّع، و«سنوبي»، ومغفل.

بالتالي لم تكن علاقتي به وثيقة، حتى ذات يوم تعطلت دراجتي بعد أن أفلت جنزيرها، فصار بايك يوصلني معه في طريق العودة من التمرينات بسيارته الرياضية، وهي عربة سوداء بمقاعد جلدية سوداء، يشعر الجالس في داخلها أنه ليس بينه وبين الأرض أكثر من ثلاثة إنشات. أما السماء فتنكشف جلية عبر السقف المفتوح. وكانت سمّاعات الصوت في السيارة مثبتة في الأبواب فتشعر أن أغنيات «ذي دورز»، وأي شيء من جيفرسون أيربلاين تتفجر حولك. وكان بايك يحب كثيراً، داخل خصوصية سيارته، التأمل في موضوع الجنس، مستعرضاً أدق تفاصيله، حتى بت أشعر أن إخبار هذه القصص هو مظهر إيروتيكي من مظاهر الحياة المتعددة جنسياً. أو ربما لأنني كنت أقيم علاقة جنسية مع إليانور. أو ربما كان جلدي وعيناي وإيقاع جسدي الذي يظهر عليه الوعي بالجسد، يولّد لدى الآخرين أحاسيس جنسية.

أحد أولى الأشياء التي قالها بايك: «حين كنت في التاسعة عشرة يا كريم أقسمت بأن أكرس نفسي لأمرين: أن أصبح مخرجاً لامعاً وأن أضاجع أكبر عدد ممكن من النساء».

فوجئت بكونه ساذجاً إلى حدّ أن يفضح رغبات كهذه. لكنه، ناظراً مباشرة أمامه خلال القيادة، راح يحدثني عن سلوكياته الجنسية: الجنس الجماعي، وأندية الجنس في نيويورك، ومتعة العثور على مواقع غير مألوفة لممارسة الفعل الاعتيادي، والعثور على أناس غير اعتياديين لممارسته معهم.

بالنسبة إلى مارلين وماثيو، وهما نتاج حقبة الستينات، وكانا يملكان المال والإمكانات للاستمرار بعبش أحلامهما في السبعينات، كان الجنس استجمامياً وتثقيفياً في آن. «إننا نلتقي أناساً مثيرين للاهتمام»، قال بايك «وأين يمكنك، سوى في أندية الجنس في نيويورك، أن تلتقي حلاقاً من وسكنسن؟».

وكانت مارلين على شاكلته. كانت تضاجع نائباً عمالياً وتمرر لأصدقائها بعض الأخبار حول مجلس العموم، والمكائد الخبيثة التي تجري في أروقة حزب العمال.

إحدى مغامرات بايك الأخيرة كانت مع شرطية، لم ينجذب إلى المرأة نفسها، فهي لم تكن بالجذابة كثيراً، بل إلى بذتها، وإلى التفاصيل التي كانت تحكيها له بعدما تمصّ قضيبه عن العالم السفلي. لكن بايك كان بدأ يسأم مما وصفه «حقبته القانونية». «إنني أبحث عن عالمة، فلكية أو عالمة فيزياء نووية».

بدا لي ماثيو ومارلين، باقتحامهما هذا للزوايا الغريبة في الحياة، أشبه بصحافيين جسورين، مما من باحثين عن اللذة. توقهما إلى معرفة الحياة الحقيقية عن كثب، كان يخونه انفصالهما الأصلي عنها، وبدا

هوسهما بمعرفة كيفية عمل العالم، مجرد شكل آخر من الهوس بالذات. وبالتأكيد لم أصارح بايك بهذا التحليل: اكتفيت بالسماع بعينين مفتوحتين ورئتين لاهثتين. أردت الاقتراب منه. كنت متحمساً. كان العالم ينفتح أمامي. لم ألتق شخصاً مثله من قبل.

خلال واحدة من جلسات المكاشفة تلك في السيارة، حيث كنت سعيداً إلى حدّ الإرهاق بعد التمارين الشاقة، ابتسم لي بايك إحدى ابتساماته الواسعة التي عادة تخفي شيئاً وراءها. «هاي، يجب أن أقول لك إنني أشعر بالسعادة بمشاركتك في المسرحية. الشخصية التي ابتكرتها ستكون مضحكة للغاية. لذا قررت أن أقدم لك هدية خاصة جداً».

كانت السماء تمر فوقنا بسرعة هائلة. نظرت إليه بقميصه الأبيض النظيف وبنطاله الرياضي، كانت ذراعاه رفيعتين وتطفو على وجهه نظرة ماكرة. وكانت موسيقى السول التي أصررت على أن نسمعها مرتفعة. أعجبته خصوصاً أغنية سموكي روبنسون «غوينغ تو غو غو»، وكان حين يحب شيئاً يعيده مراراً وتكراراً. لكنها كانت أول مرة يسمع فيها روبنسون. وكنت أحسب أن مزاجه غير رائق مثلما يفترض به أن يكون، حين قال كلامه الرائع هذا الذي جعل النيران والصقيع تسري في جسدي في آن.

فأجبته «لكنك كنت بالغ اللطف معي، يا ماثيو، بمجرد أنك اعطيتني هذا العمل. لعلك لا تدرك ما الذي يعنيه لي».

«ماذا تعني؟»، قال بجدية.

«لقد غير حياتي. لو لم تأت بي من العدم لكنت ما زلت أعمل في تزيين المنازل».

تأه. «اللعنة على هذا. هذا ليس لطفاً، إنه مجرد عمل. الآن

هديتك هذه لطيفة حقاً. أو بالأحرى، من ستكون هديتك. من يا ترى».

«من؟»، بدونا مثل كورس من البوم. «من؟».

«إنها مارلين».

«أوليس اسم زوجتك مارلين؟».

«بالطبع، إذا ما أردت مضاجعتها يمكنك ذلك، إنها راغبة بك».

«أنا، أحقاً؟».

«أجل».

«راغبة بي لأي سبب؟».

«تقول إنك من النوع البريء الذي كان أندريه جيد ليحبه. وأفترض بما أن جيد توفاه الله فعليك الاكتفاء بها، أليس كذلك؟».

لم أشعر بالإطراء.

لكنني أجبته «ماثيو. لم أشعر بهذا القدر من الإطراء في حياتي. هذا لا يصدق».

«أحقاً؟»، وابتسم لي. «هذه هدية مني لك يا صديقي. عربون تقدير».

لم أرد أن أبدو جاحداً، لكنني عرفت أنني لا أستطيع ترك الأمر معلقاً: قد أجد نفسي في موقف غريب في المستقبل. لكنه لن يبدو لطيفاً أن أرفض هدية بايك. الممثلون في أنحاء العالم قد يضحون بأرجلهم فقط للتحدث إليه لخمس دقائق وها هو يدعوني لمضاجعة زوجته. كنت أعرف أن هذا امتياز، آه أجل. لكن كان عليّ أن أكون بالغ الحذر. في الوقت نفسه، في جزء مني، في قضيبي بالأحرى، وجدتني مهتماً بهذا العرض.

قلت أخيراً: «يجب أن تعرف يا ماثيو أنني أواعد إليانور. إنني معجب بها حقاً وهي معجبة بي على ما أظن».

«بالطبع أعرف هذا يا كريم لقد قلت لإليانور أن تسعى وراءك».

«حقاً؟».

نظر إليّ وأمأ برأسه.

«شكراً لك».

«بكل سرور. أنت مفيد جداً لها. لقد أحبطت طويلاً بسبب انتحار صاحبها بتلك الطريقة الرهيبة، وأنت تمدّها ببعض السكينة».

«أكانت محبطة حقاً؟».

«ألن تكون كذلك لو كنت مكانها؟».

«بلى».

«شيء فظيع»، قال «وأي شاب كان».

«أعرف».

«وسيم، وموهوب، وكاريزماتي. أكنت تعرفه؟».

«لا».

«أنا سعيد أنكما معاً»، قال مبتسماً.

دمرتني هذه المعلومات عن إليانور. ورحت أفكر بها محاولاً وضعها في السياق المناسب لمعرفتي بإليانور، وبعض الأشياء التي حكتها لي عن حياتها الماضية. هل انتحر صاحبها بطريقة مريعة؟ كيف؟ ومتى حدث ذلك؟ ولماذا لم تخبرني بالأمر؟ ولماذا لم يخبرني أي كان بالأمر؟ ما الذي كان يجري؟ كنت بصدد سؤال بايك عن هذا كله، لكن كان قد فات الأوان. بايك سيحسبني مغفلاً بعد أن ادعيت معرفتي بهذه القصة.

وظلّ بايك يتكلم، على الرغم من أنني لم أعد أسمعه بالكامل. كانت السيارة توقفت خارج محطة قطارات أنفاق «وست كنزنغتون»، واندفع أبناء الضواحي في حشد واحد، هارعين إلى منازلهم. ثم أخذ بايك يدون شيئاً على دفتر وضعه على ركبته.

«أحضر إليانور يوم السبت. سنستضيف بعض الناس على العشاء. سيكون من اللطيف رؤيتكما. أنا واثق من أننا نستطيع الوصول إلى تدبير لطيف».

«أنا واثق من ذلك أيضاً»، قلت.

خرجت من السيارة الصغيرة بصعوبة، وفي يدي عنوان منزل بايك.

حين وصلت إلى البيت، الذي كان نصف مخرب إذ كان تيد بدأ بالعمل فيه، كان أبي جالساً يكتب: كان يعمل على كتاب حول طفولته في الهند. لاحقاً سيذهب لإدارة صف تأمل في الصالة المحلية. كانت إيڤا في الخارج. أحياناً كنت أكره رؤيته. فإذا لم يكن المرء في مزاج مناسب لرؤيته، أو قادراً على إبعاده عنك، فإن شخصيته يمكن أن تكون متعبة. يمكن أن يبدأ بقرص خديك أو أنفك وأمور كهذه يحسبها غاية في الظرافة. أو يرفع سترته ويروح يطرطق نغمة ما على معدته الكبيرة، حاثاً إياك على أن تحزر ما إذا كانت «أرض الأمل والمجد» أم «كوين الجبار» في نسخة مانفرد مان؟ أقسم أنه كان يتفحص بطنه المنتفخة هذه خمس مرات في اليوم، مربتاً على بطنه، ضاغطاً على ثدييه مناقشاً أمرهما مع إيڤا كما لو أنهما الأعجوبة التاسعة في العالم، أو يحاول أن يقنعها بأن تعضه.

«مناطق الجاذبية في أجساد الرجال الهنود هي في مراكز أكثر انخفاضاً من الرجال الآخرين»، كان يزعم، «نحن مركّزين أكثر. نحن نستمد الحياة من المكان الصحيح، من المعدة. من الأحشاء، لا من الرأس».

كانت إيفا تتحمّل هذا كله، وتضحك. لكن أبي لم يكن صديقي. كنت بدأت أشعر أنه ليس أبي حتى، بقدر ما أنه شخص منفصل له خصائص معدية. أصبح جزءاً من العالم، لا مصدره؛ بطريقة ما، ولبؤسي، أصبح بالنسبة إلي مجرد فرد آخر. ومنذ بدأت إيفا تكدح بهذا الشكل، بدأت أتساءل حول كسل أبي. لم يكن يعرف كيف يرتب السرير أو يغسل ثيابه ويكويها. لم يكن يجيد الطبخ؛ ولا يعرف حتى كيف يصنع الشاي أو القهوة.

مؤخراً حين كنت مستلقياً أحفظ دوري طلبت منه أن يعدّ لي الشاي وبعض الخبز المحمّص. وحين لحقته بعد ذلك إلى المطبخ رأيته يقص كيس الشاي بالمقص ويدلق محتوياته في الكوب. وكان يحمل قطعة الخبز كما لو أنها غرض نادر حصل عليه من حفريات أثرية. النساء لطالما اعتنين به، وكان يستغلّهن، وكنت أزدريه على هذا. بدأت أفكر أن الإعجاب الذي كنت أكنه له، كولد، لم يكن له أساس. ما الذي يجيده؟ أي مميزات لديه؟ لماذا عامل أمي بهذا السوء؟ لم أعد راغباً بأن أكون مثله. كنت غاضباً. لقد خذلني بشتى الطرق.

«تعال إلى هنا يا صاحب الوجه العابس»، خاطبني، «كيف هو العرض؟».

«جيد».

«أجل، لكن احرص على ألا يهمّشوك. اسمعني جيداً! قل لهم إنك تريد الدور الرئيسي أو لا شيء. لا تستطيع النزول بعد أن صعدت بلعب دور موغلي في المسرح. أنت نتاج بذرتي الأولى، ألست كذلك؟».

قلدته «البذرة الأولى، البذرة الأولى»، ثم قلت له «لماذا لا تتوقف عن كل هذا الهراء أيها المخنث»، وخرجت.

ذهبت إلى «ناشفيل»، التي كانت هادئة في مثل هذا الوقت من اليوم. تناولت عبوتين من بيرة «رادلز»، وقطع بطاطا مطعمة بالدجاج، وجلست هناك متسائلاً لماذا ينبغي أن تكون الحانات كئيبة إلى هذا الحدّ، مليئة بالخشب الغامق والأثاث الثقيل والإضاءة الخافتة التي تجعلك غير قادر على الرؤية أبعد من خمس ياردات في الجو الملوث. فكرت في إليانور وشعرت بالرغبة بالبكاء إشفاقاً عليها. عرفت أيضاً أنني إذا بقيت في الحانة وقتاً طويلاً فسينتهي هذا الإحساس. من الواضح أن إليانور لم ترد التكلم عن صاحبها الضائع، حتى لو كان انتحر بطريقة رهيبة ما. لن تذكره لي بالتأكيد بطريقة مباشرة. لقد وضعتني خارج منطقة مهمة من حياتها. وجعلني ذلك أشكك في مدى حبها لي.

كانت حياتي إجمالاً تشهد أموراً غريبة؛ الأرض الصلبة كانت تميد تحتي. تناولت العشاء. نظرت إلى الورقة التي فيها عنوان بايك. كلمة «عشاء» نفسها أربكتني واستفزتني. يسمون كل شيء باسمه الغلط، هؤلاء الناس في لندن. وقت العشاء هو الغذاء، ووقت الشاي هو الغذاء، والإفطار هو وجبة فطور مع الغذاء، وما بعده هو وقت حلوى «البودينغ».

كان عليّ مناقشة بعض الأمور مع أصدقائي. سيساعدني ذلك على تقويم الأشياء في رأسي. لكن حين، بقلق، أخبرت إيڤا عن دعوة بايك (لكن دون ذكر «الهدية»)، لم تفهم مخاوفي وإرباكي. كانت برأيها فرصة ممتازة. كانت تعرف مدى رقي بايك، وراحت تنظر إلي بإعجاب كما لو أنني فزت ببطولة السباحة. «عليك أن تدعو ماثيو إلى هنا في وقت ما خلال الأسبوعين التاليين»، كان جوابها. ثم خابرت جميلة، متأملاً أنها ستقدم لي فكرة مختلفة. كنت بدأت أرى كم أنني أخشاها،

كم أخشى «جنسانيتها»، مثلما كانوا يقولون في تلك الأيام اللعينة، كنت أخشى قوتها ومشاعرها وصلابة آرائها. كان الشغف زائداً في ساوث لندن «حسناً»، سألتها. «ما رأيك؟».

«آه، لا أعرف، يا قشطة. أنت تفعل دائماً ما تريده على أي حال. لا تصغي لأي كان. لكن بالنسبة إلي، لا أستطيع الذهاب إلى هذه الأمكنة. أخشى أنهم سيطروا عليك، أولئك الناس، إنهم يبعدونك عن العالم الحقيقي».

«أي عالم حقيقي؟» ليس هناك من عالم حقيقي. أليس كذلك؟».

أجابت بصبر «بلى، عالم الأناس العاديين والخراء الذي عليهم التعامل معه ـ البطالة، والسكن السيء، والضجر، سرعان ما لن تعود قادراً على استيعاب أي من الأمور الجوهرية».

«لكن يا جايمي إنهم أناس أقوياء». ثم ارتكبت خطأ بسؤالها «أليس لديك الفضول للتعرف على حياة الأغنياء والناجحين؟».

فقهقهت ساخرة «إنني أقل اهتماماً بأثاث المنازل منك يا عزيزي. ولا أريد أن أقترب بتاتاً من هؤلاء الناس، لكي أكون صريحة معك. الآن، متى ستزورنا؟ لدي طبق كبير من الدال الحار الذي لم يؤكل بعد. حتى شانغيز لا أسمح له بالاقتراب منه، إنني أحتفظ به لك، يا حبيبي القديم».

«شكراً يا جايمي».

ذات ليلة جمعة، عند نهاية التمرينات، وضع بايك ذراعيه حول إليانور وحولي بينما نغادر، وقبّل كلانا قائلاً: «أراكما غداً إذاً، إيه؟».

«أجل، نراك غداً»، قلت.

«إننا نتطلع لمجيئكما».

«أنا أيضاً»، رددت.

الفصل الثالث عشر

مذهل، فكرتُ، ناظراً إلى انعكاس وجهي على النافذة المقابلة لقطار «باركلو لاين». أيها الإله الصغير. رقصت قدماي وعزفت أناملي موسيقى «ڤلڤيتس»: «كان يقول شيئاً حقاً»، بينما قطار الانفاق يخترق مسرعاً أسفل مدينتي المفضلة، ملعبي، وبيتي. كانت حبيبتي تدندن أيضاً. كنا بدلنا المحطة عند «بيكاديلي وتوجهنا» إلى شمال غربي المدينة، إلى «براينڤيل»، لندن، وهو مكان لا يقل بعداً بالنسبة إلي عن «مرسيليا». أي سبب كان لدي للذهاب إلى «سانت جونز وود» قبلاً؟ بدوت لائق البنية؛ لابدّ من أنه الخضار، لابدّ من أنها ممارسة تمارين الضغط، و«عليّ، عليّ أن أزيد من تمرينات الخاصرة»، التي نصحتني بها إيڤا والتي كانت تحقق هدفها في تحسين شكلي وزيادة ثقتي بالنفس. كنت حلقت شعري في «ساسون» في «سلون ستريت»، ورششت على خصيتي بودرة طلق، فصارتا عطرتين وطيبتي المذاق مثل حلوى «تيركش ديلايت». لكن ثيابي كانت واسعة كالعادة، لأنني كنت ألبس إحدى سترات أبي الحكلية، وإحدى ربطات عنقه التي يشتريها من «بوند ستريت»، فوق تي شيرت «رونيت»، وفوق هذا كله كنزة زهرية تخصّ إيڤا. ويجب أن أعترف أنني كنت أيضاً متوتراً ومخضوضاً، بعد أن هددني هيتر بسكين في شقة إليانور قبل ساعة «اعتن بهذه المرأة هه؟ إذا حدث لها أي مكروه .فسأقتلك!».

جلست إليانور بجانبي ببذلة سوداء وقميص حريري أحمر غامق ذي

ياقة عالية، وكان شعرها ملموماً، لكن تحررت منه خصلتان، رحت ألاعبهما بكل غبطة. «لم أرك بمثل هذا الجمال من قبل»، قلت لها. وكنت أعني ذلك. ولم أستطع الكفّ عن تقبيلها. وكل ما أردته أن أحتضنها طوال اليوم وأهدهدها، وأنكوزها، وألاعبها.

صعوداً اتجهنا إلى البيت، مبتهجين ومتحمسين. لابدّ من أن منزل بايك ومارلين الذي يقع في شارع هادئ يتكون من أربعة طوابق، وقد امتلأت حديقته الأمامية المسقية حديثاً بالأزهار، إضافة إلى سيارتي بايك السبور، الزرقاء والسوداء. ثم هناك القبو الذي تعيش فيه المربية التي تعنى بابن بايك من زواجه الأول، والبالغ من العمر ١٣ عاماً.

كان تيري أوجز هذا كله لي، على جاري عادته في أن يتقصى، لأغراض سياسية، جرائم الطبقة الوسطى الثرية، وكأنه التحري «ماغريه». كان قد حصل تيري على عمل؛ جاء الاتصال أخيراً. صار يلعب دور عريف في سلك الشرطة، في مسلسل بوليسي تلفزيوني. ولم يكن هذا بالمريح إيديولوجياً له، إذ كان يزعم دائماً أن الشرطة هي الآلة الأكثر فاشية للحكم الطبقي. وها هو الآن يجني كشرطي أموالاً طائلة، أكثر مني ومن أي شخص آخر في الحي الذي يعيش فيه في الضواحي، حيث أصبح الناس يتعرفون إلى شكله في الشوارع. وقد طلب منه أيضاً افتتاح عرض ألعاب نارية، والتحكيم في مسابقات مسرحية، والظهور في برامج ألعاب للمشاهير. حتى بات السير معه في الشارع شبيهاً بالسير مع تشارلي، من الطريقة التي يناديه فيها الناس ويلتفتون نحوه ويحملقون به. سوى أن المعجبين به ما كانوا يعرفونه باسم تيري تابلي، لكن باسم العريف مونتي. ومثل هذه المفارقات الساخرة جعلت العريف مونتي شديد العدائية بصورة خاصة تجاه بايك، الرجل الذي حرمه من العمل الوحيد الذي كان يريده حقاً.

اصطحبني تيري قبل فترة إلى اجتماع سياسي، وبعده، في الحانة، استمعت إلى إحدى رفيقاته تتحدث عن روعة الحياة بعد الثورة. «سيقرأ الناس شكسبير في الحافلات وسيتعلمون عزف الكلارينت!». وتأثرت بالتزامها وتفاؤلها؛ ورغبت بالمساهمة بشيء ما. لكن تيري ارتأى أنني غير جاهز بعد. وأوكل إلي مهمة صغيرة أولاً. «راقب بايك من أجلنا»، قال «بما أنك على وفاق معه. هذه النوعية من الناس مفيدة للحصول على المال. ربما يكون ثمة شيء في ذلك الشارع ما تستطيع القيام به يوماً ما. سنعلمك في حينه. لكن الآن ليس عليك سوى أن تراقب جيداً لترى ما الذي يمكن أن يفيدنا به بايك حين يأتي وقت الحاجة سياسياً إليه. باختصار يمكنك مساعدتنا بالتعرف إلى ابنه».

«ابنه؟ حاضر عريف مونتي».

شعرت أنه يريد أن يصفعني على وجهي.

«لا تناديني بهذا الاسم. واسأل الفتى ـ أمام جميع الضيوف ـ إلى أي مدرسة يذهب. وإذا لم تكن واحدة من أغلى وأكثر المدارس حصرية في إنكلترا، وفي الغرب كله في الواقع، فسأغير اسمي إلى ديسرائيلي».

«حسناً عريف مونتي، أعني ديسرائيلي. لكن لا أستطيع أن أصدق أنك مصيب بهذا الشأن. بايك شخص راديكالي يا رجل».

ضحك تيري ساخراً «لا تخبرني عن أولئك الراديكاليين الملاعين. إنهم مجرد ليبراليين»، وهؤلاء كانوا الأسوأ عملياً بنظره. «والفائدة الوحيدة المرتجاة منهم هي أن يتبرعوا لحزبنا بالمال».

فتحت لنا الخادمة، وهي صبية إيرلندية محترمة، الباب. وقدمت لنا الشامبانيا واختفت في المطبخ لكي تعد «العشاء»، كما افترضت. جلسنا متوترين على كنبة جلدية بانتظار أن ينتهي بايك ومارلين من ارتداء ملابسهما، مثلما قالت لنا الخادمة. «الأحرى أنهما يتعريان»، همست

لإليانور. لم يكن هناك سوانا. كان البيت ساكناً بشكل مخيف. أين بقية المدعوين بحق الجحيم؟

«أليس رائعاً أن يدعونا بايك إلى منزله»، قالت إليانور. «هل تحسب أننا يفترض أن نبقي هذا سراً؟ هو لا يخالط الممثلين اجتماعياً عادة، أليس كذلك؟ لا أظن أنه دعا أي شخص آخر من الفرقة، أليس كذلك؟».

«لا».

«لمَ نحن إذاً؟».

«لأنه يحبنا كثيراً».

«حسناً، أياً كان ما سيحدث، لا ينبغي أن ينكر واحدنا على الآخر حقه في التجربة»، قالت بصلف. ونظرت إلي وكأنها ترغب بأن تكبس أرزاً صلباً على رأس قضيبي».

«أي تجربة؟»، سألتها، ناهضاً وماشياً في المكان. لم ترد، وظلت جالسة تدخن. «أي تجربة؟»، كررت. ها هي الآن تخرب أمسيتي كلها، وقد بدأت أصير أكثر فأكثر توتراً. بدوت لا أعرف شيئاً، ولا حتى وقائع حياة صاحبتي. «ربما نوع التجربة التي عشتها مع صاحبك السابق؟ ذاك الذي أحببته كثيراً. أهذا ما تعنينه؟».

«رجاء لا تتحدث عنه»، قالت بنعومة «إنه ميت».

«هذا ليس سبباً لعدم التكلم عنه».

«إنه كذلك بالنسبة إلي»، ونهضت «يجب أن أذهب إلى الحمام».

«إليانور»، صحت بها للمرة الأولى في حياتي، ولكن ليست الأخيرة، «إليانور لماذا لا نتكلم عن هذه الأشياء؟».

«لكنك لا تعرف كيف تعطي. لا تستطيع فهم الآخرين. سيكون خطيراً أن أفتح نفسي أمامك».

وتركتني على هذه الحال.

رحت أنظر حولي. كنت محققاً طبقياً. واكتشفت أن تيري قلل كثيراً من شأن الثروة الموجودة هنا. يجب أن أنصحه بتحسين مصادره التجسسية. كان بيتاً رائعاً، جدرانه حمراء وخضراء قاتمة علقت عليها بورتريات حديثة، اثنتان لمارلين، واحدة منهما في «بايلي». أما الأثاث فكان على طرز الستينات: طاولات قهوة واطئة على سطحها كاتالوجات «كولفيلد» و«بايكون»، وسيرة حياة ناي بيفن من تأليف مايكل فوت بجزئين. كان هناك ثلاث كنبات بأغطية من الباستيل، وأفاريز هندية على الجدار فوقها؛ ومنحوتة من الجص تداخلت فيها أسلاك ولمبات، التصقت أيضاً بالجدار: بدت هذه المنحوتة فرجاً ضخماً. وعلى جدار آخر علقت بشكل عرضي ثلاث من جوائز بايك، وعلى الطاولة تمثالان صغيران ووعاء زجاجي حفر عليه اسم بايك. لم يكن هناك ملصقات أو صور لأي من أعماله. عدا عن الجوائز، لا يمكن أن يعرف ـ من لا يعرفه ـ ما هي طبيعة عمله.

عادت إليانور مع نزول بايك وزوجته ببطء على الدرج، بايك بجينز أسود وتي شيرت سوداء، ومارلين أكثر إكزوتية بفستان أبيض قصير، وذراعين وساقين عاريين، وحذاء باليه أبيض. كانت رائعة، مارلين، موحية بابتساماتها بشخصية صلبة وغير مساومة. لكنها مثلما تقول أمي، لم تكن بدجاجة الربيع.

قدمت لنا الخادمة الإيرلندية صلطة ديك الحبش وجلسنا نأكل واضعين الصحون على أرجلنا، وشربنا المزيد من الشامبانيا. كنت جائعاً، وقد تعمّدت تفويت الغذاء لكي أستمتع بالعشاء، لكنني وجدت نفسي غير قادر على تناول الكثير. مارلين وماثيو بديا غير معنيين بالطعام أيضاً. وظللت أنظر نحو الباب، متوقعاً مجيء المزيد من الناس، لكنّ

أحداً لم يأت. لقد كذب بايك علينا. كان هادئاً وبارداً الليلة، كما لو أنه لا يمكن إزعاجه بالمحادثة. تمتم فقط بعض الكليشيات، كما لو ليشدّد على ابتذال السهرة.

وتولت مارلين معظم الحديث، ولكي أبقى صامتاً طرحت الكثير من الأسئلة حتى بدأت أشعر نفسي محاوراً تلفزيونياً. أخبرتنا عن المداخل الخاصة التي تستعملها العاهرات في مجلس العموم؛ وبينما نأكل ديك الحبش أخبرتنا قصة النائب الذي يحب أثناء ممارسة الجنس مشاهدة الدجاج وهو يذبح.

كان لدى مارلين بعض ماريجوانا «عيدان التاي»، رحنا ندخنها بعد العشاء، حين دخل بيرسي، ابن بايك، وهو فتى هزيل ومزاجي حليق الرأس، يضع قرطين ويرتدي ثياباً مزرية، ولا يوحي على الإطلاق بأنه من أبناء الطبقة الوسطى الليبرالية. هوائيات التجسس ارتفعت في داخلي، وراحت تتذبذب لالتقاط المعلومات.

«بالمناسبة»، قال بايك للفتى «هل تعرف من هو أخ كريم؟ إنه تشارلي هيرو».

تسمّر الفتى فجأة. وجعل يلوح بجسده في الغرفة طارحاً الأسئلة. كان أكثر حيوية من أبيه «هيرو هو بطلي. كيف هو؟».

وصفت له بشكل موجز شخصية تشارلي. لكنني لم أكن قادراً على خذلان تيري. الآن فرصتي السانحة.

«في أي مدرسة تتعلم؟».

«وستمنستر. وهي خرائية».

«أحقاً؟ أهي مليئة بأنماط المدارس الخاصة؟».

«مليئة بالميديا، الأولاد الذين يعمل أهلهم في بي بي سي، أردت الذهاب إلى المدرسة الحكومية، لكن هذان الإثنان لم يسمحا لي».

خرج من الغرفة. ولبقية الأمسية، من فوق، كنا نسمع الصوت المكتوم لأول ألبومات «كوندمند»، الذي حمل عنوان «كبرياء المسيح»، يعاد مراراً وتكراراً. حين خرج بيرسي نظرت إلى بايك ومارلين نظرة مفعمة بالدلالات، كأنني أقول لهما، «لقد ختنتما الطبقة العاملة»، لكن أي منهما لم يلاحظ نظراتي هذه. جلسا هناك يدخنان، والضجر باد عليهما، كما لو أن السهرة بدأت منذ آلاف السنين ولم يعد ما يمكن أن يثير اهتمامهما.

سوى أنه في يوم الأحد ذاك، نهض بايك وعبر الغرفة وفتح الباب المفضي إلى الحديقة، ثم عاد وأومأ لإليانور، التي كانت تتحدث مع مارلين، فقطعت الحديث فوراً، ونهضت ومضت وراء بايك إلى الحديقة. وبقيت وحدي مع مارلين. وبدأت الغرفة تصير باردة، بسبب الهواء الآتي من الحديقة، لكن النسيم كان عطراً، كما لو أن الأرض تتنفّس عطراً. ما الذي يفعلانه هناك؟ تصرفت مارلين كما لو أنه لم يحدث أي شيء. ثم سكبت لنفسها كأساً أخرى وجاءت وجلست قربي، ووضعت ذراعها حولي، وزعمتُ أنها غير موجودة. توترت، مع ذلك، ورحت أبدي آرائي في شتى الأمور، بعد أن بدأ يتكون لدي انطباع بعيد بأنني شخص رائع، لكن كان ثمة ما أريد معرفته، وكنت واثقاً من أن مارلين ستساعدني به.

«مارلين، هلا أخبرتني شيئاً لم يخبرني به أحد في الواقع؟ هلا أخبرتني ما الذي حدث لجين صاحب إليانور؟».

نظرت إلي بتعاطف، لكن بمسحة من عدم التصديق.

«هل أنت واثق من أن أحداً لم يخبرك؟».

«مارلين أنا واثق من أن أحداً لم يخبرني. وهذا يزعجني كثيراً أيضاً. الجميع يتصرف كما لو أنه سرّ كبير. لا أحد يقول شيئاً، إنني أعامل كشخص أبله».

«ليس سراً، لكنه لا يزال موضوعاً مؤلماً لإليانور، حسناً؟»، واقتربت مني أكثر. «جين كان ممثلاً شاباً من جزائر الهند الغربية (وست إنديز). وكان موهوباً وحساساً جداً، نحيلاً ولطيفاً ووسيماً. وكان يحفظ الكثير من الشعر، ويقرأه بصوت عال في الحفلات. وكان خبيراً بالموسيقى الإفريقية. عمل مرة، منذ زمن بعيد، مع ماثيو، الذي يقول دائماً إنه أفضل ممثل عرفه، لكنه لم يحظ بالدور الذي يستحقه. كان يلعب دور ممرض يفرّغ نونيات المرضى في مسلسل تلفزيوني عن المستشفيات. ولعب أدوار المجرمين وسائقي التاكسي. لم يمثل في مسرحية لتشيخوف أو إبسن أو شكسبير، وكان يستحق ذلك. كان أفضل من كثر غيره. لذا كان غاضباً حيال الكثير من الأمور. وكانت الشرطة تتحرش به باستمرار، ولا تقف له سيارات الأجرة. ويقولون له لا طاولات لدينا في المطاعم الفارغة. لقد عاش أوضاعاً سيئة في إنكلترا المعروفة اللطيفة. وذات يوم حين لم يتمكن من دخول إحدى كبريات الفرق المسرحية، لم يعد قادراً على الاحتمال. جن جنونه. تناول جرعة زائدة. إليانور كانت في العمل، وحين رجعت إلى البيت وجدته ميتاً. كان فتياً جداً وقتذاك».

«فهمت».

«هذه هي كل الحكاية».

جلست ومارلين هناك لفترة. فكرت في جين وما مرّ به؛ ما الذي فعلوه به؛ ما الذي سمح هو بأن يحدث له. ثم رأيت مارلين تحدق بي.

«ما رأيك بقبلة؟»، قالت بعد وهلة وهي تداعب وجهي.

ذعرت، «ماذا؟».

«فقط بوسة صغيرة نبدأ بها، لنرى كيف تسير الأمور بيننا. هل صدمتك؟».

«أجل، لأنني سمعتك تقولين لحسة، وليس قبلة».

«ربما لاحقاً، أما الآن...».

قربت وجهها من وجهي. كانت عيناها محاطة بالتجاعيد؛ كانت أكبر امرأة أقابلها. حين انفصلنا وتجرعت المزيد من الشامبانيا رفعت ذراعيها بحركة درامية مفاجئة، كما لو أحدهم يحتفل بفوز رياضي، وخلعت فستانها. كان جسدها نحيفاً وأسمر، وحين لمسته فوجئت بشدة حرارته، كما لو أنه حمصت تحميصاً خفيفاً. وهيجني ذلك، وكنت أكن لمارلين بعض الإعجاب الأولي أيضاً، لكن الأهم أنني كنت خائف، وكنت أحب هذا الإحساس.

خدّرتني الحشيشة وأخمدت فيّ التفاعل والإحساس. لا أعرف السبب لكن «العيدان التايلاندية» أعادت إليّ ذكرى الضواحي ومنزل إيڤا في «بكنهام»، ورأيت في شريط متسلسل تلك الليلة التي لبست فيها البنطال المخمل الفضفاض، ولم يعرف أبي الطريق، وأخذته إلى «ثري تانز»، حيث كان كيفن آيرز يعزف وأصدقائي الذين أحبهم على البار، بعد أن أمضوا ساعات في غرف نومهم يستعدون للسهرة، لأن أسعد لحظاتهم كانت حين يراهم شخص يعرفونه. ثم تراءى لي تشارلي جالساً أعلى السلم، في أحلى حلة، متفرجاً فحسب، بينما يمارس موظفو الإعلانات التأمل، وكيف زحفت على المرج، لأرى أبي على مقعد الحديقة، وإيڤا فوقه، بشعرها الأفقي. وكيف ذهبت للحصول على بعض السلوى من تشارلي الذي أسمع الآن أسطوانته تعزف في الأعلى، وقد بات شهيراً ومحط إعجاب، وأنا أمثل في مسرحية في لندن، وأعرف أناساً حديثين، وأدخل إلى منازل ضخمة كهذه، وأكون المدعو الوحيد وتروح امرأة تقبّلني، بانتظار ممارسة الجنس معي. ورأيت أيضاً أمي ترتجف ألماً لأن روحها تعرضت للخيانة، ونهاية

حياتنا الأسرية وكل شيء آخر بدأ تلك الليلة. وجين مات. كان يحفظ الأشعار، وكان غاضباً ولم يحصل على فرصته، وتمنيت لو أنني التقيته. كيف أستطيع ملء مكانه في عيني إليانور؟

حين جلست مستقيماً ورحت أبحث في عقلي عما يدلني إلى المكان الذي أنا فيه. شعرت كما لو أن أضواء عقلي قد انطفأت. لكنني رأيت شخصين في الطرف القصي، ينيرهما فقط الضوء الآتي من الصالة. وعلى الباب الفتاة الإيرلندية تراقب كما لو أنها دعيت إلى ذلك، هذين الشخصين الغريبين وهما يتبادلان القبل ويتحسّس كل منهما جسد الآخر. الرجل دفع المرأة إلى الصوفا. وكانت خلعت السترة السوداء والقميص الأحمر، لسبب ما، مع أنها كانت رائعة بهما.

أنا ومارلين وقعنا على الأرض، . ووجدت نفسي ألجها، ولاحظت أمور غريبة، كيف أن لها عضلات قوية في فرجها، وكيف استعملتها لتقبض على قضيبي بكل احتراف. وحين أرادت أن توقفني عن الحراك في داخلها حركّت عضلات فرجها وحدث ذلك فوراً.

لاحقاً، حين نظرت، رأيت الشخصين الآخرين قد انفصلا، ورأيت بايك يندفع نحوي بقضيبه المنتصب، مثل شاحنة برافعة.

«هذا يبدو مسلياً»، قال.

«أجل إنه. . .».

لكن قبل أن أنهي عبارتي، كان أهم مخرجي إنكلترا وأكثرهم وراديكالية يقحم قضيبه بين شفتي وهما تتحركان. وكان يمكن أن أقدّر هذا الامتياز الذي منحني إياه، لكنني لم أحب الأمر كثيراً: بدا الأمر فرضاً. كان يمكنه أن يطلب ذلك بتهذيب. لذا وجهت لقضيبه واحدة من ضربات ساوث لندن، غير مبرحة إلى حدّ أن تقضي على دوري في المسرحية، لكن كافية لتخضه قليلاً. حين نظرت إلى أعلى لأرى ردة

فعله كان يتمتم استحساناً. لحسن الحظ أبعد بايك قضيبه عن وجهي. شيء مهم كان يحدث. انتقل اهتمامه إلى مكان آخر.

تقدمت إليانور منه، بسرعة وشغف، كما لو أنه يمثل قيمة مطلقة في تلك اللحظة، كما لو أنها عرفت أنه يحمل رسالة بالغة الأهمية لها. أمسكت رأسه كما لو كان وعاء فاخراً، وقبلته، جارة شفتيه نحوها، مثلما جرت رأسي بصورة عفوية نحوها ذاك الصباح حين كنا نأكل الغرايبفروت، في غرفة الجلوس في شقتها. أصبحت يده بين فخذيها الآن، وانغرزت أصابعه في فرجها، بينما راحت هي تكلمه كالمسحورة. أرهفت حواسي لكي أرى وأسمع كل شيء، وكم تألمت وهي تهمس له كم أنها ترغب بمضاجعته، وكيف أنها لطالما رغبت بذلك منذ أعجبت به ثم رأته في مسرح «آي سي أيه»، أو «الرويال كورت»، أو «أوبن سبايس»، أو «ألموست فري»، أو» ذي بوش»؟ لكنها، وبقدر ما رغبت فيه وقتذاك، فقد كانت تشعر بالرهبة من شهرته، وموهبته، ومكانته، بحيث لم تتجرأ على الاقتراب منه؛ لكن ها هي أخيراً تتعرف عليه بالضبط بالطريقة التي لطالما حلمت بأن تتعرف عليه فيها.

مارلين هيجها كثيراً هذا الكلام. وجعلت تطوف حولهما لكي ترى بصورة أفضل. «آه، بلى، بلى»، راحت تردد «يا للروعة، يا للروعة، شيء لا يصدّق».

«توقفي عن التكلم»، قال بايك فجأة.

«لكنني لا أصدق»، مضت مارلين قائلة «هل تصدق يا كريم؟».

«إنه شيء لا يصدق»، أجبت.

وهذا شتت انتباه إليانور. نظرت إلي حالمة، ثم إلى بايك. سحبت أصابعه من فرجها ووضعتها في فمي.

«لا أريد احتكار المتعة كلها»، قالت لبايك، مترجية. «رجاء، لم لا تتلامسان أنتما الإثنان؟».

أومأت مارلين برأسها بعنف موافقة على هذا الاقتراح البنّاء.

«موافق؟»، سألتني إليانور. لكن كان صعباً عليّ أن أجيب بوجود أصابع بايك في فمي.

«آه بلى، بلى»، قالت مارلين.

«اهدئي»، قال بايك.

«أنا هادئة»، قالت مارلين التي كانت سكرانة أيضاً.

«اللعنة» قال بايك لإليانور «مارلين اللعينة».

مارلين وقعت على الكنبة على ظهرها، عارية، ومنفرجة الرجلين.

«هناك الكثير يمكننا فعله الليلة»، صرخت، «ثمة ساعات وساعات من المتعة الكاملة بانتظارنا. نستطيع أن نفعل ما نشاء. هذه ليست إلا البداية. دعوني أجدد لكم الشراب ونمضي قدماً. الآن يا كريم أريدك أن تضع بعض الثلج في فرجي. هلا أحضرته من الثلاجة لو سمحت؟».

الفصل الرابع عشر

كنت مفلساً كالعادة. وكان الوضع سيئاً جداً بحيث صرت مضطراً للعمل. كنا في استراحة ستستمر بضعة أسابيع، بينما تقوم لويز بتوليف دراما واحدة متناسقة من الارتجالات والشخصيات التي ابتكرناها. عملية إنجاز عرض تستغرق مدة طويلة مع بايك. فقد بدأنا في بداية الصيف وها نحن في الخريف. وعلى أي حال، سافر بايك إلى بوسطن ليعلّم هناك. «سنعمل عليها بقدر ما يتطلب الأمر»، قال «العملية وليست النتيجة هي ما يهمني». وخلال فترة الانتظار تلك، بدلاً من الذهاب في عطلة مثل كارول، وترايسي، وريتشارد، بدأت أعمل «تاجر عربات مدولبة»، مثلما أسمتني إيفا، في عملية إعادة تزيين الشقة، ناقلاً الركام. كان عملاً شاقاً، لذا فوجئت حين قالت لي إليانور فجأة إنها تود مشاركتي العمل. «رجاء»، قالت «يجب أن أخرج من البيت. بقائي هنا يجعلني أفكر كثيراً».

وبما أنني لم أردها أن تفكر، وأردت أن أجذب انتباهها نحوي بعد تلك الليلة مع بايك (التي لم نناقشها إطلاقاً)، ذهبت إلى إيفا وقلت لها أن توظف إليانور أيضاً، «وبالطبع ستدفعين لها مثلما تدفعين لي، نحن نعمل معاً».

وكانت إيفا قد اكتسبت حدة جديدة، بكل المعاني. صارت منظمة مثل أي من المدراء؛ وحتى أن مشيتها صارت أسرع وأرشق وأسلس. كانت تضع اللوائح بكل شيء. لا أبخرة ميتافيزيقية ينبغي أن تعترض

الطريقة التي ينبغي أن تنجز بها الشقق. التدفق والحدس الحسي لا يعني الغباء العملي. كانت إيڤا صريحة ونزيهة. وهذا كان يخيف الناس، ولا سيما السنكريين، الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة معاملة لم يألفوها من قبل. لم يلتقوا شخصاً يقول لهم، «الآن دعني أوضح لك بالضبط كيف تسبّبت بمثل هذا الخراب في مهمة صغيرة كهذه؟ هل تريد أن يظل مستواك رديئاً كهذا؟ هل سيظل عملك رديئاً». لقد أضافت إلى نفسها أيضاً ميزة أخرى بوصفها أم تشارلي. وقد ظهرت مرتين في ملاحق صحيفة «صنداي».

وها هي الآن تكلمني بصلف: «لا أستطيع أن أشغّل إليانور. على أي حال أنت أخبرتني أنها مجنونة».

«وأنت كذلك».

«الممثلون يا كريم هم رفقة أنيسة. يقومون بأصوات طريفة ويقلدون الآخرين، لكنهم بلا شخصيات».

«أنا ممثل يا إيڤا».

«آه أجل، لقد نسيت. أنت كذلك. لكنني لا أفكر بك كممثل».

«ما الذي تقولينه؟».

«لا تكن عصبياً هكذا، عزيزي. لكن ليس عليك أن ترمي نفسك على أول امرأة تفتح فخذيها لك».

«إيڤا!».

منذ «كتاب الغابة»، تعلمت المواجهة، على الرغم من أنه يكلفني الكثير أن أتهجّم على إيڤا. ولم اكن راغباً بأن أجفل أمي الجديدة. لكنني قلت لها، «لن أعمل لديك ما لم تعمل إليانور أيضاً».

«حسناً، اتفقنا، إذا كنت تصرّ. الأجر نفسه لكليكما. غير أن أجرك الآن انخفض بنسبة خمسة وعشرين بالمئة».

لذا أنا وإليانور قمنا بكل العمل الخرائي في ذلك الغبار الأبيض، محطمين المكان، ومكدّسين أكواماً بركانية من الحجارة في كومة في الخارج. كان وقتاً مزدحماً بالنسبة إلى إيڤا أيضاً. فقد كلفت بإعادة تصميم شقة منتج تلفزيوني معروف يعيش حالياً في أميركا. كان هذا أول عمل خارجي كبير لها ولتيد، لذا بينما كنت وإليانور نعمل في الشقة، كانت هي وتيد تهذب إلى شقة أخرى في «مايدا فال»، ويعملان على وضع الخطط. وصارت هي وأبي يناماں هناك، وأنا أيضاً من وقت لآخر.

كنا نستمع أثناء العمل إلى إلى الموسيقى الجديدة، «ذي كلاش»، و«جنرايشن أكس»، و«كُندمند»، و«أدفيرتس»، و«ذي بريتندرز»، و«ذي أونلي ونز»، وكنا نحتسي النبيذ ونأكل السجق بالبصل والخردل. وفي نهاية اليوم نستقل الحافلة رقم ٢٨ إلى «نوتنغ هيل» ونجلس دائماً في المقدمة بينما الحافلة تشق طريقها في زحمة «نوتنغ هيل ستريت»، حيث أروح أتأمل سيقان السكرتيرات في الأسفل وإليانور تقرأ «إيفننغ نيوز» لترى أي مسرحية سنشاهدها الليلة.

ثم نستحم في بيتها، ونسكب المياه المحلاة على شعرينا بحيث نبدو مثل حيوان الشيهم. ونرتدي ثياباً سوداء. أحياناً كنت أضع الكحل والورنيش. ثم نذهب إلى «بوش»، وهو مسرح صغير أعلى حانة «شيبردز بوش»، وكان المكان ضيقاً جداً بحيث يتمكن أولئك الجالسين في الصف الأمامي من مدّ أرجلهم على الخشبة. كانت مقاعد مسرح «رويال كورت» الشهير في «سلون سكواير» أكثر فخامة، والأعمال التي تعرض فيه ـ أعمال كاريل شرشل وسام شيبارد ـ مذهلة. أو نذهب إلى «رويال شكسبير كومبَاني ويرهاوس» في «كونفنت غاردن» المعتم، ونجلس بين الطلاب، الأميركيين والإنكليز من شمال لندن. وبينما

تتعذب مؤخرتك على مقاعد حديد وبلاستيكية، تشاهد على الخشبة الرمادية مشهداً مينيمالياً مكوناً مثلاً من أربعة مقاعد وطاولة مطبخ، تحيط بها القناني المهشمة والمواقع المقصوفة، عالم يغلي بالجليد الجاف فوق الجمهور المختنق. إنها لندن، بكلام آخر. كان الممثلون يلبسون ثياباً تشبه ثيابنا، لكنها أغلى. والمسرحيات تستمر ثلاث ساعات، وتتفجر فوضوية ومشهديات استفزازية. كان كتاب المسرح يعتبرونه أمراً مسلماً أن إنكلترا، بطبقتها العاملة المكونة من الرعاع والخاسرين ذوي الأنوف الحمراء، وحيواناتها التي تعيش على لعب «البينبال»، والبورنغرافية والطعام الجانكي، كانت تتجه نحو صراع طبقي نهائي. وهذه الرؤى كانت بالطبع من قبيل الخيال العلمي بالنسبة إلى فتيان جامعة أوكسفورد الذين لم يغادروا البيت في حياتهم. كان أبناء الطبقة الوسطى يحبون هذه الرؤى.

إليانور كانت دائماً تخرج من هذه المسرحيات متوردة الوجنتين ومتحمسة للنقاش. كان هذا نوع المسرح الذي تحب مشاهدته والمشاركة به. كانت عادة تعرف بضعة شبان من الجمهور، إن لم يكن من العاملين في العروض نفسها، وكنت دائماً أسألها مع كم واحد منهم نامت. أياً يكن العدد، ومهما كانت المسرحية، كان الجلوس قربها في العتمة الدافئة يجعلني أنتصب بشكل لا يقاوم، وفي الاستراحة كانت تشرّع لي فخذيها بحيث يمكنني أن ألمسها بالطريقة التي تحبها.

كانت تلك أجمل الأيام: حين كنت أستيقظ وأجد إليانور حارة كفطيرة؛ أحياناً كانت تتعرق عند صدرها الذي يبدو أنه توثّب خلال نومها. تذكرت قول أبي للعمدة، وهو سكران في واحدة من حفلات الخالة جين، بينما أمي تأكل بعصبية كعكة بحجم قبعة، «نحن الهنود الصغار نحب السيدات البيض الممتلئات، وذوات الأفخاذ السمينة».

ربما كنت أعيش تهويماته الجنسية وأنا أعانق لحم إليانور، ممرراً راحتي يدي على جسدها كله، ثم أقبلها لأوقظها وأضع لساني في فرجها وهي تفتح عينيها. نصف نائمين، كنا نحب بعضنا، لكن صوراً مزعجة أحياناً كانت تقتحم رأسي. ها نحن، زوجان مغرمان وشغوفان ببعضنا، لكن حتى أقذف كنت أجد نفسي متسائلاً أي نوع من الرجال هم الذين رأوا الاغتصابات، والمجازر، وعمليات التعذيب، وإخراج الأمعاء، في لحظات كهذه من الوحدة. كانت تعذبني الشياطين. وكنت أشعر باستمرار أن أموراً رهيبة ستحدث.

حين انتهيت وإليانور من العمل في الشقة، وقبل أن تستطيع إيڤا وتيد البدء بعملهما بها، أمضيت بعض الوقت مع جيتا وجميلة. كل ما أردته ان أعمل في الدكان في المساء وكسب بعض المال، من دون أن أتورّط في مشكلات العائلة. لكنني اكتشفت أن الأمور تغيرت كثيراً.

لم يعد العم أنور ينام بالمرة الآن. كان يقعد ليلاً على حافة سريره، مدخناً وشارباً مشروبات محرمة إسلامياً، ومفكراً بأفكار سوداوية، حالماً ببلدان أخرى، وبيوت ضائعة، وأمهات، وشواطئ. لم يعد يعمل في المتجر، ولا عاد يراقب النشالين حتى. وكانت غالباً تجده جميلة حين تذهب لرؤية أمها صباحاً قبل ذهابها إلى العمل، مرمياً على الأرض، ثملاً ومضمخاً بالتعاسة. إضراب أنور عن الطعام لم يحبّبه إلى عائلته، فلم يعد أحد يهتم بأمره أو يسأل عن حالة قلبه المتصدع. «ادفنوني في قبور المتشردين»، قال لي. «لقد استحققت ذلك يا كريم»، «أجل لقد استحققته يا عمي». وكانت الأميرة جيتا تصير أقوى شكيمة وأشد إرادة بينما أنور يهوي؛ بدا أن صار أنفها معدنياً مثل عقّافة يمكنها استعماله لوضع صناديق اللحمة المعلبة في مكانها الصحيح. باتت تترك أنور مرمياً على الأرض الآن، وربما تمسح رجليها به وهي تمر لترفع

الباب الحديدي في زاوية الخضار. كانت جميلة التي تحمله عن الأرض وتضعه على الكرسي، مع أنها لا تتحدث إليه أبداً، فقط يتبادلان نظرات يختلط فيها الحب الغاضب بالارتباك.

بدأت أدرك أن تعاسة أنور لم تكن مفروضة ذاتياً فقط. كان ثمة حملة ضده. منذ محاولته الصوم حتى الموت، كانت الأميرة جيتا، على طريقتها الخاصة، تجوعه أيضاً حتى الموت، إنما بشكل خفيف، وبالتدريج. كانت تمارس ضده حرماناً دقيقاً جداً لكن لا يمكن كشفه. على سبيل المثال كانت تتحدث إليه، لكن في المناسبات، ولا تضحك في وجهه أبداً. فبدأ يعاني نقصاً حاداً في روح الفكاهة. فحين لا يعود أحدهم يسمع النكات أبداً سرعان ما يبدأ بفقدان حماسته للعيش. ظلت جيتا تطبخ له، إنما الطعام العادي نفسه كل يوم، وتقدمه له قبل وقت طويل، أثناء نومه، قبيل وقت الصلاة. والطعام الذي كانت تعده كان يكفل إصابته بالإمساك. فيعيش أياماً دون أمل بالتبرز. «إنني مليء بالغائط»، قال لي، «أشعر أنني مكون من غائط صلب، الغائط يسدّ أذني يا فتى. إنه يسد أنفي، إنه يتفصد من مسام جلدي».

حين تحدث إلى جيتا عن مشكلة الغائط هذه لم تعلق بشيء، لكنها غيرت لائحة الطعام ذاك اليوم. فتحررت معدته. ولأسابيع ظل غائط أنور يخرج رفيعاً إلى حدّ أنه يمكن أن يدخل من ثقب إبرة. وقد ظلت الأميرة جيتا تستشير أنور، لكن فقط في أصغر المسائل، من قبيل هل نخزن الكريما الحامضة أم لا. (أجابها أنور لا بما أن الكريما التي لديهم حامضة على أي حال). وذات يوم استأجرت جيتا ثلاثة عمال خلعوا صف الأرفف الرئيسي في المتجر، لتكسب مساحة إضافية فيه. وقام العمال بتركيب ثلاثة ثلاجات صغيرة وكبيرة، خزنت فيها كميات كبيرة من الطعام المجلّد، بما في ذلك الكريما الحامضة، ولم تخبر أنور عن

هذا كله حتى حصوله. ولابدّ من أنه نزل إلى المتجر، وحسب نفسه قد جن حين رآه متحولاً على ذاك النحو.

كانت جيتا تذكر شانغيز أمام أنور مرة على الأقل كل الأسبوع، قائلة مثلاً وهي ترفع صندوقاً «لو كان لدينا صهر جيد لقام بهذا بدلاً من أن تقوم به امرأة عجوز». أو تروح تؤشّر إلى الأطفال والأولاد وتقبلهم وتعطي أمهاتهم الطعام المجاني لأنها لن تصبح جدة، كم كان رائعاً هذا الصهر الذي اختاره شقيق أنور العبقري في بومباي. ولجعل الأمور أسوأ، من وقت لآخر، كانت وخلال فترة صباحية كاملة، تعامل أنور بلطف وحب واهتمام، ثم ما إن تعود الابتسامة إلى وجهه، تقاطعه لأسبوع، حتى لا تعود لديه أي فكرة عن موقعه أو ما الذي يحدث له.

ذات يوم، في طريق عودته من المسجد، لاح لأنور عبر عواصف ألمه الثلجية شخص بالكاد تعرف عليه، فقد مرّ وقت طويل مذ رآه آخر مرة (وقد أصبح سميناً جداً)، مع أنه كان يتمنى له الموت يومياً، ويشير إليه أمامي بوصفه «ذلك الأصلع اللعين الكسيح عديم النفع». بلى، كان شانغيز، وكان يتبضع مع شينكو، التي يمضي معها أمتع أوقاته. ذهبا إلى متجر الكتب المستعملة، ثم إلى «ردهة الحب»، أحد أكبر متاجر الجنس في «كاتفورد»، الذي خرج منه شانغيز حاملاً بيده السليمة كيساً بنياً يحتوي على أدوات جنسية جديدة: سراويل تحتانية حمراء مخرمة، جوارب طويلة وحمّالات، مجلات تدعى «أوبنينغز فور جنتلمن» و«سيتيزن كاين»، أما الآلة النجمة، فقضيب ذكري ضخم زهري اللون، كان ينوي وضعه في فرج شينكو بينما تصرخ «فاك مي فاك مي، أيها الفتى الكبير!».

في ذلك اليوم الذي لا ينسى كانت شينكو تحمل حبة أناناس وحبة غرايبفروت، كانت تنوي أن تتناولهما مع الشاي، لطمهما سقطتا منها

في المزراب. وبينما كانا يمشيان ببطئهما المعهود تحت المطر الإنكليزي، مثرثرين حول بلديهما، الهند وليابان، اللذين اشتاقا إليهما كثيراً، لكن ليس بما يكفي ليركبا الطائرة ويعودا إليهما. وكان شانغيز بالتأكيد، إذا كنت أعرف شانغيز جيداً، يشتم كل باكستاني أو هندي يراه في الشارع. «انظري إلى هذا المنحط اجتماعياً»، قد يقول بصوت عال، متوقفاً ومشيراً إلى أحد أبناء جلدته، ربما نادل مسرع إلى العمل، أو عجوز يمشي رويداً، أو خصوصاً مجموعة من السيخ الذاهبين لزيارة محاسبهم. «أجل، لهم أرواح، لكن السبب في وجود هذه العنصرية السيئة هو أنهم قذرون جداً، وأشكالهم منفرة جداً، وأخلاقهم سيئة جداً. ويرتدون ملابس غريبة بالنسبة إلى الشخص الإنكليزي، الطربان وما إلى ذلك. لكي يُقبلوا عليهم أن يعيشوا على الطريقة الإنكليزية وينسوا قراهم البائسة! عليهم أن يقرروا أن يكونوا هنا أو هناك. أنظري كم أنني هنا! ولماذا هذا الشحاذ هناك لا ينظر إلى الإنكليزي في عينيه! لا عجب إذا ما ضربه الإنكليزي».

فجأة دوت صرخة في أرجاء منطقة «لووشام»، بل وصلت إلى «كاتفورد»، وحتى «بروملي». فالتفت شانغيز في خضم شتائمه تلك، ولابساً حذاء غير مبكّل، بأقصى سرعة ممكنة، أي بكل بطء، وحين مشّط الشارع من شرقه إلى غربه رأى أن حماه، ذلك الرجل الذي جلبه إلى إنكلترا، إلى شينكو، إلى كريم، إلى السرير القابل للطي، وهارولد روبنز، يعدو بسرعة نحوه، رافعاً عكازه، ومطلقاً الشتائم مثل كلب مسعور، وأدرك شانغيز فوراً أن أنياب هذا الكلب ليست مجرد إنذار. كلا؛ فالأب الخائب أمله سيضرب صهره بالعصا، حتى الموت ربما. أدركت شينكو ذلك، مذهولة، وظل شانغيز هادئاً، (وفي تلك اللحظة ولد حبها له).

بينما كرج أنور نحوه حاملاً عصاه، ابتعد شانغيز في اللحظة المناسبة، وأخرج القضيب الاصطناعي من الكيس الورقي، وصرخ «الله أكبر» ـ على الأقل شينكو قالت إنه صرخ «الله أكبر»، لكن ما أدراها هي؟ ـ وضرب بالقضيب أنور على رأسه. العم أنور الذي جاء من الهند إلى «أولد كنت رود»، ليعيش في عيادة طبيب أسنان، ولكي يقامر ويعيش حياة صاخبة، لكي يصنع ثروة ويعود إلى بلدته ويبني بيتاً مثل بيت جدي على شاطئ «جوهو»، ما كان ليخمّن أبداً طوال كل السنوات الفائتة، أنه في وقت متأخر من حياته سيضرب بآلة جنسية ضربة تفقده وعيه. ولا منجّم كان يمكن أن يتنبأ له بهذا. كتب كيبلنغ: «لكل شخص مخاوفه الخاصة»، لكن ما حدث لأنور لم يكن ضمن مخاوفه.

انهار أنور وجعل يئن على الرصيف.

هرعت شينكو إلى الهاتف العمومي الذي كان قد تبول فيه حديثاً ثلاثة فتيان، وطلبت سيارة إسعاف. لاحقاً ذلك اليوم حققت الشرطة مع شانغيز، ونعتوه بالمهاجر، والـ «باكي»، والحثالة، والـ «ووغ»، وابن الزنى، والمجرم، بينما القضيب أمامه على الطاولة كتذكرة. كانت ردة فعل شانغيز الأولى أنه ادعى البراءة، وأن رجال الشرطة هم الذين دسّوا هذا القضيب له، إذ كان يعرف أن مثل هذه الأشياء تحدث غالباً. لكن حتى هو كان يعرف أفضل من أن يقترح أمام هيئة محلفين من الإنكليز البيض أن الضابط ماكرام دسّ في جيبه قضيباً زهرياً ضخماً. اعتقل شانغيز بتهمة الاعتداء.

في الأثناء أمضى أنور، برأسه المضمد، الذي جعله شبيهاً بتروتسكي أثناء احتضاره، أسبوعاً في العناية الفائقة. أصيب بنوبة قلبية. أنا وجميلة وأحياناً الأميرة جيتا كنا نزوره. لكن جيتا يمكنها أن تكون قاسية: «لماذا قد أرغب برؤية هذا الرجل الأسود؟»، قالت ذات ليلة، ونحن متجهين بالحافلة إلى المستشفى.

لم أعرف السبب، لكن أبي لم يزر أنور بالمرة. ربما كنت أشعر بالتعاطف مع ماضي أبي أكثر مما يشعر هو، لكنني رغبت بأن أرى الرجلين معاً مجدداً «أرجوك اذهب إلى المستشفى»، قلت له.

«لا أريد أن أسبب الإحباط لنفسي»، رد بسرعة.

كان أبي قد تخاصم جدياً مع أنور، فما عادا يكلمان بعضيهما الآن. كان سبب الخصام قول أنور له إنه ما كان يجدر به هجر أمي، وإن هذا كان أمراً فاسداً من قبله. اتخذ عشيقة، قال له أنور، وعامل الامرأتين بالحسنى بالتساوي، لكن لا تترك زوجتك أبداً. وأصرّ أنور على أن إيڤا امرأة بلا أخلاق وأن أبي أغواه الغرب، وأصبح منحلاً أخلاقياً ومفتقراً إلى القيم مثل سائر المجتمع. حتى أنه صار يستمع إلى موسيقى البوب، أليس كذلك؟ «وقد نراه قريباً يأكل لحم الخنزير». قال أنور. بطبيعة الحال، كل هذا أغضب أبي، الذي قبل هذا الانحلال والفساد، وصار يستعمل كلمة «بلا أخلاق»، طوال الوقت ـ لكن ليس بالإشارة إلى نفسه، بل إلى أنور.

وحدها إيڤا كان يمكنها إقناع أبي بزيارة أنور، لكنها كانت نادراً ما تكون في البيت على أي حال. كانت تعمل بلا توقف. كانت تشكّل وأبي ثنائياً مثالياً، وكانا ملائمين لبعضيهما، لأن أبي، بجهله بالعالم وبصلفه الصريح، مثل مقاربة «يمكنك فعل أي شيء»، غير المنبثقة من شك أو يقين، منح إيڤا الدعم والثقة اللذين لطالما كانت بحاجة إليهما. لكن بالطبع، مع ازدهار أعمالها بدأت تبتعد عنه. كانت دائماً في الخارج، وعرفت أن أبي يفكر بأمي أكثر من أي وقت مضى، وكان على الأرجح يراها بوصفها المرأة المثالية. ولم يكن يقابلها، لكنهما بدآ يتكلمان عبر الهاتف، بينما في السابق كنت صلة الوصل بينهما فيما يتعلق بشؤونهما المشتركة.

مات أنور، متمتماً أشياء حول بومباي، والشاطئ، والفتية في المدرسة الكاتدرائية، ومنادياً على أمه. أصرت جميلة على أن يدفن في مكان كانت تحبه، مكان صغير معشب كانت تقصده غالباً للقراءة، ويقصده اللوطيون من أجل التنزه وأخذ حمام شمسي. غسل أصدقاؤه جسده في المسجد القريب، وحمل خمسة هنود بثياب لماعة متنافرة نعشه إلى المقبرة. أحد الرجال الخمسة كانت شفته مشرومة؛ ورجل ثان كانت له لحية بيضاء. فتحوا التابوت وأردت التقدّم حتى لا يفوتني شيء، لكن أبي أمسك ذراعي كما لو كنت ولداً، ورفض أن يسمح لي بالتقدّم. «لن تنسى هذا»، قال «تذكر العم أنور بطرق أخرى».

«بأي طرق؟».

«في متجره مثلاً».

«حقاً؟».

«وهو يضع البضائع على الرفوف»، قال بتهكم.

حصلت جلبة صغيرة حين أخرج أحد الهنود بوصلة يدوية وقال إن القبر لم يحفر في الاتجاه السليم، أي باتجاه القبلة. ازاح الرجال الخمسة القبر قليلاً وقرأوا آيات قرآنية. كل هذا ذكرني بالمرة التي طردت فيها من الصف لأنني سألت ما الذي يلبسه الناس في الجنة. ظننت أنني أحد أوائل الناس في التاريخ الذي وجدوا الدين أمراً صبيانياً وغير قابل للتفسير.

لكنني شعرت، ناظراً إلى هذه الكائنات الغريبة الآن ـ الهنود ـ أنهم قومي حقاً، وأنني سأمضي حياتي أنكر هذه الحقيقة أو أتجنبها. شعرت بالخزي وبالنقص في الوقت نفسه، كما لو أن نصفي كان مفقوداً، وكما لو أنني أتواطأ مع أعدائي، أولئك البيض الذين يريدون أن يشبههم الهنود. وحمّلت أبي المسؤولية جزئياً عن ذلك. ففي نهاية الأمر، مثل

أنور، لم يظهر طوال حياته أي اهتمام بالعودة إلى الهند. كان دائماً صادقاً حول الأمر: كان يفضل إنكلترا من كل النواحي. هنا الحياة طبيعية؛ لا حرّ؛ ولا ترى أشياء رهيبة في الشارع تجد نفسك عاجزاً عن فعل شيء حيالها. لم يكن فخوراً بماضيه، لكنه لم يكن غير فخور أيضاً؛ كان هذا الماضي قائماً فحسب، ولا جدوى في تحويله إلى تميمة، مثلما يحب أن يفعل بعض الليبراليين والآسيويين الراديكاليين. لذا إذا أردت أن أضم إلى شخصيتي المزايا الإضافية للماضي الهندي، فعليّ اختراعها بنفسي.

حين أنزلوا التابوب إلى باطن الأرض، وبدا أنه ليس هناك ما هو أقسى من الحياة نفسها، مالت جميلة إلى جانب واحد، كما لو أن إحدى رجليها شلّت، وفقدت الوعي وكادت ترتطم بالتابوت. شانغيز الذي لم ينزع عينيه عنها طوال الوقت، قفز فوراً إليها، وغاص برجليه حتى الركبة في الطين، ولاحظت، بعد أن لفّ ذراعيه أخيراً حول زوجته، وبات جسماهما كتلة واحدة، أنه ثمة نظرة منتشية على وجهه وفي أسفل جسمه، لاحظت انتصاباً. وفكرت أنه أمر غير مناسب في جنازة، خصوصاً حين تكون قاتل الضحية.

تلك الليلة، حين وضعت جميلة أمها في السرير، وكانت جيتا تريد الشروع فوراً بالعمل على إعادة تنظيم «بارادايز ستوررز»، نزلت إلى المتجر لجلب جعة «نيوكاسل براون» التي اعتدنا أن نحتسيها نحن الثلاثة مؤخراً، وحملت الزجاجات السميكة إلى الشقة. كانت أغراض أنور لا تزال بطبيعة الحال في البيت، كما لو أنه رحل إلى مكان ما وسيعود قريباً. وكانت أشياء مثيرة للشفقة، خفّين، سجائر، معاطف مبقعة، ولوحات عدة تمثّل الغروب، كان يحسبها أنور تحفاً فنية وتركها لي.

كنا نحن الثلاثة متعبين لكن غير مستعدين للنوم. إلى ذلك، كان

علينا أنا وجميلة الاعتناء بشانغيز، الذي كنا نشير إليه سراً بوصفه «قاتل القضيب الجنسي»، لأنه لم يكف عن العويل. وظاهرياً، كان هذا القاتل الأكثر استياء بيننا، كونه الأقل إنكليزية على ما أفترض - على رغم أن الضحية كان يكرهه ومات وهو يحاول تحويل دماغه إلى بطاطا مهروسة. ناظراً إلى وجه شانغيز يزمّ ويرتجف، كان يمكنني أن أرى أن سبب استيائه الأصلي كان جميلة. كان سعيداً بالتخلص من العجوز، لكنه كان مرعوباً من أن تحمله جميلة المسؤولية لضربه أبيها على رأسه، وبالتالي أن يقلّ أكثر فأكثر حبها له.

جميلة نفسها كانت أكثر سكوناً من المعتاد، وهذا وتّرني، لأنني اضطررت إلى القيام بكل الحديث، لكنها كانت وقورة ومتماسكة، هشة من دون أن تبكي. مات والدها في التوقيت غير المناسب، حيث كان هناك الكثير مما ينبغي توضيحه وتثبيته. لم يكونا بدآ بالتعامل كشخصين بالغين مع بعضيهما. كان هناك قطعة السماء هذه، هذه الفتاة الصغيرة التي حملها في المتجر على كتفيه، ثم ذات يوم رحلت، وحلت محلها أخرى غريبة، امرأة غير متجاوبة لا يعرف كيف يتحدث إليها. كونه مرتبكاً جداً، وضعيفاً جداً، ومحباً جداً لها، اختار القوة وأبعدها عنه. وأمضى السنوات الأخيرة متسائلاً أين رحلت، وأدرك ببطء أنها لن تعود أبداً، وأن الزوج الذي اختاره لها كان مغفلاً.

لابسة قميصاً واسعاً وجينزاً، مستلقية على الكنبة البرتقالية الصلبة، راحت جميلة تحتسي قنينة «براون»، وتقاسمت وشانغيز قنينة أخرى. يا له من مسلم ملتزم، يحتسي الخمر يوم جنازة. فقط مع هذين الشخصين كنت أشعر أنني جزء من عائلة. كان ثمة روابط وثيقة بيننا، أقوى من الشخصية وأقوى من إعجابنا أو عدم إعجابنا ببعضنا.

تحدثت جميلة ببطء وبتفكّر. تساءلت ما إذا كانت تناولت حبتي

فاليوم. «كل ما حدث جعلني أفكر ما الذي أريده في حياتي. كنت متعبة لوقت من سير الأمور. كنت محافظة بطريقة لا تناسبني. سأغادر الشقة. سنعيدها إلى المالك إلا إذا ـ ونظرت إلى «قاتل القضيب» ـ «كنت تريد أن تدفع الإيجار. أريد العيش في مكان آخر».

نظر القاتل مرعوباً. عرف أنها بصدد أن تهجره. وتنقلت نظراته المسعورة بين صديقيه. وملأت الصدمة وجهه. وهكذا يحصل الأمر إذاً، تتبادل بضع كلمات، وتصبح الأمور مختلفة. تكون نائماً ذات يوم في أمان سريرك القابل للطي، لتجد نفسك في اليوم التالي في الخراء. تحدثت جميلة بصراحة، والصراحة لم يكن النهج الذي أفضله لنفسي، ولا شانغيز كان قادراً على تقبّلها.

«أي مكان آخر؟»، استطاع أن يقول.

«أريد أن أحاول العيش بطريقة أخرى. أشعر أنني معزولة».

«لكنني هنا يومياً».

شانغيز أريد أن أعيش بشكل جماعي مع مجموعة من الأشخاص، من الأصدقاء، في منزل كبير اشتروه في بكنهام».

أمسكت يده وهي تنقل له الخبر. كانت المرة الأولى التي أراها فيها تلمس زوجها طوعاً.

«جايمي، ماذا بشأن شانغيز؟»، سألتها.

«ما الذي تودّ فعله؟»، سألته.

«أن أذهب معك. أن نذهب معاً. حسناً؟ كزوج وزوجة، دائماً معاً، على الرغم من شخصيتينا الصعبتين. إيه؟».

«لا»، هزت رأسها بصرامة، لكن ببعض الحزن، «ليس بالضرورة».

تدخلت. «شانغيز لن يكون قادراً على العيش وحده يا جايمي. وأنا ذاهب قريباً في جولة. ماذا سيكون مصيره برأيك؟».

نظرت إلينا بحدة، لكنها خاطبت شانغيز.

«لكن هذا شأنك أنت. لماذا لا ترجع إلى عائلتك في بومباي؟ لديهم منزل هناك كما قلت لي. هناك مساحة شاسعة، هناك خدم، وسائقون خصوصيون».

«لكنك زوجتي».

«فقط قانوناً»، قالت برقة.

«ستكونين دوماً زوجتي. هذا الأمر القانوني لا يعني شيئاً، أفهم ذلك. لكن في قلبي أنت حبيبتي جميلة».

«أجل، حسناً، شانغيز، أنت تعرف أن الأمور لم تكن أبداً هكذا».

«لن أرجع»، قال بلهجة قاطعة «أبداً، لن تجبريني على ذلك».

«لن أجبرك على فعل شيء. عليك أن تفعل ما هو مناسب لك».

كان شانغيز أقل بلاهة مما تخيلت. نظر إلى جميلة لوقت طويل. وعرف ماذا يقول. «هذا غربي جداً عليّ»، قال. وفكرت لوهلة أنه سيستعمل حتى كلمة «أوروبّاني»، لكنه قرر الاحتفاظ بها لنفسه «هنا في هذه الرأسمالية العاطفية لا أحد يبالي بالآخر. أليس كذلك؟».

«أجل، هو كذلك»، اعترفت جايمي.

«كل شخص يترك ليتعفن وحده. ولا أحد يحمل أحداً حين يقع. هذا النظام الصناعي هنا قاس جداً علي. ولهذا السبب أسقط. حسناً»، قال بصوت مرتفع «سأحاول أن أعيش بمفردي».

«ما الذي تريده حقاً، إذاً؟»، سألته.

تردد. ونظر إليها متملياً.

قالت بسرعة قاتلة، مِن دون أن تفكر بالأمر حتى: «أتريد المجيء معي؟».

أومأ برأسه موافقاً، غير قادر على تصديق ما تسمعه أذنيه المليئتين بالشعر.

«هل أنت واثقة من إمكانية ذلك؟».

«لا أدري»، قالت.

«بالطبع ممكن»، قال.

«شانغيز....».

«هذا جيد»، قلت «رائع».

«لكنني لم أفكر بالأمر».

«سنتحدث عنه مع الوقت»، قال.

«لكنني لست واثقة يا شانغيز».

«جميلة».

«لن نكون زوجاً وزوجة، أنت تعرف أن هذا لن يحدث أبداً، أليس كذلك؟ وفي البيت الجديد سيكون عليك أن تلعب دوراً في الحياة الجماعية».

«أظن أنه سيكون أمراً مذهلاً»، قلت، بما أن القاتل كان يبكي مجدداً، هذه المرة بارتياح. «سيساعد على غسل الأطباق. إنه ممتاز في الطبخ والزراعة».

أصبحت عالقة معه الآن. لم يعد من مفرّ. قالت «لكن سيكون عليك أن تدفع عن نفسك. يا شانغيز، وهذا ما أجده صعباً. كان أبي يدفع إيجار شقتنا، لكن هذه الأيام قد ولّت. سيكون عليك أن تعيل نفسك». وأضافت على سبيل التجربة «قد تضطر إلى العمل».

كان هذا يفوق احتمال شانغيز. نظر إليّ بقلق.

«أمر مثير، هه؟»، قلت.

جلسنا هناك، نتحدث عن الأمر. سيذهب معها. لم تعد قادرة على الهروب من هذا الآن.

بينما كنت أنظر إلى جميلة فكرت أنها ستصبح شخصاً رائعاً. كانت معنوياتها منخفضة ذلك اليوم، وكانت غالباً ما تزدريني على أي حال، العاهرة المتعجرفة، لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من أرى كم في داخلها من إرادة قوية، ومن فرح بالعالم، وطاقة كبرى على الحب. نسويتها، إحساسها بذاتها والحس القتالي الذي يولده، خططها ومشاريعها وعلاقاتها التي كانت تريدها أن تتخذ هذا الشكل وليس ذاك، وكيف عملت على تثقيف نفسها، والإدراك الذي ولده هذا، كان يجعلها تبدو مشعة تلك الليلة وهي تقرر المضي قدماً في حياتها، كامرأة هندية، تريد أن تعيش حياة ذات معنى في إنكلترا البيضاء.

بما أنه كان لدي بعض وقت الفراغ قبل استئناف التمارين استعرت عربة تيد وساعدت جميلة و«قاتل القضيب الجنسي» على الانتقال إلى منزلهما الجديد. وحين وصلت محملاً بالكتب، وأعمال كونان دويل، وبالكثير من الأدوات الجنسية، فوجئت برؤيتي بيتاً كبيراً، مزدوج المدخل، وبعيداً من الشارع الرئيسي، وقد أخفي بسياج كثيف من النبات. كانت الحديقة مليئة بالمشمّع العفن، والمراحيض القديمة، والمجلات المتعفنة والركام، أما المنزل نفسه فكان مخرباً مثل لوحة قديمة. كان ثمة أنبوب تنحدر منه المياه على الجدران. وعند الباب كان ثمة ثلاثة شبان، محترمين مثل موظفي الخدمة المدنية، رغم أنه على وجه احدهم كان ثمة وشم عنكبوت.

في الداخل كان المكان محتشداً بأشد النباتيين حماسة وكدحاً وجدية

ومرحاً، ومن حملة الشهادات الجامعية في هذا التخصص أو ذاك، وكانوا يناقشون كايدج وشوماخر وهم يجرون إلى الخارج صهريج ماء لابسين أوفرأولات زرقاء. وقف شانغيز أمام لافتة كتب عليها «أميركا، أين أنت الآن؟ ألا يعنيك أمر أبنائك وبناتك؟». بدا مثل أوليفر هاردي في غرفة مليئة بأشخاص من أمثال بول نيومان، وكان خائفاً كتلميذ جديد في المدرسة. حين مرّ أحدهم بجواره مسرعاً وقال «الحضارة انحرفت عن مسارها»، بدا شانغيز أنه يفضل العيش في أي مكان سوى المدينة الفاضلة. لم أر أي بطاقات حظ، رغم أن أحدهم قال إنهم ينوون «ممارسة الحب مع الحديقة». تركت شانغيز هناك وهرعت إلى البيت لأضيف لمسات جديدة إلى شخصيته.

قليلة هي الأعمال التي أحببتها بقدر ما أحببت اختراعي لشخصية شانغيز/ طارق. مع البيرة ودفتر ملحوظات على مكتبي، ومركزاً للمرة الأولى منذ طفولتي على أمر ما يستحوذ على اهتمامي الكلي، تسارعت أفكاري: الفكرة تسحب الأخرى وراءها، مثل علب الكلينيكس. كشفت عن أفكار، وصلات، ودوافع، لم أكن أعرف حتى أنها موجودة في رأسي. وكنت أكثر حيوية وطاقة وأنا أضيف ألواناً وظلالاً جديداً للشخصية. عملت بانتظام واحتفظت بدفتر يوميات: أدركت أن الإبداع هو عملية تراكمية لا يمكن استعجالها، وتتعلق بالصبر، وفي المقام الأول بالحب. شعرت أنني بت أكثر صلابة، وليس كما لو أن عقلي مجرد شاشة عرض للانطباعات الجمة والعواطف. كان هذا عمل يستحق فعله، كان له معنى، كان يثري حياتي. وهذا ما علمني إياه بايك: ماهية الحياة الإبداعية. لذا على الرغم مما فعله بي، استمرّ إعجابي به. لم ألمه على شيء؛ كنت مستعداً لدفع ثمن رومانسيته وتجريبيته. كان مضطراً إلى السعي وراء ما يريد معرفته، واتباع مشاعره حيثما كانت، ولو إلى مؤخرتي وإلى فُرج حبيبتي.

حين عدت إلى المنزل الجماعي بعد أسابيع قليلة، لكي أجمع المزيد من الأفكار لشخصية شانغيز/ طارق، رأيت أن الحديقة الأمامية باتت نظيفة. كان هناك عدد من السقالات الخشبية الجاهزة لتركيب سقف جديد. وكان العم تيد يسدي لهم النصح حول عملية التجديد وذهب مرات عدة لمساعدتهم.

كنت أستمتع بزيارة النباتيين ورفاقهم يعملون معاً، حتى وهم ينادون بعضهم «رفيق». وكنت أحب البقاء حتى وقت متأخر من الليل والشرب معهم، رغم أنهم كانوا يحتسون النبيذ العضوي. وحين كان سايمون، المحامي الراديكالي قصير الشعر حليق اللحية، الذي يضع ربطة العنق، ويبدو أنه يدير المكان، يستطيع إقناعهم بالتخلي قليلاً عن أسطوانة بوب ديلان «خط الأفق في ناشفيل»، كان يضع موسيقى تشارلي منغس وفرقة «ماهافيشنو أوركسترا». وأخبرني أي نوع من الجاز قد يعجبني، لانني بصراحة كنت بدأت أسأم حتى الموت من الموسيقى التي كنت أسمعها.

وكانوا يتكلمون عن كيفية بناء مجتمع قائم على المساواة. وكنت أظل صامتاً، خشية من أن أبدو غبياً؛ لكنني عرفت أنه علينا الوصول إلى هذا المجتمع. على عكس زمرة تيري، لم تكن هذه المجموعة طامحة إلى السلطة. المشكلة، قال سايمون، هي كيف نطيح، ليس أولئك الذين هم حالياً في السلطة، بل مبدأ السلطة برمته.

وحين كنت أعود إلى منزل إيڤا أو إليانور لمبيت الليل، كنت أتمنى لو انني أمضيت الليلة مع جميلة وشانغيز. الأفكار الجديدة كانت تمرّ عبر منزلهم. لكننا كنا نتمرن على المسرحية، التي كانت لويز لورنس قد انتهت من توليف ثلثها. الافتتاح سيكون بعد أسابيع قليلة. وثمة الكثير لفعله، وكنت خائفاً.

الفصل الخامس عشر

كان أثناء مشاهدتي بايك وهو يتمرن في القاعة ببيجامته الرياضية الزرقاء، التي تلتف على مؤخرته كوسادة، مبرزة قضيبه الصغير، أنني بدأت أفكر جدياً أنه قد نبذني. هذا السافل الذي ضاجعني بينما زوجته مارلين تحمّسنا كما لو كنا مصارعين، والذي ـ بينما إليانور تسكب لنفسها شراباً، فتحني عملياً. الآن، بدأت أتيقن من أن اللعين قد ضاجعني بطرق أخرى أيضاً. وسأتحقق من هذه المسألة.

رحت أراقبه عن كثب. كان مخرجاً جيداً، لأنه يحب الآخرين، حتى حين يكونون صعبين (كان يرى هؤلاء كأحجيات يجدر به حلها). وقد أحبه الممثلون لأنه كان يعرف أنه حتى هم يمكنهم أن يكتشفوا لأنفسهم الطريقة المناسبة لأداء الدور إذا ما منحهم الحرية الكافية. وكان ذلك يشعرهم بالإطراء، والممثلون يحبون الإطراء. لم يكن بايك يغضب بتاتاً، أو يدفعك بالقوة في اتجاه ما، لستَ مقتنعاً به؛ وهذه الألاعيب كانت حاذقة ومؤثرة. ومع ذلك كانت تلك أياماً مؤلمة بالنسبة إلي. كان الممثلون الآخرون، لا سيما كارول، غاضبين مني، لأنني كنت أبطأ وأغبى منهم «كريم يتمتع بكل المواصفات ليكون ممثلاً»، قالت كارول «لا تقنيات، ولا تجربة، ولا حضور».

لذا كان بايك مضطراً إلى أن يراجع معي كل سطر وحركة من المشهد الأول. وكان خوفي الأكبر أنه حين ينتهي النص فإن لورنس وبايك لن يتركا لي فيه إلا دوراً صغيراً، وسأجد نفسي متسكعاً في

الكواليس مثل لاعب احتياط. لكن حين سلمت لويز المسرحية فوجئت بأن دوري كبير، وكنت تواقاً لأدائه.

يا له من عمل غريب، التمثيل، قال بايك؛ حيث تحاول إقناع الناس بأنك شخص آخر. والطريقة لفعل هذا هي التالية، قال: حين تكون في الشخصية، مؤدياً شخصاً آخر، عليك أن تكون نفسك. لكي تجعل ذاتك المصطنعة حقيقية، عليك أن تسرق ذلك من ذاتك الأصلية. أي ضربة خاطئة، أي ملاحظة خاطئة، أي شيء مزعوم، سيجعلك مكشوفاً أمام الجمهور مثل كاثوليكي عار في مسجد. كلما كنت قريباً من ذاتك، كان ذلك أفضل. وهذه أم التناقضات: لكي تتقمص شخصاً آخر بنجاح عليك أن تكون ذاتك! وقد تعلّمت هذا!

ذهبنا شمالاً في الشتاء، جوالين بالمسرحية بين مسارح الاستوديو والمراكز الفنية. نزلنا في فنادق مصقعة ينظر فيها المالكون إلى نزلائهم على أنهم أكثر من لصوص بقليل، ونمنا في غرف بلا تدفئة ولا هواتف، وحيث الحمامات في نهاية الرواق، وحيث يرفضون تقديم الإفطار لك بعد الساعة الثامنة. «الطريقة التي ينام ويأكل بها الإنكليز كافية لجعلك راغباً بالهجرة إلى إيطاليا»، كانت تقول إليانور كل يوم على الإفطار. بالنسبة إلى كارول كل ما يهم هو تقديم عرض في لندن؛ الشمال كان سيبيريا، الناس حيوانات.

كنت ألعب دور مهاجر هندي آت حديثاً من بلدة هندية صغيرة. أصررت على توليف الزي بنفسي: عرفت أنني يمكنني ابتكار زي خلاق. انتعلت جزمة بيضاء عالية، وبنطال كرزي يلتصق بمؤخرتي مثل ورق الحلوى، ويتسع عند الركبتين، وقميصاً منقطاً مع وشاح «كونكورد» فوق سترتي.

في العرض الأول أمام جمهور من عشرين شخصاً، ما إن خرجت

إلى الخشبة وأنا أضرط خوفاً، حتى سمعت بعض القهقات التي سرعان ما تحولت إلى ضحك هادر. فمضيت قدماً تحملني رياح البهجة. كنت الشخصية الرثة والفكاهية. أما الممثلون الآخرون فحصلوا على الأسطر الثقلية، المليئة بالتحليلات السياسية المعقدة، والنقد اللاذع للحكومات العمالية المتخاذلة، لكن الجمهور أحب شخصيتي، وأضحكته قفشاتي، التي تتمحور حول الطموح الجنسي لشخص هندي يتعرض للإذلال في إنكلترا. ولسوء الحظ، كانت مشاهدي الأساسية مع كارول، التي، بعد العرض الأول، بدأت تبدو غير لطيفة تجاهي على الخشبة. بعد العرض الثالث، في غرفة تبديل الملابس، صرخت «لا أستطيع التمثيل مع هذا الشخص، إنه وغد، وليس ممثلاً»، وهرعت لتخابر بايك في لندن.

كان ماثيو قد عاد إلى لندن عصر ذاك اليوم، وقطع المسافة كلها من مانشستر إلى لندن لكي يضاجع محامية لامعة تدافع عن الإرهابيين والمقاتلين من أجل الحرية. هذه فرصة مذهلة يا كريم»، قال لي، «ففي نهاية الأمر ضاجعت الشرطة، أما القانون، الذي هو عماد مجتمعنا، فهو ما أريده بجواري، على مخدتي نفسها». وهرع إلى المحامية، تاركاً إيانا للمطر والجماهير.

ربما كان بايك في السرير يناقش مع المحامية مصير «برادفور آيت»، أو «ليدز سكس»، حين اتصلت به كارول. تخيلت أنه سيتخذ احتياطاته مع المحامية، من شامبانيا، وحشيشة، وأزهار، ليضمن إعجابها به وتقديرها له. والآن ها هي كارول تحاول أن تقنعه عبر الهاتف أنني أمثل كأنني في مسرحية أخرى، من نوع «فارس»، ربما. لكن مثل معظم الموهوبين الناجحين مع الجمهور، أنعم الله على بايك بنزعة إلى الابتذال. فدافع عني: «كريم هو مفتاح المسرحية».

حين وصلنا إلى لندن بعد زيارة عشر مدن، بدأنا نعيد التمارين

ونحضّر لعروض في مركز فني في وست لندن، لا يقع بعيداً من شقة إيڤا. كان مكاناً عصرياً، تعرض فيه أحدث عروض الرقص العالمية، والنحت، والسينما، والمسرح. وكان يديره شخصان جماليان عصريان، يملكان ذائقة فنية نقية وجادة، جعلت بايك يبدو مقارنة بهما على طرز «الروكوكو» في القرن الثامن عشر. جلست معهما في المطعم، آكلاً براعم الباقلاء، ومستمعاً إلى أحاديثهم عن الرقص الحديث، وعن شكل جديد يدعى «بيرفورمانس» (الأداء). وشاهدت «أداء»، يسحب فيه رجل يرتدي بذلة عمال، مستخدماً خيطاً، قطعة من جبن «كاميمبيرت» على أرض فسيحة. وخلفه ولدان يحملان غيتارين أسودين. كان اسم العرض «تشيزبيس». وبعد العرض سمعت أناساً يعلّقون «أحببت أصالة الصورة». كان هذا كله تعليمياً. لم أسمع تعليقات جدية كهذه حول أمور كنت أعتبرها بسيطة. بالنسبة إلى هذين الجماليين، كما هو الحال مع بايك، (لكن أسوأ بكثير) فإن أداء ممثل ما، أو الموهبة المعينة لكاتب مسرحي محدد كنت قد شاهدت عمله مع إليانور، واعتبرناه «واعداً»، أو «جديداً نوعاً ما»، هو كارثة تشبه الزلازل أو الزواج. «فليموتوا بالسرطان»، كانا يقولان عن هؤلاء الكتاب. تخيلت أنهما قد يرغبان بالتقرب من بايك ومناقشته حول ستانيسلافسكي وآرتو وسواهما، لكنهما كرهاه، وبالكاد أتيا على ذكر الرجل الذي يتمرن في مسرحهما، سوى بتعبيرات مثل، «ذاك الرجل الذي يكوي بنطاله، أو «كاليبان». وكان يعاونهما رف من الفتيات الأنيقات من الطبقة الوسطى الذين آباؤهم أباطرة تلفزيونيين، لكن بدا كما لو أن جميع الذين يعملون في المكان ويرتادون من صحافيين ومعجبين، ومخرجين وممثلين آخرين، كان لديهم سؤال واحد فحسب: هل ستكون هذه المسرحية ناجحة أم لا؟

ذات صبيحة يوم أحد، هرباً من التوتر المتراكم والقلق، ذهبت لزيارة شانغيز في مسكنه الجديد. كانوا أناساً رائعين، النباتيين، لكنني كنت قلقاً من الطريقة التي سيعاملونه بها، حين يدركون أنه كسول سمين بلا فائدة، وأنهم ميضطرون إلى تحمله.

لم أعرفه في أول الأمر. وكان ذلك جزئياً بسبب البيئة التي بات يعيش فيها. كان صديقي «الفقاعة» جالساً في المطبخ المكون كله من خشب الصنوبر، محاطاً بالنباتات وأكوام الصحف الراديكالية. على الجدار علقت ملصقات تعلن عن تظاهرات ضد جنوب إفريقيا وروديسيا، وصور اجتماعات، ورحلات إلى كوبا وألبانيا. وكان قد قص شعره وشاربه الفلوبيري، وكان يرتدي بذلة رمادية من قطعة واحدة مزررة حتى العنق. «تبدو مثل ميكانيكي»، قلت له. سرّ لرؤيتي. وكان، بين أسباب أخرى، مرتاحاً لإسقاط الدعوى ضده، بعد أن ثبت أن أنور مات بنوبة قلبية. «سأستفيد من حياتي الآن بقدر ما يمكنني يا يار»، قال.

كان سايمون جالساً إلى الطاولة مع شانغيز، ومعهما شابة جميلة الشعر، تدعى صوفي، كانت تأكل كعكة «المافنز»، وكانت عادت تواً من بيع صحف فوضوية خارج أحد المعامل.

فوجئت بشانغيز يتطوع بالذهاب لشراء الحليب، فسألته كيف حاله، وإذا ما كان كل شيء على ما يرام، وما إذا كان يتأقلم. كنت مدركاً أن نبرة صوتي وأنا أخاطبه توحي بأنني أحسبه متخلفاً عقلياً. لكن سايمون وصوفي كانا يحبانه، وأشارت صوفي إليه مرة بوصفه «مهاجراً من ذوي الحاجات الخاصة»، وهذه على ما أفترض حقيقة «قاتل القضيب». وربما هذا ما منحه مصداقيته في ذلك المنزل. من الواضح أنه كان فطناً كفاية بحيث لم يتكلم كثيراً عن تحدره من عائلة تملك خيول السبق،

ولا بد من أنه كف عن إخبار القصص التي كان يخبرني بها، حول عدد الخدم الذين كانوا لديه، وتحليله للصفات التي يراها أساسية في الخادم الجيد والطباخ والبواب.

«أحب الحياة الجماعية يا كريم»، قال لي حين ذهبنا في نزهة لاحقاً ذلك اليوم. «الجو عائلي هنا من دون نقيق العمات والخالات. باستثناء الاجتماعات يا يار. إنهم يجتمعون كل خمس دقائق. علينا أن نجلس من وقت لآخر ونناقش هذا الأمر أو ذاك، الحديقة، أو الطبخ، أو وضع إنكلترا، أو تشيلي، أو تشيكسلوفاكيا. إنها الديمقراطية في حالة هيجان، يا يار. مع ذلك إنه لأمر مذهل وكل شيء، العري الذي تراه كل يوم».

«أي عري؟».

«العري الكامل، العري التام».

«أي نوع من العري التام والكامل؟».

«هناك خمس فتيات، وأنا وسايمون فقط. والفتيات، عملاً بالمبدأ الشيوعي القائل بأنه لا ينبغي أن يكون ثمة أي ما يخجل به المرء، يتنقلن كلياً بدون ثياب، صدورهن بلا حمّالات! وفروجهن مكشوفة!».

«يا إلهي».

«لكنني لا أستطيع البقاء هنا».

«ماذا؟ بعد كل هذا؟ لم لا، يا فقاعة؟ أترى أين وضعتك! فكر في النهود العارية وقت الإفطار!».

«كريم، ثمة ما يفطر قلبي يا يار. لقد بدأت جميلة تضاجع ذلك الفتى اللطيف سايمون. إنهما في الغرفة المجاورة، وكل ليلة أسمعهما يخضان السرير. الصوت يصمّ أذني».

«كان لابدّ من حدوث هذا يوماً ما يا شانغيز. سأشتري لك بعض سدادات الأذن إذا شئت». وضحكت بيني وبين نفسي من فكرة استماع شانغيز إلى حب حياته تمارس الجنس في الغرفة المجاورة ليلة بعد ليلة. «أو لماذا لا تبدل غرفتك؟».

هزّ رأسه. «أحب أن أكون قريباً منها. أحب أن أسمعها تتحرك حولي. أحفظ جميع أصواتها. حين تقوم بهذه الحركة فهي تهم بالقعود، وحين تقوم بتلك فهي تقرأ. أحب أن أعرف».

«أتعرف يا شانغيز الحب يمكن أن يكون شبيهاً جداً بالغباء».

«الحب هو الحب وهو أبدي. لم يعد هناك حب رومانسي في الغرب. يتغنّون به في الأغنيات فقط. لا أحد يحب هنا حقاً».

«ماذا عن أبي وإيفا؟»، اعترضت بغبطة. «أليست هذه رومانسية؟».

«هذا زنى. هذا شر مطلق».

«آه، فهمت».

سررت لرؤية شانغيز مبتهجاً إلى هذا الحدّ. بدا سعيداً بأنه ترك حياته الخاملة إلى حياة جديدة، حياة لم أكن لأتخيلها ستناسبه.

بينما جلنا في الجوار رأيت كم هي حقاً فقيرة ومهملة هذه الناحية من المدينة ـ منطقة ساوث لندن ـ مقارنة بلندن التي كنت أعيش فيها. هنا يتسكع العاطلون عن العمل في الشوارع ولا مكان آخر يذهبون إليه، ويرتدي الرجال معاطف قذرة وتنتعل النسوة أحذية قديمة من دون جوارب. بينما نمشي ونتفرج راح شانغيز يخبرني عن مدى حبه للإنكليز، وكم أنهم مهذبون ومراعون لمشاعر الآخرين. «إنهم محترمون. خصوصاً النساء. لا يزدرونك طوال الوقت مثلما يفعل الهنود».

هؤلاء المحترمون الذين يتحدث عنهم شانغيز كانت وجوههم عليلة، وجلدهم رمادي. وتشبه بيوتهم مخيمات الاعتقال؛ الكلاب تركض في الأنحاء؛ والقمامة تنهمر من كل مكان؛ والكتابات الغرافيتية تملأ الجدران. والشجيرات اقتلعت رغم إحاطتها بالأسيجة السلكية. هنا لا تجد في محلات الملابس سوى الثياب البالية والرخيصة. كل شيء بدا رخيصاً ومهلهلاً. لا بدّ من أن شانغيز كان يفكر بالأشياء نفسها مثلي، حين قال: «ربما أشعر هنا أنني في موطني، لأن هذه المنطقة تذكرني بكلكوتا».

حين قلت له إنه آن أوان ذهابي، تبدّل مزاجه. وانتقل من الثرثرة إلى نبرة هجومية جدية، كما لو أنه تمرن مسبقاً على ما يريد قوله، وشعر أنه الآن الوقت المناسب لقوله.

«الآن أخبرني يا كريم، لست تستعمل شخصيتي في مسرحيتك، أليس كذلك؟».

«لا يا شانغيز، سبق وقلت لك ذلك».

«أجل، لقد وضعت شرفك على المحك».

«أجل، لقد فعلت، حسنا؟».

فكر لبضع ثوان «لكن ما الذي تنطوي عليه كلمة الشرف عندك؟».

«كل شيء يا رجل، كل شيء لعين، بحق الله يا شانغيز إنك تصبح مدعياً للأخلاق؟».

حدجني بصرامة، كما لو أنه لا يصدقني، الوغد، وذهب يتمايل في ساوث لندن.

بعد بضعة أيام، بعد أن بدأنا بعرض المسرحية في لندن، اتصلت جميلة لتخبرني أن شانغيز تعرض لهجوم تحت جسر سكة حديد وهو

عائد من عند شينكو. كان مساء شتائياً نموذجياً من أمسيات ساوث لندن: صامت، معتم، بارد، ضبابي، وكئيب، حين انقضت تلك العصابة على شانغيز ونادته «باكي»، دون أن يميزوا أنه هندي. داسوه بالأرجل وهمّوا بحفر الأحرف الأولى من «الجبهة الوطنية»، على معدته بشفرة. لكنه فروا حين أطلق شانغيز صرخة «الله أكبر»، بصوت يمكن سماعه في بوينس أيرس. بطبيعة الحال كان شانغيز مصدوماً، ويرتجف من شدة الخوف، أخبرتني جميلة. لكنه لم يتوانى عن الاستفادة من التعاطف الذي أبداه الجميع معه. صارت صوفي تجلب له الإفطار إلى السرير، وأعفي من العديد من واجبات الطبيخ والغسيل. وقالت الشرطة، التي بدأت تملّ من شانغيز، إنه رمى بنفسه تحت الجسر وفعل هذه الجروح بنفسه، فقط لكي يحطّ من مصداقيتهم.

أغضبني الاعتداء على شانغيز، وسألت جميلة ما إذا كان ثمة ما يمكنني فعله. وقالت لي إن مثل هذه الاعتداءات تحصل طوال الوقت، وإنه يجدر بي مرافقتهم في تظاهرة يوم السبت المقبل. كان أعضاء «الجبهة الوطنية» يعدون للتظاهر في منطقة آسيوية قريبة. وسيكون هناك تظاهرة فاشية في «تاون هال»؛ وستهاجم المتاجر الآسيوية وتتعرض حيوات السكان للخطر. لم نكن نستطيع إيقاف الأمر: يمكننا فقط التظاهر ورفع صوتنا عالياً. أجبتها بأنني سأشارك.

لم أعد أمارس الجنس مع إليانور أكثر من مرة في الأسبوع. لم تقل لي شيئاً، لكن بدأت مشاعري تجاهها تبرد. لم أذعر؛ وبعد التمارين كنت أحب الذهاب إلى البيت وأرتعب وحدي. أعددت نفسي للافتتاح بتقليد طريقة مشي شانغيز في الشقة، من دون أن أصوره كاريكاتورياً لكن ساعياً إلى تصوير بؤبؤيه الغريبين. روبرت دو نيرو كان ليفتخر بي.

اعتبرته أمراً مسلماً به أن إليانور كانت تمضي الأمسيات مع

أصدقائها. وغالباً ما كانت تدعوني أيضاً، لكنني لاحظت بعد إمضاء ساعتين مع أصحابها أنني أشعر بالثقل وخوران النفس. كانت الحياة تقدم لهؤلاء الناس شفتيها، لكنني اكتشفت إذ رأيتهم يجرون بعضهم من حفلة إلى أخرى، أنها قبلة الموت؛ رأيت كم فيهم من الخمول والوهن. وكيف يمضون أوقاتهم في غرف الجلوس في منازلهم اللندنية بلا أي شغف أو رغبة أو جوع. قلت لمستشاري السياسي، العريف مونتي، إن الطبقة الحاكمة لا تستحق الكراهية. ولم يوافقني الرأي، «إذعانهم يجعلهم أسوأ»، كانت حجته.

حين اتصلت بإليانور لأخبرها بأنه ينبغي أن ننضم إلينا في مواجهة الفاشيين، كان موقفها غريباً، خصوصاً بعد ما ما حدث لصاحبها جين. فراحت تختلق الأعذار. من جهة هناك هذا التبضع الذي تريد القيام به في متاجر «ساينبوري»؛ ومن جهة أخرى هناك ذاك الشخص الذي ينبغي أن تزوره في المستشفى. «أراك في العرض الأولي، حبي»، ختمت كلامها. «أشعر ببعض الاضطراب». وأقفلت السماعة.

عرفت ما يجب أن أفعله. كان يفترض بي أن ألتقي جميلة وشانغيز وسايمون وصوفي والآخرين في المنزل ذاك الصباح. ما المشكلة؟ يمكنني أن أتأخر قليلاً. لكنني لن أفوت التظاهرة؛ سأتجه من المكان الذي نويت الذهاب إليه إلى موقع التظاهرة مباشرة.

انتظرت ساعة وركبت قطار الأنفاق شمالاً، نحو منزل بايك. مشيت على الحديقة الأمامية في البيت المقابل لبيته، وجلست على جذع خشبي، ورحت أراقب منزل بايك عبر فتحة في السياج. مر الوقت. وبدأت تعتم. سأضطر إلى أن أستقل سيارة أجرة إلى التظاهرة. ولا بأس بذلك، ما دامت لا تراني جميلة وأنا أترجل منها. بعد ثلاث ساعات من الانتظار رأيت إليانور تقترب من بيت بايك. يا لي من

عبقري: كم كنت محقاً! قرعت إليانور على الجرس وأجاب بايك فوراً. بلا قبلة، أو تربيتة، أو ابتسامة، أغلق الباب وراءها فحسب. ما الذي سأفعله؟ هذا أمر لم أفكر به. التظاهرة في عزها الآن. ربما يزمع بايك وإليانور المشاركة بها. سأنتظرهما؛ ربما أظهر لهما قائلاً إنني كنت ماراً بالجوار، وأحصل على توصيلة إلى التظاهرة معهما.

انتظرت ثلاث ساعات أخرى. لابد أنهما كانا يتناولان غذاء متأخراً. وحين خرجت إليانور تبعتها إلى قطار الأنفاق ودخلت وراءها، وجلست قبالتها. بدت متفاجئة كلياً حين رأتني. «ما الذي تفعله على خط باركلو؟»، سألتني.

حسناً، لم أكن في مزاج دفاعي. نهضت وجلست قربها. وسألتها مباشرة ما الذي كانت تفعله في منزل بايك، بدلاً من أن تكون ترمي جسدها أمام الفاشيين.

أرجعت رأسها إلى الخلف، وجعلت تنظر حولها كما لو أنها تبحث عن مهرب، وقالت إنها يمكنها أن تقول الشيء نفسه عني. لم تنظر إلي، لكنها لم تكن دفاعية. «بايك يجذبني»، قالت «إنه رجل مثير. ربما لم تلاحظ ذلك، لكن هناك قلة من أمثاله».

«هل ستستمرين في مضاجعته؟».

«أجل، أجل، كلما طلب مني ذلك».

«منذ متى وهذا الوضع قائم؟».

«منذ تلك المرة التي ذهبنا فيها لتناول العشاء وفعلتما أنت وبايك تلك الأشياء مع بعضيكما».

أسندت خدها على كتفي. وكاد يغمى عليّ من روعة ضوعها ونعومة جلدها.

«آه يا حبي»، قلت.

«أريدك أن تكون معي يا كريم، وقد فعلت الكثير من أجلك. لكنني لا أحتمل أن يملي علي الناس، الرجال، ما أفعله. إذا ما أرادني بايك أن أكون معه فسأتبع رغبتي إذاً. هناك الكثير ليعلمني إياه. ورجاء، رجاء، لا تتبعني مجدداً».

كانت أبواب القطار على وشك الإقفال، لكنني تمكنت من الخروج منها. وبينما أمشي على رصيف المحطة قررت الإنفصال عن إليانور. سيكون عليّ أن أراها يومياً في المسرح، لكنني لن أخاطبها كحبيبة مجدداً. لقد انتهت إذاً أول علاقة حب لي. سيكون هناك غيرها. هي تفضل بايك. جين العذب، حبيبها الأسود، أفضل ممثل في لندن، الذي كان يفرغ النونيات في مسلسلات المستشفيات، قتل نفسه، لأنه كل يوم، عبر نظرة، أو تعليق، أو موقف، كان يعبّر الإنكليز عن مدى كرههم له؛ لم يسمحوا له أن ينسى بأنهم يفكرون به كزنجي، كعبد، ككائن أدنى. وكنا نسعى وراء الزهور الإنكليزية في سعينا وراء إنكلترا. وعبر امتلاكنا تلك الجوائز، ذلك اللطف والجمال، كنا كأننا نحدق في عيني الإمبراطور مباشرة، وكل اعتباره لنفسه، في عيني «هايري باك»، في عيني «غريت داين» اللعين. صرنا جزءاً من إنكلترا ومع ذلك نقف بفخر خارجها. لكن لنتحرر حقاً علينا أن نحرر أنفسنا من القسوة والازدراء أيضاً. وكيف يمكن ذلك، حين القسوة والازدراء يعاد إنتاجهما يومياً؟

سأبعث لإليانور رسالة وقورة، ثم سأكف عن حبي لها. كان هذا الجزء الصعب. كل شيء في الحياة ينتظم حول أناس يحبون بعضهم بعضاً. الوقوع في الحب سهل، لكن لا أحد يقول لك كيف تقع خارج الحب. لم أعرف من أين أبدأ.

جلت لبقية اليوم في «سوهو» وشاهدت نحو عشرة أفلام بورنو. ولابدّ من أنني دخلت لفترة أسبوع بعدها في نوع من الإحباط الغريب

والحرد والإحساس بالعجز الاجتماعي، لأنني لم أشعر بأي اكتراث بما يفترض أن تكون أعظم ليلة في حياتي، ليلة افتتاح المسرحية في لندن.

في الأيام التي سبقت الافتتاح لم أتكلم مع الممثلين الآخرين. الحميمية التي ولدها بايك بيننا صرت أراها الآن مخدراً أعطانا الإحساس المؤقت بالتعاطف والدعم، لكنه الآن زال، ليعود فقط في ومضات سريعة، تشبه ومضات مخدر «أل أس دي». كنت أتلقى التعليمات من بايك لكنني لم أركب مجدداً في سيارته. أعجبت به كثيراً، بموهبته، بجرأته وتحرره من التقاليد، لكنني الآن صرت مرتبكاً حياله. ألم يخنّي؟ أم ربما كان يحاول تعليمي كيفية سير الحياة. لم أعرف. على أي حال، لابدّ من أن إليانور أخبرته ما الذي حدث بيننا لأنه ظل بعيداً عني وبالكاد كان مهذباً. مارلين كتبت لي مرة، قائلة: «أين أنت يا حبيبي؟ ألن تأتي وتراني مجدداً، حبيبي كريم؟». لم أرد. كنت سئماً من أهل المسرح ومن المسرحية؛ بدأت أشعر بالتبلد. ما حدث لي لم يبد مهماً. أحياناً كنت أشعر بالغضب، لكن معظم الأحيان لم أكن أشعر بشيء. لم أشعر في حياتي بهذا القدر من الفراغ.

امتلأت غرف تبديل الملابس بالزهور والبطاقات، وكان عدد القبل التي تحدث في ساعة يفوق عددها في باريس في يوم كامل. أجروا معنا مقابلات تلفزيونية وإذاعية، وسألني صحافي عن أهم الأحداث في حياتي. وتم تصويري مرات عدة قرب سياج مكهرب (لاحظت أن المصورين الفوتوغرافيين يحبون الأسيجة المكهربة). انزويت بنفسي، وحاولت إبعاد عينيّ عن إليانور، وألا أكره كثيراً الممثلين الآخرين.

ثم فجأة، جاءت الليلة الموعودة، ليلة الليالي، ووجدت نفسي وحيداً على المسرح تحت الأضواء الكاملة، وأمامي أربعمائة إنكليزي أبيض ينظرون إلي. أعرف جيداً أن العبارات التي كانت قد أصبحت مألوفة جداً وبلا معنى بالنسبة إلي، بدأت تخرج من فمي بكل رنين

«هالو كيف حالك اليوم؟»، وكان الجمهور يبث فيها الحياة والمعنى، بحيث حقق العرض نجاحاً ساحقاً، وكنتُ ـ أقول هذا بكل ثقة اعتماداً على النقاد ـ رائعاً وصادق الأداء.

بعد العرض احتسيت بيرة «غينيس» في غرفة تبديل الملابس وجررت نفسي إلى الخارج. وهناك رأيت أمامي مباشرة، مشهداً غريباً، لو كنت أراه في فيلم لكنت فركت عيني غير مصدق: كانا أمي وأبي يتحادثان مبتسمين. وهذا آخر ما كنت أتوقعه خصوصاً أنني لم أدع أحداً إلى العرض. هناك، بين المبهرجين والمتأنقين وذوي الأحذية اللامعة والنسوة عاريات الظهور، كانت تقف أمي بفستانها الأحمر والأزرق، وقبعتها الزرقاء وصندالها البني. وقربهما وقف أخي، علي الصغير. وكل ما استطعت التفكير به كم يبدو أبي وأمي ضئيلين وخجولين وهشين، وكم أن المسافة التي يقفان فيها متباعدين غير طبيعية. تعيش حياتك كلها معتبراً والديك ذينك الوحشين اللذين يريدان حمايتك باستمرار، ويملكان سلطة مطلقة عليك، ثم فجأة تلتفت ذات يوم، فتراهما مجرد شخصين ضعيفين ومتوترين، يحاولان إجراء محادثة مع بعضيهما.

تقدمت إيڤا مني حاملة الشراب وقالت «أجل إنه منظر سعيد، أليس كذلك؟». وتكلمنا عن المسرحية. «إنها عن البلد»، قالت «وكم أننا صرنا قساة، وكم سقطنا من المجد. لقد أطاحت هذه المسرحية خرافة إنكلترا الرصينة والمتسامحة. لقد جعلت شعر رقبتي يقف. هكذا أعرف أنها مسرحية جيدة. أحكم على الفن كله بمدى تأثيره على شعر رقبتي».

«أنا مسرور أنها أعجبتك يا إيڤا». كان واضحاً أنها في حال سيئة. ولم أعرف ماذا أقول. على أي حال، شادويل كان ينتظرها على مقربة حتى تنتهي من التحدث إلي. وطوال الوقت لم تهدأ عينا إيڤا ـ ليس أنهما اقتربتا من أبي وأمي، وإن كان يفترض أن يكون ذلك مكانهما

الطبيعي. حين التفت إلى شادويل ابتسم لي وبدأ يحكي «إنني مفتون. . . لكنني أقاوم. . . ». نظرت مرة أخرى إلى أبي وأمي. «ما زالا يحبان بعضيهما، ألا ترين ذلك؟»، قلت لإيفا. أو ربما لم أقله؛ ربما فكرت به فحسب. أحياناً لا تستطيع أن تجزم ما إذا ما كنت قلت شيئاً أم فكرت به فقط.

ابتعدت، ووجدت تيري عند البار مع امرأة لم تبد مثل الأخريات من المعطرات الاحتفاليات. لم يقدمني تيري لها. لم يرد أن يعرف إليها. ولم يصافحني. فقالت «أنا إيفون، صديقة ماثيو بايك، وضابطة شرطة في نورث لندن. أنا والعريف مونتي»، وضحكت «كنا نناقش إجراءات الشرطة».

«أحقاً تيري؟». لم أر تيري مستاء إلى هذا الحدّ من قبل. ظل يهز رأسه كما لو أن ثمة ماء في أذنيه. لم ينظر إلي. شعرت بالقلق عليه. لمست جانب رأسه «ما المشكلة يا مونتي؟».

«لا تنادني بهذا الاسم أيها الحقير. أنا لست مونتي. أنا تيري وأنا مستاء. سأقول لك لماذا. كنت أتمنى لو كنت أنا على تلك الخشبة. كان يمكن أن أكون أنا. لقد استحققت ذلك، حسناً؟ لكنه كان أنت. حسناً؟ لماذا إذاً ألعب دور شرطي لعين؟».

ابتعدت عنه. سيشعر بالتحسن غداً. لكن هذه لم تكن نهاية الأمر. «هاي هاي، إلى أين تذهب؟»، قال وهو يتبعني. «هناك مهمة تنتظرك»، قال «أتفعلها؟ لقد قلت إنك ستفعلها».

ونحاني جانباً، بعيداً، بحيث لا يسمعنا أحد. أمسك ذراعي، فآلمني، حتى بدأت ذراعي تخدر. لم أتحرك.

«إنه الآن»، قال «نوجه إليك النداء».

«ليس الليلة»، قلت.

«ليس الليلة؟ لماذا ليس الليلة؟ ماذا تمثّل الليلة بالنسبة إليك، أمراً

مهماً؟». هززت كتفي. «حسناً».

قلت إنني سأقوم بها إذا كان يمكنني ذلك. عرفت ما الذي يفكر به. لن أجبن. قال «الحزب يحتاج إلى تمويل فوري. اذهب إلى أولئك الناس واطلب منهم المال».

«كم من المال؟».

«سنترك هذا الأمر لك».

ضحكت ضحكة مكبوتة «لا تكن غبياً».

«انتبه لكلامك»، صرخ «فقط انتبه لهاتين الشفتين اللعينتين!». ثم ضحك ونظر إلي بسخرية. كان هذا تيري آخر. «قدر ما يمكنك جمعه».

«هذا اختبار إذاً؟».

«المئات»، قال «نريد مئات الباوندات. اطلب منهم. اضغط عليهم. عزّهم. اسرق أثاثهم. يمكنهم تحمل الكلفة. احصل على ما تستطيع الحصول عليه. حسناً؟».

«أجل».

ابتعدت عنه. كان قد طفح كيلي من هذا. لكنه أمسك ذراعي ثانية، الذراع نفسها «إلى أين أنت ذاهب الآن؟».

«ماذا؟»، قلت «لا تحبطني هكذا».

كان غاضباً، لكنني لم أغضب أبداً. لم يهمني ماذا سيحدث.

«لكن كيف تحصل على المال إذا لم تكن تعرف أسماء المعنيين؟».

«حسناً، ما هي الأسماء؟».

قام بدفعي ثانية حتىٰ صرت بمواجهة الجدار. لم أعد قادراً على رؤية والدي؛ فقط الجدار وتيري. كزّ أسنانه قائلاً «إنها حرب طبقية».

«أعرف هذا».

انخفض صوته. «بايك واحد. إليانور أخرى».

ذهلت. «لكنهما صديقي».

«حسناً، يفترض بهما أن يكونا وديين إذاً».

«لا يا تيري».

«بلى يا كريم».

التفت ونظر إلى الحشد في جهة المطعم. «حفنة لطيفة من الناس. أتريد شراباً؟».

«لا».

«أكيد؟».

أومأت برأسي.

أراك إذاً يا كريم».

«أجل».

انفصلنا. رحت أتمشى. عرفت الكثير من الناس لكنني ميزتهم بصعوبة. لسوء الحظ في حدود دقيقة، وجدت نفسي واقفاً أمام الشخص الوحيد الذي كنت أريد أن أتفاداه ـ شانغيز. سيكون هناك ديون عليّ تسديدها الآن. كنت مستعداً لذلك. كنت متوتراً حيال الأمر بحيث أنني قبل يومين حاولت أن أمنعه من المجيء قائلاً لجميلة «لا أظن أن شانغيز سيستمتع بهذه الأمسية». فردت بطريقتها النموذجية «في هذه الحالة يجب أن أحضره». وها هو الآن شانغيز يعانقني ويربت على ظهري «مسرحية جيدة جداً وتمثيل ممتاز»، قال.

نظرت إليه متشككاً. لم أشعر بأنني بحال حسنة على الإطلاق. أردت أن أكون في مكان آخر. لا أعرف لماذا، شعرت أن هذا نوعاً من الخداع. كنت مستعداً لذلك. لقد خرجوا لينقضوا عليّ الليلة.

«تبدو سعيداً يا شانغيز. ما سبب هذه النشوة؟».

«لكن لابدّ من أنك خمنت، جميلة تنتظر». نظرت إليه بعينين فارغتين. «سنرزق بطفل».

«منك أنت؟».

«أيها الأحمق كيف يمكن أن يحدث ذلك من دون علاقة جنسية؟ أنت تعرف أنني لم أحصل على هذا الامتياز».

«بالضبط، يا عزيزي برودنس. هذا ما ظننته».

«إنها تنتظر من سايمون. لكننا سنشارك جميعاً في الأمر».

«طفل جماعي إذاً؟».

غمغم موافقاً. «ينتمي إلى كل عائلة الأصدقاء. لم أعرف بحياتي مثل هذه السعادة».

كان هذا كافياً بالنسبة إلي، شكراً جزيلاً لكم. سأهرب من هنا، وأذهب إلى البيت. لكن قبل أن أتمكن من ذلك، مدّ شانغيز كفه السمينة، اليد السليمة. وقفزت مرتداً. ها هو سيلكمني، فكرت، هذا الأخ الهندي في ردهة المسرح!

«اقترب قليلاً أيها الممثل الرائع»، قال «واسمع نقدي. أنا مسرور بأنك أبقيت دورك في حدود سيرتك الذاتية ولم تحاول القفز إلى شخصيتي. لقد أدركت بوضوح أنني لست شخصاً يمكن تجسيده بنجاح. لقد التزمت بكلمة الشرف في النهاية. هذا حسن».

سررت لرؤية جميلة بجانبي؛ أملت بأن تبدّل الموضوع. لكن من هذا الذي معها؟ بالتأكيد ليس سايمون؟ ما الذي حصل لوجهه؟ كانت إحدى عينيه مضمدة؛ والخد تحتها كان مضمداً أيضاً. نصف رأسه كان ملفوفاً بالقطن. بدت جميلة حزينة، حتى بعد أن هنأتها مرتين على

الطفل. فقط حدجتني بثبات، كما لو أنني مجرم مغتصب. ما المشكلة اللعينة، هذا ما أردت معرفته.

«ما مشكلتك؟».

«لم تحضر»، قالت «لم أصدق ذلك. لم تأت فحسب».

إلى أين لم أحضر.

«إلى أين؟»، سألتها.

«هل يجب أن أذكرك؟ إلى التظاهرة يا كريم».

«لم أستطع الحضور يا جايمي. كنت أتمرن. كيف كانت التظاهرة؟ سمعت أنها كانت مؤثرة وما إلى ذلك».

«ممثلون آخرون من مسرحيتك حضروا. فسايمون صديق ترايسي. كانت هناك، في الصفوف الأمامية».

ونظرنا كلانا إلى سايمون. كان يستحيل تبين أي تعابير وجهه، لأنه كان مدمراً.

«هكذا حدث الأمر. زجاجة في الوجه. أين أنت ذاهب كشخص يا كريم؟».

«إلى هناك»، قلت.

كنت مغادراً، خارجاً، حين تقدمت أمي مني. ابتسمت وقبلتها. «أحبك كثيراً»، قالت،

«أكنت جيداً يا أماه؟».

«لم تكن في تلك الثياب كالعادة»، قالت «على الأقل سمحوا لك بأن ترتدي ثيابك. لكنك لست هندياً. لم تذهب يوماً إلى الهند. ستصاب بالإسهال ما إن تخرج من الطائرة. أعرف أن هذا سيحصل معك».

«لم لا تقولين هذا بصوت أعلى قليلاً»، قلت «ألست هندياً بشكل جزئي؟».

«ماذا عني؟»، قالت أمي «ألست من ولدك؟ أنت إنكليزي، أقول هذا بسرور».

«لا يهمني»، قلت «أنا ممثل، إنها مهنة».

«لا تقل هذا»، قالت «كن نفسك».

«آه بلى».

نظرت إلى أبي، الذي كان الآن مع إيڤا التي كانت تكلمه بغضب. وبدا مرتبكاً لكنه احتمل الأمر، ولم يرد. رآنا وأخفض عينيه. «إنها تبهدله»، قالت أمي «بقرة عجوز سخيفة، لن يجدي كلامها نفعاً مع شخص عنيد مثله».

«اذهبي إلى حمام النساء ونظفي أنفك»، قلت.

«من الأفضل أن أفعل»، قالت.

عند الباب وقفت على كرسي ونظرت فوق حشد الهياكل العظمية المحتملة. بعد ثمانين سنة سيكون معظمنا ميتاً. نعيش بلا خيار، كما لو أن الأمر ليس كذلك، كما لو لم نعش وحدنا، كما لو أنه لن تأتي لحظة يرى كل واحد منا أن حياته قد انتهت، أننا نقود بلا فرامل باتجاه جدار حجري. إيڤا وأبي كانا لا يزالان يتكلمان. تيد وجين كانا يتكلمان؛ مارلين وترايسي كانا يتكلمان؛ شانغيز وسايمون وعلي كانوا يتكلمون، ولا أحد منهم كان بحاجة إلي الآن. خرجت من هناك.

بالمقارنة مع مؤخراتهم النتنة وكلامهم المسموم، كان هواء الليل رقيقاً كالحليب. فتحت سترتي الجلدية، وفككت سحابة بنطالي وتركت قضيبي يستشعر الريح. مشيت نحو نهر «تايمز» القذر، مياه الغائط تلك الملوثة بالحمقى الذين يعيشون على قوارب، أو هواة التجذيف. مشيت

بخفة لبعض الوقت حتى أدركت أن كائناً صغيراً يتبعني كنت قد لمحته قبل بضعة ياردات ورائي، ماشياً بهدوء ويداه في جيبيه. لم أعبأ بأمره.

أردت أن أفكر في إليانور، وكم كان مؤلماً أن أراها يومياً في حين كل ما أرغب به الرجوع إليها. أعرف أنني أملت أن لامبالاتي بها قد تنعش اهتمامها بي، وتجعلها تشتاق إلي، وتدعوني إلى منزلها من أجل المزيد من ألكرنب المغلي وقبلة أخيرة على فخذيها. لكنني في رسالتي إليها طلبت منها ألا تقترب مني مجدداً؛ وهذا بالضبط ما فعلته، ولم يبد أن هذا يزعجها. قد أحاول أن أكلمها لمرة أخيرة.

فضولي حول الشخص الذي يتبعني لم يعد يحتمل، لذا على خط النهر، تواريت عند مدخل حانة، وقفزت، نصف عار، على الكائن، صارخاً، «من أنت؟ لماذا تلحقينني!». حين تركتها لم تكن خائفة أو مضطربة، وكانت تبتسم.

«لقد أعجبت بأدائك»، قالت ونحن نمشي «لقد أضحكتني. فقط أردت أن أقول لك هذا. ولديك أوسم وجه. تلك الشفتان. واو».

«حقاً؟ أنت معجبة بي؟».

«أجل، وأريد أن أمضي معك بضعة دقائق. لا تمانع أن ألاحقك، أليس كذلك؟ لقد رأيت كم كنت راغباً بالمغادرة. لقد بدوت مرعوباً. غاضباً. يا لها من حالة: تفو. هل تريد البقاء وحدك؟».

«لا تقلقي حيال الأمر، من الجيد أن نحظى بصديق».

يا إلهي كم بدوت مغفلاً. لكنها تأبطت ذراعي ومشينا على ضفة النهر، مروراً بمنزل وليم موريس، باتجاه «هوغارث تومب».

«من الغريب أن شخصاً آخر راودته الفكرة نفسها»، قالت المرأة، الذي كان اسمها هيلاري.

«أي فكرة؟».

«أن يتبعك؟».

استدرت ورأيت هيتر واقفاً هناك، غير باذل أي جهد لإخفاء نفسه. حييته بصرخة خرجت من معدتي وطارت في الهواء. «جانوف» نفسه كان صفق لي.

«ما الذي تريده يا هيتر؟ لماذا لا تنقلع من هنا وتموت بالسرطان، أيها السمين البشع المتعنطز».

عدّل وضعيته بحيث وقف بثبات فاصلاً بين رجليه وموزعاً وزنه بالتساوي. كان جاهزاً لينقض عليّ. أراد عراكاً.

«لقد جئت من اجلك أيها الباكي اللعين! لا أحبك أنت وأصحابك الذين كنتم تعبثون مع إليانوري.. أنت وبايك ذاك».

تشبثت هيلاري بيدي. كانت هادئة. «لماذا لا نركض فحسب؟»، قالت.

«هذه فكرة حسنة»، قلت «أوكي».

«لنذهب إذاً».

ركضت نحو هيتر وركلته على كاحليه، وأمسكته من رقبته ووجهت له ضربة سريعة بجبهتي على أنفه، مثلما تعلمت في المدرسة. الشكر لله على التعليم. ترنّح مبتعداً، ممسكاً أنفه. ثم جعلت أنا وهيلاري نركض ونصرخ زنحضن ونقبل بعضنا، وفجأت شعرت أن الدم في كل مكان؛ كان ينسكب منا بكل بساطة. كنت نسيت أن هيتر تعلم في المدرسة أيضاً ألا يذهب إلى أي مكان من دون شفرة يخبئها في ياقة سترته.

الفصل السادس عشر

كان المسرح يمتلئ كل ليلة، وكنا نعطل يومي الجمعة والسبت. وتقرر تمديد العروض. كانت المسرحية تشغل تفكيري طوال اليوم. كان مستحيلاً القيام بها، والتركيز بشكل جزئي عليها، وقد اكتشفت ذات ليلة، حين وجدت نفسي مشلولاًعلى الخشبة، ناظراً إلى إليانور وقد نسيت في أي فصل من المسرحية نحن، أن أفضل طريقة لتفادي أن يدمر العرض يومي كله هو أن أتلاعب قليلاً بالساعات، فأستيقظ عند الثالثة أو الرابعة عصراً، كما لو أن المسرحية تعرض صباحاً، ويكون أمامي ساعات بعدها لكي أنساها.

بعد العرض كنا نذهب إلى منطقة المطاعم، حيث تتبعنا نظرات الناس، الذين يروحون يؤشرون علينا مخبرين بعضهم عنا، مقدمين لنا الشراب؛ شاعرين بالامتياز للقائنا. وكانوا يدعوننا بإلحاح إلى حفلاتهم، لكي نضفي عليها بعض النكهة. وكنا نذهب إلى هذه الحفلات عند منتصف الليل، ونعود محمّلين بالبيرة والنبيذ. ومرة قدموا لنا المخدرات. وضاجعت نساء عديدات؛ كل هذا بات أسهل الآن. أصبح لدي وكيل أعمال أيضاً. وعرض علي دور صغير في فيلم تلفزيوني، دور سائق سيارة أجرة. وأصبحت أملك بعض المال لألهو به. وذات ليلة جاء بايك.وسألنا إذا كنا نريد أن نأخذ العرض إلى نيويورك، حيث ثمة مسرح صغير، إنما مهم مهتم بالعرض»، قال بشكل اعتيادي، «القرار يرجع لكم جميعاً».

أعطانا بايك بعض الملاحظات بعد العرض، ثم سألته إذا ما يمكنني

زيارته خلال عطلة نهاية الأسبوع تلك. ابتسم وربت على مؤخرتي، «في أي وقت»، قال «لم لا؟».

«اجلس»، قال حين وصلت منزله، مستعداً لكي أطلب منه المال. امرأة عجوز ترتدي معطفاً بلاستيكياً زهرياً دخلت إلى الغرفة حاملة منفضة غبار «لاحقاً دايفس»، قال لها.

«انتظرني بينما آخذ دوشاً»، قال «هل أنت مستعجل؟». وخرج ثانية، تاركاً إياي وحيداً في تلك الغرفة مع منحوتة الفُرج. كما من قبل، جلت في المكان. فكرت ربما أسرق شيئاً ويمكن أن يبيعه تيري من أجل الحزب. أو ربما آخذه كتذكار. نظرت إلى الأواني وحملت ثقالات الورق، لكن لم تكن لدي فكرة عن قيمتها. كنت على وشك أن أضع ثقالة في جيبي حين دخلت مارلين، لابسة شورتاً وتي شيرت. يداها وذراعاها ملطخة بالطلاء. كانت تزين البيت. لاحظت أن جلدها أبيض على نحو يكاد يكون مرضياً. كيف قبلته ولحسته؟.

«هذا أنت»، قالت، مبدية القليل من حماسة اللقاء السابق، فافترضت أنها صرفت النظر عني. هؤلاء الناس لهم طلعات ونزلات. «كيف حالك؟»، قالت، وهي تقترب مني. بشّ وجهها عندها. «أعطنا قبلة يا كريم». مالت إلى الأمام وأغمضت عينيها. قبلت شفتيها بلطف. لم تفتح عينيها. «هذه ليست قبلة. حيت أقبل أريد أن أظل في حالة التقبيل»، قالت، وأقحمت لسانها في فمي؛ وراحت يداها تتلمّسان جسدي.

«هلا تركته وشأنه، بحق المسيح؟»، قال بايك، عائداً إلى الغرفة. «أين شامبو الصندل الذي أحبه؟».

كفت عن تقبيلي «كيف لي أن أعرف؟ لستُ رجلاً لعيناً».

راح بايك يفتش في حقيبة مارلين؛ ثم فتش في أدراج عدة، مخرجاً الأشياء. مارلين وقفت تتفرج عليه واضعة يديها على خاصرتها. وانتظرت حتى صار عند الباب وصرخت به: «لماذا أنت متعجرف

هكذا؟ لا تتحدث إليّ كما لو كنت ممثلة شرشوحة. لماذا أتخلى عن كريم؟ أنت تضاجع صاحبته».

وقف بايك هناك وقال «تستطيعين مضاجعته. لا يهمني. تعرفين أنه لا يهمني. افعلي ما شئت يا مارلين».

«اللعنة عليك»، قالت مارلين، «اللعنة على الحرية أيضاً. ادحش الحرية في مؤخرتك».

«على أي حال هي لم تعد صاحبته»، قال بايك.

«لم تعد صاحبته؟»، نظرت إلي. «هل هذا صحيح؟»، ثم نظرت إلى بايك «ما الذي فعلته؟»، لم يقل بايك شيئاً «لقد دمر علاقتكما، أليس كذلك يا كريم؟».

«أجل»، أجبت. ونهضت. نظر مارلين وبايك إلى بعضيهما بكراهية. قلت، «ماثيو لقد مررت فقط لأطلب منك شيئاً، إنه شيء صغير. لن يتطلب وقتاً طويلاً. أيمكننا أن ننتهي منه الآن؟».

«سأدعكما أيها الفتيان وحدكما إذاً»، قالت مارلين بتهكم.

«أين الشامبو؟»، سأل بايك، «حقاً أين هو؟».

«حلّ عني»، قالت مارلين أثناء خروجها.

«حسناً، حسناً»، قال بايك لي وهو يسترخي.

طلبت منه المال. قلت له لأي غرض هو. طلبت منه ثلاثمائة باوند. «للسياسة؟»، سألني. «للحزب، أليس كذلك؟ هل أنا محق؟».

«أجل».

«أنت؟».

«أجل».

«عجباً، عجباً يا كريم، لا بدّ أنني أخطأت في شأنك».

حاولت أن أكون مرحاً، «ربما تكون قد أخطأت».

نظر إلي بجدية وبلطف، كما لو أنه يراني حقاً. «لم أقصد أن أحطّ من شأنك. لم أدرك فحسب أنك ملتزم إلى هذا الحدّ».

«لست كذلك، حقاً»، قلت له. «لقد طلبوا مني فقط أن أطلب منك».

أخرج دفتر شيكاته. «أراهن أنهم لم يعلموك أن تقول هذا». حمل قلمه «إذاً أنت ساعي بريدهم. أنت فتى هش. لا تسمح لهم باستغلالك. إليك الشيك».

كان رائعاً. أعطاني شيكاً بقيمة خمسمائة باوند. وشعرت أنه يمكنني التحدث إليه طوال اليوم، مثرثرين ونامّين مثلما اعتدنا أن نفعل في السيارة. لكن ما إن حصلت على المال حتى رحلت؛ لم يكن يريدني أن أبقى ولم أرد أن أتورط مع مارلين. وفي طريقي إلى الخارج هرعت على السلم ونادتني «كريم، كريم»، وسمعت بايك يقول لها «لا يستطيع الفرار منك بالسرعة الكافية»، بينما أصفق الباب ورائي.

لم أتجرأ على زيارة شقة إليانور ثانية. لذا طلبت منها المال ذات ليلة في المسرح. بت أجد من الصعب التكلم إليها. ومما زاد الأمر صعوبة أنه وأنا أشرح لها الأمر، شارحاً أن هذا عملاً وليس حباً، راحت تشغل نفسها بأشياء، أشياء عديدة موجودة في غرفة تبديل الملابس: كتب، وأشرطة موسيقية، وأدوات تجميل، وصور فوتوغرافية، وبطاقات، ورسائل، وملابس. وجربت قبعتين، أيضاً. فعلت هذا كله لأنه لم ترد أن تواجهني، أن تجلس وتنظر مباشرة نحوي، لكنني شعرت أيضاً أنها أخرجتني نهائياً من رأسها. كنت أعني القليل لها؛ لم أكن حتى فشلاً مهماً.

ليس أنني أحببتها كثيراً أنا الآخر؛ لكنني لم أرد أن أسمح لها بهجري. لم أرد أن أرمى جانباً، أن أهمل، أن يصرف النظر عني.

وهذا ما حدث معي. هذا هو الأمر. لم يكن بيدي حيلة. لذا قلت لها فحسب ما أريده. أومأت برأسها وحملت كتاباً. «هل قرأت هذا؟»، سألتني. لم أنظر حتى إلى الكتاب. لم أرد النقاش في الكتب الآن. طلبت منها المال ثانية. سيساعد هذا الحزب؛ وسيغيرون الأمور التي تحتاج إلى تغيير.

قالت أخيراً «لا، لن أعطيك خمسمائة باوند».

«لم لا؟».

«كنت أفكر في جين».

«أنت دائماً تفكرين بجين و. . .».

«أجل إذاً؟ لمَ لا؟».

«انسي الأمر إليانور»، قلت «لنبق بموضوعنا».

«لقد كان جين. . .».

خبطت على الطاولة. كان طفح بي الكيل. وظل سطر من بوب ديلان يتردد في رأسي «عالق داخل مدينة موبايل مع بلوز ممفيس من جديد».

«الحزب. يريدون مالاً. هذا كل ما في الأمر. لا شيء آخر. لا شيء حول جين. لا شيء عنا».

أصرت «إنني أقول شيئاً، وأنت لا تصغي إلي».

«أنت ثرية، ألست كذلك؟ وزعي المال حبيبتي».

«أيها الوغد الحقير»، قالت «ألم نمض وقتاً طيباً معاً؟».

«أجل، حسناً، لقد متعت نفسي. ذهبنا إلى المسرح. تضاجعنا. وأنت خرجت مع بايك».

ابتسمت لي عندها، وقالت «هذا هو الموضوع. إنهم ليسوا حزباً للدفاع عن السود. كل ما يهمهم قضايا البيض، إذا ما أردت أن تعرف. لن أمنح فلساً لهذا النوع من الحزب العنصري».

«حسناً»، قلت وأنا أنهض «شكراً على أي حال».

«كريم»، نظرت إلي، أرادت أن تقول شيئاً لطيفاً. قالت «لا تزعل مني».

في يوم عطلتي ذهبت لرؤية تيري. هو ورفاقه كانوا يحتلون منزلاً في «بركستون». ترجلت من قطار الأنفاق واتجهت شمالاً، مثلما دلني، تحت جسر المحطة الذي مررت عليه بالقطار مع العم تيد حين قام بتمزيق المقاعد، وقال «أولئك السود الملاعين». وكان الخط نفسه الذي كان يأخذه أبي إلى عمله طوال تلك السنوات، واضعاً القاموس الأزرق في حقيبته.

تلك المنازل شيدت لحقبة أخرى، فكرت، وأنا أنظر إلى بيت تيري. كانت أمكنة من خمسة طوابق؛ تطل على حدائق جميلة؛ وكانت تتعفن في هذه الناحية من المدينة التي تتعفن حتى وهي تزدهر في الشقوق. الأولاد هنا كانوا أكثر ضراوة من أي مكان آخر في لندن. قصات شعورهم التي قلّدها تشارلي وطورها ـ سوداء، «سبايكي»، نحتية، زخرفية، للمساء لا للعمل ـ قد تبدلت: إلى قصّة «الموهيكان». بات البنات والصبيان يضعون أقواس قزح صلبة من الألوان على رؤوسهم التي تبدو حليقة لولاها. الفتيان السود كانت لديهم خصلات تصل إلى نصف ظهورهم، وعكازات وأحذية رياضية. الفتيات يلبسن بناطيل ضيقة عند الكاحلين؛ الفتيان يلبسون بناطيل سوداء تشبه بناطيل العبيد بسحابات وبكل. المنطقة كانت مليئة بالحانات غير الشرعية، والبيوت المحتلة، وحانات السحاقيات واللواطيين، وحانات المخدرات، ومنظمات المخدرات. لم يكن هناك الكثير من الأعمال؛ الناس يتسكعون؛ يسألونك إذا كنت تريد حشيشة سوداء، وهو ما كنت أشتريه لكن ليس منهم.

كان باب البيت مفتوحاً. الأقفال حطمت. مضيت مباشرة إلى أعلى

ووجدت تيري هناك. كان يرتدي الشورت وتي شيرت وحافي القدمين، وكان يتمرن على مقعد طويل، أمام نافذة واسعة، حاملاً قضيب وزن على رقبته وهو ينهض ويجلس، ينهض ويجلس، ويشاهد مباراة «ركبي» على تلفزيون أبيض وأسود. نظر إلى مذهولاً. بحثت عن مكان أجلس فيه، كرسي غير مكسور أو وسادة غير ملطخة. كان مكاناً قذراً وكان تيري ممثلاً جيداً. قبل أن أجلس أوقفني وعانقني. كانت رائحته طيبة، رائحة عرق.

«هاي، هاي، هذا أنت، هذا أنت حقاً، تظهر هكذا بكل بساطة. أين كنت؟».

«حضرة العريف مونتي»، قلت.

«أين كنت، أخبرني، أين يا كريم؟».

«أجمع المال لك».

«حقاً»، قال تيري «أصدقك».

«ألم تطلب مني ذلك؟».

«أجل، لكن. . .»، وتكورت عيناه.

«أنت طلبت مني ذلك. أنت أمرتني. ألم تفعل؟ ألا تذكر؟».

«أذكر؟ كيف أنسى يا كريم؟ تلك الليلة. يا للروعة. كل هذا المال والمثقفين. أولئك الناس الأذكياء. يمكنها أن تجعل ولداً مثلي يضطرب».

«لا تخبرني»، قلت.

أومأ بيديه ونفخ بقوة. «لكنني لا أشعر بالرضى حيال الأمر».

ذهب وأحضر الشاي، لكنه كان من نوع «تايفو»، والفنجان متسخ من الداخل ببقع بنية. وضعته جانباً وأعطيته شيك بايك. حملق به، ثم نظر إلي. «عمل جيد فعلاً. ظننت أنك كنت تمازحني. هذا رائع، أحسنت يا صاح»..

«لم يكن عليّ إلا أن أطلب منه. أنت تعرف كيف هم الليبراليون»

«أجل، يستطيع الأوغاد احتمال مثل هذه الأكلاف». اقترب مني ثانية بعد أن وضع الشيك في جيب سترته. «اسمع، هناك أشياء أخرى يمكنك القيام بها من أجل الحزب».

قلت «إنني ذاهب إلى أميركا مع بايك».

«اللعنة. لأي غرض؟». كان جيداً أن أرى تيري متحمساً ثانية. «هذا البلد هو المكان الذي يجدر أن يكون فيه المرء. إنه على حافة التغيير. يمكنك أن ترى ذلك. أليس كذلك؟».

«أجل».

«بالطبع يمكنك. كالاغان لا يستطيع الاستمرار. سيأتي دورنا».

«أميركا لا بأس بها».

«أجل، عظيم»، وربت على ذراعي. «هيا»، شعرت أنه يريد أن يلمسني أو شي ء من هذا القبيل. أن يقبلني. قال «سوى إنها حفرة خراء فاشية إمبريالية عنصرية».

«أجل».

«إنها...».

قلت «أحياناً أشعر بالقرف من جهلك. عماؤك الغبي اللعين تجاه الأشياء. أميركا. من أين تظن جاءت النزعة اللواطية؟». هذا لم يساعد قضيتي. فكرت للحظة. كان يصغي، لم يبدأ بعد بالسخرية. «والحركة النسوية. وثورة السود. عما تتحدث يا تيري، حين تتحدث عن أميركا؟ هذا هراء! غباء! يا إلهي!».

«لا تصرخ بي. ما الذي قلته؟ أقول إنني سأشتاق إليك؟ هذا كل ما في الأمر. وأقول إنه أمر غريب أن تصبح أنت وبايك صديقين حميمين بعد ما فعله بك. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟».

«ما الذي فعله بي؟».

«تعرف، لقد كنت هناك».

«أعرف؟ ما الذي أعرفه، أخبرني».

«لقد سمعت بعض الأقاويل... الجميع يتكلم عن الأمر».

التفت بعيداً. لم يشأ قول المزيد. الآن لن أعرف أبداً ما الذي يقولونه عني وعن بايك وما فعله بي.

«حسناً»، قلت «لا أبالي».

«لا تبالي بأي شيء»، قال «أنت لست مرتبط بأي شيء، ولا حتى بالحزب. أنت لا تحب. ابق هنا وقاتل».

جلت في الغرفة. كان كيس نوم تيري على الأرض؛ كان هناك سكين قرب السرير. حان وقت الذهاب. أردت أن أتسكع في هذه الناحية من لندن. أردت أن أتصل بشانغيز وأذهب معه في نزهة برجليه الشبيهتين بتشارلي تشابلن. أخذ تيري يمشي، ورحت أنظر من النافذة محاولاً السيطرة على نفسي. الناس الذين يكونون فقط نصف محقين حول الأشياء يجننونني. كرهت فيض الآراء، اليقين، الكلام السهل على كوبا وروسيا والاقتصاد، لأنه تحت البنية الصلبة للكلمات هناك هوة من الجهل وعدم المعرفة؛ وعلى نحو ما بعدم الرغبة في المعرفة. عاشق فروتبال جونز، شويتغام راينبو جونز كان له دور: يتحدث عن أمور له تجربة عملية فيها، أشياء عرفها مباشرة. بدا حكماً جيداً.

فتحت فمي لأخبره كم هو أحمق ومتصلب في نظرته للأمور، حين قال «تستطيع المجيء والعيش هنا بما أن إليانور قد طردتك. هناك فتيات جيدات من الطبقة العاملة في هذه الشقة. لن تنقطع منهن».

«أراهن على ذلك»، قلت.

تقدمت منه ووضعت يدي بين رجليه. لم أحسب أنه سيسمح لنفسه

بالاستمتاع كثيراً بذلك؛ لم أحسب أنه سيسمح لي بأن أخرج قضيبه، لكنني أحسب أنه يفترض أن تجرب ذلك مع كل من يعجبك، فقط في حال. لا تعرف، ربما يحبون ذلك، وإذا كرهوه، فما المشكلة؟ الأناس الجذابون كانوا إثارة بحدّ ذاتهم.

«لا تلمسني يا كريم»، قال.

ظللت أحكه، وأضغط على معدته، حافراً أظافري في خصيتيه، حتى نظرت إلى وجهه. بقدر ما كانت درجة غضبي منه، كانت رغبتي بإذلاله، رأيت فجأة الكثير من الإنسانية في عينيه، وبالطريقة التي حاول أن يبتسم بها ببراءة من يحاول أن يفهمني، وإمكانية الألم، جنباً إلى جنب الافتراض بأنه لن يؤذى، فتراجعت عنه. وذهبت إلى الجانب الآخر في الغرفة. وقعدت أحملق في الجدار. فكرت في التعذيب والألم الجسدي المجاني. كيف يمكن أن تكون هناك أشياء كهذه، حين هناك نظرات معينة تصرخ لك من الأعماق الإنسانية جاعلة إياك تشعر بشفقة رهيبة يمكن أن تبكيك لسنوات؟

تقدمت منه وصافحته. لم تكن لديه فكرة عما يجري. قلت «تيري، أراك».

«متى؟»، قال باهتمام.

«حين أرجع من أميركا».

رافقني إلى الباب. قال وداعاً، ثم قال إنه آسف. لأكون صريحاً ما كنت لأمانع الانتقال للعيش معه في «بركستون»، لكن فات أوان ذلك على الأرجح. كانت أميركا بانتظاري.

الفصل السابع عشر

بعد ليلة الافتتاح في نيويورك خرجنا من المسرح وأخذونا بسيارة أجرة إلى مبنى سكني في «سنترال بارك ساوث»، بجوار فندق «بلازا». شعرت أن الشقة تقع في الطابق ٩٠٠ أو شيء من هذا القبيل، وكان أحد جدرانها واجهة زجاجية، تطل على الحديقة وعلى شمال «مانهاتن». كان هناك خدم يحملون صواني فضية، ورجل أسود يعزف على البيانو مقطوعة «مع مرور الزمن». عرفت ممثلين عدة، وعلمت أنه بين الموجودين أيضاً وكلاء أعمال وصحافيين وناشرين. راحت كارول تتنقل من شخص إلى آخر معرفة عن نفسها. والتزم بايك بقعة واحدة، بعيداً عن مركز الغرفة، حيث يتلقى بغبطة وبكبرياء مديحاً لا يطلبه، ويأمل بلا شك لقاء مصففي شعر من «وسكونسن». بصفتنا بريطانيين ريفيين، وخائفين بشكل بائس من الازدراء الرأسمالي، أنا وترايسي وريتشارد حشرنا أنفسنا في زاوية وكنا متوترين. إليانور كانت تستمتع بوقتها متحدثة مع منتج أفلام شاب يضع عصبة على شعره. أدركت وأنا أنظر إليها الآن، بعد أن اقتصر كلامي إليها خلال ثلاثة أشهرعلى بضع كلمات فقط، كم أنني لا أعرفها، ولا أفهمها، ولا أحبها. كنت راغباً بها لكن لا أريدها. ما الذي جعلني أمضي كل ذلك الوقت معها؟ قررت أن أتكلم إليها بعد بضعة كؤوس.

الرجل الذي يدير المسرح، د. بوب، كان ناقداً أكاديمياً سابقاً، يحب «الفنون الإثنية». وكانت غرفته في المسرح تحتشد بالسلال البيروڤية، والقوارب المنحوتة، والطبول الإفريقية واللوحات. وعرفت

أنه يشعر أنني أحدق في الهاوية لأننا ونحن نتمرن للافتتاح قال «لا تقلق، سأضع لك بعض الموسيقى الجيدة»، كما لو أنه عرف أن هذا ما أحتاج إليه حتى لا أشعر بالغربة.

الآن كان يجلس معي ومع ترايسي على مقعدين مكشوفين إلى حدّ ما في مقدم الغرفة، وفجأة سكت جميع من ورائنا. ظنوا أنه سيكون هناك خطاباً أو إعلاناً ما. فجأة هرع ثلاثة شبان سمر إلى الغرفة، قارعين على ما يشبه عقافات خشبية على طبول يحملونها بأيديهم. ثم بدأ أحدهم، عاري الصدري ويلبس بنطالاً زهرياً زاهياً، يتمايل في أرجاء الغرفة مطوطحاً بذراعيه. ثم انضمت إليه امرأتان سوداوان، مرفرفتين بأيديهما. رجل آخر ببنطال لمّاع طار إلى الغرفة، وأربعتهم أدوا نوعاً من رقصة الزواج على بعد قدم مني ومن ترايسي. ووقف د. بوب في الزاوية صارخاً «أيوا»، و«هيا»، بينما يرقص الهايتيون. أشعرني ذلك أنني كولونيل يراقب السكان الأصليين وهم يؤدون عرضاً. في النهاية صفق الجميع بعنف وقام ود. بوب بتعريفنا إلى الراقصين.

لم أر إليانور ثانية تلك الأمسية حتى غادر معظم الضيوف وبقيت أنا وإليانور وريتشارد وكارول جالسين حول بايك في إحدى غرف النوم. كان بايك مرحاً وضحوكاً. إنه في نيويورك مع عرض ناجح ويجد نفسه محاطاً بالمعجبين. ما الذي يمكن أن يطلبه أكثر من ذلك؟ وكان سيلعب واحدة من ألعابه المفضلة. كان يمكنني اشتمام الخطر. لكن إذا ما غادرت الغرفة فسأجد نفسي بين غرباء. لذا بقيت وتقبلت الأمر، مع أنني لم أشعر بأنني مستعد له.

«الآن»، قال «إذا كان يمكنكم أن تضاجعوا شخصاً واحداً في هذه الشقة، فمن تختارون؟»، وضحكنا جميعاً ورحنا ننظر إلى بعضنا، مبررين خياراتنا، ومحاولين أن نكون جريئين، ونحن نشير إلى واحدنا الآخر ونقول «أنت، أنت». نظرة واحدة من بايك كشفت له كم كنت

معتكر المزاج تلك الليلة، فاستثناني. أومأت وابتسمت له وقلت لإليانور «هل يمكننا الذهاب إلى الخارج للتحدث قليلاً؟»، لكن بايك قال «لحظة واحدة، انتظروا قليلاً، يجب أن أقرأ شيئاً».

«تعالي»، قلت لإليانور، لكنها أمسكت ذراعي. عرفت ما الذي سيحدث. أخرج بايك دفتر ملحوظاته الآن، وبدأ يقرأ التنبؤات التي دونها حين بدأنا بالتمارين، في تلك الغرفة على النهر حيث كنا صادقين من أجل المجموعة. يا إلهي، كنت سكراناً، ولم أستطع أن أفهم لماذا الجميع مهتم ببايك: كان كما لو أنه يقرأ مراجعات نقدية، ليس حول المسرحية، بل حول شخصياتنا، وثيابنا، ومعتقداتنا. على أي حال، قرأ أشياء عن ترايسي وكارول، لكنني استلقيت على ظهري على الأرض ولم أصغ؛ لم يكن الأمر مثيراً للاهتمام على أي حال «الآن كريم»، قال «سيصدمك هذا».

«كيف تعرف؟».

«أعرف».

بدأ يقرأ ما كتبه عني. وراح الآخرون ينظرون إلي ويقهقون. لماذا يكرهونني إلى هذا الحدّ؟ ما الذي فعلته لهم؟ لماذا لست أكثر صلابة؟ لماذا أنا حساس إلى هذا الحدّ؟

«كريم من الواضح يبحث عمن يضاجعه. فتاة أو فتى: لا مانع لديه، ولا بأس بهذا. لكنه يفضل فتاة لأنها سترعاه. بالتالي فإنه يفحص جميع الإناث في المجموعة: ترايسي حادة أكثر من اللازم عليه، ومتطلبة كثيراً؛ كارول طموحة جداً؛ ولويز ليست من نوعه المفضل جسدياً. سيختار إليانور. يظن أنها ستكون لذيذة، لكنها ليست منجذبة جداً إليه. على أي حال، لا تزال مضطربة بشأن جين، وتشعر بأنها مسؤولة عن موته. سأكلمها. وأقنعها بأن تعتني بكريم، وربما أجعلها تدعمه، تمنحه بعض الثقة. ستضاجعه إليانور، وسيكون ذلك بدافع الشفقة أساساً، لكنه سيغرم بقوة بها وستكون ألطف من أن تخبره بحقيقة الأمر. سينتهي الأمر بالدموع».

ذهبت إلى الغرفة الأخرى. تمنيت لو أنني في لندن؛ فقط أردت أن أكون بعيداً عن كل هؤلاء الناس. اتصل بتشارلي، الذي كان يعيش في نيويورك، لكنه لم يكن موجوداً. كنت كلمته بضعة مرات عبر الهاتف لكنني لم أره بعد. ثم أحاطتني إليانور بذراعيها واحتضنتني. ظللت أقول «لنذهب، لنذهب إلى مكان ما، يمكننا أن نكون معاً». كانت تنظر إلي بشفقة وتقول لا، لا، كان عليها أن تقول الحقيقة، أنها ستمضي الليلة مع بايك، أرادت أن تعرفه بأكبر قدر ممكن من العمق. «لن يستغرق هذا الليل بطوله»، قلت. رأيت بايك يخرج من الحمام محاطاً بالآخرين، وذهبت لأضربه. لكن لم أحظ بوضعية مناسبة للكمه. تشابكت الأمور؛ وجدت نفسي قد انطرحت نفسي، محاطاً بالأذرع والأرجل. ولم أعرف من تخص. كنت مسعوراً، ورحت ألبط وأخرمش وأصرخ. أردت أن أقذف كرسياً عبر الواجهة الزجاجية، وأردت أن أكون في الشارع لكي أرى الكرسي وهو يخترق الواجهة بالحركة البطيئة. ثم شعرت كأنني داخل ما يشبه الصندوق، ورحت أحدق مشلولاً بالخشب اللماع فوقي. كنت شبه ميت. ثم والحمد لله سمعت صوتاً أميركياً يقول «هؤلاء الإنكليز حيوانات. كل حضارتهم قد تداعت».

سيارات الأجرة في نيويرك فيها نافذة زجاجية مضادة للرصاص لكي تمنعك من قتل السائق. الحمد لله أن تشارلي كان معي. كان يلفني بذراعيه ليحول دون وقوعي إلى أرض السيارة. رفض أن يتوقف عند حانة للعراة. ورأيت الهاييتيين يمشون في الشارع. فتحت النافذة وأمرت السائق أن يبطئ ورحت أصرخ بهم «هاي أيها الشباب، إلى أين أنتم ذاهبون؟».

«كف عن هذا يا كريم»، قال تشارلي بلطف.

«هيا يا شباب»، صرخت «لنذهب إلى مكان ما! لنستمتع بأميركا!».

قال تشارلي للسائق أن يمضي قدماً. لكنه على الأقل كان مرحاً ومسروراً لرؤيتي، حتى وإن، حين ترجلنا من السيارة، أردت أن أستلقي على الرصيف وأنام هناك».

شاهد تشارلي العرض تلك الليلة، لكن بعد المسرحية ذهب إلى العشاء مع منتج موسيقي وجاء إلى الحفلة متأخراً، ليجدني فاقد الوعي تحت البيانو محاطاً بممثلين غاضبين، وليصحبني إلى البيت. أخبرتني ترايسي لاحقاً أنها كانت تفك قميصي حين رفعت رأسها ورأت تشارلي يتقدم نحوها، كان وسيماً جداً، قالت، إلى درجة جعلتها تنفجر بالبكاء.

استيقظت تحت شرشف في غرفة جميلة مضاءة، ليست كبيرة، لكن فيها كنب، والكثير من مقاعد قديمة، ومدفئة مشتعلة، ومطبخ وراء الجدران الاصطناعية الفاصلة. على الجدران علقت ملصقات لمعارض فنية. وكان هناك كتب: كان مكاناً راقياً، ليس المكان الذي يعيش فيه عادة نجم موسيقى روك. لكن أنا لم أكن أستطيع أن أعتبر تشارلي نجم روك. لم يبد هذا جوهره، بل شخصية مستعارة مؤقتة له.

تقيأت أربع مرات قبل أن أصعد إلى غرفة تشارلي مع القهوة، والمربى بالتوست. كان وحده في السرير. وحين أيقظته لم يزجرني. بل جلس مبتسماً وقبلني، وقال أشياء كثيرة لم أكن قادراً أن أصدق أنها تخرج من فمه.

«أهلاً بك في نيويورك. أعرف أنك تشعر كالخراء، لكننا سنستمتع بوقتنا على نحو لم تعرفه من قبل. يا لها من مدينة عظيمة! فكر فحسب أننا عشنا في المكان الخطأ طوال السنوات السابقة. الآن قم إلى هناك وضع أسطوانة لايتنينغ هوبكنز. ولننطلق!».

أمضيت وتشارلي اليوم في «ڤيلج»، وتناولنا «الملك شايك» مع الآيس كريم الإيطالي. عرفته فتاة وجاءت ووضعت على الطاولة ورقة كتبت فيها: «شكراًلأنك منحت العالم عبقريتك»، مدونة رقم هاتفها في ذيل الورقة. تشارلي أومأ لها عبر المقهى. كنت قد نسيت كم من المهيب المشي معه. الناس يعرفونه أينما كان، سوى أن شعره كان مغطى بقبعة صوف سوداء ويلبس أوفرول قطنياً أزرق وينتعل جزمة.

لم تكن لدي فكرة أنه شهير إلى هذا الحدّ في أميركا. تدخل في منعطف، فترى وجهه منقوشاً على جدار في موقع بناء، أو على لوحة إعلانات مضيئة. كان تشارلي يحيي مع فرقته الجديدة حفلات في الحلبات والملاعب الرياضية. وأراني أشرطة الڤيديو، لكنه رفض البقاء في الغرفة ومشاهدتها معي. وفهمت السبب. كان يلبس على المسرح جلداً أسود، وأزراراً فضية، وسلاسل و«تشوكرز»، وعند نهاية العرض أصبح عاري الصدر، نحيلاً وشاحباً مثل جاغر، وراح ينطنط بهيئته العنكبوتية مثل لاعب كرة سلة قدير، متنقلاً بين المنصات، الواسعة كحاملات الطائرات. كان ينال إعجاب ذوي الدخل الجيد، اللواطيين والشباب، وطبعاً الفتيات، وكان لا يزال ألبومه «اقتل من أجل دادا»، على لوائح المبيعات، بعد أشهر من إصداره.

لكن إحساس تشارلي بالتهديد زال. وصار يعتبر الشراسة سخفاً، وموسيقاه، التي ليس فيها بحدّ ذاتها ما يميزها، لم تعد عدائية، بعد انتقالها من إنكلترا بعاطليها عن العمل، وإضراباتها ونزاعاتها، إلى أميركا. ما أثار إعجابي هو أن تشارلي كان يدرك هذا. «الموسيقى ضعيفة، حسناً؟ لست بووي، لا تحسب أنني لا أعرف ذلك. لكن لدي أفكار. وأستطيع تطوير نفسي في المستقبل يا كريم. هذا البلد يمدّني بالكثير من التفاؤل. الناس هنا يؤمنون بأنك تستطيع إنجاز أشياء. ولا يثبطون عزيمتك طوال الوقت، كما في إنكلترا».

كان يعيش في شقة مستأجرة، مكونة من ثلاث طبقات في «براونستون» في «إيست تنث ستريت»، بينما يحضر أغنيات ألبومه المقبل ويتعلم العزف على البوق. في الصباح، بعد أن جلت في البيت ولاحظت وجود غرفة فارغة منفصلة أعلى المنزل، ارتديت معطفي واستعددت للذهاب إلى المسرح سيراً على الأقدام، وكنت حزيناً لتركي تشارلي، فقد كان كريماً جداً وبدا سعيداً برفقتي. قلت له: «تشارلي أنا

والفرقة كلها، نعيش في شقة كبيرة، ولا أستطيع أن أحتمل رؤية إليانور كل يوم، إن ذلك يفطر قلبي».

ولم يتردد «سيسعدني أن أستضيفك في بيتي، انتقل الليلة».

«عظيم، شكراً يا رجل».

مشيت في الشارع ضاحكاً، مغتبطاً بفكرة أنه هنا في أميركا يستعمل تشارلي تلك اللكنة اللندنية الخاصة، في حين أن أولى ذكرياتي عنه في المدرسة أنه كان يبكي بعد أن يسخر منه أحد الغجر المقرفين لكونه ناعماً إلى هذا الحدّ. بالتأكيد لم أسمع أحداً يحكي هكذا من قبل. الآن بات يجيد «السلانغ» أيضاً. وكان يبيع اللكنة الإنكليزية ويجني المال الكثير من ذلك.

بعد بضعة أيام انتقلت للعيش معه. خلال معظم النهار يكون في البيت، مجرياً المقابلات الصحافية مع بشر من كافة أنحاء العالم. وأحياناً يكون هناك شابات كاليفورنيات ممددات في المكان مستمعات إلى نيك لوي، وأيان ديوري وخصوصاً إلڤيس كوستيلو. وكنت أكلمهن فقط حين يكلمنني، إذ أرعبتني تركيبتهن التي تجمع بين الجمال والخبرة، والصلابة والغباء.

لكن كان هناك ثلاث أو أربع نيويوركيات ذكيات، ناشرات، ناقدات سينمائيات، بروفيسورات في كولومبيا، صوفيات يقمن يرقصن رقصة التنورة وما إلى ذلك، كان يصغي إليهن لساعات قبل أن يضاجعهن، ناهضاً لاحقاً ليدون ملاحظات عاجلة حول محادثاته معهن، ويروح يكررها أمام أناس آخرين خلال الأيام التالية. «إنهن يعلمنني يا رجل»، قال عن تلك النسوة المسطولات، اللواتي يناقش معهن شؤون السياسة الدولية، وأدب أميركا الجنوبية، والرقص، وقدرة الكحول على توليد المشاعر الصوفية. في نيويورك لم يكن خجلاً بجهله؛ أراد أن يتعلم؛ أراد الكفّ عن الكذب والخداع.

بينما جلت في الشقة سمعته يتعلم عن المعماري لو كوربوزييه، وأدركت أن الشهرة والنجاح والثروة كانت تناسبه حقاً. الآن وقد تطور، لم يعد ينظر إلى أعلى ويحسد الآخرين. صار بوسعه أن يضع الطموح جانباً ويصير بشرياً. كان سيمثل في فيلم ثم في مسرحية. كان يلتقي أناساً مهمين، ويسافر ليتعلم. الحياة كانت رائعة بالنسبة إليه.

«دعني أقول لك شيئاً يا كريم»، قال خلال الإفطار، حين كنا نتحدث، وكانت صاحبته لا تزال في السرير. «ذات يوم أغرمت للمرة الأولى. وعرفت أنه هذا هو الحب الكبير. كنت أقيم في منزل في سانتا مونيكا بعد القيام ببعض الحفلات في لوس أنجليس وسان فرانسيسكو» (أي أسماء سحرية هذه كانت بالنسبة إلي) «كان المنزل فيه خمس شرفات على هضبة خضراء شديدة الانحدار. كنت أسبح في حوض، نظفه خادم من كل أوراق الشجر، وكنت أجفف نفسي وأتحدث مع إيڤا عبر الهاتف في وست كنزنغتون. حين تقدمت مني صاحبة البيت وهي زوجة ممثل معروف وأعطتني مفاتيح دراجتها النارية من نوع «هارلي». وعرفت عندها أنني أحب المال. المال وكل ما يستطيع شراءه. لم أرد أن أكون بلا مال ثانية، لأن المال يستطيع أن يشتري لي حياة كهذه كل يوم».

«الوقت والمال هما الأروع يا تشارلي. لكن ما لم تكن حذراً فسوف يولّدان الغرابة، والانغماس في الذات، والجشع. المال يمكنه أن يقطع الخيط بينك وبين العيش العادي. ها أنت، تنظر إلى العالم من أعلى، ظاناً أنك تفهمه، وأنك مثل الآخرين، في حين لا تكون لديك فكرة على الإطلاق عما يجري. لأنه في صلب حياة الناس هناك القلق على المال وتدبير مشكلات العمل».

«إنني أستمتع بهذه النقاشات»، قال «تجعلني أفكر. الحمد لله، لست منغمساً في ذاتي».

كان تشارلي رشيق القوام. كل يوم عند الحادية عشرة تقله سيارة أجرة إلى «سنترال بارك»، حيث يهرول لساعة، ثم يتمرن في صالة الجيمنازيوم لساعة أخرى. ولأيام يتناول أطعمة غريبة مثل «التوفو» وحبوب القطاني والباقلاء، وأضطر إلى إخفاء الهمبرغر في الثلاجة لأنه كما قال «لن أسمح بوجود الحيوان في هذا البيت». ومساء كل خميس كان يمرّ تاجر المخدرات. وكان هذا عنصراً إضافياً من عناصر الرقي الذي لاح له في «سانتا مونيكا»، لاسيما الطريقة التي كان يأتي بها طالب السينما السابق في جامعة نيويورك حاملاً صندوق الباندورا الخاص به، واضعاً إياه على كاتالوغ «موما» الخاص بتشارلي. ثم يروح هذا الأخير يتذوق مختلف الأصناف، طالباً كمية من هذه الحشيشية، وكمية من ذاك الكوكايين، وبعض «السماك»، وبعض الحبوب المنشطة، والحبوب المهدئة.

استمرّ عرض المسرحية في نيويورك شهراً واحداً فقط، لأن إليانور كانت مضطرة إلى البدء بتصوير دور صغير في فيلم ضخم تمكنت من الحصول عليه. ولم تكن المسرحية مربحة مالياً حتى نأتي بممثلة أخرى تقوم بدور إليانور؛ وعلى أي حال بايك كان سافر إلى سان فرانسيسكو ليبدأ بالتدريس هناك.

حين عاد الآخرون إلى لندن مزقت تذكرتي وبقيت في نيويورك. لم يكن هناك ما أفعله في لندن، وسيرى أبي في ذلك دليلاً على أنني يجب أن أصبح طبيباً، أو أن أزور واحداً على الأقل. في نيويورك كان يمكنني عيش بطالتي الكاملة دون أي عائق.

أحببت الطواف في المدينة، وارتياد المطاعم مع تشارلي، والقيام بمشترياته (اشتريت له سيارات وعقارات)، وصرت أردّ على مكالماته الهاتفية، وأجالس موسيقيين بريطانيين مارين بالمدينة. كنا ولدان إنكليزيان في أميركا، الأرض التي جاءت منها الموسيقى، ونعيش في

الشارع نفسه الذي يعيش فيه مع ميك جاغر، وجون لينون ودوني روتن. كان هذا بمثابة حلم قد تحقق.

بالقدر نفسه كان إحباطي وكرهي لذاتي، ورغبتي بتمزيق جلدي بزجاج القناني المهشمة، وبلادتي وبكائي، وعجزي عن النهوض من السرير لأيام، وإحساسي بأن العالم يتحرك للارتطام بي. لكنني عرفت أنني لن أصاب بالجنون، حتى وإن كنت أشتهي ما في الجنون من تفلت وتحرر انعتاق. كنت أنتظر أن تُشفى نفسي.

بدأت أتساءل عن مصدر صلابتي، وسبب تماسكي. أحسب أنني ورثت عن أبي غريزة قوية للبقاء. كان أبي يشعر دائماً بالتفوق على البريطانيين: كان هذا ميراث طفولته الهندية ـ حيث الغضب السياسي يتحول إلى ازدراء واحتقار. بالنسبة إليه في الهند البريطانيون كانوا سخفاء، متشنجين، محدودي القدرات، وغير واثقين من أنفسهم. وجعلني أشعر أنه لا يمكننا السماح لأنفسنا بالفشل أمامهم. لا يمكنك أن تسمح للاستعماريين السابقين برؤيتك جاثياً على ركبتيك، لأنه هذا هو الوضع الذي يتوقعون أن يروك فيه. كانوا قد أنهكوا الآن؛ امبراطوريتهم زالت؛ انتهى يومهم وجاء يومنا. لم أرد أن يراني أبي هكذا، لأنه لن يكون قادراً على فهم لماذا أخفقت حيث واتتني الظروف مواتية، وسنحت لي الفرصة للتقدم.

كان تشارلي يمنحني المال حين أحتاج إليه، ويشجعني على البقاء في نيويورك. لكن بعد ستة أشهر قلت له إنه آن أوان الرحيل. خشيت أن أكون قد تحولت إلى عبء ومصدر إزعاج بالنسبة إليه، مع أنه لم يتذمر أبداً. لكنه الآن صار لجوجاً ويتصرف بحس أبوي. «كريم، ابق معي هنا حيث تنتمي. هناك الكثير من الأوغاد في الخارج. لديك كل ما تحتاج إليه، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد».

«ما مشكلتك إذاً؟».

«لا شيء... إنني فقط...».

«حسناً لنقم بشراء بعض الثياب حسناً؟».

لم يردني أن أرحل. وكان مخيفاً اعتمادنا المتزايد على بعضنا. وشعرت أنه أحب وجودي هناك كشاهد على نجاحه. مع أناس آخرين كان مضبوطاً، وغامضاً، وموجزاً؛ كان لديه سمات نجوم المجلات، ويلبس الجينز جيداً. لكنه كان يحب أن يخبرني كل شيء بالطريقة القديمة كما في أيام المدرسة. معي يمكنه أن يعبر عن ذهوله بالأشخاص الذين يلتقيهم، والأمكنة التي يدعى إليها، والهدايا التي تغدق عليه. كنت أنا، كريم، من يراه في سيارة الليموزين؛ وفي صالة الشاي الروسي مع نجوم السينما، ومشاهير الكتاب، والمنتجين السينمائيين. كنت أنا من يراه في الطابق الأعلى بصحبة النساء، ويناقش المثقفين، ويتم تصويره للنسخة الإيطالية من «ڤوغ». وأنا الوحيد الذي يمكنه أن يقدّر كم أصبح بعيداً عن وضعن السابق في «بكنهام». كان الأمر كما لو أنه، لولا وجودي لأحتفل معه بهذا كله، فإن نجاحاته تظل قليلة المعنى. بكلمات أخرى، كنت بمثابة مرآة بالحجم الكامل، لكن مرآة قادرة على التذكّر.

لكن الانطباع الأول الذي تكوّن لدي بأن تشارلي قد تحرر بفعل النجاح فقد كان خاطئاً أيضاً: كان يعتمل في داخله الكثير مما أكن قادراً على رؤيته، لأنني لم أرد ذلك. كان يحب الاستشهاد بقصيدة ميلتون «آه العتمة العتمة»؛ وتشارلي كان معتماً، وبائساً، وغاضباً. وسرعان ما أدركت أن الشهرة والنجاح في بريطانيا وأميركا، تعنيان أمرين مختلفين. ففي بريطانيا من المبتذل أن تستعرض نفسك، أما في أميركا فإن الشهرة قيمة مطلقة، أسمى من المال. أقارب المشاهير يصبحون مشهورين، بلى، إنه أمر وراثي: أطفال المشاهير يصبحون نجوماً صغاراً كذلك.

والشهرة تكسبك أشياء لا يمكنك حيازتها بمجرد المال. وتشارلي استحق الشهرة منذ اللحظة التي ألصق فيها وجه بريان جونز على جدار غرفته. لكن حين وصل إليها، اكتشف أنه لا يستطيع أن يلجمها، حين يسأم منها. كان يجلس معي في المطعم صامتاً لساعة، ثم يصرخ «لماذا يحدق بي الناس وأنا أحاول تناول طعامي؟ تلك المرأة التي تملأ وجهها بالمساحيق، لمَ لا تحلّ عني!». كان الطلب عليه مستمراً. فقد ضمن «السمكة» بقاءه في عين العامة، عبر إظهاره في برامج حوارية وفي افتتاحات معارض الرسم حيث عليه أن يكون مرحاً وأيقونياً. ذات ليلة وصلت متأخراً إلى حفلة ووجدته يستند إلى البار ويبدو كئيباً وقد طفح به الكيل، بعد أن طلبت منه المضيفة أن يتصور معها. لم يكن تشارلي قد بدأ بالتصالح مع هذا كله: لم يتح له الوقت الكافي.

حصل أمران جعلاني أقرر أخيراً العودة إلى إنكلترا، والخروج من حياة تشارلي. ذات يوم حين كنا عائدين من الاستوديو، تقدم رجل منا في الشارع: «أنا صحافي»، بادرنا بلهجة إنكليزية. كان في نحو الأربعين، بلا شعر أو خدين أو أنفاس تذكر. كانت أنفاسه تفوح كحولاً وبدا بائساً. «أنت تعرفني، توني بل». كنت أعمل مع صحيفة «ميرور» في لندن. أريد إجراء مقابلة معك. لنحدّد موعداً. إنني جيد مثلما تعرف. ويمكنني حتى أن أقول الحقيقة».

وقف تشارلي على مسافة منه. كان الصحافي مدمراً وبلا أي خفر. تبعنا ونحن نمشي.

«لن أدعك وشأنك»، قال لاهثاً، «إنهم الأشخاص مثلي الذين يشهرونك. حتى أنني قابلت أمك اللعينة».

وأمسك بذراع تشارلي. وكانت تلك الخطوة القاتلة. انقض تشارلي عليه، لكن الرجل ظل متماسكاً. ثم لكمه على وجهه. ووقع الرجل، دائخاً، على ركبتيه، ملوحاً بيديه مثل شخص يطلب السماح. تشارلي

لم يستنفد غضبه. فركل الرجل على صدره، وحين وقع جنباً وأمسك برجل تشارلي، داس الأخير على يده. كان الرجل يقيم في الجوار. وصرت مضطراً إلى رؤيته مرة في أسبوع على الأقل حاملاً البقالة بيده الأخرى السليمة.

السبب الآخر لرغبتي بمغادرة نيويورك كان جنسياً. تشارلي كان يحب التجريب. منذ كنا في المدرسة، حيث كنا نناقش أي من السيدات الحائضات نود أن نضاجعها شفاهياً (ولا واحدة منهن كانت تحت الستين)، كنا نريد مضاجعة النساء، أكبر عدد ممكن منهن. وكأشخاص نشأوا في زمن الندرة والتقشف، ولا واحد منا نسي حرمانه الجنسي، أو مدى صعوبة الحصول على الجنس سابقاً. لذا كنا نحكم قبضتنا على النسوة اللواتي يتوافرن لنا.

ذات صباح ونحن نتناول «البغلز» و«الغرانولا» وعصير البرتقال بالثلج في مقهى قريب، ونتحدث عن مدرستنا البائسة كما لو كانت جامعة «إتون»، قال تشارلي أنه هناك أمور جنسية يفكر بها، ويرغب بتجربتها. «سأذهب إلى التجربة القصوى»، قال «ربما تكون مهتماً بمشاهدتها أيضاً، إيه؟».

«إذا شئت».

«إذا شئت؟ إنني أعرض عليك شيئاً مهماً وتقول لي إذا شئت. كنت تتحمس على كل شيء في السابق»، وحدجني بإدانة «مؤخرتك الصغيرة السمراء كانت تضغ بسعادة لساعات في أي حفرة نتنة، ناهيك عن الفطريات و. . .».

«ما زلت أتحمس لكل شيء».

«أجل، لكنك تبدو مزرياً».

«لا أعرف ما الذي أفعله»، قلت.

«اسمع»، مال نحوي وخبط على الطاولة «فقط بدفع أنفسنا إلى

الحدود القصوى يمكننا أن نعرف ذواتنا. وأنا ماض إلى هناك، إلى الحافة. أنظر إلى كرواك وكل أولئك الشباب».

«أجل، إنني أراهم، ماذا إذاً يا تشارلي؟».

«على أي حال»، قال «إنني أتكلم، دعني أنهي كلامي. سنذهب حتى النهاية الليلة».

إذاً تلك الليلة عند الحادية عشرة جاءت امرأة تدعى فرانكي. ونزلت لاستقبالها بينما يشغّل تشارلي الألبوم الأول لـ «ڤلڤت أندرغراوند» - استغرقنا نصف ساعة لنقرر موسيقى الأمسية. كان شعر فرانكي قصيراً جداً، ووجهها أبيض هزيلاً، وأسنانها سيئة، وكانت صغيرة، في بداية العشرينات، وتحكي بصوت جميل ناعم وتضحك فجأة. كانت تلبس قميصاً وبنطالاً أسودين. حين سألتها «ماذا تعملين؟»، بدوت مثل أحد المغفلين في أمسيات إيڤا في «بكنهام» قبل زمن طويل. اكتشفت أن فرانكي راقصة، ومؤدية، ولاعبة تشيلو كهربائي. في لحظة ما قالت «التقييد يثير اهتمامي. الألم بوصفه لعبة. هناك حب إنساني عميق للألم. هناك رغبة بالألم، أليس كذلك؟».

من الواضح أن هذا ما سنكتشفه. نظرت إلى تشارلي، محاولاً أن أثير بعض المرح المشترك حول الأمر، لكنه مال إلى الأمام وأومأ برأسه لها بكل جدية. ثم نهضنا معاً، وتأبطت فرانكي ذراعينا. «ربما تحبان أنتما الإثنان أن تجربا معاً، إيه؟».

نظرت إلى تشارلي متذكراً تلك الليلة في «بكنهام»، التي حاولت ملامسته فيها، ورفض أن يعترف بذلك، كما لو أنه يمكنه أن ينأى بنفسه عن الفعل، وممارسته في آن معاً. ورأى أبي بعضاً من هذا. كانت تلك الليلة أيضاً التي رأيت فيها أبي يضاجع إيڤا، وحيث تعرفت إلى الخيانة الجدية، والكذب، والخداع، والمشي وراء أهواء القلب. كان وجه تشارلي مفتوحاً، دافئاً؛ ولم يكن فيه رفض، فقط الحماسة. وانتظر ردي. لم أحسب في حياتي أنه سيرمقني بمثل تلك النظرات.

صعدنا إلى أعلى، حيث كان تشارلي قد هيأ الغرفة. كانت معتمة، مضاءة فقط بشمعتين على طرفي السرير، وثلاثة على رف الكتب. لسبب ما كانت الموسيقى غريغورية. وكنا ناقشنا الامر لساعات، وقال لي إنه لا يريد الإصغاء إلى أي شيء أثناء تعرضه للتعذيب. ثم نزع ثيابه. كان أنحف من السابق، ومشدود البدن والعضلات. فرانكي أرجعت رأسها إلى الخلف وقبلها تشارلي. وبقيت واقفاً هناك، ثم تنحنحت. «هل أنتما واثقان من أنكما تريدانني أن أبقى هنا؟».

«لـمَ لا؟»، قالت فرانكي، ناظرة إلي من فوق كتفيها «ما الذي تعنيه؟».

«هل أنتما واثقان من أنكما تريدان متفرجاً على هذا الشيء؟».

«إنه مجرد جنس»، قالت «لن أجري له عملية جراحية».

«آه أجل، حسناً، لكن. . .».

«اجلس يا كريم بحق الله»، قال تشارلي «كف عن النقّ. لست في بكنهام الآن».

«أعرف ذلك».

«حسناً إذاً أيمكنك الكف عن الوقوف هناك على هذا النحو، وتبدو إنكليزياً إلى هذا الحدّ؟.

«ما الذي تعنيه بإنكليزي؟».

«أن تبدو مثلهم مصدوماً، وصوابياً وأخلاقياً، وبلا قدرة على الحب، أو الرقص. إنهم ضيقو الأفق، الإنكليز. إنهم يشكلون مملكة من الأحكام المسبقة. لا تكن مثلهم!».

«إنه متوتر جداً»، قالت فرانكي.

«سأسترخي إذاً»، قلتُ «لا تكترثا لأمري».

«لن نكترث»، قال تشارلي ببرم.

جلست على مقعد تحت ستارة النافذة، في أعتم ركن في الغرفة، أملاً بأن ينسيا حضوري. تعرّت فرانكي كاشفة عن الأوشام على جسمها وتعانقت وتشارلي بطريقة تقليدية. كانت شديدة النحافة، وبدا الأمر أشبه بمضاجعة مظلة. لكنني احتسيت كوكتيل «بينا كولادا»، ورحت أفكّر كم أنه، على الرغم من غرابة وضعي، من النادر مشاهدة شخصين يمارسان الجنس. وكم يمكن أن يكون ذلك تعليمياً! وأي معرفة عملية يمكن تحصيلها حول أشكال العناقات والوضعيات الجنسية! يمكن أن أوصي بهذا لأي كان.

أخرجت فرانكي من حقيبتها أربعة رباطات جلدية، أوثقت بها معصمي تشارلي وكاحليه. ثم أوثقته بحبل إلى السرير الكبير، قبل أن تسدّ فمه بمنديل أسود. ثم بحثت في حقيبتها وأخرجت منها ما يشبه خفاشاً ميتاً. كان قناعاً جلدياً في مقدمه سحاب. وضعته على وجه تشارلي، وجاثية على ركبتيها، عقدته من الخلف، زامة شفتيها من شدة التركيز، كما لو أنها تخيط زراً. والآن لم يعد تشارلي موجوداً: أصبح جسداً له كيس على رأسه، نصف ملامحه الآدمية قد اختفى. بات جاهزاً للإعدام.

راحت فرانكي تقبّله وتلحوسه وتمصه مثل عشيقة وهي جالسة عليه. وبدا واضحاً أنه بدأ يسترخي. ثم حملت شمعة، وأمالتها فوق صدره، حتى سال الشمع عليه. نطّ ألماً من هذا، بطريقة مفاجئة جداً، بحيث أنني ضحكت بصوت عال. ربما يعلمه هذا ألا يدوس على أيدي الناس. ثم أسالت الشمع على كل جسمه، معدته، وفخذيه، ورجليه، وقضيبه. لو كنت مكانه لكنت اخترقت السقف من شدة الألم. ومن الواضح أن تشارلي كان راغباً بذلك، فقد راح يخضّ السرير، من دون أن يمنع ذلك فرانكي من الاستمرار بسكب نقاط الشمع الحارة على خصيتيه. كان تشارلي قال لي عصر ذاك اليوم «علينا أن نتأكد من أنني

موثق جيداً. لا أريد أن أهرب. ما الذي قاله رامبو؟ إنني أحطّ من شأن نفسي قدر الإمكان. إنها مسألة الوصول إلى المجهول عبر تخريب كل حواسك». أولئك الشعراء الفرنسيون يتحملون مسؤولية أمور كثيرة. إنني ماض حتى النهاية».

وطوال الوقت، خلال رحلته إلى المجهول، كانت فرانكي تتحرك فوقه، هامسة كلمات تشجيعية: «أمم.... هذا لذيذ. هاي. أنت تحب هذا، إيه؟ كن إيجابياً، كن إيجابياً، ماذا عن هذه الحركة؟ هذه شهية! وماذا عن هذه، هذه كثيفة حقاً، تشارلي، أعرف أنك تصل إليه، إيه؟»، قالت وهي تحول قضيبه إلى هوت دوغ. يا إلهي، فكرت، ما الذي يمكن أن تقوله إيڤا لو رأتنا الآن؟

تأملاتي هذه قطعها ما استطعت، دون تشارلي، أن أراه. أخرجت فرانكي ملقطين خشبيين، وبينما كانت تعضّ إحدى حلمتيه وضعت على الأخرى ملقطاً، ولاحظت ضخامة الزنبرك الذي فيه. ثم أتبعت ذلك بملقط على الحلمة الأخرى. «استرخ، استرخ»، راحت تخاطبه، ببعض الإلحاح، كما لو أنها خشيت من أنها قد بالغت في الأمر. تقوّس ظهر تشارلي، وبدا أن الألم يتفجّر من أذنيه. لكن حين كلمته استرخى ببطء واستسلم للألم، الذي كان، في نهاية الأمر، ما أراده. فتركته فرانكي عندها، وابتعدت بضع دقائق لكي تدعه يتصالح مع الرغبة والألم الذي فرضه على نفسه. وحين عادت كنت أتأمل أفكاري نفسها. وكان في تلك اللحظة، وهي تطفئ شمعة، وتزيتها وتحشوها في مؤخرته، حين أدركت أنني لم أعد أحب تشارلي. ولم أعد أكترث بأمره. لم يعد يثير اهتمامي على الإطلاق. لقد تجاوزته، مكتشفاً نفسي عبر ما رفضته. صرت أراه شخصاً غبياً لا أكثر.

نهضت. وفوجئت حين رأيت أن تشارلي ليس فحسب لا يزال على قيد الحياة، لكنه لا يزال متماسكاً. تثبت من ذلك حين انتقلت إلى

جانب السرير، حيث جلست، وكانت فرانكي جالسة فوقه تضاجعه، مشيرة عليّ بضرورة أن أنزع الملقطين عن حلمتيه وهو يقذف. سعدت بتقديم المساعدة.

كانت أمسية ممتازة، ولم تتعكر إلا حين أضاعت فرانكي إحدى عدستيها اللاصقتين. «يا إلهي اللعنة»، قالت «إنها عدستي الوحيدة». ورحنا ثلاثتنا نبحث عنها على أطرافنا الأربعة لنصف ساعة. «سنضطر إلى نزع الألواح»، قالت فرانكي أخيراً، «هل من رنش في المكان؟».

«يمكنك استعمال قضيبي»، أجابها تشارلي.

ثم ناولها أجرتها وصرفها.

بعد ذلك قررت العودة إلى لندن. وكيلة أعمالي اتصلت بي وقالت إنه ثمة تجربة أداء مهمة ينبغي أن أقوم بها. وأخبرتني إنها أهم تجربة أداء في حياتي المهنية، وكان هذا سبباً لي لكي لا أذهب. لكنها كانت أيضاً الفرصة الوحيدة التي حصلت عليها حتى الآن، لذا فكرت أنه عليّ أن أكافئ مديرة أعمالي لحصولها عليها والذهاب.

كنت أعرف أن تشارلي غير راغب برحيلي، ولزمني يومين قبل أن أستجمع الشجاعة وأفاتحه الموضوع. وحين أخبرته ضحك، كما لو أنني أبطن دافعاً خفياً، وأنني في الحقيقة أريد منه المال أو شيئاً ما. فطلب مني بشكل مباشر أن أعمل لديه بدوام كامل «كنت أنوي أن أطلب منك ذلك منك منذ فترة»، قال «سنمزج المتعة بالعمل. سأتحدث إلى السمكة حول راتبك. وسيكون راتباً ضخماً، ستصبح قطة بنية سمينة، موافق أيها الصغير؟».

«لا أعتقد ذلك أيها الكبير. إنني عائد إلى لندن».

«ما الذي تتحدث عنه؟ تعود إلى لندن، لكنني سأذهب في جولة عالمية، لوس أنجليس، سيدني، تورنتو. وأريدك معي».

«يجب أن أبحث عن عمل في لندن».

صار غاضباً. «من الغباء أن ترحل في الوقت الذي بدأت فيه الأشياء تحدث هنا. أنت صديق حميم لي. ومساعد جيد. إنك تنجز الأعمال».

«رجاء أعطني المال لأسافر. أطلب منك مساعدتي، وهذا ما أريد فعله».

«ما الذي تريده، ها؟».

راح يمشي متوتراً في الغرفة ويخاطبني مثل بروفيسور يقدم محاضرة لتلاميذ يلتقيهم للمرة الأولى.

«إنكلترا متفسخة. لا أحد فيها يؤمن بأي شيء. هنا يوجد المال والنجاح. والناس لديهم الدافع للنجاح. إنكلترا مكان جميل إذا كنت ثرياً، وإلا فهي مستنقع لعين من الأحكام المسبقة، والصراع الطبقي. لا شيء ينجح هناك. ولا أحد ينجح...».

«تشارلي...».

«لهذا السبب بالتأكيد لن أدعك ترحل، إذا كنت تستطيع النجاح هنا، فلماذا تذهب إلى مكان آخر؟ ما الجدوى؟ يمكنك الحصول على كل ما تريده في أميركا. وما الذي تريده؟ قل لي ما الذي تريده!».

«تشارلي إنني أطلب منك...».

«أستطيع أن أسمعك تطلب مني يا رجل! أستطيع أن أسمعك ترجوني! لكن عليّ أن أنقذك».

انتهى النقاش. جلس ولم يقل شيئاً بعدها. في اليوم التالي، حين اعتصمت بالصمت، تكلم تشارلي فجأة، «حسناً، حسناً، إذا كان ذلك يعني لك الكثير، فسأشتري لك تذكرة عودة إلى لندن، لكن عليك أن تعدني بالعودة».

وعدته. أومأ برأسه: «لن تحب الحياة هناك، أقول لك منذ الآن».

الفصل الثامن عشر

إذاً، بمال تشارلي، وغرام من الكوكايين كهدية وداع، وطنين إنذاره في رأسي، عدت إلى لندن. وكنت سعيداً بذلك: اشتقت إلى والدي وإلى إيفا. مع أنني كنت أتحدث إليهما عبر الهاتف، لكنني أردت رؤية وجهيهما مجدداً. اشتقت إلى الجدال مع أبي. وكانت إيفا قد ألمحت لي أن هناك أحداثاً مهمة تجري. «ما هي؟»، ألححت في سؤالها. «لا أستطيع أن أخبرك ما لم تكن هنا». لم يكن لدي فكرة عما تتحدث.

خلال رحلة العودة ألمّ بي ألم أسنان رهيب، وفي يومي الأول في إنكلترا ضربت موعداً عند طبيب الأسنان. تمشيت في «تشلسيا»، مسروراً بعودتي، وبمشاهدة الأمكنة الأليفة مجدداً. كان الأمر رائعاً في «تشايني واك»، تلك البيوت الصغيرة التي تعجّ بالزهور والتي نقشت على جدران مداخلها أسماء قاطنيها على صفائح معدنية زرقاء. كان الأمر رائعاً ما دمت لا تسمع أصوات المقيمين هناك.

بينما قادني الممرض إلى كرسي طبيب الأسنان وأومأت برأسي شاكراً، قال، بلكنة جنوب إفريقية: «أتتكلم الإنكليزية؟».

«بضع كلمات»، أجبته.

جلت في «سنترال لندن» ورأيت أن المكان قد تمزق؛ فقد حلّت عمارات جديدة محل تلك القديمة المتعفنة، والجديدة كانت كريهة. موهبة صنع الجمال ضاعت في مكان ما. وكانت البشاعة في الناس أيضاً. اللندنيون بدوا كارهين لبعضهم البعض.

التقيت تيري وتناولت وإياه كأساً، وكان مشغولاً بالتحضير لحلقات إضافية من سلسلة العريف مونتي، ناهيك عن الإضرابات والتظاهرات ودعم مختلف الهجمات. وتحدثنا عن أحوال البلد.

«لعلك لاحظت يا كريم أن إنكلترا وصلت إلى تلك المرحلة. إنها تتمزق. لقد وضعتها المقاومة في حال من الشلل. هزمت الحكومة في الانتخابات أمس. سيكون هناك انتخابات. الدجاجات عائدة إلى البيت لتموت. إما نحن وإما اليمين».

كان تيري تنبأ بأربعين كارثة من أصل عشرين، لكن البلد المتصدع كان في حال غليان: اضرابات، ومسيرات، ومطالبات بزيادة الأجور. «يجب أن نسيطر على البلاد»، قال «الناس يريدون السلطة وسلوك اتجاه جديد». كان مؤمناً أن الثورة على الأبواب، وكان هذا كل ما يعنيه.

في اليوم التالي تكلمت مع المنتجين ومدير اختيار الممثلين، في المسلسل التلفزيوني الذين يفكرون بإشراكي به. كان عليّ أن أقابلهم في مكتب استأجروه لأسبوع في «سوهو». لكنني لم أكن راغباً بمقابلتهم، مع أنني عدت من أميركا لهذا الغرض. كان بايك يولي فنه عناية فائقة، لا شيء رديئاً يصعد إلى خشبته؛ كل حياته ارتبطت بنوعية ما يقدمه. لكن خمس دقائق مع أولئك الأشخاص كانت كافية لأدرك أنهم حثالة من المبتدئين ذوي السترات الرديئة. وراحوا يحدثونني عن برنامجهم كما لو أنهم ينتجون مسرحية لسوفوكليس. ثم طلبوا مني أن أرتجل في المكتب مع ممثلين رثين اختيرا ضمن طاقم الممثلين، في ديكور مرتجل يفترض أن يمثل متجر سمك وبطاطس، مشهداً يحدث فيه شجار حول قطعة من سمك القدّ، وينتهي الأمر بأن ينسكب الزيت الحار على ذراع أحدهم. كانوا حفنة من الأشخاص المضجرين، الذين سأضطر إلى مخالطتهم لأشهر إذا ما حصلت على الدور.

غادرت في النهاية. وعدت إلى شقة «السمكة»، التي كنت استعرتها منه، وهي شقة بلا أي طابع شخصي، لكنها مريحة، وتشبه غرف الفندق إلى حدّ ما: وقبعت هناك، محاولاً أن أقرّر إذا كان يفترض بي أن أوضب أمتعتي وأنتقل نهائياً إلى نيويورك وأعمل لدى تشارلي، حين رنّ الهاتف. وقالت لي وكيلة أعمالي «لدي أخبار طيبة، لقد اتصلوا وقالوا إنك حصلت على الدور».

«هذا جيد».

«إنه الأفضل».

لكن تطلب الأمر يومين حتى تتضح بالضبط ماهية العرض. لقد أسند إلي دور في مسلسل تلفزيوني جديد يتطرق للقضايا الاجتماعية الراهنة كالإجهاض، والعنصرية، وغيرها من قضايا يعيشها الناس لكنها لا تعرض على التلفزيون. وإذا ما قبلت بالعَرض فسألعب دور تلميذ متمرد ابن بقال هندي. ويفترض أن الملايين سيشاهدون هذا البرنامج، وسأكسب الكثير من المال، وسأصبح مشهوراً في أرجاء البلاد. ستتغير حياتي بين ليلة وضحاها.

حين تيقّنت من حصولي على الدور، وقبلته، قررت أن أزور أبي وإيفا حاملاً لهما هذا الخبر، واستغرقت ساعة وأنا أفكر ماذا أرتدي، وتأملت نفسي مرات عدة من مختلف الزوايا أمام أربع مرايا، خلال اللبس وبعده. لم أرد أن أبدو مثل موظف في مصرف، لكن أيضاً لم أرد أن تظهر عليّ آثار التعاسة والإحباط السابقين. ارتديتُ سترة كشمير سوداء، وبنطالاً رمادياً من القماش المتني السميك الذي لا يتجعّد، وانتعلت حذاء جلدياً أسود.

عند مدخل منزل أبي وإيفا صادفت شخصين يخرجان من سيارة أجرة. شاب بشعر «سبايكي» يحمل حقائب فيها عدة تصوير ومصباح

إضاءة ضخم، وامرأة أربعينية أنيقة تعتمر ممطراً حليبياً فاخراً. وقد تضايقت المرأة حين لوح لي الرجل، بينما أصعد الدرجات لأرن على جرس إيڤا، سائلاً «هل أنت مدير أعمال تشارلي هيرو؟».

«أنا شقيقه»، أجبت.

فتحت إيڤا الباب، وارتبكت لوهلة حين رأتنا نحن الثلاثة نصل معاً. وفي البداية لم تعرفني: لابدّ من أنني تغيرت، وإن لم أعرف كيف. بدوت بالتأكيد أكبر سناً. طلبت مني إيڤا أن أنتظرها في الصالة لدقيقة. فوقفت هناك، أقلب في البريد، مفكراً أنني أخطأت بمغادرة أميركا. سأرفض الدور وأعود. حين رحبت إيڤا بالزائرين وأجلستهما، عادت إلي، مادة ذراعيها، وقبلتني وعانقتني.

«من الرائع رؤيتك ثانية يا إيڤا. لا تعرفين كم اشتقت إليك».

«لماذا تتحدث بهذه الرسمية؟»، قالت، «هل نسيت كيف تخاطب أفراد عائلتك؟».

«أشعر أنني غريب بعض الشيء يا إيڤا».

«لا بأس يا حبي، أفهم».

«أعرف أنك تفهمين ولهذا السبب عدت».

«سيسرّ أباك برؤيتك... لقد افتقدك أكثر مما يفتقد واحدنا الآخر. أترى، يفطر قلبه أن تكون بعيداً عنه. لكنني طمأنته بأن تشارلي يعتني بك».

«وهل أراحه ذلك؟».

«لا. هل تشارلي مدمن على الهيروين؟».

«كيف تطرحين مثل هذه الأسئلة يا إيڤا؟».

«قل لي بصراحة».

«لا»، أجبت «إيڤا ما الذي يجري؟ من هذان السخيفان؟».

أخفضت صوتها «ليس الآن، سيجريان معي مقابلة لمجلة «فرنيشينغ». أريد أن أبيع هذا البيت وأنتقل. سيلتقطان بعض الصور ويتحدثان إلي. لماذا جئت اليوم دون سائر الأيام؟».

«أي يوم كنت تفضلين؟».

«كف عن هذا»، أنذرتني «أنت ابننا المحبوب، فلا تفسد الأمر».

ساقتني إلى الغرفة التي كنت أنام فيها على الأرض. وكان المصور يفتح حقائبه. صدمت برؤية أبي الذي نهض ليعانقني. «مرحباً يا فتى»، قال. كان يضع وشاحاً أبيض سميكاً حول عنقه، فيبدو وجهه مكبوساً. «رقبتي تؤلمني باستمرار»، شرح مكشراً، «هذه المنشفة الصحية تخفف الضغط عن أعصابي، إنها تضغط نزولاً إلى أسفل عمودي الفقري».

فكرت كيف، حين كنت فتى، كان أبي يسبقني دائماً حين نتسابق في الحديقة إلى بركة السباحة، وكيف كان يثبّتني دائماً حين نلعب المصارعة، ويقعد على صدري، ويرغمني على التعهد بالطاعة الدائمة. وها هو الآن لا يستطيع الإتيان بحركة من دون أن يتألم، صرت القوي بيننا؛ بات مستحيلاً أن أتعارك معه ـ وكنت أحب ذلك ـ من دون أن أقضي عليه بضربة واحدة. كانت خيبة أمل محزنة.

وعلى النقيض منه بدت إيڤا نشيطة وحيوية، بتنورتها القصيرة، وجوربيها الأسودين وحذائها المسطح. كان شعرها مقصوصاً ومصبوغاً، وعطرها جميلاً. لم يعد للضواحي من أثر فيها؛ لقد تفوقت على نفسها لتصبح امرأة أربعينية رائعة، ذكية وبهية. أجل، لطالما أحببتها، وليس كزوجة أبي فقط. لطالما.شغفت بها، ولا أزال.

ساقتني معها، ممسكة بيدي، وهي تجول بالصحافية في الشقة.

«تعال وانظر ماذا فعلنا»، قالت لي. «وحاول أن تعجبك أيها الفتى الساخر».

أعجبتني الشقة حقاً. بدت أكبر من حجمها السابق، بعد إضافة العديد من الغرف، بالاستفادة من الرواق الواسع، وفتح الغرف على بعضها. لقد عملت بكدّ هي وتيد.

«كما ترين إنه أنثوي جداً وفقاً للتقاليد الإنكليزية»، قالت للصحافية ونحن ننظر إلى السجادات القشدية، ولوحات زهور الغاردينيا، والمزاليج الخشب، والكنب الإنكليزي ريفي الطابع والطاولات الخيزران. كان هناك سلال من الزهور المجففة في المطبخ وسجادة بلون جوز الهند على الأرض. «إنها ناعمة لكن ليست وبريّة»، مضت قائلة «ليس أن هذا هو المفضل لدي».

«أفهمك»، ردت الصحافية.

«شخصياً أفضل شيئاً أكثر يابانية».

«الياباني، إيه؟».

«لكنني أحب أن أجرّب أنماطاً عدة».

«مثل مصففة شعر ماهرة»، قالت الصحافية. لم تستطع إيفا أن تكبح نفسها، وحدجت الصحافية بعنف، قبل أن تعيد مسحة الهدوء إلى وجهها، مقهقهة.

أعاد المصور ترتيب الأثاث والتقط صوراً للأغراض في غير مواضعها، وصوّر إيفا في وضعيات وجدتها غير مريحة وبدت فيها غير طبيعية، داسة أصابعها في شعرها عشرات المرات، ومبوزة وفاتحة عينيها على وسعيهما كأنهما ثبتتا كذلك. وراحت تشرح للصحافية كيف حوّلت الشقة من حالها البائسة إلى هذا المثال حول الاستخدام الخلاق

للمساحة. أظهرت الأمر شبيهاً ببناء نوتردام. لم تقل إنها تنوي عرض الشقة للبيع ما إن يصدر المقال، وأنها تريد استغلال المقالة للحصول على سعر أعلى. وحين سألتها الصحافية: «وما هي فلسفتك في الحياة؟»، تصرفت إيڤا كما لو أنها كانت تتوقع بالضبط هذا السؤال في سياق نقاش الديكور الداخلي.

«فلسفتي في الحياة».

نظرت إيڤا إلى أبي. سؤال كهذا يمكن أن يشكّل عادة عذراً له ليتحدث ساعة عن التاوية وعلاقتها بالزن. لكنه اكتفى بالصمت، وأشاح بوجهه بعيداً. إيڤا مضت وجلست قربه على ذراع الكنبة، وبإشارة متعاطفة وغير شخصية في آن، ربتت على خده. كان ذلك حنوناً. نظرت إليه بحب. كانت دائماً تسعى إلى إرضائه. لا تزال تحبه، فكرت. وكنت مسروراً أن ثمة من يعتني به. لكنني تساءلت: هل يحبها هو؟ لم أكن أكيداً. سأراقبهما لأرى.

كانت إيڤا واثقة بنفسها وفخورة وهادئة. كان لديها الكثير لتقوله؛ فقد فكرت في الأمور مراراً خلال سنوات، حتى بدأت الأفكار تتناغم في عقلها. كان لديها نظرة عالمية، رغم أن «المثال الذي يحتذى به»، كان تعبيرها المفضل.

«قبل أن ألتقي هذا الرجل»، قالت «لم تكن لدي الشجاعة وكنت قليلة الثقة بالنفس. أصبت بالسرطان، وأزيل أحد نهدي. نادراً ما أتكلم عن الأمر». أومأت الصحافية برأسها، محترمة هذه الثقة. «لكنني أريد أن أعيش، والآن لدي عقود في الدرج لإنجاز مشاريع عدة. صرت أشعر أنني قادرة على فعل كل شيء، بمساعدة تقنيات مثل التأمل، الوعي الذاتي واليوغا. وربما بعض الغناء لإدخال بعض السكينة إلى العقل. أترين، صرت مؤمنة بمساعدة الذات، وبالمبادرة الفردية، وبأن

يعمل الشخص في مجال يحبه، وبالتطور الكامل لكل الأفراد. دائماً أشعر بخيبة الأمل من قلة ما نتوقعه من أنفسنا ومن العالم».

نظرت بحدة إلى المصور. بدّل جلسته. فتح فمه وأقفله مرتين. كاد يتكلم. هل كانت تخاطبه؟ هل هو الذي يتوقع القليل من نفسه؟ لكنها تابعت.

«علينا أن نقوّي أنفسنا. أنظري إلى أولئك الناس الذين يعيشون في بيوت رثة، منتظرين من الآخرين ـ من الحكومة ـ ان تفعل لهم كل شيء. إنهم نصف بشر فحسب، لأنهم نصف فعالين. علينا أن نجد طرقاً لكي نساعدهم على التطور. الازدهار الإنساني الفردي ليس شيئاً توفره الاشتراكية أو السياسات المحافظة».

أومأت الصحافية لإيفا. وابتسمت الأخيرة لها. لكنها لم تكن انتهت؛ المزيد من الأفكار كان يتدفق. لم تتحدث هكذا من قبل، ليس بهذا الوضوح. كان الشريط شغالاً. المصور مال إلى الأمام وهمس في أذن الصحافية، «لا تنسي أن تسأليها عن هيرو».

«لا تعليق حول هذا»، قالت إيفا. أرادت أن تتابع. سخف السؤال لم يستفزها: أرادت فحسب أن تستمر في تطوير فكرتها التي كانت أول المتفاجئين لها. «أظن أنني. . .»، شرعت تقول.

وما إن همت بالكلام، حتى أمالت الصحافية نفسها نحو أبي. «لقد سمعتَ هذا الإطراء يا سيدي، أمن تعليق؟ هل تعني لك هذه الفلسفة الكثير؟».

وددت أن تستحوذ إيفا على النقاش. ففي نهاية الأمر كان أبي غالباً مدعياً، وطاغية منزلياً صغيراً، وقد أذلني مرات كثيرة في طفولتي، بحيث شعرت أنه من المفيد له أن يكون في هذا الوضع. على أي حال لم يوفر لي الأمر المتعة المتوخاة. لم يكن أبي منطلقاً اليوم، ولا استعراضياً حتى. وجعل يتحدث ببطء، ناظراً مباشرة إلى الصحافية.

«لقد عشت في الغرب معظم حياتي، وسأموت هنا، ومع ذلك لا أزال في صميمي هندياً. ولن أكون إلا هندياً. أيام شبابي كنا نرى الإنكليزي كائناً متفوقاً».

«أحقاً؟»، قالت الصحافية، ببعض الغبطة.

«آه أجل»، قال أبي، «وكنا نسخر منه أمام وجهه الأبيض. لكننا كنا نرى أن ما أنجزه كان عظيماً. وهذا المجتمع الذي خلقتموه في الغرب هو الأغنى في تاريخ العالم. هناك مال، أجل، وهناك المغاسل. وهناك السيطرة على الطبيعة والعالم الثالث. هناك سيطرة على كل شيء. والعلم هو الأكثر تقدماً. لديكم القنابل التي تحتاجون إليها للشعور بالأمان. ومع ذلك فهناك شيء مفقود».

«ما هو؟»، استفسرت الصحافية، بحبور أقل من السابق. «أخبرنا رجاء ما الذي ينقصنا؟».

«أترين يا آنسة لم يحدث أي تعميق للثقافة، ولا مراكمة للحكمة، ولا زيادة في طرق الروح. هناك الجسم والعقل، بالتأكيد. نحن نعرف ذلك. لكن هناك الروح أيضاً».

نمّت عن المصور إشارة احتجاج. فأسكتته المصورة، لكنه قال «أياً كان ما تعنيه بكلامك هذا..».

«أياً كان ما أعنيه»، قال أبي، وعيناه تقدحان شراً.

نظرت الصحافية إلى المصور. لم تعاتبه؛ فقط رغبت بالرحيل. لا شيء من هذا الكلام سينشر في المقال، وهما يضيعان وقتها.

«ما جدوى مناقشة الروح حتى؟»، قال المصور.

تابع أبي «هذا الفشل، هذا الثقب الكبير في نمط الحياة، يهزمني. لكنه في النهاية سيهزمك».

وصمت بعدها. ورحت وإيفا ننظر إليه بترقّب، لكنه فرغ من الكلام. أطفأت الصحافية آلة التسجيل ووضعت الأشرطة في حقيبة يدها. قالت «إيفا أخبريني من أينَ جئت بهذا الكرسي الرائع».

«هل جلس عليه تشارلي؟»، أضاف المصور. كان الآن مربكاً، وحانقاً على أبي.

ثم وقفا. «أخشى أنه آن أوان الرحيل، واتجهت بسرعة إلى الباب. وقبل أن تصل إليه انفتح، ودخل العم تيد، بأنفاس مقطوعة وعينين جاحظتين. «إلى أين أنت ذاهبة؟»، سأل الصحافية التي نظرت بارتباك إلى هذا المجنون الأصلع الذي يرتدي بذلة عسكرية ويحمل رزمة من البيرة.

«إلى هامبستيد».

«هامبتسيد؟»، سألها تيد. وطرق على ساعته المضادة للماء. «لم أتأخر، ربما قليلاً. فزوجتي هوت على السلم وجرحت نفسها».

«هل هي بخير؟»، سألته إيفا باهتمام.

«إنها في حالة سيئة فعلاً». جلس تيد ونظر نحونا جميعاً مومئاً لي ومخاطباً الصحافية. كان بؤسه جلياً، ولم يكن خجلاً به. قال «أشفق على زوجتي جين».

«تيد»، حاولت إيفا مقاطعته.

«إنها تستحق كل الشفقة »، قال.

«حقاً؟، قالت الصحافية.

«أجل، أجل! كيف وصلنا إلى هنا؟ كيف حصل هذا؟ ذات يوم كنا أطفالاً. ووجوهنا بهية ومنفتحة. ونريد أن نعرف كيف تعمل الآلات. ونحب الدببة القطبية. واليوم التالي نتدحرج على السلالم، سكرانين،

ونبكي. انتهت حياتنا. بتنا نكره الحياة ونكره الموت». التفت إلى المصور. «إيڤا قالت إنك تريد أن تصورنا معاً، أنا شريكها. نفعل كل شيء معاً. ألا تريد أن تسألني عن طريقتي في العمل؟ إنها فريدة من نوعها. يمكن أن تكون مثالاً للآخرين».

«من المؤسف علينا الذهاب»، قال المتهكم اللعين.

«ولا يهمك»، قالت إيڤا لامسة برقة كتف تيد.

«يا لك من مغفل يا تيد»، قال أبي، ضاحكاً عليه.

«لا لست كذلك»، أجاب تيد بحزم. كان يعرف أنه ليس مغفلاً؛ لا أحد يستطيع إقناعه بذلك.

سر العم تيد برؤيتي، وأنا أيضاً. كان لدينا الكثير لنقوله لبعضنا. لم يعد محبطاً؛ وعاد إلى سابق عهده، كما عرفته منذ طفولتي، متحمساً ومرحاً. لكن زالت الشراسة، الطريقة التي كان ينظر فيها إلى أي شخص أول ما يراه، كما لو أنه يريد أذيته، وهو مضطر إلى أذيته قبلاً.

«أنا أحب عملي يا بني»، قال «كان يمكنني ان أتحدث عنه إلى الصحيفة. كنت نصف مجنون، أتذكر؟ إيڤا أنقذتني».

«أبي أنقذك».

«أريد أن أنقذ أناساً آخرين من عيش حيوات زائفة. هل تعيش حياة زائفة يا قشطة؟».

«أجل»، أجبته.

«مهما فعلت، لا تكذب على نفسك، لا تفعل...».

عادت إيڤا وقالت له «يجب أن نذهب».

أومأ تيد لأبي. «أحتاج إلى التكلم يا هارون، أحتاج إلى أن تسمعني، موافق؟».

«لا»، قالت إيفا، «هناك عمل ينتظرنا، هيا بنا».

ذهب إيفا وتيد لمناقشة عمل ما مع زبون في «تشلسيا»: «فلنحتس البيرة معاً لاحقاً هذا الأسبوع»، قال لي.

بعد ذهابهما طلب مني أبي أن أصنع له الجبنة بالتوست. «لكن لا تجعلها تسيح كثيراً»، قال.

«ألم تأكل بعد؟».

كان هذا كل ما يحتاج إليه ليحكي، «إيفا ما عادت تهتم بي. إنها مشغولة جداً. لن أعتاد على عمل المرأة الجديد هذا. أحياناً أكرهها. اعرف أنه لا يجدر بي أن أقول هذا. لا أستطيع أن أحتملها قربي وأكره حين لا تكون هنا. لم أشعر هكذا من قبل. ما الذي يحدث لي؟».

«لا تسأل يا أبتاه».

لم أرد أن أتركه لكنني كنت اتفقت مع أمي على زيارتها. «يجب أن أذهب»، قلت.

«اسمع خبراً واحداً بعد».

«ما هو؟».

«سأترك عملي. قدّمت استقالتي. لقد أهدرت سنوات في هذه الوظيفة». ولوح بيديه، «الآن سأعلّم وأفكر وأسمع. أريد أن أناقش كيف نعيش حياتنا، ما هي قيمنا، أي أناس صرنا وأي أشخاص نستطيع أن نكون إذا أردنا ذلك. أريد تشجيع الناس على التفكير، على التأمل، على أن يتخلوا ببساطة عن مخاوفهم. أي مدرسة يمكن أن تعلّم مثل هذا التأمل القيّم؟ أريد مساعدة الآخرين على التأمل في الحكمة الأعمق داخل ذواتهم، وهي المخفية غالباً في حمى الحياة اليومية. أريد أن أعيش حياتي بكثافة! جيد، إيه؟».

«هذا أفضل ما سمعتك تقوله»، أجبت بلطف.

«ألا تظن ذلك؟». كان متحمساً. «أي أحلام يقظة تراودني مؤخراً. لحظات تختفي فيها كل التناقضات. أي حدس بالحياة الأعمق! ألا تظن أنه يجدر أن تكون فسحة للأرواح الحرة من أمثالي، حكماء عجائز وحمقى من أمثال معلمي الصوفية والزن، يطوفون نشوانين مناقشين الفلسفة، والبسايكولوجي وكيف نعيش؟ لقد حجبنا أعيننا عن الواقع باكراً يا كريم. لكن عقولنا أغنى وأوسع مما نتخيل! سأعلّم هذه الأمور الجلية للشباب الذين خسروا ذواتهم».

«رائع».

«هذا هو معنى حياتي يا كريم».

ارتديت سترتي ورحلت. وظل ينظر إلي وأنا أمشي في الشارع؛ وكنت واثقاً من أنه لا يزال يكلمني. ركبت الحافلة إلى «ساوث لندن». كنت متوتراً. في البيت وجدت علياً يرتدي ملابسه على إيقاع أغنيات كول بورتر، «أمي ليست هنا»، أخبرني. لم تكن قد عادت بعد من مركز الرعاية الصحي حيث تعمل الآن موظفة استقبال لثلاثة أطباء.

رأيت كم أصبح أنيقاً، علي الصغير هذا. ثيابه كانت إيطالية ولا تشوبها شائبة، جريئة ومبهرجة من دون أن تكون مبتذلة: السحابات مناسبة، الدرز مستقيمة، والجوارب ممتازة - يمكنك دائماً أن تعرف مدى اناقة شخص من جوربيه. لم يبد حتى نافراً وهو جالس هناك على كنبة أمي من الجلد المقلّد، وأمامه الحشية المستديرة المزينة بالزهور، وحذاؤه على سجادة أمي الأوكسفام أشبه بالمجوهرات على ورق تواليت. بعض الأشخاص يجيدون فعل الأشياء، وكنت سعيداً برؤية أخي واحداً منهم. كان يجني المال أيضاً، من عمله لدى مصمم أزياء. تحادثنا كالبالغين؛ كان علينا ذلك. لكننا كنا خجلين وإلى حدّ ما

محرجين في الوقت عينه. وقد تغير موقف علي الساخر حين أخبرته عن المسلسل التلفزيوني. لم أضخم الأمر كثيراً: تحدثت عنه كما لو أنني أقدّم خدمة باشتراكي بهذا البرنامج. فراح علي يقفز ويصفق. «هذا عظيم! هذا رائع. أحسنت يا كريم!». لم أفهم الأمر: ظل يتكلم على الأمر كما لو أنه يعني شيئاً.

«ليس من صفاتك أن تكون متعاطفاً إلى هذا الحدّ»، قلت متشككاً حين أنهى اتصالاً بأصدقائه ليخبرهم عن عملي «ما الذي حصل لعقلك يا علي؟ هل تسخر مني؟».

«لا، لا، بصدق. تلك المسرحية الأخيرة التي مثلت فيها، التي من إخراج بايك، كانت جيدة، وحتى أنها مسلية في مشهد أو اثنين».

«أحقا؟».

صمت، ربما خشية من أن مديحه كان دافئاً أكثر من اللازم. «كانت جيدة، لكن هبية».

«هبية؟ ما الهبي فيها؟».

«كانت مثالية. والسياسة فيها أزعجتني. نحن جميعاً نكره اليساريين المتذمرين، أليس كذلك؟».

«أنكرههم حقاً؟ لماذا؟».

«آه، ثيابهم تشبه الأسمال. وأكره الناس الذين يظلون يتأففون لأنهم سود، وكم كانوا مضطهدين في المدرسة، وكيف بصق أحدهم عليهم ذات مرة.. أنت تعرف، هذه الشفقة على الذات».

«ألا يجدر بهم ذلك؟ أعني ألا نتحدث نحن عن هذه الأشياء؟».

«نتحدث عن ذلك؟ يا إلهي لا». من الواضح أنه يحب هذا الموضوع. «ينبغي أن يصمتوا ويمضوا بحياتهم. على الأقل السود

لديهم تاريخ من العبودية. والهنود طردوا من أوغندا. هناك سبب للإحساس بالمرارة. لكن لا أحد وضع أشخاصاً مثلي ومثلك في المعسكرات، ولا أحد سيفعل. لا يمكن أن نحشر معهم والحمد لله. ينبغي أن نكون ممتنين لأن بشرتنا ليست بيضاء أيضاً. لا أحب منظر الجلد الأبيض، إنه...».

«علي زرت أمس طبيب أسنان كان...».

«يا قشطة، فلنضع موضوع أسنانك جانباً لدقيقة و...».

«علي...».

«فلنقل إننا نتحدر من مرتبة اجتماعية عالية. لا يمكننا الزعم إننا مضطهدون. لنحاول فعل أفضل ما يمكن بحيواتنا فحسب». نظر إلي كواعظ يخبرك ألا تحبط نفسك. أحببته الآن؛ رغبت بمعرفه أكثر؛ لكن الأمور التي كان يقولها كانت غريبة. «لذا مبروك، أيها الأخ الأكبر. مسلسل تلفزيوني، هذا أمر يستحق أن تفرح من أجله. التلفزيون هو الوسيلة الإعلامية الوحيدة التي أحبها».

قطبت جبيني.

«كريم، أنا أكره المسرح أكثر مما أكره الأوبرا.. إنه...». وراح يبحث عن الكلمة الخطأ. «وهمي جداً... لكن اسمع يا قشطة، هناك أمر يجب أن تعرفه عن أمي».

نظرت إليه كما لو أنه سيقول إنها مصابة بالسرطان أو ما شابه. «منذ طلاقهما كانت تواعد رجلاً. اسمه جيمي. علاقتهما مستمرة منذ نحو أربعة أشهر. إنها صدمة كبيرة، حسناً، أعرف هذا. لكن علينا أن نتقبل الأمر وألا نغضب، إذا كان يمكن ذلك».

«علي...».

جلس هناك بكل رواق. «لا تطرح عليّ الكثير من الأسئلة يا كريم. لا أستطيع أن أخبرك شيئاً عنه لأنني لم أقابله وليس مسموحاً لي بذلك».

«لماذا؟».

«ولا مسموح لك أيضاً، حسناً؟ لقد رأى جيمي صورنا ونحن بسن العاشرة، لا أكبر من ذلك. جيمي لا يعرف سن أمي الحقيقي. وهي تعتقد أنه سيصدم وتخبو مشاعره نحوها إذا اكتشف أنه لديها ولدان بسنينا. لذا علينا أن نبقي هذا ملفاً سرياً».

«يا إلهي يا علي».

«ها قد بدأت».

تنهدت «هذا جيد لها. إنها تستحق ذلك».

«جيمي لا بأس به. إنه رجل محترم، موظف، ولا بأس به». ثم التمعت عيناه مجدداً بنظرة الإعجاب تلك، وصفّر «مسلسل تلفزيوني إيه؟ هذا راق».

«أنت تعلم»، قلت «بعد انفصال أبي وامي كل شيء صار مجنوناً. لم أعرف أين أنا».

راح ينظر إلي. وشعرت بالذنب لأنني لم أناقش معه مشاعره حول هذا الأمر. «لا تتكلم على هذا الآن»، قال «أنا أيضاً لا أستطيع تقبله. أعرف جيداً ما الذي تعنيه».

ابتسم إبتسامة مطمئنة.

«حسناً».

ثم مال إلى الأمام وقال بغلّ «لا أرى أبي. حين أشتاق إليه أكلمه عبر الهاتف. لا وقت لدي لأناس يهجرون زوجاتهم وأولادهم، لست

ألومك لذهابك معه، لقد كنت صغيراً. لكن أبي كان أنانياً. وماذا عن مسألة استقالته من العمل؟ ألا تظن أنه مجنون؟ سيصبح بلا مدخول. وستضطر إيڤا إلى إعالته، وبالتالي إلى إعالة أمي. أليس هذا عجيباً؟ وأمي تكرهها. سنكون كلنا طفيليات عليها!».

«علي...».

«ما الذي سيفعله، القديس فرانسيس الأزيزي، يناقش أمور الحياة والموت والزواج، التي هو خبير عالمي بها، مع أغبياء يحسبونه عجوزاً مدعياً ومغفلاً؟ يا إلهي يا كريم، ما الذي يحدث للناس حين يشيخون؟».

«ألا تفهم شيئاً؟».

«أفهم ماذا؟».

«آه يا علي، كم يمكن أن تكون غبياً؟ ألا ترى كيف تحدث الأشياء؟».

بدا متأذياً ومحبطاً عندها: لم يكن صعباً فعل هذا به، كان عديم الثقة بنفسه. لم أعرف كيف أعتذر منه، وأن نرجع إلى انسجامنا السابق.

تمتم: «لكنني لم أنظر إلى الأمر من زاوية أخرى».

عندها سمعت دوران مفتاح في الباب. صوت جديد، ومع ذلك كنت لسنوات أسمعه يومياً حين كانت أمي ترجع إلى البيت من متجر الأحذية لكي تعد لنا الشاي. وها هي الآن. تقدمت منها وعانقتها. وبدت مسرورة لرؤيتي، لكن ليس كثيراً، بعد إن تأكدت من أنني لم أمت، وأنني أعمل. كانت مستعجلة. «سيأتي صديق لاحقاً»، قالت بلا خفر. وتغامزنا أنا وعلي. ثم ذهبت لتستحم وتتأنق، ونظفت وعلي غرفة الجلوس. «الأفضل أن ننظف الدرج أيضاً»، قال علي.

استغرقت أمي دهراً لتجهز نفسها، وأشار عليها علي أي مجوهرات تلبس، والحذاء المناسب وما شابه. هذه امرأة لم تعتد أن تستحم أكثر من مرة في الأسبوع. حين انتقلنا أول مرة إلى المنزل، في آخر الخمسينات، لم يكن هناك حمام. وكان أبي يقعد على تنكة أمام الغرفة، وعلي وأنا نركض إليه بمياه سخنت على البوتوغاز.

بقيت وعلي في البيت أطول وقت ممكن لنعذب أمي بفكرة أن جيمي قد يرانا ويكتشف أننا في الأربعين مثلاً. سألتنا، «ألستما ذاهبين إلى أي مكان؟». وحين رن جرس الباب، تجمدت المسكينة. لم أحسب أنها ستمضي إلى هذا الحدّ، لكنها قالت «أنتما الإثنان اخرجا من الباب الخلفي». وقذفت بنا إلى الحديقة وأقفلت الباب وراءنا. فرحنا نتسكع نضحك ونرمي كرة مضرب إلى بعضنا. ثم التففنا إلى مدخل البيت ورحنا نسترق النظر من المربعات السود للنوافذ الجورجية التي ركبتها، والتي جعلت واجهة البيت تبدو مثل الكلمات المتقاطعة.

وهناك كان جيمي، البديل عن أبينا، جالساً هو وأمي على الكنبة. كان رجلاً شديد البياض، إنكليزياً. وكانت مفاجأة لي، إذ توقعت أن أرى هندياً بجوارها، وحين لم أر ذلك خاب أملي منها، كما لو أنها خذلتنا. وكان في نهاية ثلاثيناته، جدي الملامح، ويلبس بذلة رمادية بسيطة. كان من الطبقة الوسطى السفلى مثلنا، لكنه أنيق ويبدو ذكياً، من النوع الذي يعرف كل الممثلين في فيلم لڤنسنت مينيلي، ويشارك في برامج الألعاب التلفزيونية ليثبت ذلك. شرعت أمي بتفتح هدية جلبها لها، حين لمحتنا نتلصص عليها من خلف الستائر الشبكية. فاحمرت خجلاً وذعرت، لكن بغضون ثوان استعادت جأشها وتجاهلتنا. فرحلنا.

لم أرد الذهاب فوراً إلى البيت، فاصطحبني علي إلى ناد جديد في «كوڤنت غاردن»، صمم ديكوراته أحد أصدقائه. كم تغيرت لندن خلال

عشرة أشهر. لا هبيين ولا بانكي: بل الجميع يلبس بأناقة، والرجال شعورهم قصيرة، ويرتدون قمصاناً بيضاء وبناطيل فضفاضة معلقة بحمالات. كان الأمر شبيهاً بأن تكون في غرفة مليئة بأشباه جورج أورويل، سوى أن أورويل كان ليتجنّب قرط الأذن. أخبرني علي أنهم مصممو أزياء، ومصورون فوتوغرافيون، ومصممون غرافيتيون، ومصممو ديكورات متاجر، وهكذا، كانوا شباناً وموهوبين. وكانت خليلة علي عارضة أزياء، فتاة سوداء نحيفة لم تقل شيئاً سوى أن التمثيل في مسلسل تلفزيوني يمكن أن يقود إلى مستقبل أفضل. نظرت حولي لأعثر على فتاة قد تعجبني لكنني كنت مستوحداً جداً فعرفت أنهن سيشتممن ذلك. ولم أكن غير مكترث كفاية بحيث أتمكن من إغواء إحداهن.

ودعت علي وعدت إلى شقة «السمكة» الموحشة. ومكثت هناك فترة؛ متجولاً؛ ومستمعاً إلى أسطوانة كابتن بيفهارت، «درود آوت بوغي»، حتى كادت تفقدني صوابي؛ جلست ثانية؛ ثم خرجت.

جبت الشوارع الليلية ساعة ثم تهت وأوقفت سيارة أجرة. قلت للسائق أن يأخذني إلى ساوث لندن، لكن أولاً، مررت سريعاً بالشقة. وانتظرني السائق بينما صعدت ورحت أبحث في الشقة عن هدية لشانغيز وجميلة. سأتصالح معهما. كنت أحبهما حقاً: سأريهما كم أحبهما بأن أهديهما شرشف طاولة يملكه «السمكة». في الطريق توقفت وأحضرت طعام «تايك أواي» هندي لكي أطيب خاطرهما في حال كانا لا يزالان غاضبين مني. مررت بمتجر الأميرة جيتا، الذي كان مقفلاً. تخيلتها نائمة في الأعلى. وحمدت الله لأنني أحيا حياة مثيرة، قلت لنفسي.

قرعت جرس المنزل الجماعي، وبعد خمس دقائق فتح شانغيز الباب. وكان البيت صامتاً، ولم يكن هناك أي إشارة إلى أن نقاشاً سياسياً يجري. وكان شانغيز يحمل طفلاً.

«إنها الواحدة والنصف فجراً يا يار»، هكذا حياني، بعد كل هذه المدة. ودخل إلى المنزل، وتبعته شاعراً أنني كلب سيتم طرده. في غرفة الجلوس الرثة، بكنبتها القديمة وخزائنها، أراحني أن أرى أن شانغيز لم يتغير، وأنني لن أتلقى منه أي معاملة سيئة. لم يصبح بورجوازياً محترماً لنفسه. كان أنفه متسخاً، ويلبس البذلة المبهدلة نفسها والكتب تنبت من جيوبها العديدة، وشككت، ناظراً إليه عن كثب، أنه ينمّي نهدين أنثويين. «هذه هدية»، قلت، مقدماً الشرشف له «من أميركا».

«صه...»، رد، مشيراً إلى الطفل الملتف ببطانية بين يديه. «هذه ابنة المنزل، ليلى كولنتاي، وقد غفت أخيراً. طفلتنا. إنها شريرة جداً». واشتم الهواء. «هل أشم رائحة تايك أواي».

«بالطبع».

«دال وما إلى ذلك؟ وكباب؟».

«أجل».

«من أفضل مطعم كاري في الزاوية؟».

«بالضبط».

«لكنه برد كثير، افتحه، افتحه».

«انتظر».

فردت شرشف الطاولة وبدأت أزيح مختلف الأوراق، والصحون الوسخة، ورأس لينين عن الطاولة. لكن شانغيز كان تواقاً للمباشرة في الأكل، وأصرّ على أن نفرد شرشف «السمكة» على الأشياء الأخرى. «أنت جائع إيه؟»، سألته وهو يجلس ويخرج علب الطعام من الكيس.

«إنني أعيش على الإعانة الحكومية اللعينة. طوال الوقت آكل

البطاطا، لأنني ما لم أكن حريصاً سيجبرونني على العمل. وكيف يمكنني الاعتناء بليلى كولنتاي إذا عملت؟».

«أين الآخرون؟».

«السيد سايمون، الأب، في أميركا. لقد ذهب منذ فترة، ليحاضر حول تاريخ المستقبل. إنه رجل مهم يا يار، حتى وإن لم تكن تقدّره».

«وجميلة؟»، سألته بتردد. «لقد اشتقت إليها».

«إنها هنا، في أتم الصحة، فوق. لكنها لن تكون سعيدة بالتحدث إليك، لا، لا، لا، لا. سيسرها أن تشوي خصيتيك وتأكلهما مع الفاصولياء. هل ستبقى طويلاً؟».

هزّ رأسه، وناولني ليلى كولنتاي، التي لها وجه مستدير ولون جلدها بلون زيت الزيتون، وأزاح أغطية العلب. وجعل يحشو السبانخ في فمه بأصابعه، بعد رشها بالبهار الأحمر الحار. شانغيز لم يكن يحب أي طعام يمكنه تذوقه.

قلت بخفة «لقد كنت في أميركا، أقدم مسرحية سياسية». ورحت أخبره عما كنت أفعله، متفاخراً بالحفلات التي ذهبت إليها، والأشخاص الذين التقيتهم، والمجلات التي أجرت معي حوارات صحافية. تجاهلني وظل يحشو فمه المنتفخ. وبينما مضيت متكلماً قال فجأة «أنت في وضع خرائي تماماً يا كريم. وما الذي ستفعله بهذا الخصوص؟ جايمي لن تسامحك لأنك لم تشارك في التظاهرة. هذا ما ينبغي أن تقلق بشأنه يا يار».

شعرت باللسعة. صمتنا. بدا شانغيز غير مهتم بكلامي. فاضطررت إلى سؤاله عن أحواله «لابدّ من أنك سعيد، إيه، في غياب سايمون، وأصبحت جميلة لك كل الوقت. هل حصل تقدّم بينكما؟».

«كلنا نتقدّم. هناك امرأة أخرى أصبحت هنا».

«أين؟».

«لا، لا. إنها عشيقة جميلة أيها المغفل».

«جميلة تصاحب امرأة؟ هل أسمعك بشكل صحيح؟».

«بوضوح وبصوت مرتفع، جايمي تحب شخصين، هذا كل ما في الأمر. أمر يسهل فهمه. تحب سايمون، لكنه ليس هنا. تحب جوانا، وجوانا هنا. لقد أخبرتني بذلك».

نظرت إليه متعجباً. كيف يستوعب مثل هذا الأمر، هو الذي طرد من بومباي؟ «كيف تشعر حيال ذلك؟».

«إيه»، لم يكن مرتاحاً. بدا كما لو أنه لا يريد قول المزيد عن الموضوع؛ أقفل الموضوع. هكذا رتب الأمور في عقله، وكان ترتيباً كافياً بالنسبة إليه. «أنا؟ بالتحديد ما هذه الأسئلة التي تطرحها؟»، وكان يمكنه أن يضيف «إذا ما كان ضرورياً أساساً طرح مثل هذه الأسئلة».

قلت «إنني أسألك عن شعورك تجاه هذا يا شانغيز، بالخلفية التي لديك من الأحكام المسبقة عملياً ضدّ العالم برمته، كيف تستوعب فكرة زواجك من سحاقية».

صدمه السؤال أكثر مما حسبت. وكابد بحثاً عن الكلمات. وقال أخيراً، من تحت حاجبيه، «لست كذلك، هل تراني كذلك؟».

الآن أنا صرت مرتبكاً «لا أعرف شيئاً»، قلت «أعتقد أنك قلت إنهما يحبان بعضيهما».

«أجل، الحب! أنا كلي للحب»، أعلن. «كل من في هذا المنزل يحاولون أن يحبوا بعضهم بعضاً».

«حسناً».

«ألا تؤيد الحب؟»، سألني، كما لو أنه يتمنى بصورة نهائية أن يثبّت هذا التفاهم المشترك.

«بلى».

«إذاً؟»، قال «أياً كان ما تفعله جميلة، لا بأس به معي. لست طاغية فاشياً، كما تعلم. ليس لدي أي أحكام مسبقة ضد الباكستانيين، وهذا طبيعي. إذاً ما الذي ترمي إليه يا كريم؟ ما الذي تقصده...».

في تلك اللحظة فتح الباب ودخلت جميلة. بدت أنحل وأكبر سناً، وكان خداها مجوفين قليلاً وعيناها أعمق غوراً، لكن كان ثمة فيها ما هو أرشق وأخف، وأقل جدية؛ بدت تضحك بسهولة أكبر. زكانت ترنّم أغنية «ريغي» ورقصت بضع خطوات نحو ليلى وإلى الخلف. وكان معها فتاة بدت في التاسعة عشرة لكنني خمّنت أنها أكبر سناً، في نهاية عشريناتها، لديها وجه نضر مشرق وصحي. وكان شعرها القصير مخططاً باللون الأزرق، وتلبس قميصاً أحمر وأسود وجينزاً. وبينما رقصت جميلة راحت الفتاة تقهقه وتصفق. قدمتها جميلة لي باسم جوانا، وابتسمت ثم حملقت بي، بطريقة جعلتني أتساءل ما إذا كنت قد اقترفت ذنباً ما.

«مرحباً يا كريم»، قالت جميلة وظلت على مسافة مني بينما ووقفت لأعانقها. حملت ليلى كولنتاي وسألت ما إذا كانت على ما يرام. هدهدت الطفلة وقبلتها. وحين تكلم شانغيز وجايمي أدركت أن هناك نغمة جديدة بينهما. أصغيت باهتمام. ما هي؟ كان الاحترام اللطيف؛ كانا يتخاطبان من دون ازدراء أو ارتياب، كشخصين متساويين. كم تغيرت الأمور!

في الأثناء كانت جوانا تسألني «ألم أرك من قبل؟».

«لا أعتقد أننا التقينا».

«لا، أنت محق، لكنني واثقة من أنني رأيتك في مكان ما».، وظلت ترمقني بذهول.

«إنه ممثل مهم»، تدخلت جميلة «ألست كذلك عزيزي؟».

جوانا لكمت الهواء «وجدتها. شاهدت المسرحية التي مثلت فيها. أحببتها أيضاً. كنت عظيماً فيها، ومضحكاً فعلاً». والتفتت إلى شانغيز، «لقد أحببتها أنت أيضاً، أليس كذلك؟ أتذكر أنك أقنعتني بالذهاب لرؤيتها. قلت لي إنها دقيقة».

«لا، لا أعتقد أنني أحببتها إلى هذا الحدّ»، تمتم شانغيز. «لقد تركت أثراً باهتاً في ذاكرتي. كانت شيئاً يخص البيض، ألم تكن كذلك يا جايمي؟». ونظر شانغيز إلى جميلة كما لو أنه يبحث عن موافقتها، لكنها كانت ترضع الطفلة.

لحسن الحظ لم تخفت حماسة جوانا بكلام هذا الوغد السمين. «لقد أعجبت بأدائك»، قالت.

«ما الذي تفعلينه؟».

«أنا مخرجة سينمائية»، قالت «أنا وجميلة نعدّ فيلماً وثائقياً معاً»، ثم التفتت إلى شانغيز. «سننهار من الجوع أنا وجايمي»، قالت »ألن يكون عظيماً أن نتناول الغريبفروت والتوست مجدداً».

«آه بلى»، قال شانغيز، بانشراح إنما بغضب، وبعينين متوثبتين «لا تقلقي، سيكون هناك منه، لك ولجميلة عند الساعة التاسعة بالتمام».

«شكراً لك».

عندها قبلت جوانا شانغيز. وحين أدارت وجهها، مسح خده. أعطته جميلة ليلى كولنتاي ومدت يدها لجوانا، وخرجتا معاً. نظرت إلى شانغيز. لم يكن ينظر إلي الآن. كان غاضباً؛ راح يحدق حوله ويهزّ رأسه.

«ما المشكلة؟، سألته.

«أنت تجعلني أفكر في الكثير من الأشياء».

«آسف».

«اذهب إلى فوق ونم في الغرفة في نهاية الصالة، عليّ أن أغيّر حفاض ليلى، لقد وسخت نفسها».

شعرت بأنني أكثر تعباً من الصعود إلى أعلى، لذا حين مضى شانغيز تمددت وراء الكنبة، طارحاً بطانية عليّ. كانت الأرض صلبة؛ فلم أستطع النوم. وأحسست بالعالم يتأرجح كعرزال وأنا ممدد فيه. عددت أنفاسي واعياً بنهوض معدتي وانخفاضها، وبهسيس أنفاسي، وباسترخاء جبهتي. لكن كما في العديد من محاولاتي للتأمل، سرعان ما وجدتني أفكر في الجنس وأمور أخرى. كم بدا شانغيز راضياً أخيراً. لم يكن من تذبذب في حبه؛ كان صادقاً ومطلقاً، كان متيقناً من شعوره. وبدت جميلة راضية بأن تُحب هكذا. يمكنها أن تفعل ما تشاء وسيظل شانغيز يضعها أولاً؛ كان يحبها أكثر مما يحب نفسه.

استيقظت برداناً ومنكمشاً، غير أكيد أين أنا. وبدلاً من النهوض بقيت على الأرض. وتناهت أصوات إلى سمعي. كانا شانغيز وجميلة، اللذان كانا الآن في الغرفة يتحدثان منذ وقت بينما تنيّم جميلة طفلتها. كان لديهما الكثير ليقولانه لبعضيهما، مناقشين إخراج ليلى للريح من معدتها، والمنزل، موعد عودة سايمون، وأين سينام، وفيلم جوانا.

عدت إلى النوم. حين أفقت ثانية كانت جميلة تتأهب للنوم. «سأصعد»، قالت «احصل على قسط من النوم أنت أيضاً حبيبي. آه، ولم يعد ثمة حفاضات لليلى».

«أجل، الشريرة الصغيرة وسخت ثيابها كلها أيضاً، سآخذها في الصباح الباكر إلى المغسلة».

«وثيابي؟ هناك القليل فقط. وأغطية جوانا؟ أيمكنك....».

«دعي الأمر للكولونيل شانغيز».

«شكراً لك»، قالت جميلة «كولونيل شانغيز».

«الشيء المهم أنني سعيد بأنك تأكلين جيداً»، قال شانغيز. بدا صوته عالياً وملحناً؛ كان يتكلم بسرعة، كما لو أنه لحظة يقفل فمه سترحل. «سأعدّ لك طعاماً صحياً فحسب من الآن فصاعداً. جميلة فكري: ستجدين أفضل غريبفروت وخبز سخن خاص للإفطار. وأفضل سردين طازج للغذاء مع الخبز الطازج، ثم الجبنة الناعمة والإجّاص».

أضجرها، وعرف أنه أضجرها، لكنه لم يكن قادراً على التوقف. حاولت أن تقاطعه «شانغيز أنا...».

«العمة جيتا تبيع طعاماً جيداً الآن، منذ دللتها على الأنواع الجديدة»، ارتفع صوته «إنها قديمة الطرز، لكنني أقول لها أن تتبع آخر الصيحات التي أكتشفها في المجلات. إنها وهي متحمسة لإرشاداتي. وحين تأخذ ليلى لنزهة في الحديقة أقوم بترتيب المتجر!». كان تقريباً يصرخ. «سوف اضع مرايا لكشف اللصوص!».

«ممتاز يا شانغيز. رجاء لا تصرخ. كان أبي ليفتخر بك، أنت...».

ثم سمعت بعد لحظات جميلة تقول له «ما الذي تفعله؟».

«قلبي يدق»، قال «سأقبلك قبلة تصبحين على خير».

«حسناً».

كانت حركة مكتومة، تبعها تعبير عن الارتياح «تصبح على خير يا شانغيز، شكراً لك لاعتنائك بليلى اليوم».

«قبليني يا جميلة، قبلي شفتي».

«إممم يا شانغيز. . .»، سمعت أصوات حراك جسدي، كان جسد شانغيز يتحرك في الغرفة. وكان الأمر أشبه بالاستماع إلى برنامج إذاعي. هل هو ممسك بها؟ هل تحاول إبعاده عنها؟ هل ينبغي أن أتدخل؟ «شكراً شانغيز، هذا تقبيل كاف، ألم تخدمك شينكو مؤخراً؟».

كان شانغيز يلهث. وتخيلت لسانه يتدلى من فمه؛ كان مثل هذا الجهد يفوق قدرته».

«لقد أقلقني كريم يا جايمي. يجب أن أشرح لك هذا. هذا الوغد الشيطان الصغير. . .».

«ما الذي قاله؟»، سألته جميلة ضاحكة، وأضافت «لديه مشكلات، جميعنا نعرف ذلك. لكنه فتى رقيق أيضاً، أليس كذلك، يداه الصغيرتان تعفّسان، وحاجبيه يهتزان. . .».

«لديه مشكلات شخصية هائلة، أنت محقة تماماً. بدأت أشك في أنه منحرف كلياً أيضاً، وتلك الطريقة التي يحب أن يعانقني، بل يعصرني فيها، كما لو أنني برتقالة؟ أقول له. . .».

«شانغيز لقد تأخر الوقت وأنا. . .».

«أجل، أجل، لكن كريم لمرة قال شيئاً له معنى».

«أحقاً؟».

كان شانغيز يائساً بحيث يقول هذا، لكنه صمت لثوان وحبس أنفاسه، غير متأكد ما إذا كان يرتكب غلطة أم لا. جميلة انتظرته.

«قال إنك سحاقية يا جميلة، لم أستطع أن أصدق ما أسمعه. هراء، أيها الوغد، قلت له. كنت على وشك أن أمحوه عن وجه البسيطة. هذه ليست زوجتي، أليس كذلك؟».

تنهدت جميلة «لم أكن راغبة بإجراء مثل هذا الحديث الآن».

«لا يعقل أن يكون هذا ما تفعلينه مع جوانا، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح، في الوقت الحالي أنا وجوانا مقرّبتان جداً، ومعجبتان جداً ببعضينا».

«معجبتان؟».

«لم أحب أحداً بهذا القدر منذ زمن بعيد. أنا واثقة من أنك تعرف كيف هو الأمر، تلتقي أحدهم وترغب بأن تكون معه، وبأن تعرفه بعمق أكبر. إنه الشغف، على ما أفترض، وهذا رائع. هذا هو شعوري حيالها يا شانغيز. أنا آسفه، إنه...».

صرخ، «ما العيب في زوجك الوحيد هنا والمتوافر دائماً بحيث تصيرين شاذة؟ هل أنا الشخص الوحيد الطبيعي الباقي في إنكلترا الآن؟».

«لا تبدأ بهذا رجاء، أنا متعبة جداً. لقد عرفت السعادة أخيراً. حاول أن تقبل هذا يا فقاعة».

«وأنتم جميعاً في هذا المنزل، أنتم الطيبون، تتحدثون عن الظلم الذي يتعرض له هذا اليديشي وذاك اللص الأسود الوغد، هذا الباكي وتلك المرأة المسكينة...».

«شانغيز هذا موقف عدائي، إنه...».

«لكن ماذا عن الأوغاد الدميمين؟ ماذا عنا؟ ماذا عن حقّنا بأن نتلقى القبل؟».

«أنت تتلقى القبل يا شانغيز».

«بعد دفع الباوندات فقط!».

«رجاء دعنا ننام. هناك كثيرات قد يقبلن بك. لكن ليس أنا، على ما أخشى. ليس أنا. لقد فرضك أبي عليّ».

«أجل، أنا غير مرغوب بي».

«لكنك لست دميماً من الداخل يا شانغيز، إذا ما كنت بحاجة إلى مثل هذه التطمينات».

لم يكن يستمع إليها، وكان أبعد من أن يكون مرهقاً.

«أجل، في الداخل أبدو مثل ساشي كابور، أعرف هذا بالتأكيد»، قال، خابطاً يديه على فخذيه. «لكن بعض الناس فعلاً دميمين ووجوههم كالخنازير، ويعيشون وقتاً رهيباً وكل شيء. سأطلق حملة وطنية لأوقف هذا الظلم. لكن ينبغي أن يبدأ هذا معك، هنا في هذا المنزل الاشتراكي اللعين».

كان هناك المزيد من الجلبة، لكنه كان حفيف الثياب أكثر منه جلبة جسدية هذه المرة. «أنظري»، قال «أنظري، أنظري، ألست رجلاً على الأقل؟».

«آه، استره. لست أقول إنه ليس رائعاً. يا إلهي شانغيز بعض مواقفك نحو النساء تقليدية. عليك أن ترتب أمورك. العالم يتقدّم».

«المسيه، المسيه وإلا».

«دعني أنذرك»، قالت. ولا مرة رفعت صوتها أو أظهرت خوفاً. كانت تهكمية بالطبع، كما هي دائماً، لكن مسيطرة تماماً على الوضع «أي شخص يمكن طرده من هذا المنزل عبر التصويت الديمقراطي. إلى أين ستذهب عندها، إلى بومباي؟».

«جميلة، زوجتي، خذيني»، راح يئن..

«لننظف الطاولة وننقلها إلى المطبخ»، قالت بنعومة «هيا يا كولونيل شانغيز، أنت بحاجة إلى الراحة».

«جميلة أرجوك».

«ولن أسمح بأن تراك جوانا وأنت تلوح بقطعة اللحم هذه. فهي تظن أن جميع الرجال لديهم نزعات اغتصابية، وإذا رأتك هكذا فستتيقن من ظنونها».

«أريد الحب، ساعديني».

مضت جميلة بنبرتها الباردة «إذا رأتك جوانا هكذا...».

«ولماذا تراني؟ فقط على سبيل التغيير فلنعش بضع دقائق ثمينة معاً. أنا لا أرى أبداً زوجتي وحدها».

رحت أتقلّب. هذا التلصص كان يفوق احتمالي. في السابق كان ليسعدني أن أرى شخصين يمارسان الحب معاً، الأرجح أنني شاهدت ذلك أكثر مما مارسته، كنت أجده تثقيفياً، دليلاً على التضامن بين الأصدقاء، وهكذا. لكن الآن، بينما كنت ممدداً وراء الكنبة، عرفت أن عقلي بات يتطلب المزيد ـ أفكاراً أكبر، اهتمامات جديدة. كانت إيڤا محقة؛ نحن لا نطلب الكافي من أنفسنا ومن الحياة. كنت على وشك أن أعلن لهما عن وجودي، حين قالت جميلة فجأة «ما هذه الجلبة؟».

«ماذا؟».

«أخفضت صوتها. «سمعت ما يشبه الضراط وراء الكنبة».

«الضراط؟».

رفعت رأسي من وراء الكنبة. «هذا أنا فحسب»، قلت «كنت أحاول أن أنام، لم أسمع شيئاً».

«أيها الوغد»، قال شانغيز وقد اشتدّ حنقه: «جميلة سأستدعي الشرطة لهذا المتلصّص اللعين! دعيني أطلب ٩٩٩ فوراً!».

كان يرتجف وينفخ ويبصق حتى بعد أن زرّر بنطاله. صرخ «لطالما هزئت من حبي لجميلة. لطالما أردت الحيلولة بيننا».

في الواقع كانت جميلة التي حالت بيني وبين شانغيز لكي تمنعه من التهجم علي. رافقتني إلى أعلى إلى غرفة يمكنني أن أقفل فيها الباب، بمأمن من شانغيز. في الصباح استيقظت باكراً ومشيت على أطراف أصابعي إلى الباب. وفي طريقي إلى الخارج سمعت ليلى كولنتاي تبكي، وشانغيز يكلمها بعذوبة باللغة الأوردية.

بعد بضعة أيام ذهبت لرؤية أبي ثانية. ووجدته هناك على أحد مقاعد إيڤا ببيجامته، مع شاب أبيض على الأرض أمامه. كان الشاب متوتراً، بكّاء، يائساً. وكان أبي يقول له «أجل، أجل، الحياة برمتها بالغة التعقيد».

من الواضح أن هؤلاء الفتيان من صف أبي التأملي يقصدونه دائماً في الشقة، ويضطر إلى التعامل معهم. كان يعتبر ذلك «نشاطاً تعاطفياً». بات يردد الآن أنه من أجل «التناغم»، ينبغي أن يتضمن كل يوم من حياتنا ثلاثة عناصر: الدراسة، والنشاط التعاطفي والتأمل. وكان يدرّس بضع مرات في الأسبوع في مركز مجاور لليوغا. لطالما تخيلت أن مسألة أبي كمرشد روحي ستنتهي في لندن، لكن من الواضح الآن أنه لن يكون أبداً عاطلاً عن العمل، في مدينة تغصّ بالتعساء والوحيدين، وغير الواثقين من أنفسهم، المحتاجين إلى الإرشاد والدعم والشفقة.

إيڤا أخذتني إلى المطبخ لتريني بعض أوعية المرق. اشترت أيضاً لوحة لـ «تايتان» تمثّل شاباً طويل الشعر يشبه تشارلي حين كان في المدرسة. وكان هناك أيضاً أزهار زنبق ونرجس طويلة السيقان، وضعت في مزهريات على الطاولة. «أنا سعيدة جداً»، قالت إيڤا وهي تريني الأشياء «لكن وقتي ضيق. يجب أن يجدوا حلاً لموضوع الموت. إنه من السخف أن يموت المرء صغيراً. أريد أن أعيش حتى المئة والخمسين. لقد بدأت الآن فقط أحقق شيئاً».

لاحقاً، جلست مع أبي. كان ثقيلاً وسميناً الآن، النصف العلوي من وجهه امتلأ بالجيوب المترهلة الملتصقة ببعضها تحت عينيه، وتمتد الواحدة بعد الأخرى كشرفة إيطالية باتجاه خديه.

«لم تخبرني شيئاً عن حياتك»، قال. أردت أن أصدمه بخبر المسلسل التلفزيوني. لكن حين أرغب بأن أصدم الناس عادة لا أنجح؛ وتكون الصدمة آخر ما يشعرون به. «سأشترك في مسلسل تلفزيوني»، قلت مقلداً صوت شانغيز. «أجر رفيع. عمل رفيع. شخص رفيع».

«لا تهزأ مني في وجهي وتضحك كالمغفل»، أجاب أبي.

«لكنني لا أفعل هذا».

«أرى أنك ما زلت كاذباً».

«أبي...».

«على الأقل أنت تفعل شيئاً محدداً في النهاية ولست متبطّلاً»، قال.

احمر وجهي غضباً وإحساساً بالمهانة. لا، لا، لا، أردت أن أصرخ. إننا نسيء فهم بعضنا مجدداً! لكن كان من المستحيل التوضيح. ربما لا تتوقف عن الشعور أنك في الثامنة بحضور والديك. تقرر أن تكون ذاتك البالغة، أن تتصرف بهذه الطريقة المحسوبة بدلاً من تلك العفوية، أن تتنفس بهدوء من معدتك وأن ترى ذويك كمساويين لك، لكن في غضون خمس دقائق تضيع نواياك هباء، وترى نفسك صارخاً مثل طفل حردان.

لم أعد قادراً على التكلم، حتى سألني السؤال الذي كان صعباً جداً عليه ومع ذلك كان الشيء الوحيد في العالم الذي يريد معرفته.

«كيف هي أمك؟»، قال.

أجبته أنها بخير، أفضل مما رأيتها منذ سنوات، رائقة المزاج وحيوية

ومتفائلة. «يا لطف الله»، أجاب بسرعة «كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ لطالما كانت أعذب امرأة في العالم، لكن أكثرهن بؤساً».

«أجل، لكنها تواعد أحدهم، رجلاً، هذه الأيام».

«رجل؟ أي نوع من الرجال؟ هل أنت متأكد؟».

لم يستطع التوقف عن طرح الأسئلة. «من هو؟ كيف شكله؟ كم عمره؟ ماذا يعمل؟».

واخترت كلماتي بعناية. كان عليّ ذلك، إذ لاحظت أن إيڤا وراء أبي، عند المدخل، تقف بشكل اعتيادي، كما لو أننا كنا نناقش أفلامنا المفضلة. لم تتمتع بحسن الذوق بحيث تغض الطرف. أرادت أن تعرف بالضبط ماذا يجري. لم ترد أن يكون هناك أي أسرار ضمن مجالها.

صاحب أمي لم يكن بالمميز، قلت لأبي. على الأقل ليس بتهوڤن. لكنه شاب ويهتم لأمرها. لم يستطع أبي أن يصدق أن الأمر بهذه البساطة؛ لم يرضه كل هذا الكلام. قال «أتظن - وبالطبع أنت لا تعرف هذا، كيف يمكنك أن تعرف، ليس من شأنك، ولا من شأني، لكن ربما تكون قد خمّنت، أو سمعت عن الأمر من علي أو منها، خصوصاً وأن أنفك الضخم يتلصص على شؤون الآخرين بلا توقف - أتظن أنه يقبّلها؟».

«أجل».

«أنت أكيد؟».

«آه أجل، أنا واثق من ذلك. وقد أمدّها بحياة جديدة، لقد فعل حقاً. إنه لأمر رائع أليس كذلك؟».

هذا عملياً دمره في لحظتها. «لا شيء سيعود إلى سابق عهده مجدداً»، قال.

«كيف يمكن ذلك؟».

«أنت لا تعرف عما تتكلم»، قال وأشاح بوجهه عني. ثم رأى إيفا. وبدا خائفاً منها.

«حبي»، قال.

«ما الذي تفعله يا هارون»، قالت بحنق، «كيف يمكنك أن تفكر حتى بهذه الطريقة؟».

«لا أفكر بهذه الطريقة»، أجابها.

«غباء، إنه من الغباء الندم على أي شيء».

«لست نادماً».

«بلى أنت نادم. وترفض حتى الاعتراف بذلك».

«رجاء يا إيفا، ليس الآن».

جلس هناك محاولاً ألا يكترث بأمرها، لكن الإحساس بالخيبة كان يتعمّق. فوجئت بموقفه. هل أدرك الآن فقط، بعد مرور كل هذا الوقت، أن قراره بترك أمي كان مبرماً؟ ربما الآن فقط صدق أنها لم تكن مزحة أو لعبة أو تجربة، وأن أمي لا تنتظر في البيت عودته واضعة الكاري و«التشوباتي» في الفرن، والبطانية الكهربائية شغالة.

تلك الليلة دعوت أبي وإيفا وعلي وصاحبته إلى العشاء للاحتفال بوظيفتي الجديدة وباستقالة أبي من عمله. «يا لها من فكرة جيدة»، قالت إيفا، ربما سأقوم بإعلان مهم عندها أيضاً».

خابرت جايمي في المنزل الجماعي ودعوتها هي وشانغيز للانضمام إلينا. شانغيز أخذ منها السماعة وقال إنه سيأتي إذا استطاع لكنه غير متأكد فيما يخصّ جميلة، بسبب ليلى المزعجة. وعلى أي حال سيكونان خارجاً في مراكز الاقتراع طوال اليوم، متطوعين مع حزب العمال في الانتخابات.

لبسنا، وأقنعت إيڤا أبي بأن يرتدي سترته «النهرو»، التي بلا ياقة ومزررة حتى العنق مثل سترة خنفساء، لكنها أطول فحسب. الندل سيحسبونه سفيراً أو أميراً، أو شيء من هذا القبيل. كانت فخورة جداً به أيضاً، وظلت تنزع الشعر عن بنطاله، وكلما بدا سيء المزاج أكثر لأن كل شيء يجري خطأ، كانت تقبّله أكثر. ركبنا سيارة أجرة إلى أفخم مطعم أعرفه في «سوهو». دفعت ثمن كل شيء بالمال الذي حصلت عليه من مقايضة التذكرة إلى نيويورك.

كان المطعم في الطابق الثالث، بجدران زرقاء، وبيانو يعزف عليه فتى أشقر ببذلة السهرة. كان الناس رائعين؛ كانوا أثرياء؛ كانوا صاخبين. وسرت إيڤا لأنها عرفت أربعة أشخاص من الموجودين، ولوطي أربعيني أحمر الوجه قال لها «إليك عنواني يا إيڤا. تعالي للعشاء الأحد لتري كلابي اللابرادور الأربعة. هل سمعت عن هذا الأمر وذاك؟»، أضاف، ذاكراً مخرجاً سينمائياً مشهوراً. «سيكون حاضراً. وهو يبحث عن شخص يزين له بيته في فرنسا».

حدثته إيڤا عن عملها وكيف أنها تعيد حالياً، تصميم وتزيين منزل ريفي. هي وتيد ستضطر إلى البقاء في الكوخ لمدة. هذا أكبر عمل طلب منهما حتى الآن. ستوظف عدة أشخاص لمساعدتهما، لكنهم سيكونون من النوع «الواعي ذاتياً»، «الواعي ذاتياً لكن ليس المدرك ذاتياً، على ما آمل»، قال اللوطي.

علي الصغير أيضاً عرف بعض الناس، ثلاث عارضات أزياء، انضممن إلى طاولتنا. أقمنا حفلة صغيرة، وفي النهاية بدا ان الجميع في المكان صار يعرف أنني سأصبح ممثلاً تلفزيونياً، وسأصبح رئيس الوزراء المقبل. كان الاحتمال الثاني هو الذي أثار حماستهم خصوصاً. سررت لرؤية أبي وعلي معاً ثانية. قام أبي بجهد خاص معه وظل يقبّله،

ويطرح عليه الأسئلة، لكن علي ظلّ على مسافة منه، كان مرتبكاً جداً، ولم يحب يوماً إيفا.

وأسعدني وصول شانغيز عند منتصف الليل ببذلته المعتادة، وبرفقته شينكو. عانقني وعلي وأبي، وأرانا صور ليلى. لم تكن لتحظى بعم أكثر حناناً من شانغيز. «لو أنك أحضرت جميلة معك»، قلت. شينكو أبدت اهتماماً كبيراً بشانغيز. وتحدثت عن رعايته لليلى وعمله في متجر الأميرة جيتا، بينما تجاهلها وجعل ينهق آراءه المهمة حول ترتيب البضائع في متجر ـ الموقع الصحيح للحلوى في صلتها بالخبز ـ حتى وهي تثني عليه أمام الآخرين.

أكل بنهم وشجعته على تناول طبقين من الآيس كريم جوز الهند، وانقض عليهما كما لو أن أحداً سيخطفهما منه. «اطلبوا ما شئتم»، قلت لهم جميعاً. «أتريدون التحلية، القهوة؟»، بدأت أستمتع بكرمي الخاص. شعرت بمتعة إرضاء الآخرين، خاصة وأن هذا مصحوباً بسلطة المال. كنت أدفع عنهم؛ وكانوا ممتنين، يجدر بهم ذلك؛ لم يعد بإمكانهم أن يعتبرونني شخصاً فاشلاً. رغبت بفعل المزيد من هذا. كان الأمر كما لو أنني اكتشفت فجأة شيئاً أجيده، وأريد ممارسته بلا توقف.

حين أصبح الجميع على الطاولة، وثملين قليلاً ويضحكون، وقفت إيفا وطرقت على الطاولة. كانت تبتسم وتعانق رأس أبي من الخلف، وهي تنتظر أن نصمت. قالت «بعض الهدوء لو سمحتم، رجاء بعض الهدوء. الجميع، رجاء!».

ساد صمت. الجميع نظر إليها. أبي نظر حول الطاولة.

«هناك إعلان أودّ القيام به»، قالت.

«بحق الله أعلنيه»، قال أبي.

«لا أستطيع»، قالت. ومالت إلى أذنه. «ألا يزال صحيحاً؟»، همست.

«قوليها»، قال متجاهلاً السؤال. «إيڤا الجميع ينتظر».

وقفت، ضمت يديها معاً وكانت على وشك أن تتكلم حين التفتت إلى أبي مجدداً، «لا أستطيع يا هارون».

«قوليها، قوليها»، رحنا نشجعها.

«حسناً، استجمعي شجاعتك يا إيڤا. سنتزوج. أجل سنتزوج. لقد التقينا، أغرمنا ببعضنا، والآن سنتزوج بعد شهرين، حسناً؟ أنتم جميعاً مدعوون إلى الزفاف».

جلست إيڤا بسرعة وأحاطها أبي بذراعه. وأخذت تتحدث إليه، ورحنا نهدر استحساناً ونخبط على الطاولة ونسكب المزيد من الشراب. رفعت نخبهما، والجميع حيا وصفق. كان حدثاً عظيماً. بعد هذا كانت ساعات من التهنئة والشرب والكثير من الناس حول طاولتنا بحيث لم أضطر إلى التكلم كثيراً. كان بوسعي التفكير في الماضي وما مررت به وأنا أكابد لأحدد مكاني في العالم وأتعلم ما هو القلب البشري. ربما في المستقبل سأعيش بعمق أكبر.

وهكذا، وجدت نفسي في قلب هذه المدينة القديمة التي أحبها، التي تنام بدورها في قلب جزيرة صغيرة، محاطاً بأناس أحبهم، شاعراً بالسعادة والبؤس في آن، مستذكراً الفوضى الماضية، ومتأملاً أن الأمور لن تظل هكذا على الدوام.



الفهرس

هذا الكتاب

اسمي كريم أمير، وأنا إنكليزي المولد والنشأة، تقريباً. غالباً ما أُعتبر نوعاً غريباً من الإنكليز، نتاج نسل جديد، حصيلة تلاقح تاريخين قديمين. لكن هذا آخر همّي. إنكليزي أنا (ولو لم أكن فخوراً بذلك) من ضواحي ساوث لندن، ومتجه إلى مكان ما. ولعلّه ذلك الخليط الغريب من القارات والأعراق والأمكنة، من الانتماء وعدمه، هو ما كان يجعلني متقلقلاً وملولاً. أو لعلها نشأتي في الضواحي. ولكن لماذا البحث عميقاً في المسألة، حين يكفي القول إنني كنت أسعى وراء المشكلات، وراء أي نوع من الحركة والإثارة والتجارب الجنسية، لأن حياتنا العائلية كانت ـ لسبب أجهله ـ بالغة البطء والكآبة والثقل، وكان ذلك يحبطني، وكنتُ مستعداً لفعل أي شيء.

